

فتح الرطب

عن أبيه

عن أبيه

عن أبيه

عن أبيه

عن أبيه



0024185

Bibliotheca Alexandrina

نفع الطيب

٧

فَتْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ
غَضَنِ الْأَنْدَالِيسِ الرَّطِيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القرني التلياني

ترجمته
الدكتور إسماعيل بن عباس

المجلد السابع

دار صادر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

دار صادر : صندوق بريد ١٠ - بيروت



الباب الخامس

(تمة)

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فنقول :

وأما مَوْسَحَاتِه وأزجاله فكثيرة ، وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن ، كما صرح بذلك قاضي القضاة ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير ، ولنذكر بعض كلامه ، إذ لا يخلو من فائدة زائدة ، قال رحمه الله تعالى ما ملخصه^١ : وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قُطْرهم ، وتهدبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التتميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فتاً منه سَمَوُه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ، يكترون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متالياً فيما بعدُ إلى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددُها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويملحون كما يفعل في القصائد ، وتجاوزوا^٢ في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناسُ وحملوه^٣ الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه ، وكان المخترعُ

١ انظر مقدمة ابن خلدون: ١٣٢٧ وأصل هذا النص نفسه ورد في «المقتطف من أزهار الطرف» لابن

سعيد ، وراجع أزهار الرياض ٢ : ٢٠٨ .

٢ المقدمة : وتجاوزوا .

٣ المقدمة والأزهار : جملة .

لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد الرواني ، وأخذ عنه ذلك ابنُ عبد ربّه صاحب العقد ، ولم يُذكر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صّادح صاحب التريّة ، وقد ذكر الأعلام البطلانيّ أنّه سمع أبا بكر ابن زُهر يقول : كلُّ الوشّاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

يَذُرُ تَمَّ شمس ضُحى غصن نَقَا . مسك شَمَّ
ما أَمَّ ما أَوْضحا ما أَوْزَكا ما أَنمَّ
لا جَرَمَ مَنْ لَحَا قَدَّ عَشِقَا قَدَّ حَرَمَ

وزعموا أنّه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، قالوا : وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول :

العودُ قد تَرَنَّمَ بأبدعِ تلحينٍ وشَقَّتِ المذانبُ رياضَ البساتين
وفي انتهائه حيث يقول :

تَخطِرُ ولم تسلمْ عَسَاكَ المأمون مَرَوَّعَ الكتائبِ يحيى بن ذي النون
ثمّ جاءت الحكّية التي كانت في مدة الملتصّمين فظهرت لهم البدائع ، وفُرسان حلبهم^١ : الأعمى التطلي ، ثمّ يحيى بن بقي ، وللتطلي من الموشحات المذهبة قوله^٢ :

١ المقتطف : وفرسا رمان حلبهم .
٢ ديوان الأعمى : ٢٧٧ .

كَيْفَ السَّيْلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْمَعَالِمِ أَشْجَانُ
وَالرَّكْبُ وَسَطُ الْفَلَاحِ بِالْخُرْدِ التَّوَامِ قَدْ بَانُوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل^١ هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنقَ فيها ، فقدم الأعمى التَّطِيلِيّ للإِنْشَاد ، فلَمَّا افْتَحَ مَوْشِحَتَهُ المشهورة بقوله :

ضاحك عن جُمان سافر عَنْ بَدْرٍ
ضائقَ عَنْهُ الزَّمانَ وَحَوَاهُ صَدْرِي

خَرَّقَ ابنُ بَقي موشحته وتبعه الياقوت^٢ .
وذكر الأعلام البَطْلَيْوْنِي^٣ أَنَّهُ سَمِعَ ابنَ زُهْرٍ يَقُولُ : مَا حَسِلَتْ قَطُّ
وَشاحاً عَلَى قَوْلِ إِلَّا ابنُ بَقي حِينَ وَقَعَ لَهُ^٤ :

أَمَا تَرَى أَحْمَدُ فِي مَجْدِهِ الْعَالِي لَا يُلْحَقُ
أَطْلَعُهُ الْمُعَرَّبُ فَأَرِنَا مِثْلَهُ يَا مَشْرِقَ

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان في عصرهم أيضاً الحكيم أبو بكر ابن باجة صاحب التلاحين المعروفة .
ومن الحكايات المشهورة أَنَّهُ حَضَرَ مَجْلِسَ غُلُومِهِ ابنُ تَيْفُلُوتِ* صَاحِبِ
مَرْكُضَةِ فَأَتَى عَلَيْهِ بَعْضُ مَوْشِحَتِهِ :

١ المقتطف : وسَمِعْتُ غيرَ واحدٍ من الأَندَلِجِ . . . إلخ .

٢ راجع هذه القصة في المجلد ٣ : ٤٠٤ .

٣ المقتطف : ويسمى الأَعلامُ البَطْلَيْوْنِيَّ يَقُولُ . . . إلخ .

٤ انظر هذه الموشحة في ديوان التَّطِيلِيّ : ٢٧٠ - ٢٧٢ وهي في دار الطراز : ٦٣ مضمومة لابن بَقي .

٥ المقتطف : أَنَّهُ لَمَّا أَتَى عَلَى بَعْضِ قَبَائِلِ ابنِ تَيْفُلُوتِ . . . إلخ .

جرّ الزيلَ أيّما جرّ [وصيل السكر منك بالسكر]^١

فطرب المملوح للذك ، وختمها بقوله :

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

قلماً طرق ذلك التلمحين سمع ابن تيفلويت صاح : واطرباه ! وشقّ ثيابه ،
وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشي ابنُ
باجة لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً
في نعله ومشى عليه .

ثم قال ابن خلدون بعد كلام : واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين
محمد بن أبي الفضل بن شرف ، إلى أن قال : وابن هرودس^٢ الذي له :

يا ليلة الوصل والسمود بالله عودي

وابن مؤهل^٣ الذي له :

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب

وانما العيد في التلاقي مع الحبيب

وأبو إسحاق الزويلي^٤ .

١ زيادة من المتصنف .

٢ ترجم له في المغرب (٢ : ٢١٠) وسماه أحمد بن هرودس بتقديم الواو حل الدال ، وكنيته أبو
الحكم ؛ وفي النسخة (٥٤) أنه إبراهيم بن حل بن هرودس ؛ وقال إنه من أهل صحن مرشانة
من عمل المرية وتوفي بمراكش سنة ٥٧٢ هـ ؛ وسماه في التكملة أيضاً إبراهيم (ص : ١٥٤) وأورد
له صاحب المغرب موشحة (٣ : ٢١٥) هي التي أورد هنا مطبوعاً ؛ وأغلب الظن أن الصواب في
نسخه « هرودس » بتقديم الدال وهي لفظة بربرية ترمز إلى الهجولة . والأرجح أن اسمه « أحمد »
لقوله يخاطب أحمد بن عبد الملك بن سعيد « يا سبي » (انظر الفتح ٤ : ٢٠١) .

٣ ذكره في المغرب ٢ : ٣٩٠ باسم « ابن موحد » وأوجه له موشحة وقال إنه غاطبي سكن مرسية
وملح ابن مردقش .

في المقدمة والأزهار : اللويحي ، وما أثبتناه هو ما ورد في المتصنف .

قال ابن سعيد : سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : إنه دخل على ابن زُهر ، وقد أسنَّ ، وعليه زيُّ البادية ، إذ كان يسكن بخصن سبتة ، فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس^١ ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها :

كحلُّ الدجى يجري من مقلةِ الفجرِ على الصباحِ
ومعهمُ النهريُّ في حُلُلٍ خضرٍ من البطاخِ

فتحرك ابن زُهر ، وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اخبر ، قال : ومن تكون ؟ فأخبره ، فقال : ارتفع ، فوالله ما عرفتك .
قال ابن سعيد : وسابقُ الحُكبة التي أدركتُ هو أبو بكر ابن زُهر ، وقد شرقت موشحاته وغربت ، قال : وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : قيل لابن زُهر : لو قيل لك : ما أبدع ما وقع لك في التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما للموتى من سكره لا يُفِيقُ يا له سكران
[مِنْ غَيْرِ خمرٍ ما للكئيبِ المشوقُ يندُبُ الأوطان]
هَلْ تُستَعادُ أَيْامُنَا بِالْخَلِيجِ وَكَيْالِينَا
إِذْ يُسْتَفادُ مِنْ النسيمِ الأريجِ مَسْكُ دَارِينَا
وَإِذْ يَكادُ حَسَنُ الْمَكَانِ الْبَهْجِ أَنْ يُحْيِينَا
نَهْرُ أَظْلَلَهُ دَوَّحَ عَلَيْهِ أُنَيْقُ مُؤَنِّقُ فِينَا
وَالْمَاءُ يَجْرِي وَعَائِمٌ وَغَرِيْقُ مِنْ جَنَى الرِّيحَانِ

واشتهر بعده ابن حيون ، إلى أن قال : وبعد هؤلاء ابن حزمون بمُرسية ، ذكر ابن الراس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه ، فأنشده موشحة لنفسه ، فقال له ابن حزمون : ما الموشح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف ، فقال :

١ المقتطف : فجلس حيث وجد .

على مثل ماذا ؟ فقال : على مثل قولي :

يا هاجري هَلْ إلى الوصالِ مِنْكَ سَبِيلُ
أو هَلْ يرى عَن هَوَاكَ سَالِ قَلْبُ العليلِ

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة ، قال ابن سعيد : كان والذي يعجب بقوله :

إنَّ سَبِيلَ الصِّباحِ في الشَّرْقِ عادَ بَجْراً في أجمعِ الأفقِ
فَتَدَاعَتْ نَوادِبُ الوَرَقِ أتراها خافَتْ من الغرقِ
فَبَكَتْ سَحَرَةً على الورقِ

واشتهر بإشيلية للملك المهدي أبو الحسن ابن الفضل ، قال ابن سعيد عن والده :
سمعت سهل بن مالك يقول له : يا ابن الفضل ، لك على الرُّشَّاحين الفضل ،
بقولك :

واحسرتي لزمان مضى عشيّة بانِ الهوى وانقضى
وأفردتُ بالرغم لا بالرضى وبتُّ على جمرات الغضا
أعاني بالفكر تلك الطلولُ وأنتمُ بالوهم تلك الرسومُ

قال : وسمعت أبا بكر ابن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته
غير ما مرّة فما سمعته يقول « لله درك » إلا في قوله :

قسماً بالهوى لذي حِجْرٍ ما لليل المشوق من فجرٍ
خَمَدَ الصَّبحُ لَيْسَ يطرِدُ
ما لليل فيما أظنُّ غَدُ
صَحَّ يا لَيْلُ أَنْتَ الأبدُ

أو تَقَفَّتْ قِوادمُ النسرِ فنجومُ السماء لا تسري

ومن موشحات ابن الصابوني قوله :

ما حالُ صَبٍّ ذي ضَنْىٍ واكْتئابٍ أَمْرُضُهُ يا وَيْلَتاهُ الطَّيِّبُ
عَامِلُهُ مَحْبُوبُهُ باجْتِئابٍ ثُمَّ اقْتَدَى فِيهِ الْكَرَى بِالْحَيِّبِ
جفا جَعَوْنِي النُّومُ لَكُنْتِي لَمْ أَبْكِهِ إِلَّا لَفَقْدِ الْخِيالِ
وذو الوصالِ الْيَوْمَ قَدْ غَرَّنِي مِنْهُ كَمَا شَاءَ وَشَاءَ الْوَصَالِ
فَلَسْتُ بِاللَّائِمِ مَنْ صَدَّقَنِي بِصُورَةِ الْحَقِّ . وَلَا بِالْمَحَالِ

واشتهر بـير العدوة ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة :

يد الإصباح . قَدْ قَدَحَتْ زَنَادَ الْأَنْوَارِ مِنْ مِجَامِرِ الزَّهْرِ
وإِنْ خَزَرَ الْبِجَالِي ، وَلَهُ مِنْ مَوْشِحَةٍ :

ثَغُرُ الزَّهْمَانِ مُوَافِقٌ حَيْثُكَ مِنْهُ بِابْتِسَامٍ

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبته من بعدها :

هَلْ دَرَى ظَلَمَتِي الْجَمِيَّ أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهْ عَنْ مَكْنَسٍ
فَهُوَ فِي حَرٍّ وَخَفَقَتْ مِثْلَمَا لَمِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ
وقد لسج على مثوله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر
الأندلس والمغرب لعصره فقال :

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلَسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْبًا فِي الْكَرَى أَوْ خِلْسَةِ الْمُخْتَلَسِ

١ انظر ديوان ابن سهل : ٣٨٣ وهي الموشحة التي شرحها الأفراني في كتاب سماء و المسك السهل
في شرح توشيح ابن سهل . يقول الأفراني : وقد وقعت حل أزيد من اثني عشرة موشحة مما
حورمه به توشيح ابن سهل .

إِذْ يَقودُ الدَّهْرُ أَشْثَاتٍ إِلَى
 زُمْرًا بَسِينٍ فُرَادَى وَثْنَا
 وَالْحَيَا قد جَلَّلَ الرُّوضِ سَنَا
 وَرَوَى النِّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ
 فَكَسَاهُ الْحَسَنُ ثَوْبًا مُعَلَّمًا
 فِي لِيَالٍ كَتَمْتُ مَرَّ الْهَوَى
 مَا لَ نَجْمُ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
 وَطَرَّ مَا فِيهِ مِنْ حَبِيبٍ سِوَى
 حِينَ لَدَّ الْإِنْسُ شَيْئًا أَوْ كَمَا
 غَارَتْ الشَّهْبُ بَنًا أَوْ رِيحًا
 أَيُّ شَيْءٍ لَامَرَى قَدْ خَلَصَا
 تَنْهَبُ الْأَزْهَارُ مَتَهُ الْقُرْصَا
 فَلِذَا الْمَاءُ تَنَاجَى وَالْحَصَى
 تَبْصُرُ الْوَرْدَ غِيورًا بَرَمًا
 وَتَرَى الْأَمْسَ لَبِيًّا فُهِيَا
 يَا أَهْلَ الْهَمَى مِنْ وَادِي الْغَضَا
 ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْغَضَا
 فَأَحْبِدُوا عَهْدَ أَنَسٍ قَدْ مَضَى
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مَغْرَمًا
 حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا
 يَتَّقِلُ الْخَطْوُ عَلَى مَا يَرْتَمُ
 مِثْلَمَا يَدْعُو الْوَفْدَ لِلْوَسْمِ
 فَتَفُورُ الزَّهْرُ مِنْهُ تَبَسُّمُ
 كَيْفَ يَرَوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسٍ
 يَزِدُّهُ مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسِ
 بِالْحَجَى لَوْلَا شَمْسُ الْفَرَسِ
 مَسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعْدَتِ الْإِثْرِ
 أَنَّهُ مَرَّ كَلَمَحٍ الْبَصْرِ
 هَجَمَ الصَّبْحُ هَجُومَ الْحَرَسِ
 أَثَرْتُ فِينَا حَيُونَ الرَّجَسِ
 فَيَكُونُ الرُّوضُ قَدْ مَكَّنَ فِيهِ
 أَمْنَتٌ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَنْقِيهِ
 وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
 يَكْتُمِي مِنْ غِيظِهِ مَا يَكْتُمِي
 يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأَذْنِي فَرَسِ
 وَيَقْتُلِي مَسَكَنُ أُنْمٍ بِهِ
 لَا أَبَالِي شَرَقَهُ مِنْ غَرَبِهِ
 تَعْتَقُوا عَانِيَكُمْ مِنْ كَرِيهِ
 يَتَلَاثَى نَفْسًا فِي نَفْسِ
 أَفَرَضُونَ عَقَاءَ الْحَبْسِ

وبقلبي منكم مقربُ	بأحاديثِ النبی وَهُوَ بَعِيدُ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَرْبُ	شَقْوَةُ الْمُغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
قَدْ تَسَاوَى عَسْنٌ أَوْ مَذْنُبُ	فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعْدُ
سَاحِرُ الْمُقَلَّةِ مَعْسُولُ اللَّيِّ	جَالٌ فِي النَّفْسِ بِجَالِ النَّفْسِ
سَدَّدَ السَّهْمَ وَسَمَى وَرَمَى	فَقُوَادِي نُهْبَةً الْمَفْرَسِ
إِنْ يَكُنْ جَارٌ وَغَابَ الْأَمَلُ	وَقُوَادُ الصَّبِّ بِالشَّوْقِ يَلُوبُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَبِيبٌ أَوَّلُ	لَيْسَ فِي الْحَبِّ لِمُحِبِّبٍ ذَنْبُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُنْتَمِلُ	فِي ضُلُوحٍ قَدْ بَرَاهَا وَقُلُوبُ
حَكَمَ الْحَقَّ بِهَا فَاحْكَمَا	لَمْ يَرَأَبْ فِي ضِعَافِ الْأَنْفُسِ
مَنْصَفَ الْمَظْلُومِ مَنْ ظَلَمَا	وَمَجَازِي الْبَرِّ مِنْهَا وَالْمُسِي
مَا لِقَابِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا	عَادَهُ عَيْدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدُ
كَانَ فِي الْوَحْشِ لَهُ مَكْتَبَا	قَوْلُهُ : «إِنْ عَلَانِي لَشَدِيدُ»
جَلَبَ الْمَهْمَ لَهُ وَالْوَصْبَا	فَهَوَّ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهْدُ
لَا عِجْ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا	فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَسْرِ
لَمْ يَدْعُ فِي سُهْجَتِي إِلَّا ذَمَا	كِبْقَاهُ الصَّبْحِ بَعْدَ الْفَلَسِ
سَلَى يَا نَفْسُ فِي حَكَمِ الْقَضَا	وَأَعْمَرِي الْوَقْتَ بِرُجْعِي وَمَتَابُ
دَعَاكَ مِنْ ذِكْرِي زَمَانٌ قَدْ مَضَى	بَيْنَ عُنْيٍ قَدْ تَقَفَّتْ وَغَتَابُ
وَاصِرِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرَضَى	مَلْهُمُ التَّوْفِيقِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
الْكَرِيمِ الْمُتَهَيِّ وَالْمُنْتَهَى	أَمْدُ السَّرْجِ وَبَلَدُ الْمَجْلِسِ
يَتَزَلُّ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا	يَتَزَلُّ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين ، ولا أدري لِمَ لَمْ
يكملها ، وتامها قوله :

مصطفى الله سَيِّدِي الْمُصْطَفَى الْغَنِي بِاللَّهِ عَن كُلِّ أَحَدٍ
مَنْ إِذَا مَا عَقَدَ الْعَهْدَ وَفَى وَإِذَا مَا فَتَحَ الْخَطْبُ عَقْدَ
مَنْ بَنَى قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ وَكَفَى حَيْثُ يَبْتَ النَّصْرَ مَرْفُوعُ الْعَمَدِ

حَيْثُ يَبْتَ النَّصْرَ عَمِّي الْحَمِي وَجَنَى الْفَضْلَ زَكِيَّ الْمَغْرَسِ
وَالْهَوَى ظِلٌّ ظَلِيلٌ خَيْمًا وَالتَّنْدَى هَبٌّ إِلَى الْمَغْرَسِ

هَاجَهَا يَا سِبْطَ أَنْصَارِ الْعُلَا وَالَّذِي إِنْ عَتَرَ الدَّهْرُ أَقَالَ
غَادَةً أَلْبَسَهَا الْحُسْنَ مُلَا تَبْهَرُ الْعَيْنَ جِلَاً وَصَقَالَ
عَارِضَتْ لَفْظًا وَمَعْنَى وَحَلَى قَوْلٍ مِنْ أَنْطَقَهُ الْحُبُّ فَقَالَ :

« هَلْ دَرَى ظَلِي الْحَمِي أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبَّ حَلَّهِ عَنِ مَكْنَسِ »
« فَهُوَ فِي خَفَقٍ وَحَرٍّ مِثْلَمَا لَعِبْتُ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ »

ثُمَّ قَالَ ابْنُ خَلْدُونِ : وَأَمَّا الْمَشَارَقَةُ فَالْتَكْلُفُ ظَاهِرٌ عَلَى مَا عَاتَوْهُ مِنَ
الْمُوشَحَاتِ ، وَمِنْ أَحْسَنِ مَا وَقَعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مُوشِحَةُ ابْنِ سَنَاءِ الْمَلِكِ الْمِصْرِيِّ الَّتِي
اشْتَهَرَتْ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَأَوَّلُهَا :

[يَا] حَبِيبِي أَرْفَعْ حِجَابَ النُّورِ عَن الْعَذَارِ
تَنْظُرُ الْمُسْكَّ عَلَى كَافُورٍ فِي جِلْتَارِ

كَلْبِي يَا سُحْبُ تَبْجَانِ الرَّبِّي بِالْحُلِيِّ
وَاجْعَلِي سِيَوَارَهَا مَنْعُطَ الْجُلُولِ

وَلَمَّا شَاعَ فَنِّ التَّوْشِيحِ فِي أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَخَذَ بِهِ الْجُمْهُورُ لِسَالِمَتِهِ وَتَنْمِيقِ

كلامه وتصرع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموه في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً^١ ، واستحدثوا فنّاً سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على منحهم إلى هذا العهد ، فجاجوا فيه بالفرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال ، بحسب لغتهم المستعجمة ، وأوّل من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قرمان ، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس^٢ ، لكن لم تظهر حلّاه ، ولا انبست معانيها ، واشتهرت رشاقتها ، إلا في زمانه ، وكان لعهد الملتصين ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر ممّا رأيتها بجواضر المغرب ، قال : وسمعت أبا الحسن ابن جحّدر الإشبيلي^٣ إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قرمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى منزله مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر ، فقال :

وعريشٌ قد قامَ على دكّانٍ بحالٍ رواقٌ
وأسدٌ قد ابتلعَ ثعبانٍ من غلظٍ ساقٍ
وفتحَ فمهُ بحالٍ إنسانٍ بهِ القُواقِ
وانطلقَ من ثم على الصّفاحِ وألقى الصّباح

-
- ١ يؤخذ من هذا أن ابن خلّون يرى أصبغة الموشح حلّ الزجل ، وهو أمر يخالف طبيعة الأشياء ، لأنّ الزجل في أصله أغنية شعبية ، وإنما يعني ابن خلّون أنّ الزجل أحرز مكانة أدبية به شيوع الموشح .
- ٢ ظهر من الزجالين ابن تماره وابن راشد قبل ابن قرمان ولكنه خالف طريقة القدامى - كما يسميهم - واختار العودة بالزجل إلى سهولة الأغنية الشعبية ورفقتها .
- ٣ هو حلّ بن جحدر (المغرب ١ : ٢٦٢) واختصار القدرج : ١٧٢) قال ابن سعيد : أكثر اشتغاره بالانطباع في الزجل ، وجالسته كثيراً بإشبيلية ، وطال عمره حتى جاوز للثمانين ومات سنة ٦٢٨ .

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ، ويتتاب
 نهرها .
 إلى أن قال ابن خلدون : وجاءت بعدهم حكمة كان سابقها مدطيس^١ ،
 وقعت له العجائب في هذه الطريقة ، فمن قوله في زجله المشهور :

ورذاذٌ دقٌ ينزلُ وشعاعُ الشمسِ يضربُ
 قترى الواحدُ بفضضٍ وتترى الآخرُ يذهبُ
 والثباتُ يشربُ ويسكرُ والفصونُ ترقصُ وتطربُ
 وترسدُ نجي إلىنا ثم تستحي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله :

لاح الضياء والنجوم سكارى

ثم قال : وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جحندر الذي فضل على الزجالين
 في فتح مَيُورقة بالزجل المشهور الذي أوله :

من يعاند التوحيد بالسيف يحق أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد : لقيته ولقيت تلميذه البع^٢ صاحب الزجل المشهور الذي
 أوله :

ليتني إن ريت حبيبي أقتل أذنو بالرسيل
 لش أخذ عتق الغزيل وصرق فم الحجيل

١. اسمه أحمد بن الحاج ، وكان في دولة بني عبد المؤمن ، وهو شيخ الزجالين بعد ابن قزمان (المغرب
 ٢ : ٢١٤) وقد أورد له ابن سعيد (٢ : ٢٢٠) زجلين وله في المعامل الحالي أزجال (١٨ -
 ٢٥) وأخرى منقولة عن سفيانة ابن مبارك شاه (المعامل ٢٠٤ - ٢١٤) وانظر التفع ٢ : ٢٨٥ .
 ٢. ق. البع .

ثم جاء من يعلمهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الآداب ، ثم من يعلمهم هذه
 العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب إمام النظم والنثر في اللغة الإسلامية
 غير مدافع ، فمن محاسنه في هذه الطريقة :

إمزج الأكواس^١ واملالي^٢ تُجَدِّد ما خَلَقَ المال^٣ إلا أن يُبَدِّد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الشعري منهم :

بين طلوع^٤ وبين نزول^٥ اعتكَلَطَتْ^٦ الغزول^٧

ومضى من لَمْ^٨ يَكُنْ^٩ وبقي مَنْ^{١٠} لم يَزُلْ^{١١}

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى :

البَدِّدْ عَتَكَ يا ابني أعظم^{١٢} مصابيي وحين حَصَلَ^{١٣} لي قُربك سَبَّيْتُ^{١٤} آقاري

انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون ، وقد أطال رحمه الله تعالى في هذا
 المقصد ، ولم^{١٥} أرد لإيراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلق الفرض به ، وفيما
 ذكرته منه كفاية لتعلقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى ، وشهادته له أنه شاعر
 الإسلام غير مدافع ، وأنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشيفية .

[ترجمة ابن باجة من القلائد]

وأبو بكر بن باجة^{١٦} الذي أشار إليه ابن خلدون : هو أبو بكر ابن الصائغ
 النُجَيبِي السَّرَافُي ، الذي قال في حقِّه لسان الدين في « الإحاطة » : إنه آخر
 فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ، وكان يته وبن الفتح بن خاقان صاحب
 « القلائد » معاداة فلذلك هجاء في القلائد ، وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما
 نصّه^{١٧} : الأديب أبو بكر ابن الصائغ ، هو رَمَدُ عَيْن^{١٨} الدين ، وكمَدُ نفوس

١ القلائد : ٣٠٠ - ٣٠٦ . ٢ القلائد : جن .

المهتدين ، اشتهر سُخْفًا وجنونا ، وهَجَرَ مفروضاً ومسنوناً ، فما يتشرع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تَطَهَّرَ من جنابة ، ولا أظهر مَخِيلَةَ إناية ، ولا استنجى من حَدَث ، ولا أشجى فَوَادِهَ بَتَوَارٍ في جَدَث ، ولا أقر ببارية ومصوَّره ، ولا قرَّ عن تباريه في ميدان تهوَّره ، الإساءة إليه أجلى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذ وراء ظهره ثانيَ عِظْفِهِ ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على البهيمة ، وأنكر أن تكون له إلى الله تعالى فَيْئَةٌ ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهي والإبعاد ، واستهزأ بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (القصص : ٨٥) فهو يعتقد أن الزمان دَوْرٌ ، وأن الإنسان نبات أو نَوْرٌ ، حيامه تمامه ، واختطافه قِطَافه ، قد عيى الإيمان من قلبه فما له فيه رَسْمٌ ، ونسي الرحمن لسانه فما يمرَّ له عليه اسم ، وانتمت نفسه إلى الضلال وانصبت ، ونفت ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (هافر : ١٧) ، فقصر عمره على طَرَبٍ وُلُو ، واستشعر كلَّ كبر وزهو ، وأقام سوق المويستقى ، وهام بمجادي القطار وسقاً ، فهو يمكف على سماع التلاحين ، ويقف عليه كل حين ، ويعلم بذلك الاعتقاد ، ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله تعالى في أسلس مقاد ، مع متشمل وخيم ، ولؤم أصل وخيم ، وصورة شوَّهما الله تعالى وقبحها ، وطلعة إذا أبصرها الكلب نبجها ، وقذارة يؤذي البلاد نفسُها ، ووضارة يحكي الخداد دَنَسُها ، وفند لا يعمر إلا كنفه ، ولدل لا يقوم إلا الصعادُ جَنَفَه ، وله نظم أجاد فيه بعض إجادة ، وشارف الإحسان أو كاده .

فمن ذلك ما قاله في عبد جشي كان يهواه ، فاشتعل عليه أتر سقر حشاه^١ ،
ونقله إلى حيث لم يعلم مَنهواه ، فقال :-

يا شافقي حيث لا أَسْطِيعُ أدركهُ . ولا أقولُ غداً أغدو فألقاهُ
أما النهارُ فليلي ضمَّ شملته على الصِّباحِ فأولاهُ كأخراهُ
أغرَّ نفسي بآمالٍ مزوَّرةٍ مِنها لقاؤكَ والأيامُ تأباهُ
وله فيه لما بلغه موته ، وتحقَّقَ عنده قَوَّته :

ألا يا رزقُ والأكْدارُ تجري بما شامت نَشا أو لا نشاء
هلْ أنتَ مُطارِحي شجوي فتدري وأدري كيفَ يحتملُ التَّضاء
يُقولونُ الأمورُ تَكُونُ حوراً . وهذا قفله فمَيَّ القاء

وله في الأمير أبي بكر ابن إبراهيم قلنس الله تعالى تربته ، وآس غريته ،
مدائح انظمت بلبَّات الأوان ، ونظمت على كل شيت من الإحسان ، فمن
ذلك قوله :

توضَّحَ في الدجى طرفُ ضريبٍ ستاً بلوى الصرمةِ يستطيعُ
فيا بابي ولم أبذل يسيراً . وإن لم يكفهم ذاك الكثير
بريقٌ لا تَقُلْ هو نغصُ سلمي فتأثم ، إنَّه حُوبٌ وزور
فكيف وما أطلَّ الليلُ منه ولا عيقت بساحته الخصور
ترامى بالسدير فراد قلبي من البرحمة ما شاء السدير
فلولا أن يومَ الحشرِ يقضي عليَّ بحكمِ مولى لا يَجُور
دعوتُ على المشقَّر أن يحازي بما تجزى به الدار الفرور

١ القلاه : جواه .

ومنها :

لقد ومع الزمان عليه عدوى ، وَخَرَّ بِشَيْلِهِ اللَّيْثُ الْمَحْصُورُ
وَقَلْبِنَا الزَّمانَ فَلَا يَطُونُ تَضَمَّنِ الْوَفَاءَ وَلَا ظَهْوَرُ
سوى ذكرٍ أَطَارِحَهُ فَلَوْلَا أَلَا أَمِيرُ لَقَدْ عَقَا لَوْلَا الْأَمِيرُ
هَمَامٌ جُودُهُ بِصَفِّ السَّوَارِي وَسُطُونُهُ يُعَيِّرُهَا الْمَجِيرُ
وَقُلْنَا نَحْنُ كَيْفَ وَرَاحَتُهُ بِحَوْزٍ يَلْتَظِي فِيهَا سَعِيرُ
فَهَلْ فِيمَا سَمِعْتَ بِهِ خِصَامٌ يَكُونُ الْخِصَمُ فِيهِ هُوَ الْعَذِيرُ

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه المائة ويرأها ، وَيَجُودُ أَبْدَأُ ثَرَاهَا ،
فَلَمَّا وَلِيَ الثَّغْرَ وَالشَّرْقَ لَمْ يَفْلَحْهُ مِنْ رَعْيِي ، وَلَمْ يَكِيلْهُ^١ إِلَى شِفَاعَةِ وَسْعِي ،
وَحَمَلَهُ عَلَى مَا كَانَ يَعْتَقِدُهُ فِيهِ مِنَ الْمَقْتِ ، وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَا كَانَ يَنْتَضِيهِ خُلُقُ
الْوَقْتِ ، مِنْ إِقَامَةِ الْوَعْدِ^٢ ، وَتَسْوِيقِهِ كُلِّ نَعِيمٍ رَغَدَ ، وَتَغْلِيْبِ حِجَّةٍ دَاحِضَةٍ ،
وَلِنَهَاضِ عَشْرَةٍ غَيْرِ نَاهِضَةٍ ، فَتَقَلَّدَ زَوَارِثَهُ وَدَوْلَتَهُ تَرَاهِي مِنْهُ بِأَنْدَى مِنَ الْوَسْعِي
الْمُبْتَكِرِ ، وَأَهْدَى مِنَ النَّجْمِ فِي اللَّيْلِ الْمُبْتَكِرِ ، وَأَلْوَيْتُهُ تَمِيسُ زَهْوًا مَيْسَ الْفَتَاةِ ،
وَرَعِيَّتُهُ تَبْتَهِجُ بِمَلَكَةِ ابْتِهَاجٍ حَبِيْبِي بَابِنِ الْمُوَاةِ^٣ ، وَمَذَاهِبِهِ يَسْطَعُهَا الْفَضْلُ وَيَنْشُرُهَا ،
وَكِتَابُهُ لَا يَكَادُ الْعُلُوَّ بَعَثُهَا ، فَجَاشَ إِلَيْهِ وَأَنْبَرَى ، وَرَاشَ فِي تَنْكِيلِهِمْ وَبَرَى ،
وَأَقْطَعَهُمْ مَا شَاءَ مِنْ مُقَابَحَتِهِ ، وَأَسْمَعَهُمْ مَا يَصْمُ بَيْنَ خُتْمِهِ وَمِفْتَاحَتِهِ ، فَوَغِيْرَتْ

١ القلائد : لم يفلحها . . . ولم يكلها ؛ والتفسير عائد على « المائة » .

٢ القلائد : من إقامة كل وعد . ق : من إقامة وعد .

٣ كذا ؛ وفي القلائد : ابتهاج جابر بهذه البوابة ، وفي التنصيص خطأ في اسم العلم ، أما البوابة
والمرواة فيدلان على شيء واحد هو الأرض المقسمة ؛ وأرى أن الإشارة إلى من أسسه « جرير » وهو
المشهور باسم « المتلسس » إذ يقول في ذكر البوابة :

لن تسلكي سبل البوابة منجفة ما عاش عمرو وما عمرت قابوس
والبوابة هنا ثنية في طريق نجد .

صلوهم السليمة ، واعتلت صحة ضمائرهم بنفوسهم الأليمة ، ولم يزل يأخذ في الإضرار بهم ولا يدع ، ويعلن به ويصدق ، حتى تفرق ذلك الجمع ، وألقاه بين بصر السباب والسمع ، وأفرد الدولة من ولائها ، وجردتها من حمايتها ، فاستعجل العدو بذلك واستشرى ، وزار منه على سر كسطة ليث شري ، ولما رأى الشر قد ثار قتامه ، وبدا من ليله إعتامه ، ارتحل واحتمل ، وقال : لا فاقة لي في هذا ولا جمل ، وأقام ببلنسية يشفي نفسه ، ويستوفي أنسه ، ونجوم سعدتها كل يوم غائرة ، والعدو يترصد بها أسوأ دائرة ، ويروم منازلها ثم يدع الاقتحام ، ويريد التقدم إليها فيؤثر الإحجام ، تهيأ للملك الملك السري ، والليث البحري ، وفي خلال هذه المحاولة ، وأثناء تلك المطاولة ، عاجل الأمير أبا بكر حمامه ، واستسر فيها تمامه^١ ، وأجته الثرى ، وحاز منه بلو دجته وليث شري ، فغطلت الدنيا من علاه وجود ، وأطكت عليها بفقده حوادث أجذبت تهاشمها والنجوم ، وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجيباً ، وببيت به الأمل لسامعه ضجيجاً :

أيها الملك قد لعمرى نعى المجـد نواعيك يوم قمنا فنحننا
كم تقارعت والخطوب إلى أن غادرتك الخطوب في الرب رهنا
غير أنني إذا ذكرتك والدهـر سر إخال اليقين في ذاك ظناً
وسألنا متى اللقاء قليل لا حشر قلنا : صبراً إليه وحزناً

وكثيراً ما يُغير هذا الرجل على معاني الشعراء ، وينبذ الاحتشام من ذلك بالعراء ، ويأخذها من أربابها أخذ غاصب ، ويوضحهم منها كل هم ناصب ، فهذا ممّا أطال به كمد أبي العلاء وغمه ، فإنه أخذه من قوله يرثي أمه^٢ :

١ يريد أنه كان يدرأ كاملاً فأساهه السراة .

٢ شروح السقط : ١٤٦٠ ، ١٤٦٨ .

فيا ركبَ المُنونِ ألا رسولٌ يبلغُ روحَهَا أَرْجَ السَّلامِ
سألتُ متى اللقاءُ قَبيلَ حَتَّى يقومَ المَأمَدونَ من الرِّجَامِ

ولما غابت سرقسطة من يد الإسلام ، وبألت نفوس المسلمين قرناً منهم في يد الامتسلام ، ارتاب بقيح أفعاله ، وجرىء من احتدائه بتلك الآراء وانتعاله ، وأخافه ذنبه ، وقبحاً من مضجع الأمر جَنَّبُهُ ، ففكر إلى الغرب ليتوارى في نواحيه ، ولا يترأى لعين لائمه ولاحيه ، فلما وصل شاطبة حضرة الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وَجَدَ باب نفاذه وهو مُبْتَهَمٌ ، وعاقه عنه مدلول عليه بملهمهم ، فاعتقله اعتقالاً شفى الدين من آلامه ، وشهد له بعقيدة إسلامه ، وفي ذلك يقول ، وهو معقول ، ويصرح بمذهبه الفاسد ، وغرضه المستاسد :

خَفَضْتُ عَلَيْكَ فَمَا الزَّمانُ وَرَبِّيهُ شيءٌ يَلومُ ولا الحَياءُ تَلومُ
واذهبْ بِنَفْسٍ لَمْ تَضَعْ لِنَحْلِهَا حيثُ احتَلَّتْ بِها وَأَنْتَ عَليمُ
يا صاحبي لَقَطاً وَمَعْنَى خَطَّتُهُ من قَبْلُ حَتَّى بَيَّنَّ التَّقْسيمُ
دَعُ عَنْكَ من مَعْنَى الإِخاءِ ثَقِيلُهُ وانْبِذْ بِذاكَ العَباءَ وَهُوَ ذَمِيمُ
واسمَحْ وطارِحي الحَلِيثِ فَإِنَّهُ ليلٌ كَأَحْداثِ الزَّمانِ بيمُ
خَلَفَنِي عَلى أَثرِ الزَّمانِ قَدَّ مَضَى بؤْسٌ عَلى أُنْشاءِهِ وَنَعيمُ
قَمِى أَرى ذاكَ النِّعَمِ وَرَبَّهُ مَرَحٌ وَرَبُّ البؤْسِ وَهُوَ سَكِيمُ
هيهاتِ ساوَتْ بَيْنَهُم أَجْداثُهُم وتَشابَهَ المَحْصودُ والمَحْرومُ

ولما خلص من تلك الحيلة ونجا ، وأثار من سلامته ما كان دجاً ، احتل في إخفاء ماله ، واستيفاء آماله ، فأظهر الوفاء للأمير أبي بكر بالثناء له والتأيين ، وتداويه في ذلك واضح مستبين ، فإنه وصل بهذه التزعة من الحماية إلى حرم ،

وحصل في ذمة ذلك الكرم ، واشتمل بالرَّغْبِ ، وأمن من كلِّ سَعْيٍ ، فافقني
 قِيَانًا ، ولقنهن أعاريضَ من القريضِ وركَّبَ عليها أَلْهَانًا أشجى من التَّوْحِ ،
 ولطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة والبُوح ، فسلك بها أبداع سبلك ، وأظلمها
 نيرات ما لها غير القلوب من فلكك ، فمن ذلك قوله :

إِنَّ غِرَابًا جَرَى بَيْنَهُمْ جَاوَيْتَ بِالنِّيَّةِ الصُّرْدُ
 طَارُوا فَهَا أَنْتَ بَعْدَهُمْ جَسْدٌ قَدْ فَارَقَ الرُّوحَ ذَلِكَ الْجَسْدُ
 وَاکْتَمُوا صُبْحَةً بَيْنَهُمْ فَبَسَّ وَاللَّهِ مَا الَّذِي اعْتَمَلُوا

وكفوله :

سَلامٌ وإِلْهَامٌ وَوَسْمِيٌّ مَزْنَةٌ عَلَى الْجَدِثِ النَّائِي الَّذِي لَا أَزُورُهُ
 أَحَقُّ أَبُو بَكْرٍ تَقْضَى فَلَا يُرَى تَرْدُ جَمَاهِيرَ الْوُفُودِ سَتُورُهُ
 لَنْ أُنِيسْتَ تِلْكَ الْقُبُورُ بِلَحْدِهِ لَقَدْ أَوْحِشَتْ أَنْصَارُهُ وَقُصُورُهُ

ومن قَلَّةِ حَقْلِهِ وَتَرَاتُوه ، أَنَّهُ فِي مِلَّةِ وَزَارَتِهِ ، سَقَرِ بَيْنِ الْأَمِيرِ أَبِي بَكْرٍ
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَبَيْنِ عِمَادِ الدُّوَلَةِ بَنِ هُودٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ سَعَايَاتٍ عَلَيْهِ أَسْلَفُهَا ،
 وَذَخَائِرَ كَانَتْ لَهُ عَلَى يَدَيْهِ أَتْلَفُهَا ، فَوَافَاهُ أَوْغَرَ مَا كَانَ عَلَيْهِ صَدْرًا ، وَأَصْغَرَ
 مَا كَانَ لَدَيْهِ قَدْرًا ، قَالَ بِهِ ذَلِكَ الْإِتْقَالُ ، إِلَى الْأَعْقَالِ ، فَأَقَامَ فِيهِ شَهْرًا
 يَفَازِلُهُ الْحِمَامُ بِمَقْلَةِ شَوْهَاءَ ، وَتُنَازِلُهُ الْأَوْهَامُ بِقَطْرَتِهِ الْوَرَاهِءَ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ :

لَعَلَّكَ يَا يَزِيدُ عَلِمْتَ حَالِي فَتَعَلَّمَ أَيُّ خُطْبٍ قَدْ لَقِيتُ
 وَإِنِّي إِنْ بَقِيتُ بِمَثَلِ مَا بِي فَمَنْ عَجِبِ اللَّيَالِي أَنْ بَقِيتُ
 يَقُولُ الشَّامِتُونَ شَقَاءَ بَحْتٍ لَعَسَرُ الشَّامِتِينَ لَقَدْ شَقِيتُ
 أَعْنَدَهُمُ الْأَمَانُ مِنَ اللَّيَالِي وَسَلَمَهُمْ بِهَا الزَّمَنُ الْمَقِيتُ
 وَمَا يَدْرُونَ أَنَّهُمْ سَيَسْقُوتُوا عَلَى كَرِهِ بَكَاكُنْ قَدْ سَقِيتُ

وعزم عماد الدولة يوماً على قتله ، وألزم المرقبين به التحجّل على ختله ،
فمضى إليه الأمر الوعر ، وارتعى به في بلجch اليأس اللعبر ، فقال :

أقولُ لنفسي حينَ قابَلتها الردى فراغتَ فراراً منه يُسرّى إلى بغي
قيرى تهمدي بعضَ الذي تكرهينه فقد طالما اعتدتِ القرار إلى الأهنا

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره ، وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره ،
ويعمل القاجر حكمةً من الله تعالى وعلماً و﴿ إِنَّمَا تُحْشَرُ لَهُمْ يُزَادُوا إِثْمًا ﴾
(الاحسان : ١٧٨) ؛ انتهى نص القلائد .

[فناء الفتح على ابن باجة]

وَأين هذا من تعليله له في بعض كتبه بقوله فيه ما صورته : نور فهم ساطع ،
وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت
من طيب ذكره الأمصار ، وقام أوانُ المعارف واعتدل ، ومال للأهنام فتناً
وتهدل ، وعطل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد علمه الاختراع والتوليد ،
إذا قدح زكّد فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طالما بحر خاطره فهو لكل
شيء مفرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبُعد القساد من كونها ، والتحقيق ،
الذي هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود
عطارده أن يلتصقه ، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تعشقه البسات
والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، وقد أثبت منه ما تهوى الأعين
التجّل أن يكون لإعلاها ، ويزيل من النفوس حزنها وكدها ، فمن ذلك قوله
يتنزل :

أَسْكَنَ تَعْمَانَ الْأَرَكَ تَبَيَّنُوا بِأَتَكُمْ فِي رَبْعِ قَلْبِي سُكَّانُ

ودوموا على حفظ الوداد فظالمًا
 سلوا الليل عتي إذ تنامت دياركم
 وهل جرّدت أسياف برق سمائكم
 بلّينا بأقوام إذا استُحفظوا خانوا
 هل اكتحلّت لي فيه بالنوم أجفان
 فكانت لها إلا جفوني أجفان
 وله :

أناذنُ لي آتي العقيقَ اليمانيًا
 وهلّ داركم بالخزن قفراء لئتي
 فيا مكرّع الوادي أما فيك شربةٌ
 ويا شجرات الجزع هل فيك وقعةٌ
 أسألهُ ما للمعالي وما ليا
 تركتُ الهوى يقتاد فضل زاميا
 لقد سأل فيك الماء أزرقَ صافيا
 وقد فاء فيك الظلُ أخضرَ ضافيا

وأورد له في «المطمح» أنه استأذن على المستعين بالله ، فوجده محبوباً ، فقال :

مَنْ مُبْلَغٌ خَيْرَ إِمَامٍ نَشَا
 قَوْلَ امْرِئٍ لَوْ قَالَ لِلصِّفَا
 عَيْدُكَ بِالْيَابِ لَهُ خِجْلَةٌ
 لَوْ أَنَّهَا بِالرَّجْسِ أَحْمَرَا
 ذا عِزَّةٍ وَصَامِيَا قَدَّرَا
 أَنْبَتَ فِيهِ وَرَقًا خَضِرَا

وحكي غير واحد أنه مات له سَكَنٌ كان يَهْوَاهُ ، فبات مع بعض أصحابه
 عند ضريحه ومَشَّوَاهُ ، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل ،
 فزَوَّرَ في نفسه بيتين في خطاب القمر أُنقِنهما ولحنهما ، حتى إذا كان قبيل وقت
 الكسوف بقليل تغنى فيهما بذلك الصوت المشجي ، واللحن يسوق الشوق
 ويَزْجِي ، وهما :

شقيقك غَيَّبَ في لحدِهِ
 فَهَلَّا كَسَفَتْ فَكَانَ الْكَسُوفُ
 وَتُشْرِقُ يَا بَدْرُ مِنْ بَعْدِهِ
 حَدَادًا لَبَسَتْ عَلَى قَدَرِهِ

فكسف القمر في الحال ، وعُدَّتْ هذه من نواتره التي جيّدُ الأخبار بفرائدها
 حال ، ساعده الله تعالى .

[ابن الحداد الوادي آشّي]

ثم رأيت في «الإحاطة»^١ نسبة ذلك لغيره ونصه : محمد بن أحمد بن الحداد ، الوادي آشّي ، يكنى أبا عبد الله .

حاله - شاعر مقلد ، وأديب شهير ، مشار إليه في التعاليم ، منقطع القرن منها في الموسيقى ، مضطلع بفك المعنى ، سكن المربة ، واشتهر بملح رؤسائها من بني صُمداح ، وقال ابن بسّام : كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة ، وبحر خير وسيرة ، ودبوان تعاليم مشهورة ، وضع في طريق المعارف وضوح الصبح المنهل ، وضرب فيها بقدح ابن مقبل^٢ ، إلى جلالته مقطع ، وأصالة متنزع ، ترى العلم يتم على أشعاره ، ويبين في منازعه وآثاره .

تأليفه - ديوان شعره كبير معروف ، وله في العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية .

بعض أحواله - حدث بعض المؤرخين مما يدل على ظرفه أنه فقد سكناً عزيزاً عليه ، وأحوجت الحاجة إلى تكلف سلوة ، فلما حضر الندماء ، وكان قد رصد الخسوف القمري ، فلما حقق أنه ابتداء أخذ العود وغنى « شقيقك غيب - إلى آخره » وجعل يرددّها ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الخسوف ، وعظم من الحاضرين التعجب .

ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره : وقال^٣ :

أقبلن في الحبرات يقصرن الخطا ويرين في حُللِ الوراشين القطا^٤
سرب الجوى لا الجوى عود حسنه أن يرتمي حبّ القلوب ويلقطا

١ الإحاطة ٢ : ٢٥٠ .

٢ يلصق القيد إلى الشاعر ابن مقبل لأنه أجاد وصفه (ديوانه : ٢٨ - ٢٩) .

٣ لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة ؛ وهي في الأخيرة ٢/١ : ٢١٩ .

٤ الوراشين : جمع ورشان وهو من الطيور المفردة .

مالت معافهن من سكر الصبا ميلاً يخيف قلودها أن تسقطا
ويعسقط العكمن أوضح معلم لمهف سكن الحشا والمسقطا
ما أخجل البدر المثبر إذا مشى يخال والغصن^١ النصير إذا خطا

ومنها في المدح :

يا واغدني شرق البلاد وغربها أكرمتا خيل الوفادة فاربطا
ورأيتما ملك البرية قاهنا^٢ ووردتما أرض المربة فاختططا
يلمي^٣ نحر الدارين إذا ارتأى ويدل عز العالمين إذا سطا

انتهى المقصود منه ، وأورد له في الإحاطة قصيدة ثانية أولها :

حديثك ما أحلى ، فزيدي وحديثي

وهي طويلة .

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورته : سمعتها من لفظ شيعي أبي جعفر
ابن خاتمة بالمرية في سنة خمس وستين وسبع مائة ، قاله علي بن الخطيب ، انتهى .

وجع إلى أخبار ابن الصانع ، ومن نظمه قوله :

ضربوا القباب على أقاحي روضة خطرت التسمم بها ففاح صبرا
وتركت قلبي سار بين حبسهم دامي الكلام يسوق تلك العيرا
هلاً سألت أميرهم هل عندهم عان يهلك ولو سألت غيورا
لا والذي جعل الفصون معافاً لهم وصاغ الأخوان ثغورا
ما مر بي ريح الصبا من بعدهم إلا شهقت له فعاد سعيرا

١ اللخيرة : والمنوط ، ق : والنود .

٢ اللخيرة : قاطباً .

٣ اللخيرة : يرمي .

وتوفي ابن الصائغ في شهر رمضان سنة ٥٢٣ هـ ، وقيل : سنة خمس وعشرين ، مسموماً في بادنجان بمدينة فاس ، وهو تُجِيبِي بضم- التاء وفتحها ، وباجنة : بالباء الموحدة ، وبعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة ، وهي القصة بلغة الفرنج ، وسَرَقُسطة - بفتح السين والراء وضم القاف ومكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة - مدينة كبيرة بالأندلس ، استولى عليها العدو سنة ٥١٢ هـ .

وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » : إن ابن الصائغ كان عالماً فاضلاً ، له تصانيف في الرياضات والمنطق ، وإنه وَزَرَ لأبي بكر الصحراوي صاحب سَرَقُسطة ، ووزر أيضاً ليحيى بن يوسف ابن تاشفين عشرين سنة بالغرب ، وإن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ، ونجحت على يديه الآمال ، فحصد الأطباء والكتاب وغيرهم ، وكادوه ، فقتلوه مسموماً ، انتهى .

وأُشَدُّ له بعضهم :

همُ رحلوا يومَ الخميسِ عَشِيَّةً فودَّعتُهُمْ لَمَّا اسْتَقَلُّوا وودعوا
ولمَّا تولَّوا وَلَتَ النَّفْسُ مَعَهُمْ فقلتُ: ارجعي قالت: إلى أين أرجع
إلى جَسَدٍ ما فيه لَحْمٌ ولا دَمٌ وما هوَ إلا أعْظَمُ تَتَمَتَّعَ
وعينين قد أعماهما كثرةُ البُكا وأُذُنٍ عَصَتْ عُدَّالَهَا ليس تسمع

وقد ذكر بعضهم في تعزيز يبي الحريري : أنه لابن الصائغ الأندلسي ، وليس هو بهذا فيما أعلم :

انقذْ مَهْوى أَرْزِهِ فأنثى مَهْ يا علوي في الذي انقذَ مَهْ
منعمةٌ قَتَلُ المعنى فلا ترسل سهامَ اللحظِ تأمِّنَ دمهْ

١ هو تاريخ كبير مرتب مل حسب السنين انتهى فيه إلى سنة ١٧٢٤ وتوفي ركن الدين بيبرس المنصوري الدواداري سنة ٧٢٥ هـ .

[ترجمة الفتح عن الإحاطة]

رجع إلى ابن باجة - وقد ذكر لسان الدين في « الإحاطة » سبب العداوة بينه وبين الفتح في ترجمة الفتح ولذكروها بنصه فنقول ^١ : قال رحمه الله تعالى :
الفتح بن محمد بن عبيد الله ، الكاتب ، من قرية تُعرف بقلة الواد ^٢ من قرى
يَحْصُب ، يكنى أبا نصر ، ويُعرف بابن خاقان .

حاله - كان آية من آيات البلاغة لا يُشَقَّ غُبَّاره ، ولا يُدْرِك شأوه ، عذب
الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعوباً بأطراف الكلام ، معجزاً في باب
الحل والصفات ، إلا أنه كان عارفاً مقدوراً عليه ، لا يمل من المعارقة والقَصْف ،
حتى هان قَدْرُهُ ، وابتدلت نفسه وساء ذكره ، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس
إلا ودخله مسترفداً أميراً واغلا في حليته ، قال الأستاذ في « الصلة » : وكان
معاصراً للكاتب أبي عبد الله ابن أبي الخصال ، إلا أن بطالته أغلظت به عن
مرتبه . وقال ابن عبد الملك ^٣ : قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض
غمرأ ، فتنسم بعضُ حاضري المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضي بذلك ،
فاستتبَّتْ وحدهُ حدّاً تاماً ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بشمانية ذنانير
وعمامة ، فقال الفتح حيثل لبعض من أصحابه : حزمت على إسقاط القاضي أبي
الفضل من كتابي الموسوم بـ « قلائد العقيان » ، قال : فقلت : لا تفعل ، وهي
نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائر أن تُنسى ،
وأنت تريد أن تركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت

١ الإحاطة ، الورقة : ٣٥٣ .

٢ الإحاطة : بمشرة الولد ، وهماش إحدى نسخ الليل والتكملة : من قرية شرقي قلة يحصب تعرف
بشجرة الولد . ق : بقرية الواد .

٣ قلت أنظر الليل والتكملة : ٥ : ٥٣٠ .

٤ الليل : فاستتبَّت في استنكاهه ؛ وفي الإحاطة : فاستناه .

فيه مَنْ هو مثله ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك ، فيقال له ،
فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر ، قال : فتبين ذلك ، وعلم صحته وأقر
اسمه .

وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقه على ابن باجة أبي بكرٍ آخِرِ فلاسفة
الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزارائه به وتكذيبه إِيَّاه في مجلس إقراره ،
إذ جعل يُكثِر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ووصف حلياً ، وكان يبدو من
أنفه فضلة خضراء اللون — زعموا — فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزمردة
التي على شاربك ؟ فطلبه في كتابه بما هو معروف ، وعلى ذلك فأبو نصر نسيجُ
وحَدِّه ، غفر الله تعالى له .

مشيخته — روي عن أبي بكر : ابن سليمان بن القصيرة وابن عيسى ابن
البانة ، وأبي جعفر ابن سعلون الكاتب ، وأبي الحسن ابن سراج ، وأبي خالد ابن
بشغير ، وأبي الطيب ابن زرقون ، وأبي عبد الله ابن خبطة الكاتب ، وأبي عبد
الرحمن ابن طاهر ، وأبي عامر ابن سرور ، وأبي محمد ابن عبدون ، وأبي الوليد
ابن حجاج ، وابن حديد الكاتب .

لوائفه — ومصنفاته شهيرة : منها « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس »
والمطمح أيضاً ، وترسيله مدون ، وشعره وسط ، وكتابه فائقة .

شعره — من شعره قوله ، ولبت في قلائده ، يخاطب أبا يحيى ابن الحاج^١ :

أَكْبَعَ عَلَيَّاهُ وَهَضْبَةً مَيُودِدُ وَرَوْضَةً حَجْدٍ بِالْمَقَاخِرِ تُضَطَّرُّ
هَنِيئًا لِلْمَلِكِ زَارِ أَفْقَكَ نَوْرُهُ وَفِي صَفْحَتِهِ مِنْ مَضَائِكَ أَسْطَرُّ
وَإِنِّي لَنَفَّاقٍ الْجَنَاحَيْنِ كُلَّمَا سَرَى لَكَ ذِكْرٌ أَوْ نَسِيمٌ مَعْطَرُّ
وَقَدْ كَانَ وَاشِرَ هَاجِنًا لَتَهَاجَسِرَ فَبْتُ وَأَحْشَايَ جَوَى تَضَطَّرُّ

١ انظر أيضاً القلائد : ١٨٠ والمطرب : ١٨٩ .

فهل لك في ودِّي ذَوِي لكَ ظاهراً وباطنه يَتَنَدَّى صفاءً ويَقْطُرُ
ولست بعَلِقٍ يَبِيعُ بَحْضاً وإِنِّي لأَرْفَعُ أَعْلَاقَ الزَّمانِ وأُخْطِرُ
فروجه عنه بما ثبت أيضاً في قلاله ممَّا أَوَّلَه :

ثَبِتَ أبا نصرٍ عَنائي ، وربما ثَبِتَ عَزْمَ السَّهمِ المصمِ أَسْطَرُ

ثوره - ونثره شهير ، وثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيراً كتبه
عن بعض الأمراء لصاحب الشرط ، ولا خفاء بإدلاله وبراعته : كتاب تأييد
اعتناء ، وتقليد ذي منة وغناء ، أمر بإنفاذه فلان ، أيده الله تعالى ، لفلان
ابن فلان ، صاله الله تعالى ، ليُتَقَدَّم لولاية المدينة القلانية وجهاتها ، ويَضْرَحُ^١
ما تكاثف من العُدُوَّان في جَنَبَاتِها ، تنوياً أحظاه بعلائه ، وكساه رائق مَلَلَه ،
لما علمه من سنائه ، وتوسَّع من غَنائِه ، ورجاه من حُسنِ مَنابِه ، وتحققه من
طهارة ساحته وجَنابِه ، وتيقن - أيده الله تعالى - أَنَّهُ مستحق لما ولَّاه ؛ مستقل^٢
بما تولَّاه ، لا يعترِبه الكَسَلُ^٣ ، ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والأسل ، ولم
يَسْكِلِ الأمرَ منه إلى وِكل ، ولا ناطه بمتاع عجز ولا فشَل ، وأمره أن يراقب
الله تعالى في أوامره ونواهيه ، وليعلم أَنَّهُ زاجره عن الجور وناهيه ، وسائله عما
حكم به وقضاه ، وأنفذه وأمضاه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ
يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الأنفال : ١٩) فليتقدم إلى ذلك بحزم لا يَحْذَرُ تَوَقُّدَه ، وعزم
لا يَفْقدُ تَفَقُّدَه ، ونفس مع الخير ذاهبة ، وعلى من البر والتقوى راكبة ، ويقدم
للأحتراس من عرف اجتهداه ، وعلم أرقه في البحث وسُهادَه ، وحُمِدَت
أعماله ، وأمن تفریطه وإهماله ، ويضم إليهم من يحلو حلّوهم ، ويقفو شأوهم ،

١ يضرخ : يزِيل ويَسْل ؛ وفي ق : ويضوح .

٢ مستقل : سائل الصب ؛ وفي الإحالة : مستقل .

٣ الإحالة : الكل .

مَنْ لَا يَسْتَرَابُ بِمَنَاجِيهِ ، وَلَا يَصَابُ خَلَلٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاجِيهِ ، وَأَنْ يُدْكَى
الْعِيُونَ عَلَى الْخُتَاةِ ، وَيَنْفِي عَنْهَا اللَّذِيذَ السَّنَاتِ ، وَيَفْحَصُ عَنْ مَكَامِنِهِمْ ، حَتَّى
يَفْصُ بِالرِّيقِ^١ نَفْسَ أَمْنِهِمْ ، فَلَا يَسْتَقِرُّ بِهِمْ مَوْضِعٌ ، وَلَا يَفِرُّ مِنْهُمْ خَبٌّ وَلَا
مَوْضِعٌ ، فَإِذَا ظَفَرَ مِنْهُمْ بِنَ ظَفَرٍ يَبْحَثُ عَنْ بَاطِنِهِ ، وَبَثَ السُّؤَالُ فِي مَوَاضِعَ
تَصْرِفِهِ وَمَوَاطِنِهِ ، فَإِنْ لَاحَتْ شَبْهَةٌ أَبْدَاهَا الْكُشْفُ وَالِاسْتِبْرَاءُ ، وَتَعَدَّاهَا الْبَغْيُ
وَالِافْتِرَاءُ ، نَكَكَلَهُ بِالْعُقُوبَةِ أَشَدَّ نَكَالٍ ، وَأَوْضَحَ لَهُ مِنْهَا مَا كَانَ ذَا إِشْكَالٍ ،
بَعْدَ أَنْ يَبْلُغَ إِذَاهُ ، وَيَقِفَ فِي طَرَفِهِ مَدَاهُ ، وَحَدَّ لَهُ أَنْ لَا يَكْشِفُ بَشْرَةً إِلَّا فِي حَدِّ
يَتَبَيَّنُ ، وَإِنْ جَاءَهُ فَاسِقٌ أَنْ يَتَبَيَّنَ ، وَأَنْ لَا يَطْمَعُ فِي صَاحِبِ مَالٍ مَوْفُورٍ ، وَأَنْ
لَا يَسْمَعَ مِنْ مَكْشُوفٍ فِي مَسْتَوْرٍ ، وَأَنْ يَسْلُكَ السُّنَنَ الْمَحْمُودَ ، وَيَتَزَهَّدَ عَقُوبَتِهِ مِنْ
الْإِفْرَاطِ وَعَفْوِهِ مِنْ تَعْطِيلِ الْحُدُودِ ، وَإِذَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ قَصَّةٌ مُشْكَلَةٌ أَخَّرَهَا إِلَى
غَدِهِ ، فَهُوَ عَلَى الْقَابِ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَى رَدِّهِ ، فَقَدْ يَتَبَيَّنُ فِي وَقْتٍ مَا لَا يَتَبَيَّنُ فِي وَقْتٍ ،
وَالْمَعَاجِلَةُ^٢ بِالْعُقُوبَةِ مِنَ الْمَقْتِ ، وَأَنْ يَتَغَمَّدَ هَفَوَاتِ ، ذَوِي^٣ الْهَيْثَاتِ ، وَأَنْ
يَسْتَشْعِرَ الْإِشْفَاقَ ، وَيَخْلَعُ التَّكْبِيرَ فَإِنَّهُ مَكْلَبَسُ أَهْلِ النِّفَاقِ ، وَلِيَحْسَنَ لِعِبَادِ اللَّهِ
تَعَالَى اعْتِقَادَهُ ، وَلَا يَرْفُضَ زَمَامَ الْعَدْلِ وَلَا مَقَادَهُ ، وَأَنْ يَمَاقِبَ الْمَجْرِمَ قَدْرَ
زَلَّتْهُ ، وَلَا يَعْتَزَّ عِنْدَ ذِلَّتِهِ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَغْوَاهُ ، وَزَيْنَ لَهُ مَثْوَاهُ ،
فَلْيَشْفَقْ مِنْ عَثَارِهِ ، وَسَوْءِ آثَارِهِ ، وَلِيَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا وَهَبَهُ مِنَ الْعَافِيَةِ ،
وَأَلْبَسَهُ مِنْ مَلَاسِهَا الْغَفَافِيَةِ ، وَيَذْكُرْهُ جَلَّ وَعَلَا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، وَيَتَفَكَّرَ فِي
الْحَشَرِ وَأَهْوَالِهِ ، وَيَتَذَكَّرَ وَعَدَاً يَنْجِزُ فِيهِ وَوَعِيداً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا
عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدَّ لو أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا﴾ (آل عمران : ٣٠) وَالْأَمِيرُ أَيْدَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلِي لَهُ مَا عَدَلَ وَأَقْسَطَ ، وَبَرَىءَ
مِنْهُ إِنْ جَارَ وَقَسَطَ ، فَمَنْ قَرَأَهُ فَلْيَقِفْ عِنْدَ حَدِّهِ وَرِسْمِهِ ، وَلِيَعْرِفَ لَهُ حَقَّ

١ الإحاطة : ينهض بالروح .

٢ الإحاطة : والسجل .

٣ الإحاطة : أولى .

قطع الشرّ وحسّمه ، ومن واقفه من شريف أو مشروف ، وخالفه في نهي عن منكر أو أمر بمعروف ، فقد تعرض من العقاب لما يليقه وبكّل حَبْلَه ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، وكتب في كذا .

وفاته — بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسعة^١ وعشرين وخمسمائة ، أُلّي قتيلاً^٢ بيت من بيوت فندق أحد فنادقها ، وقد ذُبُع وعُبْتُ به ، وما شُعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله ، انتهى نص الإحاطة .

[ترجمة الفتح عن المغرب]

وقال في «المغرب» ما ملخصه^٣ : فخر أدياء إشبيلية إلى الأندلس: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ، صاحب «الفتاح» و «المطوح» ، ذكره الحنجاري في المسهب ، الدهر من رواة قلائد^٤ ، وحملة فرائده ، طلع من الأفق الإشبيلي شمساً طَبَّقَ الأفاق ضياؤها ، وهم «الشرق» والمغرب سناها ومنافؤها ، وكان في الأدب أرفح الأعلام ، وحسن الأيام ، وله كتاب «قلائد العقيان» ومن وقف عليه لا يحتاج في التنبيه على قدره إلى زيادة بيان ، وهو وأبو الحسن ابن بسام الششمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قُسَّ وسحبان ، والتفضيل بينهما صير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً في الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تملقاً وتمشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتم به ممّا عُرِف من أجله بآين سخاقان ، لكان أحد كتّاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولي على الرهان ، وإنما أُخِلَّ به ما ذكرناه ، مع كونه اشتهر بزم

١ الإحاطة : سبعة .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٥٤ وبين ما أورده المقرئ وما جاء في المغرب اختلاف كبير ، هذا مع أن المقرئ يصرح بأنه يُلخص .

أولي الأحساب ، والتمرير بالطعن على الأدباء والكتاب ، وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجة ، فوجد في فندق بمحاضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه ، وتركه مقتولاً وفي دبره وتد ، والله سبحانه يتغمده برحمته .

ومن شعره قوله من أبيات في المدح :

إلى أين تَرْمِي قد علوت على البدرِ وقد نلت غاياتِ السيادةِ والقدرِ
وجُدْتَ إلى أن ليس يدُ كُرْحَاتِمُ وأغْنيتُ أهلَ الجذبِ عن سَبَلِ القطرِ
وكم رام أهلُ اليومِ باليومِ وقفةً وبحركَ مدًى لا يؤول إلى جزرِ
ولو لم يكن فيك السماعُ جيلةً لأثّرَ ذاكَ اليومَ فيك مع الدهرِ
وذكره ابن الإمام في « سمط الجمان » وأنشد له :

لله ظيٌّ من جنابك زارني يختالُ زهواً في مُلاءِ مراحِ
ولي التماسك في هواه كأنه مروانُ خافَ كتابَ السفاحِ
فخلعتُ صبري بالعرا ونبلته وركبتُ وجلي في عنانِ جماحِ
أهدى لي الوردَ المضعفَ خدُهُ فقطفته بالحظِّ دونَ جناحِ
وأردتُ صبراً عن هواه فلم أطقُ وأريتُ جيداً في خلالِ مزاحِ
وتركتُ قلبي للصبابة طائراً تهفُّو به الأشواقُ دونَ جناحِ

وذكره ابن دحية في « المطرب » ونعته بـ « ابن خاقان » ، قال : والشيخ أبو الحجاج البيهقي يتكرر هذا ، وقيل : إنما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره في كلام الحجاوي ، وقال ابن دحية : إنّه قُتل ذبحاً بمسكنه في فندق بيت من حضرة مراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمسائة ، أشار بقتله علي بن يوسف بن ناشفين .

وقال أبو الحسن ابن سعيد : رأيت فضلاء الأندلس يستملون على الفتح أول افتتاحه في خطبة قلائده « الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا ، وشاد مشواه في أجتنتنا » لكون ما تضمنته الفقرة الأولى أصوب مما تضمنته الفقرة الثانية ، والصواب ضد ذلك ؛ انتهى .

وقال ابن الأبار في « معجم أصحاب الصدي »^١ : إنه لم يكن مرضياً ، وحذفه أولى من إثباته ؛ انتهى . ولذا لم يذكره في التكملة .

وقال ابن خاتمة : إنه لم يُعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب . وما حكاه في « الإحاطة » من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به . وحكى ابن خلكان^٢ إقولا^٣ آخر أنه توفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، قيل : وهو خطأ ، على أنه حكى القول الآخر أيضاً .

ودفن بباب الدباغين ، رحمه الله تعالى .

وقد قيل : إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أخيه إبراهيم الذي ألف برسمه « قلائد العقيان » .

وقد ذكر ابن خلكان أن المطمع ثلاث نسخ : صغرى ، ووسطى ، وكبرى ، والذي قاله ابن الخطيب وابن خاتمة وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط : صغرى ، وكبرى ، ولعله الصواب ، إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

ومن تأليف الفتح « راية المحاسن وغاية المحاسن » ومجموع في ترسيله ، وتأليف صغير في ترجمة ابن السيد البطليوسي نحو الثلاثة كرايس على منهاج القلائد^٤ .

.....

١ انظر المعجم : ٣٠٠ (رقم : ٢٨٥) .

٢ وفيات الأعيان : ٣ : ١٩٤ .

٣ هذا التأليف نقله المقرئ في أزمان الرياض : ٣ : ١٠٣ - ١٤٩ ؛ وذكر ابن عبد الملك له مؤلفاً اسمه « حنيقة المائر » ولم أجده مذكوراً عنه غيره .

[وسائل الفتح]

١ - ومن بديع إنشاء الفتح المذكور ساعه الله تعالى قوله : أطال الله تعالى بقاء الوزير الأجل ، عتادي الأُمري ، وزنادي الأورى ، وأيامه أعياد ، وللسعد في زمانه انقياد ، أما أنا - أدام الله تعالى عزه - فجوي عاتم ، وأعيادي مآتم ، وصُبْحِي عِشاء ، وما لي إلاّ من الخطوب انشاء ، أبيت بين فؤاد خافق وطرف مُسَهَّد ، فاني المحلّة من مزار العود ، حين لا أرى الروض المنور ، ولا أحس سُهيلًا إذا لاح ثم تَهَوَّر^١ ، وقد بعدت دار إليّ حبيبة ، ودنت مني حوادثُ بأدناها تؤذّي الشبيبة ، وأي عيش لمن لزم المفاوز لا يَرمِمْها ، حتى ألفه ريمها ، قد رمته النواذب فما اتقى ، وارتقت له الجوائح في وُغُور المرتقى ، بواصل النوى ولا يهجر سيراً ، ولا يزرجر في الإراحة طيراً ، قد هام بالوطن ، هيام ابن طالب بالحوض والعطن ، وحنّ إلى تلك البقاع ، حنينه إلى أثلاث القاع^٢ ، ولا سبيل أن يشعب صدر بينه شاعب ، أو تكلمه أحجار للدار وملاعب ، وليس له إلى أين يمتنع ، ولا يرى أمله يستنح ، قد طوى البلاد وبسطها ، وتطرقّ الأرض وتوسطها ، ولم يُلْغِ مَقِيلًا ، ولا وجد مَقِيلًا ، إلى الله أشكو ما أقاسي وأقاصي ، ويده الأقدام والنواصي ، ولقاؤه موعد كلّ موعد ، وكل معمر سيلركه يوماً حِمام الموعد ، وأنفذته وقد صدرتُ عن غلانة بعد أهوال لقيتها ، وأنكالٍ سَمَيْتِها ، وسفر لقيت منه نصيباً ، وكدر أعقبي وصيباً ، وإلى متى يمتزني السعد ؟ والله الأبر من قبل ومن بعد ، انتهى .

١ ق : تنور ، وصوابه « تنور » .

٢ يشير إلى يحمي بن طالب الحنفي حين اختلف عن وطنه البصرة إلى العراق وانفقر ، وهو يقول في الحنين إلى أثلاث القاع :

أيا أثلاث القاع من يعلن توضح حنيني إلى أليالكن طويل

وقد شرح ياقوت قصته في مسجم البلدان (قرقرى) .

٢ - وكتب رحمه الله تعالى من رسالة : سيدي لا علمت ارتفاعاً ، ولا حرمتَ تكيفاً من السعد وارتفاعاً ، أنا الآن مشغلُ البال ، لا أفرق بين الإعراض والإقبال ، وعند تفرغي أوجهُ لك ما حضر ، ومثلُك أرجأُ الأمر وأنظر ، وفي علم الله تعالى لو أمكنتني لحملك على كاهل ، وأوردتك منه أغلب المناهل ، وأجبت لك السعد ثغراً ترشفه ، وخلمته برُداً عليك تلتحفه ، لكن الزمان لا يبد ، وصروفه لا تنجد ، وعلى أي حال فلا بد أن نجد قبرك ، ونحمد سُرَّك ، إن شاء الله تعالى .

٣ - وكتب إلى أبي بكر بن علي^١ عند ولايته إشبيلية : أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبي بكر للأرض يتملكها ، ويستنير بسعده فلكها ، استبشر الملك وحق له الاستبشار ، وأوماً إليه السعد في ذلك وأشار ، بما اتفق له من توليتك ، وخقق عليه من ألتويتك ، فلقد حُبِّي منك بملك أمضى من السهم المسدد :

طويل نجاد السيف رَحْب المقلد

يُقدِّم حيث يتأخَّر الذابل ، ويكرم إذا بخل الوابل ، ويعمي الحمى كريمة ابن مُكْدَمْ ، ويسقي الظبي نجيماً كلون العندَمْ ، فهنيئاً للأندلس لقد استردت عهد خلفائها ، واستمدت تلك الإمامة بعد عفاها ، حتى كأن لم تمر أحاصرها ، ولم يمتد حكْمُها ولا ناصيرُها ، اللذان عمرا الرضاة والزُّهرا ، ونسكا حقائق الروم وما بذلا إلا المشرقية مهراً ، والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك ، حتى يكون عَصْرُكَ أحجب من عصرهم ، ونصرُكَ أحرَّ من

١ أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين أكبر أبناء علي وكان يعرف بـيُكُور (تصغير تحب) ، نشأ في إشبيلية ، وكان مؤدبه أبو مروان ابن زهر ، وقد ولي أمر المدينة سنة ٥١٨ هـ وحل عنها سنة ٥٢٢ هـ .

نصرهم ، والسلام ؛ انتهى .

٤ - وقال بعضهم : من أحسن ما رأيت له قوله : معاليك أشهر رؤسوماً ، وأعطر نسيماً ، من أن يغرب شهاب مسعاها ، أو يجلب لرائد مرعاها ، فإن نبهتك فإنيما فبهت عُمراً^١ ، وإن استرثك فإنيما أستير قمرأ ، والأمير أيده الله تعالى أجل من أعصم في ملكه ، وأنظم في سلكه ، فإنه حسام بيد الملك ، طلاقته فيرئده ، وشهامته حده ، وقضيب ، في حوطة الشرف رطيب ، بشره زهره ، وبره ثمره ، وقد توستت نارك لعلني أفوز منها بقبس ، أو تكون كنار موسى بالوادي المقلنس ، وعسى الأمل أن تلوو بكم قداحه ، ويشف من أفقكم مضباحه ، فجرد - أيديك الله تعالى - صارم عزم لا تغل غرويه ، واطلع كركب سعد لا يخاف غرويه ؛ انتهى .

ولنذكر بعض كلامه في « المطمح » لغرابته في هذه البلاد الشرقية بخلاف « القلائد » فإنها موجودة بأيدي الناس فيه .

[نغاذج من تراجم للمطمح]

١ - قال رحمه الله تعالى في ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي^٢ :
إمام اللغة والإعراب ، وكعبة الآداب ، أوضَحَ منها كل إبهام ، وفضح دون الجهل بها علل الأوهام ، وكان أحد ذوي الإعجاز ، وأسد أهل الاختصار والإيجاز ، نجَمَ الأندلس في إقبالها ، والأنفس أول تهتمها بالعلم واهتبالها ، فنفتت له عندهم البضاعة ، وافقت على تفضيله الجماعة ، وأشاد الحكَمُ بذكره ، فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار « العين » للخليل ، وهو معلوم

١ أخذه من قول يشار في ملح عمر بن البلاد :

إذا أيقظك حروب الداء فنبه لها عمراً ثم نم

٢ المطمح : ٥٣ - ٥٥ .

النظير والمثيل ، و «لحن العامة» و «طبقات النحويين» وكتاب «الواضح»
وسواها من كل تأليف مُخْجَلٍ لِمَنْ أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ،
كأنما يتضح من خطره يَنْبُوع ، وقد أثبت له منه ما يقترح ، ولا يطرح ،
فمن ذلك قوله :

كيف بالدينِ القديم لك من أمّ تميم
ولقد كان شفاءً من جوى القلب السقيم
يُشرقُ الحسنُ عليها في دجى الليلِ البهيم

وكتب مراجعاً :

أغرقتني في بحورِ فكري فكنتُ منها أموتُ لَمَّا^١
كلفتني غامضاً عويصاً أَرجمُ فيه الظنونَ رجماً
ما زلت أسرو السجوفَ عنه كأنني كاشفُ لظُلُمَا
أقربُ من ليلٍ ، وأناي مستبصرُ تارة وأعمى
حتى بدا مشرقُ المحيَا لَمَّا اعطى طالعاً ونمّا
لله مِن منطقي وجيزي قد جَلَّ قلداً وجلَّ فهما
أخلصتَ لله فيه قولاً سَلَمَتَ لله فيه حُكْمَا
إذ قلتَ قولَ امرئٍ حكيمٍ مراقبٍ للإلهِ علما
اللهُ ربِّي وليُّ نفسي في كلِّ بوسٍ وكلِّ نُعمى

وكتب إلى أبي مسلم ابن فهد وكان كثير التكبر ، عظيم التجبر ، متغيراً^٢
لسانه ، مقفراً من المعالم جتانه :

١ المطبع : لما .
٢ المطبع : متشراً .

أبا مسلم ، إنّ القَتَى بِقُودِهِ وَمِقْوَلِهِ لَا بِالْمَرَكَبِ وَاللَّبَسِ
وَلَيْسَ رِوَاءُ الْمَرْءِ يَغْنِي قُلَامَةً إِذَا كَانَ مَقْصُورًا عَلَى قَصْرِ النَّفْسِ
وَلَيْسَ يَفِيدُ الْحِلْمَ وَالْعِلْمَ وَالْحِجَى أبا مسلم طول القعود على الكرسي

واستدعاه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين فعجل إليه وأسرع ، فأمرع من
آماله ما أمرع ، فلمّا طالت نَوَاهُ ، واستطلت عليه تَوَعُّتُهُ وَجَوَاهُ ، وَحَنُّ
إِلَى مَسْكَنِهِ بِإِشْيِيلِهِ وَمَسْكَوَاهُ ، استأذنه فِي الْحَقِّقِ بِهَا فَلَوْمَهُ وَلَوَاهُ ، فكتب إلى
من كَانَ يَأْلَقُهُ وَيَبْوَاهُ :

وَيْحَكَ يَا مَسْكَمَ لَا تُرَاعِي لَا يَدُ نَابِيْنٍ مِنْ مَسَاعِ
لَا تَحْسِبْنِي صَبْرْتُ إِلَّا كَصَبْرِ مَيْتٍ عَلَى التَّرَاعِ
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ
مَا بَيْنَهَا وَالْحَيْصَامِ فَرْقٌ إِلَّا الْمَنَاحِلُ فِي النَّوَاعِ
إِنْ يَفْتَرِقُ شَمْلُنَا وَشَيْكَأ مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ فِي اجْتِمَاعِ
فَكُلُّ شَمْلٍ إِلَى افْتِرَاقٍ وَكُلُّ شَعْبٍ إِلَى انْصِدَاعِ
وَكُلُّ قَرَبٍ إِلَى بَعَادٍ وَكُلُّ وَصْلٍ إِلَى انْقِطَاعِ

٧ - وقال - ساعه الله تعالى - بعد ترجمة السلطان بالمرية المتصم بن صُمَادِح
ما نصّه : ابنه عزّ القولة أبو مروان محمد الله^١ ، ففى الراح المعاقِرُ لدناتها ، المهتصر
لأغصان الفتوة وأفانها ؛ المهجر لفلاة الظباء والآرام ، المشهر في باب
الصَّبَابَةِ والغرام ، نشأ في حِجْرٍ أَبِيهِ نَدِيمُ قَهْوَةٍ ، ومُدِيمُ صَبْوَةٍ ، وخديم
شَهْوَةٍ ، لَا يَرِيمُ كَأْسًا ، وَلَا يَرُومُ إِلَّا اقْتِضَاءَ وَانْتِكَاسًا ، مَا شَهِدَ قَتْلًا وَلَا
قَتْلًا ، وَلَا تَقَلَّدَ صَارِمًا إِلَّا غَتْلًا ، قَدْ أَمِنَ مِنْهُ جَنَانُ الْجَبَانِ ، وَعَدَّتْ لَهُ غُصُونُ
الْبَانِ ، وَمَا زَالَ مَرْتَضِعًا لَأَخْلَافِ الْبَطَالَةِ ، مَقْتَضِعًا مَا شَاءَ مِنْ إِطَالَةِ ، مَتَوَخِّلًا

١ لم ترد هذه الترجمة في المطبع المطبوع .

في شعاب الفتاك ، متغلغلاً في طريق الانتهاك ، إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيراً عندما بدت له وجوه الفتنة تُسْفِر ، ومعاهد الهدنة تُقْفِر ، مع أكامل أصحابهم نُقْصَانَه ، وذوي أديان جعلهم خُلُصَانَه ، يسمعون بواذر بكاذبه ، وينظرون مناكر للذاته ، فآلت سَفَرته إلى الاعتقال ، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال ، فجاء كالمهر لا يعرف بلجأ ، وصار حيس - قوم لا يألونه استعجاباً ، وحين شالت نعماته ، وسالت عليه ظلامته ، كتب إلى أبيه :

أبعدَ السنا والمعالى خمولُ وبعد ركوبِ الملاكى كُبُولُ
ومن بعد ما كنتُ حرّاً عزيزاً أنا اليومَ حيدٌ أسيرٌ ذليلُ
حللتُ رسولاً بغرناطة فعلٌ بها فيّ خطبٌ جكيلُ
وثُقِّفْتُ إذ جئتُها مرسلًا وقبلي كان يُعزِّزُ الرسولُ
فقدتُ المزيةَ أكرمَ بها فما للوصولِ إليها سَبِيلُ

فراجعه أبوه بقطعة منها :-

عزيزٌ عليّ ونوحى دليلُ على ما أقاسي ودعني يسيلُ
وقطعتُ البيضُ أغمادها وشقَّتْ بُنُودٌ وناحتْ طبولُ
لئن كنتُ يعقوبَ في حزنه ويوسفَ أنتَ فصبرٌ جميلُ

ولم يزل يتحيل في تخلصه ، وأخذ من يد مُقْتَنِصِه ، فسُرِق وحراسه منه بمكان السلك من النحر ، وطرق به على تَبَجِ البحر ، فوافى المرية ، وقد أخذ البحث عليه آفاق الهبة ، فهنيء المصمم بخلاصه ، وبقي مستقرّاً بعِراسِه ، إلى أن أخلوها ، ومضوا لطلبة ما نوهوا ، فتجا أنحوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر ، وبلجأ هو إلى أحد المرابطين لأذمة كانت بينهما وأواصر ، وأقام معه سمر لوه ، وأمير سهوه ، إلى أن انقضى أمدُّه ، وطواه سروره لا كمدُّه ، فلم يَرِ إلا

خالعاً لِعِذاره ، طالماً في ثَنِيَّاتِ اغتراره ، غير مكثرت باتضاعه ، ولا منحرف
عن ارتشاف النقي وارتضاعه ، وبدا منه في هذه الحال ندى كاثّر به السحاب ،
وظاهر بسببه الصّحاب ، وتحدّم الأوطار ، وتقدم للنوي الرتب فيها والأخطار ،
[تقدماً] حَسَن من ذكره ، وأولع الألسن بشكره ، فارتفع عنه الكدح ، وشقّع
له في الذم ذلك المدح ، وكان نظمه بديع الوصف ، رفيع الرّصف ، وقد أثبت
له ما يشهد بإجاده وإحسانه ، شهادة الروض بجود نيسانه .

أخبرني ابن القطان أنه سابر الأمير يحيى بن أبي بكر إلى طُلَيْطَلَة في جيوش
فاضت سيلاً ، وخاضت المطايا قتامها لئلاً ، وكان ملكاً لم يُعقّد على مثله
لواء ، ولم يحتو على شيهيه حواء ؛ جمال مُحَيّا ، وكمال عكيا ، وحسن شيم ،
وبعد هيم ، أغنى العفاة ، وأحيا الرفات ، وألغى الأجواد ، وأنسى كعب
ابن مامة وابن أبي ذرّاد ، فلمّا شارف طُلَيْطَلَة وكشفها ، واشتفّ بلالتها
وارتشفها ، وضرب بكفنها مَضارِبَه ، وأجال بساحتها زَنجَه وأعارِبَه ، سقط
أحدُ ألويته عن يد حامله ، وانكسر عند عامله ، فطاقة تفاعلت ، وطاقة تطيرت ،
وفرقه ابتهجت ، وأخرى تغيرت ، فقال :

لَمْ يَنْكَسِرْ عَوْدُ التَّوَلَه لَطِيرَه يُخْشَى عَلَيْكَ بِهَا وَأَنْ تَتَأَوَّلَا
لَكِنْ تَحْفَتُ أَنَّهُ يَنْدُقُ فِي نَحْرِ الْعِدَا وَلَدَى الْوَعَى فَتَعَجَّلَا

وأخبرني أخوه رفيع الدولة أن ابن اللبابة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه ،
وقصر بوسه ، وكدر صفاءه ، وغلر وفاءه ، وطوى ميدان جوده ، وأذوى
أفنان وجوده ، قوله ٢ :

يَا ذَا الَّذِي هَزَّ أَمْدَاحِي بِحَلِيَّتِهِ وَعَزَّه أَنْ يَهْزَ الْمَجْدُ وَالْكَرَمَا

١ الحواء : مضرب الأعراب .

٢ مر البيتان وجوابهما في التفع ج ٣ : ٣٩٦ .

واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذْ عَلَيْهِ لآيَامِ الْمُنَى سَكَمًا
فَدَعَتْهُ دَوَاعِي النَّدَى ، وأولعته بالجد في ذلك المدى ، فتحيل في برّ طبعه ،
وكتب معه :

المجد يُنجل من تقلبك في زمنٍ ثنائه عن واجب البرّ الذي علما
قدونك التزمين مصفٍ مودته حتى يوفيك أيامَ المنى سَكَمًا
٣ - ابنه الثاني : رفيع الدولة أبو يحيى ابن المعتصم :

من بيت إماره ، والى السعد طوافه^١ بها واعتماده ، صمرت أنديته ،
ونشرت به رايات العزّ وألويته ، إلى أن خوى كوكبهم ، وهوى مرقبهم ،
فضرقوا أيادي سبّا ، وفرقوا من وقع الأسنة والظبي ، وفارقوا أرضاً كأرض
غسان ، ووافقوا أياماً كيوم أهل اليمامة مع حسان ، بعدما خامرت النفوس
مكارمهم غامرة الرحيق ، وأمسهم الناس من كل مكان سحيق ، وانتجعوا
انتجاع الأنواء ، واستطعموا في المحل والأواء ، وصالوا بالدهر وسطّوا ،
وبين النهي والأمر فيه خطّوا ، ورفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح ، وضوء
ذلك المصباح ، وغصن تلك الدوحة ، ونسيم تلك النفحة ، لم يمتحن والدهر قد
بذله ، ولا ترك الانتصار والأمر قد خذله ، فالتحف بالصون وارتدى ، وراح
على الانقباض واغتدى ، فما تلقاه إلا سالكاً جددًا ، ولا تراه إلا لابساً سودًا ،
وله أدب كالروض المجود إذا أزهى ، ونظم كزهر التهائم والنجود بل كالصبح
إذا أسفر واشتهر ، أوقفه على النسيب ، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب ، فمن ذلك
قوله^٢ :

١ المطبوع : ثنية .

٢ المطبوع : حجه .

٣ انظر أيضاً بعض هذه المقطعات في الحلة ١ : ٨٣ - ٨٤ .

ما لي ولليدر لم يسمح بزورته
إن كان ذاك للذنب ما شمرت به
وله أيضاً :

يا عابدَ الرحمنِ كم ليلة
إذ كنت كالنصيرِ تَنْتَه العبياءُ
أرقتني وجداً ولمْ تشعر
وصحن ذاك الخدَّ لم يشعر
وله أيضاً :

وأهيفَ لا يلوي على عتبِ عاتبِ
يحكمُ لنا أمره فتطيعه
ويقفني .طينا بالظنونِ الكواذبِ
ونحسب منه الحكمُ ضربة لازبِ
وله أيضاً رحمه الله تعالى :

وعليَّته حلَّو الشماثلِ ماجئاً
ما زلتُ أنصفه وأوجبُ حقَّه
خنتَ الكلامِ مرَّح الأعطافِ
لكنَّه يابى من الإنصافِ
وله أيضاً :

حيبٌ متى يتأى عن العينِ شخصه
ويسكن ما بين الضلوعِ إذا بكأ
يكادُ فؤادي أن يطير من البينِ
كانَ على قلبي تعائم من عينِ
وله أيضاً :

أفتدي أبا عمرو وإن كان جانياً
فما كان ذاك الود إلا كبارقِ
عليّ ذنوباً لا تعدُّ بالعتبِ
أضياء لميتي ثمَّ أظلم للقلبِ

١ المطمح : بالهت .

٢ المطمح : في الوقت .

وله وقد بلغه موثي ، وتحقق عنده فوق^١ :

مضى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر والأقلام والطُرُس
ما كنت أحسب يوماً قبل ميثته أن البلاغة والآداب تختلص

واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده في أسنى موضع ، وأبى مطلع ،
وجوانب حَقْدِهِ بين يدي عتلة ، وسحائب رفته عليّ مُنْهَلَةً ، وكان
أجمل مَنْ مَقِيلٌ ، وأكل مَنْ مِنْ المهد إلى سرير الملك قد نُقِلَ ، وكتب
إليّ يهنئني بقعود من سفر :

قلمت أبا نصير على حال وَحْشَةٍ فجاءت بك الآمال واتصل الأنس
وقرت بك العيَّان واتصل المني وفازت على يأس بيغيها النفس
فأفانلاً وسهلاً بالوزارة كلَّها ومن رأيه في كل مظلمة شمس

٤ - وقال في الملمح في ترجمة الوزير أبي الوليد ابن حزم^٢ : - واحد^٣ دونه
الجمع ، وهو للجلالة بصر وسمع ، روضة علاه راققة السنا ، ودوحة بهاه
طيبة الخنى ، لم يتزر بغير الصون ، ولم يشتهر بفساد بعدد الكون ، مع نفس
برئت من الكبر ، وخلصت خلوص التبر ، مع عفاف التحف به بروداً ،
وما ارتشف به ثغراً بروداً ، فمعت مواطنه ، وما استرايت ظواهره ولا بواطنه ،
وأما شعره ففي قالب الإحسان أفرغ ، وعلى وجه الاستحسان يلتقى ويبلغ ،
وكتب إليه ابن زُهر :

أبا الوليد وأنت سيد مدحج هلاك فككت أسير قبضة وعنده
وحياة من أمد الحياة بوصله وذئابها حتماً بأيسر خدّه

١ لم ترد في الملمح .

٢ الملمح : ٣١ - ٣٤ .

لَأَقَاتِلَنَّكَ إِنْ قَطَعْتَ بِمُرْهَفٍ مِّنْ جَفْنِهِ وَبَصْعَةٍ مِّنْ قَدِّهِ
فراجعهُ أَبُو الْوَلِيدِ :

لَبَيْكَ يَا أَسَدَ الْبَرِيَّةِ كُلُّهَا مِنْ صَادِقٍ حَيْثُ الْمَطَالُ بُوْعَدُهُ
يَمْضِي بِأَمْرِكَ سَاءَ أَوْ سَرَّ الْقَضَا وَيَقْلُ حَدَّ النَّائِبَاتِ بِحَدِّهِ
إِلَيْهِ وَوَأَقْبَتِ الصَّبَا فِي مَعْرُضٍ ذَهَبَ الْمَشِيبُ بِهِزَلِهِ وَبِجَدِّهِ

٥ - وقال في المَطْمَحِ في ترجمة أَبِي بَكْرٍ الْفَسَّانِي ، ما صورته ^١ :
صَلِيبُ الْعُودِ ، مَهَيْبُ الْوُعود ، لَوْ دَعَى لَهُ الْأَسَدُ الْوَرْدَ لِأَجَابِ ، وَلَوْ رَمَى
بِذِكْرِهِ اللَّيْلُ الْبَهِيمَ لِأَنْجَابِ ، وَلَوْ قَعَدَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَطْوَادُ لِتَحْرُكِ سِكُونِهَا ،
وَلَوْ عَصَتْهُ الطُّيُورُ مَا أَوْتَاهَا وَكُونِهَا ، مَعَ وَقَارِ تَحَالِهِ يَدَبُهَا ، وَفَخَارِ يَفْضَحِ
يُبْلَاهَا ، وَشَيْمَ لَوْ كَانَتْ بِالرُّوضِ مَا ذَوَى ، أَوْ تَقَاسَمَتْ فِي الْخُلُقِ مَا رَمَدَ
أَحَدٌ بَعْدَمَا شَوَى ، وَسَجَايَا تَنْجَلِي عَنْهَا الظُّلُمَاءُ ، كَأَنْ مَزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ ، أَنْتَهَى .
وهذا الفسائي هو صاحب تفسير القرآن وقد عرّف به في «الإحاطة»
فليراجع ثمة .

٦ - وقال أيضاً في المَطْمَحِ ما صورته : أَبُو عَامِرٍ ابْنُ حَقَالٍ ^٢ .
كَانَ لَهُ بَيْتِي قَاسِمٌ تَعْلُقُ ، وَفِي سَمَاءِ دَوْلَتِهِمْ تَأْتِقُ ، فَلَمَّا خَوَتْ نَجْمُوهُمْ ،
وَعَقَبَتْ رَسْمُوهُمْ ، انْحَطَّ عَنْ ذَلِكَ الْخُصُوصُ ، وَسَقَطَ سَقُوطُ الطَّائِرِ الْمَقْصُوصُ ،
وَتَصَرَّفَ بَيْنَ وُجُودٍ وَعَدَمٍ ، وَتَحَرَّفَ قَاعِدُهُ حِينًا وَحِينًا عَلَى قَدَمٍ ، وَفِي
خِلَالِ حَالِهِ ، وَأَثْنَاءِ انْتِحَالِهِ ، لَمْ يَدَعْ حِفْظَهُ ^٣ مِنَ الْحَيْبِ ، وَلَا ثَمَى لِحِظِهِ

١ لم ترد هذه الترجمة في المطمح المطبوع .
٢ المطمح : ٨٦ - ٨٧ وكتبه فيه «ابن حقال» وقد مر في غير موطن من هذا الكتاب «أبن صيال»
ويتصمف كثيرا «ابن حقال» . . . إلخ .
٣ المطمح : خطأ .

عن الغزال الريب ، ولم يزل يطير ويقع ، والدهر يحرق حاله ويرقع ^١ ، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى أعلى ربوة ^٢ ، وأراه ^٣ أبهى حظوة ، فأدرك عنده رتبة أعلام التحير والإنشا ، وترك الدهر قلق الحشا ، وتسم منزلة لا يتسمها إلا من تظهر من حركه ، وجمع إحسانه في ميدان حره ^٤ ، والحظوظ أقسام لا تُسام ، والدنيا إنارة وإعتام ^٥ :

ولو لم يعمل إلا ذو محلّ تعالى الجيش. وأخطّ القَتَامُ ^٦

وقد أثبت عنه بعض ما انتقته ، والذي أخلته مبان لما أبقته ، فمن ذلك قوله :

يا ويح أجسام الأنّا م لما تطيق من الأذى
 خلقت لتقوى بالغدا ه وسقمها ذاك الغدا
 وتتل أيام السلا مة بالحياة تلذا
 فإذا انقضى زمن الصبا ورمى المشيب فألفدا
 وجد السقام إلى المفاصل والحوانع مثدا
 ويقول مهما يحط شي ثأ ناولوني غير ذا

وحذا في هذه القصيدة حدّو الصابي في قوله ^٦ :

وجعُ المفاصل وهو أيد سرّما لقيت من الأذى
 ردّ الذي استحسنته والناس من حظّي كذا
 والعمر مثل الكاس ير سبّ في أول آخرها القذى

١ المطيح : ينفض . . . ويرقع .

٢ المطيح : إلى أسمى ذروة .

٣ المطيح : ورداه .

٤ زاد في المطيح : وصفاء يتلوه قدام .

٥ البيت المتنبي (شرح الواحدي : ١٦٢) .

٦ البيت ٢ : ٣٠٠ .

وله يعتذر عن زيارة اعتقدها ، ومواصلة اعتقدها ، فعاثته عنها حوادثُ
لَوْنَهُ ، وعَدَّتْهُ عن ذلك وَثَنَتْهُ :

بَيْنَمَا كُنْتُ رَاجِئًا لِلِقَائِهِ وَالتَّشَفِّيَ بِالْبِشْرِ مِنْ تِلْقَائِهِ
وَتَرَقَّبْتُ مِنْ سَمَاءِ نَزَاعِي قَمَرَ الْأَنْسِ طَالِعًا مِنْ سَمَائِهِ
إِذْ دَهَانِي اصْتِرَاضُ خُطْبِ ثَنَائِي عَنْ غَمَامِ يَشْفِي الْغَلِيلَ بِغَائِهِ
فَتَدَلَّهْتُ وَانْزَوَيْتُ حَيَاءً مِنْهُ وَالْعِلْرُ وَاضِحٌ لِسَانِهِ

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة
خمس عشرة وخمسمائة : وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جَوَازُهُ — أيده
الله تعالى — من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه ،
وسَهْلٌ بعد أن رأى الشامخ من مضابه ، وصار حَيْثُ مَيْتًا ، وهدره صَمْتًا ،
وجباله لا ترى فيها عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ، وضعف تعاطيه ، وعقد السلم بين
مَرْجِه وشاطيه ، فعبّر أَمْنًا من لُحَوَاتِهِ ، متملِّكًا لَصَهْوَاتِهِ ، على جواد يقطع
الْخَوْ سَهْبًا ، ويكاد يسبق البرق لَمَحًا ، لم يحمل لِحَامًا وَلَا مَرْجًا ، ولا عهد
غير اللجّة الخضراء مَرْجًا ، عَيْنَانِهِ فِي رِجْلِهِ ، وَهَدْبُ الْعَيْنِ يَحْكِي بِعُضْ شَكْلِهِ ،
فَلَلَّهُ هُوَ مِنْ جَوَادٍ ، له جسم وليس له فؤاد ، يخرق الهواء ولا يَرْهَبُهُ ، ويركض
الماء ولا يشره .

٧ — وقال في ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبري ،
ما نصّه :

مِنْ ثَنِيَّةٍ شَرَفٍ وَحَسَبٍ ، وَمِنْ أَهْلِ حَلِيتٍ وَأَدَبٍ ، إِمَامٌ فِي اللُّغَةِ مُتَقَدِّمٌ ،
فَارِعٌ لِرُتَبِ الشُّعْرِ مُتَسَتِّمٌ ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد

المطبع : ٥٥ .

وقد تَوَجَّ بالمعارف المَشْرِق ، وأقام بقرطبة علماً من أعلامها ، ومُسَمَّناً لرفعها وإعظامها ، تَوَثَّره الدُّوَل ، وتصطفيه أُمَلَّاكُهَا الأول ، ما زال فيها مقيماً ، ولا يرح عن طريق أمانيتها مستقيماً ، إلى أن اغتيلَ في إحدى اللَّيَالِي بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولاً في فراشه ، مذهولاً كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكشافه ، وقد أثبت من محاسنه ما يجب السامع ، وتُصَنَّفِي إليه السامع ، فمن ذلك قوله :

وضاعفَ ما بالقلبِ يومَ رحيلهمْ . على ما به منهم حينُ الأباصرِ
وأصبرُ عن أحبابِ قلبٍ ترحلوا . ألا إنَّ قلبي سائرٌ غير صابرِ
ولمَّا رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم ، فلمَّا رأى تلك الكثرة ، وما له عندهم من الأثرة ، قال :

إنِّي إذا حضرتي ألفُ عِبرة . يكتبن حدثني طوراً ولُحبرني
نادتُ بمفخري الأَقلامُ مَعْنَةً . هذي المفاخر لا قَعَبَانِ من لَبِنِ

وكتب إلى ذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيلون :

أبا الوليد وما شَعَطَتْ بنا الدارُ . وقلَّ مِنَّا ومِنكَ اليومَ زوَارُ
وبيتنا كلُّ ما تدره من ذِمَمٍ . وللصِّبَا ورقٌ خضرٌ وأنوارُ
وكلُّ عتبٍ وإعتابٍ جَرَى ظله . بدائعٌ حلوةٌ عسلي وأثارُ
فاذكر أخاكَ بخيرِ كلِّما لَبِيتُ . بهِ اللَّيَالِي فإنَّ الدهرَ دَوَارُ

٨ - وقال في ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عبد
ربه :

١ سقط هذا البيت من ق .

٢ المطبع : ٥١ - ٥٣ . وبعض مقطعات ابن عبد ربه وردت في الأجزاء السابقة .

عالم ساد بالعلم ورأس ، واقتبس به من الخطوة ما اقتبس ، وشهر بالأندلس
 حتى سار إلى المشرق ذكره ، واستطار شرر الذكاء فكره ، وكانت له عناية
 بالعلم وثقة ، ورواية له متسقة ، وأما الأدب فهو — كان — حجة ، وبه
 غمرت الأفهام بلطفه ، مع صيانة وورع ، وديانة ورد مامعا فكترع ، وله
 التأليف المشهور الذي سماه «العقد» ، وحماه عن عثرات النقد ، لأنه أبرزه
 مؤتلف القناة ، مرهف الشبابة ، تقصّر عنه ثواب الألباب ، وتبصر السحر
 منه في كل باب ، وله شعر انتهى منتهاه ، وتجاوز سحاك الإحسان وسماه .
 أخبرني ابن حزم أنه مرّ بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه
 غناء أذهب لبّه ، وأضرب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رُشّ بماء من
 أعاليه ، فاستدعى رقعة ، وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة :

يَا مَنْ يَضُنُّ بِصَوْتِ الطَّائِرِ الْفَرْدِ مَا كُنْتُ أَحْسِبُ هَذَا الضَّنَّ فِي أَحَدٍ
 لَوْ أَنَّ أَسْمَاحَ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً أَصَفْتُ إِلَى الصَّوْتِ لَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَزِدْ
 قَلْبًا فَضَّنَ عَلَى سَمْعِي وَمَنْ بِهِ صَوْتًا يَحُولُ بِجَالِ الرُّوحِ فِي الْجَسَدِ
 أَمَّا النَّيِّدُ فَإِنِّي لَسْتُ أَشْرِبُهُ وَلَا أَجِيْتُكَ إِلَّا كَيْسَرْتِي بِيَدِي

وعزّم في كان يتألفه ، وخامره ككفّه ، على الرحيل في غده ، فأذهبت
 حزمته قوى جكّده ، فلما أصبح عاقته السماء بالأتواء ، وساقته مكرها إلى
 التواء ، فاستراح أبو عمر من كئده ، وانفسح له من التواصل ضائق أمّده ،
 فكتب إلى المذكور ، العازم على البكور :

هَلَا ابْتَكُرْتَ لِيْنِ أَنْتَ مَبْتَكُرٌ هِيَهَاتِ يَا بِيْهِكَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ
 مَا زِلْتُ أَبْكِي حِيَارَ الْبَيْنِ مَلْتَبَاً حَتَّى رَأَيْتُ لِيْ فَيْكَ الرِّيحُ وَالْمَطَرُ
 يَا بَرْدَهُ مِنْ حَيَا مَزْنٍ عَلَى كَبْدٍ نِيرَانَهَا بِفَكْلِيلِ الشُّوقِ - تَسْتَعْرِ
 أَلَيْتُ أَنْ لَا أَرَى شَمْساً وَلَا قَمَرًا حَتَّى أَرَاكَ فَانْتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

ومن شعره الذي صرّح به تصريح الصب ، ويرجّ فيه وقائع اسم الحب ،
قوله :

الجسمُ في بلدٍ والروحُ في بلدٍ يا وحشةَ الروحِ بل يا غربةَ الجسدِ
إن تبك عيناك لي يا مَنْ كلفتُ بهِ من رحمةٍ فهما سهماك في كبدي

ومنه قوله :

ودّعني بزفرةٍ واعتاقٍ ثمّ نادتُ متى يكونُ التلاقي
وبدتُ لي فأشرق الصبحُ منها بينَ تلكَ الجيوبِ والأطواقِ
يلسّمُ الجفونَ من غيرِ سقمٍ بينَ عينيكَ مصرعَ العشاقِ
إنّ يومَ الفراقِ أظعُّ يومٍ ليتني متُّ قبلَ يومِ الفراقِ

وله أيضاً :

يا ذا الذي تحطّ الجمالُ بخدّه خطّينِ هاجما لوعةً وبلا بلا
ما صبحَ عندي أن لحظك صارمٌ حتى لبستَ بعارضيكَ حمائلًا

وأخبرني بعضهم أن الخطيب أبا الوليد ابن عيال^١ حجج ، فلمّا انصرف ،
تطلّع إلى لقاء المتنبي واستشرف ، ورأى أن لقاءه فائدة يكتبها ، وحلّة فخر لا
يحتسبها ، فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلاً ، ثمّ
قال : أنشدني المبحر الأندلس ، يعني ابن عبد ربّه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً يسّبي العقولَ أتيقاً ورثاً بتقطعِ القلوبِ رفيقاً
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ درأَ يعودُ من الحياهِ عقيقاً

١ المطح : بزورة .

٢ كذا هنا وفي بعض أصول المطح : ابن مقال .

وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غربقا
 يا من قطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا
 فلما أكل إنشادها استعادها منه ، وقال : يا ابن عبد ربته ، لقد تأتيت
 العراق حبوا .

وله أيضا :

ومعدّر نقش الجمال بخطه خدأ له بدم القلوب مضرجا
 لما يقن أن سيف جفونه من نرجس جمل النجاد بنفسجا
 وله أيضا :

وساحبة فضل الديول كأنها قضيب من الرمان فوق كبيب
 إذا ما بدت من ثغرها قال صاحبي أطفي وخذ من وصلها بنصيب
 وله أيضا :

هتج الشوق دواحي سقي وكسا الجسم ثياب الأكر
 أبها الين أفلتي مرة فإذا عدت فقد حل دمي
 يا خلي الدرع ثم في خبطة إن من فارقه لم ينم
 ولقد حاج بجسي سقما حب من لو شاء داوى سقي

وبلغ سن عوف بن مُحكم^١ ، واحترف بذلك اعتراف متلّم ، عندما وقعت
 شدته ، وبلبت جِدُّه ، وهو آخر شعر قال ، ثم عثر في أذيال الردى وما
 استقال :

١ هو القائل :

إن الصائين وبلتها قد أحوجت سمي إلى ترجمان

كِلَانِي لِمَا بِي عَازِلِيْ كَفَانِي طَوِيْتُ زَمَانِي بِرُهَةٍ وَطَوَانِي
 بَكَيْتُ وَأَبْلَيْتُ الْآبَالِيَّ مَكْرَهًا وَصَرَفَانِ لِلْأَيْسَامِ مَعْتَوَانِ
 وَمَا لِي لَا أَبْلَى لِسَبْعِينَ حِجَةً وَعَشْرِي أَنْتَ مِنْ بَعْدَهَا سَتَانِ
 فَلَا تَسْأَلَانِي عَنْ تَبَارِيحِ عَلَيَّ وَدُونَكُمَا مَنِّي الَّذِي تَرِيَانِ
 وَإِنِّي بِحَوْلِ اللَّهِ رَاجِعٌ لِفَضْلِهِ وَلِي مِنْ ضَمَانِ اللَّهِ خَيْرُ ضَمَانِ
 وَلَسْتُ أَبَالِي مِنْ تَبَارِيحِ عَلَيَّ إِذَا كَانَ عَقْلِي بَاقِيًا وَلِسَانِي

وفي أيام إقلاعه عن صَبَّوته ، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوْبَيْتِهِ ، وانشائه عن
 مجون المجون إلى صفاء توبته ، محص أشعاره في الغزل بما ينافيها ، ونصل من
 قوادمها وخوافيها ، بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها ، منها القطعة
 التي أولها :

هَلَا ابْتَكُرْتَ لِيْنِ أَنْتَ مُبْتَكِرُ

محصلها بقوله :

يَا رَاقِدًا لَيْسَ يَعْصُو حِينَ يَمْتَكِرُ مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظِرُ
 عَابِنٌ بِقَبْلِكَ إِنَّ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا سَقَرُ
 سَوْدَاءُ تَزْفَرُ مِنْ غَيْظٍ إِذَا سَفَرَتْ لِلظَّالِمِينَ هَلَا تُبْقِي وَلَا تَلْرُ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ الْمَوْتِ مَوْعِظَةٌ لَكَانَ فِيهِ عَنِ اللَّذَاتِ مُزْدَجَرُ
 أَنْتَ الْمَقُولُ لَهُ مَا قُلْتُ مُبْتَدَأً : هَلَا ابْتَكُرْتَ لِيْنِ أَنْتَ مُبْتَكِرُ

٩ - وقال في ترجمة أبي القاسم المنشي ، ما صورته ^١ :

أَبُو الْقَاسِمِ الْمُنَشِّي ، أَحَدُ أَبْنَاءِ حَضْرَةِ إِشْبِيلِيَةِ الْمُقَلِّينَ ، النَّاهِضِينَ بِأَعْبَاءِ

١ الطبع : ٨٨ والنص يختلف عما أورده المقرئ .

٢ الطبع : أنباء .

الضرائر المستقلّين ، لم يزل يَعْشُو لكل ضوه ، ويتجعّ مصاب كل نوء ،
 فيوماً يَنْصَب ويوماً يَجْدِب ، وآونة يفرح وأخرى يتندب ، إلى أن صدق
 غايله ، فرمقت بْخوته ونحايله ، وأتى من العجب ، بمنسلل الحُجُب ، ومن
 الأشر ، ما لم يأت من بَشَر ، وما تصرف إلاّ في أنزل الأعمال ، ولا تعرف
 إلاّ بأخون العمال ، لم يَشْرَحْ رَبُّوّة ظهور ، ولم يقرع باب رجل مشهور ،
 وله أدب ولحسن ، ومذهب فيهمد يُسْتَحْسَن ، لكنّه نكب عن المقطع الجزل ،
 وذَهَبَ ملهَب المزول ، إلا في النادر فرمعا جَدّ ، ثم أخلق منه ما استجدّ ، وعاد
 إلى دَيْدَنه ، عودة أبي عباد إلى واواته ومُدنه ، وأخذ في ذلك الغرض ، وليس
 شرط كتابي بداءه ، ولا أن يقف حلّاه ، وقد أثبت له ما هو عندي نافع ،
 ولغرض كتابي موافق ، فمن ذلك قوله :

يا رَوْيْصَة يا تانت الأنداء مَحْنَمُها أُمّي النسيمُ وهذا أولُ السَّحَرِ
 إن كانَ قدْكَ غَصْبًا فالزَّواءِ بِهِ مثلُ الكَبائِمِ قد زُرْتُ على الزَّهَرِ
 أربأُ بِخُلَيْكٍ عن وردٍ وعن زَهَرٍ واغْنِ بِقَريطِكَ عن شمسٍ وعن قمرِ
 يا قاتِلَ الله لحظي كم شقيتُ بِهِ من حيثُ كان نعيمُ الناسِ بالنظرِ

وله من رثاء في والدي رحمه الله عليها :

يا ناصحي غيرَ مفتاتٍ ولا شجنٍ على النَّصائحِ والنَّصاحِ مفتاتُ
 لا أَسْتَجيبُ ولو ناديتُ من كَشَبٍ قد وفدتني تعلاتٌ وعلاتُ
 إن كانَ رأيك في برّي وتكرمي بحيثُ قد ظهرتُ منه علاماتُ
 لا ترضَ لي غيرَ شجي لا أفاقه فلذلكَ أختارهُ والناسُ أشتاتُ

ومنها :

يا ذا الوزارة من مثني وواحدةٍ لله ما اصطنعتُ منكَ الوزاراتُ

١ أهر عباد هو عبد المني ، وعمله أخان له تسمى حصون مريد .

لله منك أبا نصر أخو جلد إذا أَلَّتْ مَلَمَّاتٌ مَهَمَّاتٌ
 أَسْتَوْدَعُ اللَّهَ نَوْرًا ضَمَّهُ كَفَنٌ كما تَوَارِي بِلَوْرِ أَلَمٍّ هَالَاتٌ
 قَضَيْتُ وَلَيْتُ شِبَابِي كَانَ مَوْضِعَهَا هِيَهَاتُ ؛ لَوْ قُضِيَتْ تِلْكَ اللَّيَّانَاتُ
 مَضَتْ وَلَمْ يَقُمْ مِنْ دُونِهَا أَحَدٌ هَلَا وَقَدْ أَغْلَزْتُ فِيهَا الْمَرْوَاتُ
 وله يُصِفُ زُرُورًا :

أَمْنَزْ ذَاكَ أَمْ قَضِيْبُ يَفْرَعُهُ مِصْمَقٌ خَطِيْبُ
 يَخْتَالُ فِي بُرْدَتِي شِبَابٍ لَمْ يَتَوَضَّعْ بِهَا مَشِيْبُ
 كَأَنَّمَا ضَمَّتْ عَلَى أَبْرَادَهُ مَسْكَةٌ وَطِيْبُ
 أَخْرَضُ لَكَنَّهُ لَصِيْحٌ أَبْسَلُهُ لَكَنَّهُ لِيْبُ
 جَهْمٌ عَلَى أَنَّهُ وَسِيْمٌ صَبَّ عَلَى أَنَّهُ أَرِيْبُ

١٠ — أبو الحسن البرقي ١ :

بلنسي الدار ، نقيسي المقدار ، ما سمعت له بشرف ، ولا علمت له بسلف ،
 ولا اطلعت منه على غير سرف ، ورد لإشيلية سنة تسع وتسعين وأربعمائة ٢ ،
 واتصل بآبن زُهر ، فتأهيك من حظ في أكتافه جال ، ومن لحظ فيما أرادته أجال ،
 ومن أمل استوفر ، وحظ مسك أذفر ، ومن وجه جاء له أسفر ، سلك به ساحة
 الرغائب ، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب ، وقال فما نبئت مقالته ، وأقال
 فما قيَّدت إقالته ، وكان حلو المجالسة ، مجلوا الموانسة ، ذا تشب وافر ،
 وملهب في المسأمة سافر ، إلا أنه كان كلفاً بالفتيان ، مُعْتَنَى بهم في كل
 الأحيان ، ونيف على السبعين وهو برداء الصبوة مرتد ، ويعترتها معتد ،
 مع أدب زهرته ترف ، وكأنه بحر والألباب منه تغفر ، وقد أثبت له بعض

١ المطلع : ٨٩ .

٢ المطلع : سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ما وجدت له في الغلمان ، وأنشدت له في تلك الأزمان ، فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

إن ذكرتَ العقيقَ هاجك شوقٌ رُبَّ شوقٍ يبيحُنهُ الادِّكارُ
يا خليليَّ حدِّثاني عن الرَّوكِ بِسُحَيْرٍ أَأُنْجِلُوا أمْ أَعَارُوا
شغلونا عَنِ الوَداعِ وولوا ما عَلَيْنِهِمْ لَوْدُهُوا ثَمَّ سَارُوا
أنا أَهْوَائِهِمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ عدلوا في هَوايِهِمْ أمْ جَارُوا

وعلق بلشيلية في يُعرف بابن المكر ، وبات من حبه طريحاً بين أيدي الوسواس والفكر ، لا يمشي إلا صَبّاً ، ولا يقشي إلا غراماً وحُبّاً ، وما زال يقاسي لوعته ، مقاساة يناجي بها صرعه ، ويكابد جواه ، ويلازم هواه ، حتى اكتسى خده بالعدار ، وانمحت عنه بهجة آذار ، فسلا من كلفه ، وتصدى ذلك لمواصلته بصلفه ، فقال :

الآنَ لَمَّا صَوَّحَتْ وَجَنائُهُ شوكتاً وَأَضَحَّتْ سَلْوَةَ العِشاقِ
واستوحشتْ منه المحاسنُ واكتستْ أنوارُ وجهك واهنَ الأخلاقِ
أُسيّتَ تَبْدُلُ لي الوصالَ تَمَنُّعاً خلقُ اللثيمِ وشيعةُ السَّدَاقِ
هلاً وعلتْ إذ الشمالُ قهوةً وإذ المحيّا روضةُ الأحداقِ
يا كم أَطَلَّتْ غَرامَ قَلْبٍ مُوجِعٍ كم قَدَّ أَلْبَ إِلَيْكَ بالأشواقِ
ما كنتَ إلا البُلورَ ليلَةَ نَمَةٍ حتى قَضَيْتَ لَكَ لَيْلَةً بِمِحاكِ
لَا حَ الفِئْدَارُ فَكَلْتُ وَجَدْتُ نازِحَ إِنَّ ابنَ دَايَةِ مؤذِنُ بِغِراقِ

وله فيه مناقضاً لذلك الغرض ، معارضاً للوعة سلوه الذي كان عرض :

يلومون في ظيهر تزايد حُسْنُهُ بِخَطَّينِ خطًّا لوعي وغراميا

وقد كنتُ أهوى خدّه وهو عاطلٌ فكيفَ وقد أضحيَ لعينيَ حالياً

وله أيضاً في مثله :

أجبلُ الطرفِ في خدّ نضيرٍ يرددُ ناظري نظري إليه
إذا رمِدَتْ بحمرته جفوني شقّاها منهُ إثمُ عارضيه

١١ - أبو الحسن علي بن جودي :

برّز في الفهم ، وأحرز منه أوفر سهم ، وعانى العلوم بقرينة ذكية ،
وواخى بنفس في المعارف زكية ، وله أدب واسع مداه ، يانع كالروض بلّله
نداه ، ونظم أرق من دمع العاني ، ولطيف المعاني ، وأعيت من نفس الحمائل ،
في أكف الصبا والشمال ، ونثر كالزهر المَطْلُول ، أو السلك المحلول ، إلا
أنه سها فأسرف ، وزها بما لا يعرف ، وتصدى إلى الدين بالافتراء ، ولم يراقب
الله تعالى في ذلك الاجترأ ، واشتهرت عنه في ذلك أقوال سدّ إلى الملة نصالها ،
وأبدى بها ضلالها ، فمظّمت به المحنة ، وكنت له في كل نفس إحنة ، وما زال
يتدرّج فيها ويتقل ، حتى عثر وما كاد يستقل ، فمر لا يُلَوِّي على تلك التواحي ،
وفرّ لا يبتني إلى لوائهم ولواحي ، وما زال يركب الأهواء ويخوضها ، ويدلل
النفس بها ويروّضها ، حتى أسمحت ببعض الإسماح ، وكفّت عن ذلك الجملاح ،
واستقر عند أبي مالك فأواه ، ومهدّ له مشواه ، وجعله في جملة من اختص من
المبطلين ، واستخلص من المظللين ، فكثيراً ما يصطفيه ، ولا يندري أبدّخرهم
أم يقتنيه ، وقد أثبت له ما يهر سامعاً ، ويظهر برقاً لامعاً ، فمن ذلك قوله :

أحنُّ إلى ربيع الشمالِ فإنّها تذكّرنا نجداً وما ذكرنا نجداً
تمسّر على ربيعِ أقام به الهوى وبذلك من أهليه جامعة رُبنداً

١ المطبوع : ٩٠ وبين التصيين اختلاف .

فَارْتَشَفَ اللَّمْبِيَا وَأَعْتَقَ الْقَدَا
خَلِيلِي لَا وَاللَّهِ مَا أَحْمِلُ الْهَوَى
وقوله أيضاً :

لَسَاكِنُ نَجْدٍ قَدْ عَمَلَهَا الرِّكْبُ
خُفَافًا وَمَا لِلرِّيحِ مَرْجِعُهَا رَطْبُ
وقوله أيضاً :

إِذَا ارْتَحَلْتَ غَرِيبةً فَاغْرَضْ لَهَا
لَقَدْ سَامَنَا أَنَا بَغِيدٌ وَأَنْتَا
يَفْجَعُنَا إِسَاءَ بَعْسَادٍ مَبْرَحٌ
ظَعْنًا عَلَى حَكَمِ النَّيَالِي وَخَطْبَهَا
وَكُنْتُ أَرْجُو الدَّمْعَ بَعْدَ الَّذِي مَضَى
أَحَقًّا سِيرُ الرِّكْبُ لَمْ تَرْتَحِلْ بَيْنَا
وقوله أيضاً :

لَقَدْ هَيَّجَ النَّيْرَانُ يَا أُمَّ مَالِكٍ
عَشِيَّةً لَا أَرْجُو لِقَاءَكَ عَنْدَهَا
وقوله أيضاً :

حَنَنْتُ إِلَى الْبَرْقِ الْيَمَانِي ، وَإِنَّمَا
فِيَا رَاكِبًا يَطْوِي الْبِلَادَ تَحْمِلُنُ
لِيَالَيْنَا بِالْجَزْعِ جَزْعٌ مَحْجَرٍ
وَمَا ضَرَّ صَحْبِي وَقْفَةً بِمَحْجَرٍ
نَعَالِجُ شَوْقًا مَا هُنَاكَ هَالِيَا
نَحْمِتُنَا إِنْ كُنْتَ تَلْجَأُ لِأَقْيَا
سَقَى اللَّهُ يَا فَيْحَاءَ تِلْكَ الْيَالِيَا
أَحْيِي بِهَا تِلْكَ الرُّسُومَ الْبَوَالِيَا

وله أيضاً :

خليلي من نجد فإن بنجدهم مصيفاً لبيت العامري ومربعاً
ألا رجعا عنها الحديث فلأتي لأغبط من ليل الحديث المرجعاً
عزيز علينا يا ابنة القوم أننا غريان شتى لا نطيق التجمعا
فريق هوى منا يمان ومُشتم يحاول يأساً أو يحاول مطعماً
كأننا خلقنا للنوى وكأننا حرام على الأيام أن تتجمعا
ووجدت له في بعض نسخ «المطمح» قوله أيضاً^١ :

سقى دارك اللاتي بطنن مُحَصَّبٍ مئاكيل من وفد الغمام المرتع
ألم تعلمي يا فتنة القلب أنني تطارحت من حيي لكم كل مطرح
إذا نعت غريبان دار وجدتي وشوقي مقيم بين ناه ونزح

وله أيضاً :

ألا خبر وللبلوى ضروب وفيك لكل مشتاق حبيب
حباك الله بالنعى فتونا وجر لكم مع النعمى خطوب
مى تقضي بخسفتك الليالي وتعضف فيكم ريح جنوب
فإنكم تجرون المنيا وتعمرو من مجانيكم قلوب

وقد ذكر في «المطمح» له تلميحاً جاريّاً على ألسنة الناس إلى الآن ، وهو :

أيا ساكنين بأرض اللوى وصالككم لسقامي دوا
وعافاكم الله من ذا الجوى ملككم فؤادي فصار الهوى
علي رقيب رقيب

١ وردت هذه القطعة في ق بده القطعة التي أولها «إذا ارتحلت غريبة . . .»

ولما تبدت لهم حالتي وما حرك الهجر من زفرتي
بكوا رحمة لي من ساعتي فقلت متى الوصل يا سادتي
فقالوا قريب قريب قريب

وهو وإن لم يكن في ذروة البلاغة فقد ذكرته لأتته مطروق بالمغرب عند أهل
التلاحين وغيرهم .

ولندكر بعض نص خطبة المظمح ، قال رحمه الله تعالى فيه : أما بعد حمد
الله الذي أشعرنا إيماناً وإلهاماً ، وصير لنا أفهاماً ، ويسر لنا برود آداب ،
وتشعرنا للانبعاث لإثباتها والانتداب ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه
رحمة ، ونبأه منه منه ونعمة ، وسلم تسليماً ، فإنه كان بالأندلس أعلام ،
فتنوا بسحر الكلام ، ولقوا منه كل نعمة وسلام ، فشعشعوا البدائع وروقوها ،
وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هَوَّوا في مهاوي المنايا ، وانطوا بأيدي
الرزايا ، وبقيت مآثرهم الحسان ، غير مثبتة في ديوان ، ولا مجملة في تصنيف
تجمل في العيون ، وتجني منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار إعجازها ،
واتصال صلورها بأعجازها ، فحلت من الوزير أبي العاصي حكم بن الوليد
عند من رَحِبَ وأَعْلَى ، وأَعْلَى بمكارمه وأَهْلَى ، وندبني إلى أن أجمعها في
كتاب ، وأدركني من التنشط إلى إقبال ما ندب إليه ، وكتابة ما حث عليه ،
فأجبت رغبته ، وحليت بالإسعاف لبيته ، وذهبت إلى إبدائها ، وتخلد عليها ،
وأملت منها في بعض أيام ، ثلاثة أقسام ، القسم الأول : يشتمل على سرود غرر
الوزراء ، وتتأسق درر الكتاب والبلغاء . القسم الثاني : يشتمل على محاسن أعلام
العلماء ، وأعيان القضاة والحكماء . القسم الثالث : يشتمل على ذكر محاسن
الأدباء ، والتوابغ النجباء ، انتهى .

١ إيماناً : سقطت من ق والمظمح .

وهذه خطبة «المطمح الصغير» ، وأما الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك والسلاطين حسبما نقلنا بعضه فيما مر من هذا الكتاب ، على أننا نقلنا بعضاً من الصغير أيضاً ، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب ، ومن له أدنى ممارسة ، وليراجع من الترجمة الفرق بين كلامه في الصغير وغيره ، وبالجملة فما رأيت ولا سمعت أحل من عبارة الفتح رحمه الله تعالى في تحلية الناس ، ووصف أيام الأئس ، وليس الخبر كالعيان ، وقد سردنا بعض كلامه في «القلائد» وفي «المطمح» .

[قطعة من الموشحات]

ونرجع الآن إلى ما كنا بصدده من أمر الموشح ، فنقول : وتام موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين هو قوله :

هل درى طليّ الحمى أن قد حمى قلب صبّ حله عن مكس
فهو في حرّ وعقنٍ مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

يا بلوراً أطلعت يوم النوى غرراً تملك بي نهج الفرر
ما قلبي في الهوى ذنب سوى منكم الحسن ومن صفي النظر
أجني اللذات مكلوم الجوى والتلافي من حبيي بالسكر

كلما أشكوه وجداً بسا كالرؤى بالعارض المنجس
إذ يقيم القطر فيها ماأما وهي من بهجتها في عرس

غالب لي غالب بالتؤدة بأبي ألدبه من جاف رقيق
ما رأينا مثل شفر نقدة أنحواناً عصرت منه رقيق
أعلنت عيناه منه العريكة وفواذي سكره ما إن يفيق

فأحرمُ الجنةَ معسولُ الهمى	أكلُ الحظي شهي العس
وجبه يطلو « الفصحى » ميثما	وهو من إعراضه في « عيس »
أيتها السائلُ عن ذلتي لديه	لي جزاء الذنب وهو المذنبُ
أخذت شمسُ الفصحى من وجهتيه	مشرقاً للصب في مغربُ
ذهبت أدمعُ أجفاني عليه	وله غدت بلحظي مذهبُ
يطلعُ البدرُ على نه كتما	لاحظته مقالي في الخلس
ليت شعري أي شيء حرّما	ذلك الورد على المغفر
كلما أشكو إليه حرّقي	غادرتني مقتضاه ذففا
تركتُ الحافظه من رمتي	أثر النمل على صم الصفا
وأنا أشكره فيما بقي	لست الحناء على ما أظفأ
فهو حسني عادل إن ظكما	وعكولي نطقه كانحوسر
ليس لي في الحب حكمٌ بعلمنا	حل من قبلي حل النقوس
منه لنار بأحشائي اضطرام	يلتظي في كل حين ما يشأ
وهي في خلبي بردٌ وسلام	وهي ضرٌ وحريقٌ في الحشا
أنقي منه على حكم الغرام	أسد القاب وأهواه رشا
قلت لئأ أن تبدئ معلما	وهو من الحافظه في حرّوس
أيتها الآخذ قلبي مغمنا	اجعل الوصل مكان الخمس

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال :

يا حُرّيبَ الحي من حي الحمى	أنتم عيدي وأنتم حرّمي
لم يحلّ حكم ودادي بعلمنا	حكم لا وحياء الأتقوس

مَنْ عَلِيْرِي فِي الَّذِي أَحْبَبْتُهُ
بَلَدٍ تَمَّ أَرْسَلْتُ مَقْلَبَتُهُ
إِنْ تَبَدَّى أَوْ تَنَتَّى خَلَّتْهُ
غَصْنٌ بَانَ فَوْقَهُ شَمْسٌ ضُحَى

تَطْلُعُ الشَّمْسُ عِشَاءً عِنْدَمَا
وَتَرَى اللَّيْلَ أَضَا مِنْهَزَمَا
وَتَرَى الصَّبْحَ أَضَا فِي الْفَلَسِ
تَنْجَلِي مِنْهُ بِأَبَى مَلِيسِ

يَا حَيَاةَ النَّفْسِ صِلْ بِعِلْوِ النَّوَى
قَدْ بَرَاهَ السَّقَمُ حَتَّى ذَا الْهَوَى
آهَ مِنْ ذِكْرِ حَبِيبٍ بِاللَّوَى
وَالْهَأْ مُضَيَّتِي شَدِيدَةَ الشَّغَفِ
كَأَدَّ أَنْ يُنْفِضِي بِهِ لِلتَّلَفِ
وَزَمَانٍ بِالنَّيِّ لَمْ يَسْعَفِ

كَنتُ أَرْجُو الطَّيْفَ يَأْتِي حُلْمَا
هَلْ يَعُودُ الطَّيْفُ صَبًّا مَعْرَمَا
عَالِدًا يَا نَفْسُ مِنْ ذَا فَيَأْبِي
سَاهِرًا أَجْفَانَهُ لَمْ تَنْصَرِ

هَمَّتْ فِي أَطْلَالِ لَيْلِي وَأَنَا
مَا مَرَادِي رَاكِمَةً وَالْمُنْحَنِ
إِنَّمَا سَوَّلِي وَقَصْدِي وَالنَّيِّ
لَيْسَ فِي الْأَطْلَالِ لِي مِنْ أَرْبِ
لَا وَلَا لَيْلِي وَسَعْدِي مَطْلَبِي
سَيِّدُ الْعُجْمِ وَتَاجُ الْعَرَبِ

أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ طَهَ مِنْ سَمَا
خَاتَمُ الرُّسُلِ الْكَرِيمُ الْمَتَى
الشَّرِيفُ ابْنُ الشَّرِيفِ الْكَيْسِ
طَاهِرُ الْأَصْلِ زَكِيُّ النَّفْسِ

وقال في مِباراة هذه الموشحات السابقة :

لَا تَلْعَنِي يَا عَلُوْلِي تَأْتِمَا
مِثْلَمَا شَرَحُ غَرَامِي عِلْمَا
مَا تَرَى جِسْمِي بِسَقَمٍ قَدْ كُفِّي
حَيْثُ أَشْكُو وَحْشَةً مِنْ مَوْسِي

١ ق : هل يرى في جنح ليل الفلَس .

٢ ق : وحشي بالنور لما أن كسي .

ظلي أنس عن فؤادي فقرأ
 وجلولي في هوى الحب قرى
 أنت أعمى يا علولي ما ترى
 وله ثغر إذا ما ابتسما
 وثناياه كدّر نظما
 كم ترى سحراً يجنيه بدا
 ليس سحراً مقلتي هذا سدى
 خيفة أوجس قلبي ، وغدا
 يا إله العرش يا رب السما
 قلبي الوهان يشكو ألما
 أغيد يسبي البرايا بالقل
 لورأته الشمس أضحت في خجل
 من معاني حسنه رقى النزل
 اتخذ بالروح مني كلما
 يقنص الأسد بلحظه قد رمى
 يا رعى الله زماناً سلفا
 مثل دينار وما قد صرفا
 فاعلروا القلب الذي قد شفا
 بدرتم أهيأ حلوى اللى
 كسلاف عهدنا قد قدما
 وفؤادي مكتوي من صده
 بسلام مد نهي عن وده
 يانع الورد بدا من خده
 كبروق أومضت في الغلس
 فضياها في الدجى كالقبر
 لفؤاد في الهوى أضى كليم
 يا فؤادي إن شفى السحر السقيم
 راحلاً صبري ، وها شوقي مقيم
 يا عليماً بضمير الأنفس
 من جفا ظلي أغن أكبر
 أدمج البفن بعينه حور
 وهو للبلد يوجه قد قمر
 في غزال قد غزالي بالنظر
 رمق الصب بطرف أنس
 أسهما تفتك من غير قسي
 بلولات تقصت بانشرائح
 في ألد العيش مع حب وراح
 بحبيب ما له عنه براح
 ريقه شهد شهى العسر
 تنجلي في كأسها كالمرس

قهوةٌ بكرٌ عجوزٌ حَفَّتْ زماً في ذنبا من قبل نوح
هي لما في زجاجٍ أشرقت شمسُ راحِ غَرَبَتْ في كل روح
جددتُ بسطاً وكم قد مَزَقْتُ قلبَ صبٍ في غَبوقٍ وصَبوح

حلفَ الخمارُ عنها قسماً أنها بالكلث كادت تنسي
فاسقني صِرْفاً ولا تخرُجْ بما راحه كم أذهبت من عيس
في رياضٍ قد شدا شحورهُ عاطئها بين أكناف الشجر
وانظم الشمْلَ ودع منثورهُ حول وردٍ وأقاح وَزَهْر
وإذا الظلّ بدا شَبَّورهُ كلَّلَ الأوراقَ منه بالدرر

ما ترى الريحانَ عبداً خطماً حيث أضى واقفاً في المجلس
جلس النسرُ لكن رِيماً استَحَت منه حيونُ الرجس

فترةٌ في رياضٍ غُضِرَ وخصون غرَدت فيها هزار
وانشقَّ عَرَفَ زهورٍ عطيرَ ياسمين زينتُهُ البلنار
وشدا الزهرُ كسك أذفرَ واقبل العلر لابن البزدار

طامعٌ في رحمة الله وما خابَ عبدٌ طامعٌ لم يئأس
يا إلهي جُدْ علينا كرماً يا كريمًا قبل أنْخُد الأتأس

رجع إلى مَوْشحات ابن الخطيب :

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : ومما قلته من المَوْشحات التي
انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها ^١ :

١ الموشحة في أزهار الرياض ١ : ٣١٤ وهي في طبع السلطان يوسف أبي الحجاج .

رُبَّ لَيْلٍ ظَفَرْتُ بِالْبَدْرِ وَنَجِصْتُ السَّمَاءَ لَمْ تَلِدِ

حَفِظَ اللَّهُ لَنَا وَرَعَى

أَيَّ شَمْلٍ مِنَ الْهَوَى جَمَعَا

غُفْلَ الدَّهْرِ وَالرَّقِيبُ مَعَا

لَيْتَ نَهَرَ النَّهَارِ لَمْ يَجِرْ حَكَمَ اللَّهُ فِي عِلَى الْقَجَرِ

عَلَّلَ النَّفْسَ يَا أَخَا الْعَرَبِ

بِحَدِيثِ أَحْلَى مِنَ الْقَضَرِ

فِي هَوَى مَنْ وَصَالَهُ أُرْبَى

كَلَّمَامٌ ذَكَرَ مَنْ تَلَوِي قُلْتُ يَا بَرْدَهُ عَلَى صَدْرِي

صَاحِبِ لَا تَهْنَمْ بِأَمْرِ غَدٍ

وَأَجْزُ صَرَفَهَا يَدَا يَدٍ

يَنْ نَهَرَ وَبَلْبَلِ غَرْدٍ

وَعَصُونَ تَمِيلُ مِنْ سَكْنٍ أَطَلْتُ يَا غَمَامُ بِالشَّكْرِ

يَا مُرَادِي وَمَتْنِي أَمَلِي

هَانَا عَسَجْدِيَّةَ الْحَلَلِ

حَلَّتْ الشَّمْسُ مَتَرَلِ الْحَمَلِ

وَبُرُودُ الرِّيحِ فِي نَشْرِ وَالصَّبَا عَنِيَّةُ النَّشْرِ

غُرَّةُ الصَّبَحِ هَذِهِ وَضَحَتْ

وَقِيَانُ الْفَصُونِ قَدْ صَدَحَتْ

وَكَانَ الصَّبَا إِذَا قَعَحَتْ

وهنا طيبها عن الحَصْرِ ملحّة في علا بني نَصْرِ

هم ملوك الورى بلا ثُنْيا
مهَلُوا الذين زَيَّنُوا الدنيا
وَحَمَى الله منهم العَلْيا

بالإمام المرقّع الخطير والغمام المبارك القَطْرِ

إنما يوسفُ إمام هُنْى
حاز في المعلّوات كلَّ مَكْى
قُلْ للهِم بملكه سَعْدَا

اختَرُ جملةً على الدهرِ كاختِيار الربيع بالزهرِ

يا عماد العلاء والمجدِ
أطلع العيدُ طالع السعدِ
ووفى الفتحُ فيه بالوعدِ

وتجلّت فيه على القصرِ شُورٌ من طلائعِ النصرِ

فهنأ من حسنه البهيجِ
بجيلة النفوس والمهجِ
واستمعها ودع مقال شجي

قسماً بالهوى لنفي حِجْرِ ما ليل المشوق من فجرِ

ومن بليغ موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله^١ :

١ المروضة في أزهار الرياض ١ : ٣١٥ - ٣١٦ .

كم ليوم القراقِ من عُصَّةُ في فؤاد العميدُ
نرفعُ الأمرَ فيهِ والقصةُ للوليِّ الحميدُ

رحل الركبُ يقطعُ البيدا بسفين النياق
كلُّ وجنَّاء تُطلعُ الجيدا وتبدُّ السرفاق
حسبتُ ليلةَ اللقا عيدا فهي ذاتُ اشتياق

صائماتُ لا تقبل الرخصةُ قَبْلَ فطرٍ وعيدٍ
فهي مدُّ أملتَهُ نخصةُ بجهادٍ جهيدٍ

ومنه في آخره :

يا إمامَ السَّلامِ والفخرِ ذا السَّنا المبهرِ
هاكها لا علمتُ في الدهرِ أملاً يَرْجِي
عارضتُ قولَ بائعِ التمرِ بمقالٍ شجي
غَرَبْتُكَ الجِمالُ يا حَقْصَةَ مِنْ مَكَانٍ بعيدِ
من سِجْلِ ماسَةٍ ومن قَصْصَةِ وبلادِ الجريدِ

وقد أُلِفَ — رحمه الله تعالى — في هذا الفن كتابه المسمى : « جيش التوشيح »
وأُتِيَ فيه بالغرائب ، وذُيِّلَ عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العَلمُ الشهير المنفرد
في عصره بمحاذاة قصب السبق في البلاغة سيلدي عبد العزيز بن محمد الفتالي — رحمه
الله تعالى — بكتاب سماه « مدد الجيش »^١ واستهله بقوله : حيداً لمن أمدَّ
جيش محمد بعثرته . وأُتِيَ فيه بكثير من موشحات أهل حصرنا من المغاربة ،

١ هذه الخرجة قد تقرأ معرفة وغير معرفة .

٢ انظر روضة الآس : ١٦٢ .

وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسيني —
رحمة الله تعالى ورضوانه عليه — ما زاده زينتاً ، وأخبرني — رحمه الله تعالى —
أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من
ثلاثمائة موشح ، ولا حرج في إيراد بعضها هنا ، فمنها قول أحد الوافدين من
أهل مكة على عتبة السلطان مولانا المنصور^١ ، وهو رجل يقال له « أبو الفضل
ابن محمد العقاد » وقد عارض بها موشحي لسان الدين وابن سهل السابقين^٢ :

لَيْتَ شعري هل أروّي ذا الظما من لَمَى ذاك الثُّغَيْرَ الأَلسِ
وترى عيناّي ربّاتِ الحمى باهياتٍ بِقُدُودٍ مُيسِرِ

يُدْخِلُونَ السَّقَمَ من دارِ اللوى كَلِمَ المجرُ فَوادِي وأسر
هدّ من ركنِ اصطباري والقوى مُبدلاً أَجفانَ نومي بالسَّهر
حين عزّ الوصلُ عن وادي طوى هَمَلْتُ أَعينُ دمي كالطرر

فصاكم أن تجودوا كرما بلقاكم في سوادِ الحنْدِ من
وتدأوا قلبَ صَبٍّ مُغرما من جراحاتِ العيونِ النَّعَسِ

كلّما جنّ ظلامُ الغَسَقِ هَزَّني الشوقُ إِلَيْكُمْ شَفَا
واصراني مِن جفّاكم قلقي مُدْ تذكّرتُ جياداً^٣ والصفَا
وتناهتْ لَوْحِي من حُرْقِي ثمّ زادَ الوجدُ في التلّفا

١ يعني السلطان أحمد المنصور الذهبي أبا العباس ابن محمد الشيخ المهدي السلمي ، وهو من أعظم
سلاطين السليمانين ؛ انتصر على البرتغاليين في موقعة وادي المخازن سنة ١٤٩٢ وفتح السودان ،
وأهمّ ببناء المساجد والمستشفيات وشجع العلوم ؛ توفي سنة ١٥١٢ (راجع مثاهل الصفاء للشثالي ،
والجزء الخامس من الاستقصا والأعلام للشيخ العباس ابن إبراهيم) .

٢ وردت الموشحة في روضة الآس : ١٤ .

٣ جياد : يعني جبل أجياد بمكة .

فانعموا لي ثم جودوا لي بما
ساعةً لي من رضاكم مقنما
يُطْفَأُ نيران الجوى ذي القبس
وتداوي جثتي مع نفسي

كنت قبلَ اليوم في زهوٍ ونيه
ومني ظبيٌّ يلحدي وجتيه
مع أحبابي بسلعِ ألب
مشرقُ الشمسِ وأخرى مغربُ
فرماني بسهامٍ من يديه
ضاربُ البينِ قلبي متعبُ

لستُ أرجو للقاعم سلماً
أحمد المحمود حقاً من سما
غير مدحي للإمام الأُرأس
الشريف ابن الشريف^١ الكيس

ومنها قول بعض المراكشين^٢ :

واختجلتُ للصباح
ساقٍ يديرُ الكؤوسا
والشمسِ إذ لاحَ جُودُ^٣
تضيءُ خمرأً وترهُو^٤

تفادمتُ في الدنانِ
في لونها البهرماني^٥
من عهدِ نوحٍ تُروِّقُ
تُدار فينا وتعيقُ
قدْ أطلقت من عنانٍ
منْ هن صَبُوحٍ يرفقُ

يسعى بها من ملاحٍ
بالحسنِ يُصحبني الجليسا
منْ كان باللعظِ يُسكيرُ
ويستخسفُ الموقسرُ

١ خرج عن الإمبراطورية ضرورية .

٢ الروضة : الكرم ابن الكرم .

٣ انظر روضة الآس : ٢٩ .

٤ ق والروضة : البهرماني .

يُشِيرُ كَامِنَ وَجَدٍ	فِي قَلْبِ كُلِّ سَقِيمٍ
يَسْطُرُ عَلَيْنَا بَقْدَ	يَزِدِّي بِفَضْنِ قَوْمٍ
أَشْقَى بِمَنْفَى وَوَدِّي	فِي جَنَّةٍ وَتَعِيمٍ
مَنْ فِي الْوَجْهِ الصَّبَاحِ	يَا شَادِنًا غَنٍّ وَاذْكُرْ
وَهَاتِ لَنَا نَقِيسَا	نُروِيهِ عَنْكَ وَنَائِرِ
...	
فِي مَدَحٍ مِّنْ سَادِ طِفْلَا	هَسَلِي الْبِرَايَا وَفَاقَا
مَنْ حَازَ عَجْدًا وَفَضْلَا	بَيْنَ الْأَكْسَامِ وَفَاقَا
فِي عَدْلِهِ قَالَ قَوْلَا	يَسْرِي قَيْمِدُو الْعِرَاقَا
فِي أَحْمَدٍ ذِي السَّمَاحِ	فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ يُنْصَرِّ
أَحْيَا الْمَدَى وَالنَّفُوسَا	وَذَلَّ مَلَكًا قَيْصَرِ
تَرَاهُ سَلْمًا وَحَرْبَا	مَنْ رَأَيْهِ فِي جُودِهِ
يُخَالُ لَمْ يَنْبَغِ عُجْبَا	مِنْ عِزِّهِ فِي بَرُودِهِ
يَسُورِي الْمَعَالِي كِبَا	وَيَقْتِيهِمَا بِجُودِهِ
فَخَارَ أَهْلُ الْبَطَاحِ	وَعِزٌّ مِنْ عَدُوِّهِ
ثَنَاهُ بِمَلَا الطُّرُوسَا	عَنِ صُورَةِ الْمَجْدِ حَبْرُ
مَلِكُ بَنِي فِي الْبَدِيعِ	مَسَاوِلَا كَالْأَرَاوِي
فِيهَا لَهُ مِنْ صَنِيعِ	الرُّوضِ وَالْمَاءِ جَارِي
فَقُلْ بِصَوْتِ رَفِيعِ	إِذْ بَانَ فَجْرُ التَّهَارِ

١ قافية هذا النظم دون هاء في الروعة .

أهدى نسيمُ الصُّباحِ مسكاً شَمِماً وعنبر
وجيءَ بها خنوساً من خلدٍ ساقيةٍ تُعصر

ومن موشحات السلطان المنصور المذكور^١ :

رِيَّانُ من ماء الصَّبَا أَهْيَفُ وممتلي البردِ

كالنصيرِ هزته الصَّبَا فوقَ الرُّبَى الشَّهْبِ

قد قلتُ لَمَّا أن سَيِّ بِحُسْنِهِ يَسِي

من عينه سَلَّ ظُلِّي وغمدها قَلْبِي

أسرَّتِي ماضي الشَّبَا أوْطَفَ مَرْنَحُ القَدِّ

يا فاضحَ الروضِ سنا بل غنجلَ البدرِ

وقاطمي ظلماً عِنا وَمَنْ مَقَرُّهُ صَدْرِي

إن لم تكن شمسَ دُنا فإنتها تَجْرِي

عَلَّقْتَهُ مِنْ الظُّلْبَا أَسْجَفَ يَسْطَوْعِلِي الأَسَدِ

قلتُ لَهُ وَقَدْ تَهَدَّ وَجَدٌ في حَسْرِي

وَعَلَبَ الظُّبِي الأَسَدُ فَكَازَ بِالْغَلْبِ

الشمسُ بُرْجُهَا الأَسَدُ فَاسْعَ إِلَى قَلْبِي

ولم يحضرني الآن تمامها .

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابوني^٢ :

١ روضة الآس : ٥٦ .

٢ روضة الآس : ٥٧ .

وليا لي الشعور إذ تسري ما لنهز النهار من فجر^١

حبّذا الليل طال لي وحلي
لو تراني جعلته بُردِي
فاطميّاً في خلعة الجعدي

هي ليل أختُ بني بشر فأين أنت يا أبا بدر

كم سقطنا ألطف من طلّ^٢
واجتمعنا وما درى ظلي
واسترحنا من كاشح نذل

ربّ ليل ظفرت بالبدر ونجوم السماء تمّ تلير^٣

وبنفس مهفّف ألى
ومطيع وفترني لما
سأله^٤ وقاني ممّا

في رباط قسّتي صلدري لحنين وناظري بدر

وهلال في حسنه اكتملا
هو شمس وأضلي الحملا
قام يشلو ويثني في ملا^٥

قسماً بالهوى الذي حيجر ما لليل المشوق من فجر^٦

١ هذا القفل لسان الدين .

٢ الروضة : يا حفاي ، وسقطت اللقطة من ق .

٣ الروضة : في حلا .

٤ هذا القفل لابن الصابوني .

[من مقطعات المنصور]

ثم عن لنا أن نورد هنا جملة من مقطوعات مولانا السلطان المنصور متا
تلقيناه عنه أيام كوننا في إيالته الشريفة ؛ فمن ذلك قوله زاداً على من قال في ابن
أبي الحديد^١ :

لقد أتى بارداً ثقيلاً ولم يرث ذلك من بعيد
فهو كما قد علمت شيء أشهر ما كان في الحديد

ما صورته :

لقد أتى صارماً صقيلاً ولم يرث ذلك من بعيد
شديد بأس من يعادي وشدة البأس في الحديد

ومن نظمه قوله^٢ :

لله تمر طيب وإلى على البشرى انطوى
يا حننه مجتمعا يعلو لنا بلا نوى

وقوله معنياً في «قمر» على طريقة الاكتفاء :

مُعذبي أعجزني نيله من لي بمن مسكنه في السما
لَمْ أنس إذ قال ألا تكفي قلتُ بمن بالطرف قلبي رمي

وقوله :

تيدى وزند الشوق تغدحه النوى فوقد أنفاسي لظاه وتضرم
وهش لتوديعي فأعرضت مشققا على كبد حري وقلب يقسم

١ قال المقرئ إنها مؤلف ولي الفلك الدائر حل المثل السائر ، ولكنه لا يذكر اسمه (الروضة : ٤٧) .
٢ أكثر هذه المقطعات وردت في روضة الأس : ٣٦ - ٥٧ وفي سنابل الصفا ٢ : ٢٠٧ - ٢١٤ .

ولولا ثواب بالحشا لأمتها ولكنّها تُعزى إليه فتكرم
 فاعجب لآساد الشرى كيف أحجمت^١ على أنّه ظيُّ الكناس ويقدم
 وقال قلنس الله تعالى روحه مورياً :

إنّ يوماً لناظري قد تبدّى فتملّى من حُسْنِهِ تكحّلا
 قال جفني لصنوه لا تلاقى إنّ بَيْتِي وبينَ لقياك ميلا

وقد تبارى خُدّام حضرة هذا السلطان في تخميس هذين البيتين ، ومن
 أشهر ذلك قول الأستاذ الحافظ سيدي أحمد الزموري رحمه الله تعالى ، وكان
 يصلي بالسلطان التراويح :

ورقيب يسرّددُ اللحظَ ردّا ليس يرعى سوى ازديادي بَعْدًا
 ساءه الطرف مذ جنّى الخدّ وردا إنّ يوماً لناظري قد تبدّى
 فتملّى من حُسْنِهِ تكحّلا
 ونصلى من فحشه في استباقِ يَمْنَحُ اللحظَ من جنّى واعتناقِ
 أبأس العين من لحاظِ التلاقى قال جفني لصنوه لا تلاقى
 إنّ بَيْتِي وبينَ لقياك ميلا

ومن نظم السلطان المذكور ، وهو من أوليات شعره ، قوله في وردة مقلوبة
 بين يدي محبوبه :

ووردة شَقَعَتْ لي عند مرتّهي راقّت وقد سجّدتُ لفاترِ الخدقِ
 كأنّ خضرتها من فوقِ حمرتها خالٌ على خده من غيرِ عَيْقِ
 وقال أيضاً من أولياته :

١ الروضة : كيف تحجم .

شادن نَمَّ عليه عَرَفُهُ^١ ما خلاصي من سهامِ كامنته^٢
أَحْلالٌ فيه أَنِّي خائفٌ وغزالي بعدَ خوفي آمنته^٣

وقال في وصف رقيب ملازم :

ورقيب كأنَّ الأرضَ مرآةً شخصيه^١ فأين تَوَلَّى الطرفُ مِنِّي^٢ يراه
مقيمٌ بوجهِ الوصولِ حتى كأنَّما^٣ وصالي هلالٌ واليسادُ صده

وقال :

أيا روضةً صَنَنْتُ عليَّ بزهرها ولَمْ يَتَلَقَّ ناظرأي سواك^١
أبيحي لنفسي من شتلكِ بقاءها إذا فُتَّ طريقي علَّ الأنفَ يراك

وقال أيضاً :

على جدِّولٍ غَطَنْتُ عليه بِشعرها لئلا يرى الشمسَ الرقبةَ لي طرفن^١
فَهْتُ أرى في جلولٍ بِلَرٍّ وجهها غريقاً ونقطاتِ العبيرِ بهِ كَلَفُنْ

وقال :

طَرَقْتُ حِمَاهُ وَالْأَسْوَدُ خَوَادِرُ بهِ فتولَّى بِالْفُطَيِّ وهو يبعدُ^١
فَعَلِمْتُ أَسَادُ الشَّرِّ كَيْفَ تَقْدَمُ وَعَلِمْتُ غَزْلَانُ النِّقَا كَيْفَ تَشْرُدُ

وقال :

لَمَّا نَأَى الْمَحْبُوبُ رَقًى لِي الدُّجَى وَأَتَى يَحْلَتَنِي بِرَعْنِي كَوَاكِيبُ^١
أَوَّلَى غُرَابِ الْبَيْنِ رَدَكَ يَا حِشَا وَالْبَيْنُ مُزْنِي الصَّبَاحِ كَوَاكِبُ^٢ بِهِ

١ الروضة : نفحه .

٢ اقرأ بخطف آلياء وجعلها حركة كالكرة على النون .

٣ الروضة : سنالك .

وقال معنياً باسم حَقِيَّتِهِ الشهيرة الحسن والإحسان « نسيم » :

يا هلالاً طلوعُهُ بينَ جفني وغزالاً كناسُهُ بينَ جنبي
إنَّ سهماً رميتَ غادرَهما لو تناهى ما شكَّ آخرُ قلبي

ورأيت بخطه على هذا المحل ما صورته : قولي « إنَّ سهماً » تنصيص ،
و « غادرَهما » إسقاط ، وهو إشارة لإسقاط «هماً » من هذا الاسم ، وقولي
« لو تناهى » انتقاد ، والانتقاد : الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء
الاسم المطلوب ، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس ، ويعني به
الحرف الأول من الكلمة ، والقلب والجوف والحشا والخصر ، ويراد به الوسط ،
والآخر والمتنهي والختام ، ويقصد به آخر الكلمة ، فقولي « لو تناهى » معناه
أنه أخذ لفظة هم غير متناه ، فبقيت الميم من هماً ، وقولي « ما شكَّ آخر قلبي »
انتقاد أيضاً ، وأردت بأن آخر قلبي الياء ، ويسمى أيضاً التسمية ، وهو : أن تذكر
الاسم وتريد المسمى ، أو تذكر المسمى وتريد الاسم ، وقد تم الاسم .

واعلم أنهم لم يشترطوا في استخراج الاسم^١ بطريق التسمية حصولها بحركاتها
وسكناتها ، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لميائها الخاصة فإذا وقع
ذلك فمن المحسنات ، ويسمى العمل « التذييل »^٢ . انتهى كلامه على البيتين
في اسم نسيم .

وقال في اسم « غزال » وقد جمع تعميمين ولغزاً :

وأملتَ مطويَّ الحشا زال ردفه فلا خصر إلاَّ إنَّ تصوره وهما^٣
بنصف اسمه يرمي القلوبَ وعكس ما بقي أبداً أذنَ المحبِّ به أصمى

١ الروضة : الكلمة .

٢ ق : التذييل .

٣ سقطت اللغتان من ق ، وأثبتتهما من الروضة .

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملك » أردت به بعمل الترادف غصن ، و « مطوي الحشا » انتقاد ، و « زال ردفه » قضيت به غرضين ، أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقي بعد طي الصاد التي يوسطه ، وأثيته — أعني « زال » — في موضعها : أي النون من غصن ، والحال أن الصاد مخلوقة ، وذلك بعمل الانتقاد ، وأوضح ذلك بقولي « فلا خصر » وإن كنت لا أحتاج إليه ، لئلا يكون في البيت شيء خارج عن التعمية ، انتهى تفسيره ، رحمه الله تعالى .
 ويعني بقوله « بنصف اسمه يرمي القلوب » غز ، لأنه نصف غزال ، ويعني بقوله « وعكس ما بقي إلى آخره » لفظة « لا » لأنها مقلوب ما بقي وهو « ال » .

وقال في اسم « سلاف » عل منهاج ما تقدم :

وَأَحْوَرَ وَسَنَانَ الْجُفُونِ كَأَنَّمَا نَقَى لِحْظَهُ مِنْ رِيْقٍ فِيهِ بِقَرْقِفٍ
 نَضًا صَارِمًا لَا قُلْ صَارِمَ لِحْظَهُ تَزَايَدَ فِيهِ مِنْهُ سَلْ تَلَاهُ فِي .

وفسره بقوله : قولي « تلاه في » من طريق التسمية ، و « في » من العمل التذييلي وهو أن يأتي بالكلمة بحركاتها وسكناتها ، وهي من المحسنات كما سبق .
 وقال في اسم « آمنة » من التعمية أيضاً :

مِنْ شِقَائِي قَنْصَتَهُ وَهُوَ خِشْفٌ فِي رِضَاءٍ عَنِ الْمُلُوكِ ابْتَدَلْتُ^١
 أَمْلَدُ^٢ مِنْهُ مَذَّ تَحَلَّلَ خَصْرٌ وَتَثْنَى^٣ عَنْ حَبِ مَ عَدَلْتُ .

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملك » أردت الألف بعمل التشبيه ، و « خصر منه » انتقاد ، وأردت بالخصر وسط لفظة « منه » ونحله : أن ينحل السكون الذي على النون ، وقولي « وتثنى » أي الألف من التثنية ، لا التثني ، فم الاسم

١ الروضة : لم أقل ف أن قلت قلت نهت .

بحركاته وعدده ، انتهى تفسيره .

وقال وقد ليس منصورية من النوع الذي يقال له « قلب حجر » ، والمنصورية :
نوع ليس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه :

وصموا اشتياقي للحبيب وسرهم قول الحبيب أنا أنا فيه
فكّني له حجر ، فقلت مغالطاً للعاذل المؤذي أنا فيه .

قال : وفي هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية : منها جناس التركيب
المسمى بالملق ، وحده : « بأن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين ، وهذا
هو الفرق بين الملحق وبين المركب ، وقلّ من فرق بينهما ، ومنها الاستسجام ،
ومنها الاستخدام . وعهدي بالفقيه علي بن منصور الشيطاني تعرض إلى شرحهما
بكرامة . والتعمية في هذين البيتين بالعمل الحسائي وهو كثير ، إلا أن هذا
العمل أحسبني أبا عنترته إذ لم أره لغيري ، ومادة التعمية فيه « أنا أنا فيه ، قلبي
له حجر » فقولي « أنا أنا فيه » معناه أن تضرب « أنا » في « ، وقولي « في »
نص في الضرب ، ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيماني وحقك ،
وقولي « قلبي له حجر » بعمل القلب يصير « رجح » فصار المجموع « هيماني
وحقك يرجح » ، وفي التورية ، و « هيماني وحقك » الخارج من هذا الضرب
فيه تمكّم بالواشي ، فهو من المحسنات أيضاً ، أعني قوله « وحقك » ، ويصلح
أن تسمى هذه التعمية بالافتنان ، لأن الافتنان عندهم : أن يفتن الشاعر فيأتي
بفتن متضادين من فنون الشعر في بيت واحد ، وهذا وقع التضاد فيه في كلمة
واحدة ، فظاهر « أنا أنا فيه » يضاد « هيماني وحقك يرجح » الذي يخرج بطريق
الحساب ، فافهمه ، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولي للعاذل المؤذي
« أنا فيه » ، انتهى .

١ الروضة : باله .

والاستخدام الذي أشار إليه هو في قوله « أنا فيه » أي في هذا الثوب المسمى بقلب حجر ، كما دلت عليه الحكاية ، وأمّا المعنى الثاني لقوله « أنا فيه » فظاهر .
وقال وقد قطف وردة من روض المسرة في زمن الرجس :

وافى بها البستانُ صنوكَ وردةً يقضي بها لئاً مَطَلَّتْ زُحوداً
أهدى البهار مجاراً وأتى بها في وقته كيما تكونَ خلوداً
فبعتها مرتادةً بنسيمها تني من الروضِ النضيرِ قُدُوداً

وقال :

لي حبيبٌ يأتي بكلِّ غريبٍ هو عندي مُنَكَّرٌ ومعرِفٌ
لستُ أشكو لصبري ولنجوي أنه بي نحا وفيَّ تصرِفٌ
فعله فيَّ لازمٌ متعديٌّ ومزيدٌ مجردٌ ومضعِفٌ

وقال :

لا وطيفَ حلَمَ السيفِ فقد في قوامٍ كفتنا الخطَّ نهْدُ
ووميضَ لاحٍ لئنا بسمتُ فارتنا منه دُرّاً أو بَرْدُ
ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ منه حسناً وعلماً وغيْدُ
ولذا عاش قليلاً فاحلاً كيف لا يكتفى بحولاً من حسدُ

وقد ضمّن قوله « ما هلال الأفق » أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال :

قسماً بالبيت والركن الذي طابَ حجاً واستلاماً للأبدُ
« ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ » منه حسناً وعلماً وغيْدُ

وقد اتفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية ، هو والقائد المكي

السابق والشريف المدني ، وهو رجل وافد من أهل المدينة انضم إلى الشرف ،
فقال إمام الدين : يا أمير المؤمنين ، إن المساجد الثلاثة التي تشدُّ إليها الرحال
شدَّ أهلها إليك الرحال : هذا مكِّي ، وذاك مدني ، وأنا مكديمي^١ ، ثم أنشد^٢ :

إنَّ أمير المؤمنين أحمد بحرُ الندى وفضله لا يُجحدُ
فطيةٌ ومكةٌ أهلهما والمسجدُ الأقصى بذاك شهدوا

رجع إلى نظم المنصور ، وقال :

وكيف بقلبٍ في هواه مقلَّبٍ وأنَّى له بين الضلوعِ مقامُ
فيا شاذناً يرعى الحشا أنت بالحشا أما لحلَّ أنت فيه ذِمَامُ

وقال مخاطب رئيس كتَّابه صاحبنا سيدي عبد العزيز الفتشالي السابق الذكر :

يا كاتباً الفاظه تفرس^٣ روضاً ذا فن
إنَّ جوابي للذي يشكو دناءه اردد حزن

وقال مورياً بمصانيعِ الثلاثة : البديع ، والمرسة ، والمشتهى :

بستانُ حسنك أبدحتَ زهراته ولكم نيتُ القلبِ عنه فما انتهى
وقوامُ غصنك بالمرسة ينثني يا حسنه رمانةٌ^٤ المشتهى

ولولا خوف الإطالة المملة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور
— رحمه الله تعالى — بعض ما أودى به حقه ، سقى الله تعالى عيَّاده ، وقد
بسطت الكلام على السلطان المذكور في كتابي «روضة الآس العاطرة الإنفاس»
في ذكر من لقيه من أعلام مراکش وفاس ، وأطال الكلام على ترجمته صاحبنا

١ الروضة : ١٤ .

٢ الروضة : إذا كتب يفرس .

الوزير الكبير الشهيد سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي في كتابه المسمى : « مناهل الصفا في فضائل الشُّرفاء » وعهدي به أكلَ منه ثماني مجلدات ، وهو مقصور على دولة السلطان المذكور وخويع ، وألف كاتبُ أسرارهِ الرئيس أبو عبد الله محمد بن جيمى فيه كتاباً سماه « الملوك والمقصود من سنا السلطان المنصور » وهذه التسمية وحدها مطربة ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى التوشيح :

كتب إليّ بعضُ أذكى الأصحاب الأعيان موشحاً يمدحني به في آخره عارض به موشح لسان الدين السابق الذي أوله :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى يا زمان الوصلِ بالأندلسِ

ونصّه :

عَطَرَ الأرجاء لما تَسَا
وأنتَ شمسُ الضحى تنسجُ ما
شَمَّالٌ للصبح عندَ الفلَسِ
يقرأ الليلُ لنا من حَبَسِ

طافَ بالكأسِ من الزهرى
فتن الأبوابَ كما تنشا
مُوتِحٌ بالصدِّ عني مذ قُتِي
واحس منه يحضِرُ الشفا
وأنا ما بينَ حتّى ومضى
صدّه تيهُ الموى عن ألفي

وكؤوسُ الراحِ بينَ التلما
خمرة صفراء في البلور ما
أرجتُ بالعزفِ أفقَ المجلسِ
أشبهَ الخانَ بروضِ الرجبِ

بادِرِ اللّيلة واجمعْ شملها
فهي حَيون ناعساتٍ كم لها
بمِدام وغسلامٍ مُتَربِّبِ
من فنونِ السحرِ ما يلعبُ بي
وافرّ الأردافِ عاتى حملها
ناحِلِرِ الحصرِ ، وذا من عجبِ

كلما أترع كأساً قال ما فابدل الجهد - وكن مقتنماً
أنت بالشاري حياة الأتفس - لنفيس النفس طيب الأتفس

فرص الأيام كن متزهراً مبتداها قبل حلف الخير
ورحاب الأنس لج متجزاً قبل أن تمضي كلمح البصر
واجن من زهر الهوى بعتزاً من جنابات هجوم الكبير

لا تحف لوما وعم حشما لاحت اللذات كالمختلص
ما مضى أنس ووافي مثلما كان ذا الدهر لنا بالخرص

للرياض اذهب ترى بلبلها لاشتياق الورد مثل الشكر
وخلود الورد قد كللها دمع طلل لاشتياق البلبل
وقود البان قد قام لها مانع الوصل بحد الأسر

والرئي فاحت تحاكي خدما وعلين ثياب السندس
جيبها زرز الزهر كما زرر بالقصة ثوب الأطلس

وجلا الروض لنا أشجاره مائات في قباو أخضر
ونرى في جيدها نواره يتللا كعقود الجوهر
خلع الليل به أظماره فندا كالصبح باهي المنظر

وبقياه زهت فيه أما في شفاء اليد حسن التمس
كعذار في عينا علما فبدا للغير لا التمس

حبنا الصبوة أيام الصبا وهيون الشيب في سهو الوسن
فلذا أبقظها دهر صبا لصروف حد شفرها وسن
جرّد الشيب لنا بيض الشبا واقضى شرخ شباب وطن

وغدا الإنسانُ شيخاً هَرَمًا وأَعْرَاهُ لاهِجٌ من وَجَسٍ
 فأتَ إذ مَاتَ فيقضي نَدْمًا واغْتَنَامُ الوقتِ شغلَ الكَيِّسِ
 لا تُلْعَ عُمُرَكَ بِمضي هَدَرًا أَنتَ إذ ذاكَ جَبَانٌ غافلٌ
 وارْقَ بالجهْدِ من السَّوْلِ اللِّرا واجتهدْ والضرعُ ضخمٌ حافلٌ
 إِنَّمَا الأيامُ أمثالُ الشَّرَى والبحريُّ الشَّهْمُ لَيْثٌ باسلٌ
 ووحوشُ الإنسانِ تسمى مقنما بِأَرْدَا لَلْأَسَدِ الْمُفْرَسِ
 تركَ الوهمَ وخاضَ الظُّلُمَا ولَهُ العِزُّ أضَا كالقَبَسِ
 ليسَ يَظَلُّ بِالْمُتَى إِلَّا الَّذِي كَابَدَ الْأُمُوالَ حَتَّى ظَفَرَا
 كَانَ لِلرَّاحَةِ كَالْمَتَبَدِّ مِن وِراءِ الظُّهْرِ أُنَى ظَهْرَا
 مِثْلًا قَدْ بَاتَ ذَا طَرَفٍ قَدِيدِي يَقْطَعُ اللَّيْلَ جَمِيعًا سَهْرَا
 فِي طِلَابِ الْعِلْمِ حَتَّى عِلْمَا أَنَّهُ يَمْلَأُ بِرُوحِ الْقَبَسِ
 أَحْمَدُ النَّاصِبِ فِينَا عِلْمَا اللَّتَى فَازَ بِهِ مَنْ يَأْتِي
 حَلٌّ فِي مَضَرٍّ وَإِنْ كَانَ الْعُلَا قَدْ عَفَتْ لَمَّا اعْتَرَاهَا فِي حَكَلٍ
 وَرِياضُ الْفَضْلِ لَمَّا أَنْ عِلَا نَقَعَ جَهْلٌ جَفَّ مِنْهُنَّ الْبَلَلُ
 ازْدَرَّتْ أَغْصَانُهَا حَتَّى خِلَا قَاصُّهَا مِنْ حَكْبٍ مَا يَشْفِي الْعَلَلُ
 نَفَرَتْ إِذْ حُلٌّ فِيهَا كَالسَمَا وَهُوَ يَلْمُ بِكَمَالٍ مَكْتَسِ
 حَوْلَهُ الطُّلَابُ كَالشُّهْبِ سَمَا قَدَرُهَا مِنْ نُورِهِ الْمُقْتَبَسِ
 أَيْهَا الطُّلَابُ الْعِلْمُ اتَّبِدْ لَيْسَ إِلَّا بِأَبَةٍ يَنْفَعُكََا
 إِنْ تَرَمَ تَبَلُّ الْمَرْجَى فَاجْتَهِدْ فِي اتِّبَاعِ الَّذِي يَرْفَعُكََا
 عِلْمٌ مَنْ يَعْمَلُ لِكَسِيرٍ فَرْدٌ مِنْهُ وَاتْرَكَ حَاسِدًا يَدْفَعُكََا

والزمِ الأعتابَ وانزلْ بالحمى
 باعقادٍ فازَ من قد لثما
 مدَّ حَبْرَتُ الناسَ طرّاً نظراً
 لم أجدُ إلا مقلّاً صدراً
 غيرَ ما يعلية فأنظرُ لرى
 بيلعِ النطقِ لثاً نظماً
 وأنى يخضعُ جمعُ العلما
 إنما المجدُ الرفيعُ المتطلي
 يدعُ المرفوعَ كالمنهبطِ
 ناظراً في أمره بالأحوطِ
 كلٌّ من أمٍّ حماءُ قد حمى
 فإذا جرّدَ منه انضصما
 حبداً المغربُ قطراً بالسنا
 قطرهُ الشامخُ قد أهدى لنا
 كلٌّ من فاتتَهُ أسبابُ النقى
 قل لمن يرجو سوى المذكورِ ما
 لا ، ولا الناسُ سواءَ إنما
 لئذٍ بشهمٍ فازَ منْ أمْلُهُ
 أثقلَ السؤددِ إذ حمْلُهُ
 وحماءُ الأمنُ ، من أمٍّ له
 خالغَ الرُبْقَةَ من قولِ الممي
 نعله والكبرُ شأنُ المُلبسِ
 لماطِ الأمرِ في هذا الزمان
 عن دعاوٍ أخلفتُ عندَ العيان
 دُرَرَ الألفاظِ في سِمِطِ البيان
 بُهِتَ المتطيقُ مثلَ الأخوسِ
 نحوَ ذا الفردِ في المتتمسِ
 أروسَ الآسادِ قسراً مثلَ ذا
 ثم للنازلِ يُعلي مفضدا
 خافضِ الطرفِ على حرِّ القلبي
 بحُسامِ العزمِ هشَّ الملمسِ
 جَلَمَدُ الصخرِ بذاك الميسِ
 فضلهُ يَجْهرُ بَدْرُ الأفقِ
 سيّداً قد فاقَ شمسَ المشرقِ
 بعُـلـلـاهِ للثريا يوتني
 ينبُتُ الزهرُ بأرضِ اليبسِ
 رأيُ مَنْ سَوَاهُمُ في هوسِ
 بنوالِ فاقَ سَحَّ الحاملِ
 وقَرَّ فضلِ مستيينِ شاملِ
 بلغَ القصيدةَ ، فبشرى الآملِ

بحره الوافرُ بالعلم طما كاملَ الأمدادِ لم يجتبسِ
نال منه الناسُ حتى عمما مشرقاً والغربَ للأندلسِ

رجع إلى مَوْشَحَات لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ،

فمن المنسوب إلى عباسه قوله :

قد حركَ الجَلجلُ بازي الصباحِ والتفجرُ لاح
فيا غراب الليلِ حُتَّ الخناح

وهذا مطلع مَوْشَحٍ بديع له لم يحضرني الآن تمامه ؛ لكنني تركته وجملة من
كلام لسان الدين في كتبي بالمغرب جبرها الله تعالى عليّ ، وهو معارض للمَوْشَح
الشهير الذي أوله :

بنفسجُ الليلِ تدكَّى وفاح بَيْنَ البطاح
كانه يسقى بمسك وراح

وهذا المنحى هو الذي سلكه الجمالُ ابنُ نُباتة^١ إذ قال مادحاً لخلال الدين
الخطيب رحم الله تعالى الجميع :

ما سَحَّ عمرُ دموعي وصاح على الملاح
إلاّ وفي قلبي المعنى جراح

لي من بَني الأثرَاك حلُو الشَّبابِ مرُّ السَّطا
عَشَقْتُهُ حينَ عَدِمْتُ الصَّوَابِ مِنِ الخطَا
تَشَكُّو حَسَا الغَزْلَانِ مِنْهُ التَّهَابِ إذا عَطَا
ورُبِّمَا تَشَكُّو الغَصُونُ اكْتِثَابِ إذا خَطَا

١ هو محمد بن محمد بن محمد ابن نُبَاتة القناري وله ترجمة مسهية في الوافي ١ : ٣١١ - ٣٢١ ولم
ترد الموشحة هناك أو في ديوانه .

ما ماسَ ذاكَ القَصْنُ بَيْنَ الوِشاحِ إلا وِراح
 قَوْلُ عَدُوِّي كُلِّهِ فِي الرِّيحِ
 أَهْأَ لَصِيْبٍ دَمَعَهُ حَيْثُ كَانَ دَمْعُ أَرْقٍ
 هَذَا أُسِيرٌ فِي وَجْهِهِ الحِصَانُ وَذَا طَلِيْقٌ
 أَرْقَ جِيسِي بِالضَّنَى يَوْمَ بَانَ بِدُرِّ القَرِيْقِ
 فَهِيَ أَنَا الْيَوْمَ لَهُ يَا فُلَانُ عَيْدٌ رَقِيْقٍ
 يَزِيدُ أَجْفَالِي نَدَى وَارْتِيَا ح نَهْيُ اللُّوَا ح
 مِثْلُ جَلَالِ الدِّينِ يَوْمَ السَّمَا ح
 حَبْرٌ لَهُ فِي الخَلْقِ ذِكْرٌ جَمِيْلٌ لَا يُفْتَرَى
 مَا حَ مَلَّ خِيْطُ النِّسَامِ الْبَخِيْلِ مَحَلُّ التَّوْبَى
 مَا رَأَيْتِ العَيْنَ لَهُ مِنْ مَكِيْلٍ وَلَا تَرَى
 يَوْسُفُ فِي أَوْطَانِهِ لِلنَّزِيْلِ نَارَ القِرَى
 فَرَارَهَا فِي الكَيْسِ حَمْرٌ صَحَا ح لَهَا اقْتِصَا ح
 لَكُنْهَا فِي القَلْبِ عَذْبٌ قَوَا ح
 يَا مَالِكََ العِلْمِ وَفِيضِ النَّدَى جُزْتُ المَدَى
 فَابْقِ وَكُلُّهُ العَالَمِينَ القِيْلَا دَعِ العِيْلَا
 أَنْتَ الَّذِي أَصْبَحَ عَيْتُ الْبَلَا صَبَحَ المَدَى
 كَمْ يُفْتَنِّي مِنْكَ وَكَمْ يُفْتَدَى وَبُجْتَدَى
 عِلْمٌ جَلِيٌّ وَنَوَالٌ صُرَا ح صَفُو مِبَا ح
 يَتْرَوِي بِهِ رَاوِي الرَّجَا عَنِ رِيَا ح

وَمُغْرَمٍ لَا يَخْتَشِي مِنْ رَكِيْبٍ وَلَا عُلُوٍّ
 مَعْلَقُ الْقَلْبِ بِشَجْرِ عَجِيْبٍ وَلَا وُصُوْلٍ
 يَسْكُرُ لَكِنْ بِصِفَاتِ الْحَيِيْبِ لَا بِالشَّمُوْلِ
 لَمَّا رَأَى الظِّيِّ وَمَا سَ الْقَضِيْبُ أَضْحَى يَقُوْلُ
 كَمْ يَنْتَفِي جَفْنُكَ وَعِطْفُكَ صِفَاحُ . عَلَى رِمَاحِ
 مَا ذِي مَحَاسِنٍ ذِي غَزَايِنِ سِلَاحِ

ومن الموشحات الصادرة من المشاركة المعارضة للمغاربة قول عثمان البلطي
 بمدح القاضي القاضل :

وَيْلَاهُ مِنْ رَوَّاحٍ يَجْوُوهُ يَنْفِي
 ظِيٍّ لَهُ إِهْلَافٌ مِنْهُ أَلْفَا جُظِي

ولم أقف على تمامها ، وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة ، وهو :

عِقَابُ الْأَصْدَاغِ فِي السُّوسِ الْغَضِ
 تَسْنِي تَكْنَى مِنْ لَذِ بَالِيسِكِ وَالْوَعِظِ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَعَلَّوْا عَلَيَّ لَمْ أَحْسِبْ
 أَنْ تَخْضَعَ الْأَسَدُ لِحُؤُذِ السَّرْبَرِ
 ظِيٍّ لَهُ عُدُ مُفْتَقِصٌ مُدْهَبٌ
 وَشَادَنْ يَبْلُو فِي صَدْعِهِ عَقْرَبُ

١ في ق : المظلي والتصويب من مجسم الأدباء (١٢ : ١٤١) وقال نسبة إلى بلط التي تقارب الموصل
 وذكرها في مجسم البلدان بالياء . وحسان بن عيسى البلطي انتقل إلى دمشق وحلم في الزيداني ولما فتح
 صلاح الدين مصر انتقل إليها وفيها توفي سنة ٥٩٩ هـ بعد أن كان يدرس النحو ويعرّيه القرآن ؛
 وقد أورد ياقوت موشحته ص : ١٤٧ كما أوردها ابن شاذان في الفوات ٧ : ٦٧ في ترجمة
 البلطي .

رقة زهر الباغ^١ في جسمه النضي
وقسوة الأفلاذ في قلبه الفظ

مهفهف يبدع أصبحت مفرى به
قلبي له ربح لو كنت في قلبه
أصابني صدع مدّ لج في جفنه
السهد والسمع حظي من قربه

والعين لا يناع لها جنى الغمض
والدمع ذو إغلاذ ناهيك من حظ

ومن أحسن ما للمشاركة من التوشيح قول الشهاب الحازي يعارض أحده
ابن حسن الموصل^٢ :

يا ليلة الوصل وكأس القمار دون استثار
عكمتاني كيف خلع العذار

اغتم اللذات قبل الذهب
[وجر أذيال الصبا والشباب]^٣
واشرب فقد طابت كؤوس الشراب

على خلود تبت الجلتار ذات احمرار
طرزها الحسن بأس العذار

١ الباغ : الحديقة .

٢ انظر المنهل الصافي ١ : ٣٤٤ وتوشيح التوشيح : ١٠٩ .

٣ مقطع هذا الشطر من ق .

الراح لا شك حياة النفوس
فحل منها عطلات الكؤوس
واستجلبها بين الندامى عروس

تُجَلِّى على خطاياها في لزار من النصار
حبابها قام مقام النصار

أما ترى وجه الحنا قد بدا
وطالسر الأشجار قد غردا
والروض قد وشاه قطر الندى

فكمال اللهو بكأس تدار على اقرار
مباسم النوار غب القطار

اجن من الوصل ثمار المي
وأوصل الكأس بما أمكنا
مع طيب الرقة حلو البني

بمقلة أفك من ذي الفقار ذات احورار
منصورة الأجفان بالانكسار

زار وقد حل عقود الجفا
وافتر عن فخر الرضى والوفاء
فقلت والوقت لنا قد صفا

يا ليلة أنعم فيها وزار شمس النهار
حييت من بين اليالي القصار

ويعجبي من موشحات الغزالي المذكور قوله ١ :

ما على من هام وجداً بلوات الحل
مبتلى بالخلق السود ويبيض الطل

بالقوى ملكي حسن لديوني لوى
كم نوى قتلي وكم عذبي بالنوى
قد هوى في حبه قلبي بحكم الهوى

واصطل نار تجتبه ونار القلى
كيف لا يكتوب من هام بريم القلا

هل ترى يجمعنا الدهر ولو في الكرى
أم تترى عني محباً من الجسمي برى
بالسرى يا حادبي ركب يللي سرى

عللا قلبي يتذكر اللقاء عللا
وانزلنا دون الحمى ، حمى الحمى منزلنا

بي رخصا دمني بسرّي في هواه قضا
لو يشا برّد مني جمرات الحشا
ما مشى إلا انتفى في سكره وانتفى

عللا من الحميا يا مدير العللا
ما حللا إذا أدار الناظر الأكمللا

هَلْ يُلَامُ	مَنْ غَلَبَ الْحُبُّ عَلَيْهِ فُهَامُ
مُسْتَهَامُ	بِفَاتِرِ اللَّحْظِ رَشِيقِ الْقَوَامُ
ذِي ابْتِسَامُ	أَحْسَنَ نَظْمًا مِنْ حَبَابِ الْمَدَامُ
لَوْ مَلَا	مَنْ رِيقِهِ كَأَسَا لِأَحْيَا الْمَلَا
أَوْ جَلَا	وَجْهًا رَأَيْتَ الْقَمَرَ الْمُجْتَلا
لَوْ عَمَّا	قَلْبُكَ عَمَّنْ زَلَّ أَوْ مِنْ هَمَّا
أَوْ صَمَّا	مَا كَانَ كَالْجُلْحَمِ أَوْ كَالصَّمَا
بِالْوَفَا	سَلَّ عَنْ فِئِ عَدُوِّهِ بِالْجَفَا
هَلْ نَحَلَا	فُؤَادَهُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَلَا
أَوْ سَلَا	أَوْ خَانَ ذَاكَ الْمُؤَقِّ الْأَوَّلَا

وقوله أيضاً يعارض الموصلي^١ :

مَا سَلَّتِ الْأَعْيُنُ الْفَوَاتِرُ	مِنْ هَمْدِ أَجْفَانِهَا الصَّفَاحُ
إِلَّا أَسَالَتْ دَمَ الْحَاجِرِ	مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَلَا كِفَاحُ
ثَلَاثُ مَا حَرَّكَ السَّوَاكِنُ	غَيْرُ الطُّبَّاءِ الْجَاحِزِ
لَمَّا اسْتِجَاشَتْ بِكُلِّ طَاعِنُ	مِنْ الْقُسُودِ النَّوَاضِرِ
وَفَوَّقَتْ أَهْمَ الْكَثَائِنُ	مِنْ كُلِّ جَفْنٍ وَفَاطِرِ
عُرِبَ إِذَا صَحَنَ بِالْعَامِرِ	بَيْنَ سَرَايَا مِنَ الْمَلَا
طَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْ الْحَاجِرِ	طَلَّاحٌ تَحْمِلُ السَّلَاحُ

١ المنهل الباقى ١ : ٣٤٧ .

أَحَبُّ بِمَا تَطْلُعُ الْجُيُوبُ مِنْ أَقْسَرِ مَا لَهَا مَغِيبُ
هِيَهَاتَ أَنْ تَعْدَلَ الْقُلُوبُ عَنَّا وَلَوْ جَارَتْ الْمُقَلُ
لَمَّا تَوَشَّحْنَ بِالسَّادِرِ فَانْهَزَمَ اللَّيْلُ وَهُوَ حَائِرُ
وَأَهْيَفِ نَاعِمِ الشَّمَالِ فَيَنْثَنِي كَالْقَضِيبِ مَائِلُ
لَهُ عِذَارٌ كَالْتَدَّةِ سَائِلُ اللَّهُ كَيْفَ مِنْ دَمِ أَسَالُ
شَقَّتْ عَلَى بَيْتِهِ الْمَرَاتِرُ مِنْ دَاخِلِ الْأَنْفُسِ الصَّحَا
تَكَلُّ فِي وَصْفِهِ الْخَوَاطِرُ وَتُخْرِسُ الْأَلْسُنَ الْقَصَا
ظَهَرَ إِلَى الْإِنْسِ لَا يَمِيلُ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنْ حُلَا
الْحَسَنُ قَالُوا وَلَمْ يَقُولُوا مَبْدَاهُ مِنْهُ وَمُنْتَهَاهُ
وَطَرَفُهُ النَّاسُ الْكَحِيلُ هِيَهَاتَ مِنْ سَيْفِهِ النَّجَاهُ
أَذَلَّ بِالسَّحَرِ كُلَّ سَاحِرٍ فَهُوَ لَهُ خَافِضُ الْجَنَاحِ
يَحُولُ فِي بَاطِنِ الضَّمَائِرِ كَمَا يَحُولُ التَّقْضَا الْمُتَاحِ
أَمَّا تَرَى الصَّبِيحَ قَدْ تَطَلَّعَ مُدَّةً غَمَضْتَ أَعْيُنُ الْفَسَقِ
وَالْبَدْرَ نَحْوَ الْغُرُوبِ أَسْرَعَ كَهَارِبٍ نَالَهُ فَرَقِ
وَالْبَرْقَ بَيْنَ السَّحَابِ يَلْمَعُ كَصَارِمِ حَسِينٍ يَمْتَنِقُ
وَتَحْسَبُ الْأَنْجَمَ الزَّوَاهِرِ أَسَنَةً أَلْقَتْ الرِّيحُ
فَانْهَزَمَ النَّهْرُ وَهُوَ سَائِرُ فَدَرَعَتْهُ بِدُ الرِّيحِ

١ المنهل : في ذيله .

وموشحة الموصلي التي عارضها الغزالي هي قوله^١ :

رنا بأجفانه القواثر	لما انثنى واحد الملاح
فسل من طرفه بواثر	وهز من عطفه رماح
ناظره جرد المهتد	وغمدته مني الحشا
وعامل القد فهو أملد	يطعن القلب إن مشى
والعارض القائم المزد	لفتنة الناس قد نشا
والحاجب القوس، بالقواثر	لتنبله في الحشا جراح
ومشرق الصدغ فهو جائر	سلطانه للدما أباح
فجفنه الفاتك الكيناني	من ثعلب رآش لي نبال
وهو الخفاجي قد غزاني	ووجهه من بني هلال
حبسي لحظ له سباني	جسم زيدي بالدلال
والردف يدعى من آل عامر	وواضح الصلكت من صباح
وخصره من هشيم ضامر	يلور من حوله وشاح
فوجهه جنّة وكوثر	رؤياه العذب لي حلا
والنار في وجتيه تسمر	حيالها خاله اصطلي
عجبت من خاله المعنير	إذ يبعد النار كيف لا

١ المنهل الصافي ١ : ٣٥٠ .

٢ المنهل : في الغلب .

٣ المنهل : من مقل ٤ وثل : قبيلة مشهورة بالرمابة .

٤ المنهل : حيم .

٥ ق : وأخال خيالها .

يُحَرِّقُ^١ بِالنَّارِ وَهُوَ كَافِرٌ وَمَا مَقَى رِيْشَهُ الْقِرَاحُ
كَامِلٌ حَسَنٌ مَعْنَاهُ وَافِرٌ بَسِيطٌ وَصَفٍ كَالْمَسْكِ فَاحٌ
مَا اخْتَصَرَ نَبْتُ الْعِلَارِ إِلَّا بَأْسَهُ سَيِّجٌ^٢ الشَّقِيقُ
وَهُوَ كَتَمَلٍ سَتَى وَوَلَّى وَلَمْ يَجِدْ لِلْجَنَى طَرِيقَ
مِنْ رِيْقَةِ الْبَدْرِ إِذْ تَجَلَّى فِي هَالَةِ الْعَارِضِ الْأَتِيقِ
لَمَّا تَبَدَّى بِالْوَجْهِ دَائِرٌ وَحَيَّرَ الْعَقْلَ حِينَ لَاحَ
شَقٌّ عَلَى خَدِّهِ الْمَرَائِرِ وَقَطَعَ الْأَنْفُسَ الصُّبْحَاحَ
وَرُبَّ يَوْمٍ أَنَى وَحَيَا كَالشَّمْسِ وَالنَّجْمِ وَالْقَمَرِ
بِالْكَأْسِ وَالرَّاحِ وَالْمَحْيَا ثَلَاثَةٌ تَفْتَنُ الْبَشَرَ
وَقَالَ قُمْ يَا نَدِيمُ هَيَا اقْضِ بِنَا لِنَةِ الْوَطَرِ
فَالْحَمْرُ تُجَلَّى عَلَى الْمَزَاهِرِ مِنْ اغْتِبَاقٍ إِلَى اصْطِبَاحِ
وَطَافَ الرَّاحُ بِالْمَجَامِرِ مِنْ غَيْرِ الزَّهْرِ فِي الْبَطَاحِ

وَمِمَّا يُطْرِبُنِي مِنَ الْمَوْشَحَاتِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ^٣ :

مَا بِي شَمُولٌ إِلَّا شَجُونٌ مَزَاجُهَا فِي الْكَأْسِ دَمْعٌ هَتُونٌ
لَقَدْ مَا بَدَّرَ مِنْ الدَّمُوعِ مِنْ الْوُلُوعِ
صَبٌّ قَدْ اسْتَعْبِرَ مِنْ الْوُلُوعِ
أَوْدَى بِهِ جَوْدَرٌ يَوْمَ الطَّلُوعِ^٤

١ المنهل : يبيح .

٢ هذه الموشحة لابن بقي (دار الطراز : ٦٧) .

٣ دار الطراز : يوم البقيع .

لَهُوَ قَتِيلٌ لَا بَلَّ طَمَعِينَ بَيْنَ الرِّجَا وَالْيَاسِ لَهُ مَنُونٌ

جَرَحْتُ لِلْحَيِّينِ كَفْتِي بِسِكَّتِي
وَحِيلَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْإِنْفِي
لَا شَكَّ بِالْبَيْنِ يَكُونُ حَتْفِي

حَالُ الرَّحِيلِ وَلِي دِمَسُونَ إِنْ رَدَّ مَا الْعَبَّاسُ فَهُوَ الْأَمِينُ

أَمَّا تَرَى الْبَدْرَا بَدْرُ السَّعُودِ
قَدْ اكْتَسَى خُفْرَا مِنْ الْبُرُودِ
إِذَا انْتَى نَضْرَا مِنْ الْقُلُودِ

أُنْجَى يَقُولُ مَتَّ يَا حَزِينُ قَدْ اكْتَسَى بِالْأَسِ الْيَاسَمِينُ

قُلْتُ وَقَدْ شَرَّدَ النَّوْمَ عَنِّي
وَأَيَّاسُ الْمَوْدِ السَّخْمُ مِنِّي
صَدَّ فَلَمَّا صَدَّ قَرَعْتُ مِنِّي

جَسِي نَحِيلٌ لَا يَسْتَبِينُ يَطْلُبُهُ الْجَلَّاسُ حَيْثُ الْأَيْنُ

بَجَاوَزَ الْجَدَا قَلْبِي اشْتِيَاقَا
وَكَلَّفَ السَّهْدَا مِنْ لَا أَطَاقَا
قُلْتُ وَقَدْ مَدَا لَيْلِي رَوَاقَا

لَيْلِي طَوِيلٌ وَلَا مَعْبِينُ يَا قَلْبَ بَعْضِ النَّاسِ أَمَا تَكِينُ

الباب السادس

في مصنفاته في الفنون ، ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون ،
وما كمل منها أو اختصرت منه دون إتمامه المتنون

اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمت نحو الستين ، وكلتها في غاية البراعة ،
بميت لأنه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به ، بل وكثير من غير أهل
عصره رحمه الله تعالى ، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها ، وفيها أقول مضمناً
ببعض تغيير :

تصانيف الوزير ابن الخطيب ألد من الصبا الفصح : الرطب
فاية راحة ونعيم عيش توازي كتبه أم أي طيب

قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر « الإحاطة » ما صورته^١ :

التواليف ؛ « التاج المحلى في مساجلة القندح المحلى » ، و « الكتيبة الكامنة في
أدباء المائة الثامنة »^٢ ، و « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر »
ثم « النقاية بعد الكفاية » ، هذا في نحو القلائد والمطمحين لأبي نصر الفتح بن محمد ،
و « طرفة العصر في دولة بني نصر » في أسفار ثلاثة ، و « بستان الدول » موضوع
غريب ما سنع بمثله ، قل أن شذ عنه فن من الفنون ، يشتمل على شجرات

١ الإحاطة ، الورقة : ٣١٧ .

٢ سقط ذكر الكتيبة الكامنة من ق ، وهو الأصوب لأن المقري سيستدرك ذكره من بعد بين الكتب
التي لم تذكر قبلا .

عشر : أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوزارة ، ثم شجرة الكتابة ، ثم شجرة القضاء والصلابة ، ثم شجرة الشرطة والحسبة ، ثم شجرة العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهي فرعان : أسطول ، وخيول ، ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين واليازرة والياطرة والفلاحين والتدما والشطرنجيين والشعراء والمغنين ، ثم شجرة الرعايا ، وتقسم هذا كله غريب يرجع إلى شعب ، وأصول ، وجرائم ، وعمد ، وقشر ، ولحاء ، وغصون ، وأوراق ، وزهرات مشمرة ، وغير مشمرة ، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصيغ اسم الفن المراد به ، وبرناجيه صورة بستان ، كل بمته نحو من ثلاثين سقراً ، ثم قطع عنه الحادث على الدولة ، وديوان شعري في سفرين سميت « الصيْب » والجهام والماضي والكهام » ، والنثر في غرض السلطانيات كثير ، والكتاب المسمى بـ « اليوسفي في صناعة الطب » في سفرين كبيرين ، كتاب ممتع ، و « عائد الصلة » وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير ، في سفرين ، وكتاب « الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » كتاب كبير في أصفار تسعة ، هذا متصل بآخرها ، و « تحليل الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة » ، و « جيش التوشيح » في سفرين ، ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كساد الدولة « نقاضة الحراب في حلاله الاغتراب » موضوع جليل في أربعة أصفار ، وكتاب « عمَلُ مَنْ طَبَّ لِمَنْ حَبَّ » ومترلته في الصناعة الطيبة بمترلة كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية ، لا نظير له ، ومن الأراجيز المسماة « رقم الحلال في نظم الدول » والأرجوزة المسماة : « الحلال المرقومة في اللع المنظومة » ألفية من ألف بيت في أصول الفقه ، والأرجوزة المسماة بـ « المعلومة » معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم

إذا أُضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالاً لا يشينه نقص ،
والأرجوزة المسماة بـ « المعتمدة في الأغلبية المقررة » والأرجوزة « في السياسة
المدنية » ، إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز « في عمل الترياق الفاروقي » ،
و « الكلام على الطاعون المعاصر » ، و « الإشارة » ، و « قطع السلوك » ،
و « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » حتى في الموسيقى والبيطرة والبيزرة ،
هلر كُتِفَ به الحجاب ، ولعب بالنفس الإيجاب ، وضاع الزمان ولا تبيل
بين الرد والقبول والنفي والإيجاب ، ولله در القائل — وهو المؤلف^١ :

والكونُ أشراكُ نفوسِ الوري طُوبى لنفسٍ حرةٍ فازت
إن لم تحزْ معرفةَ الله قد أوطأها الشيء الذي حازت

وكلُّ مُيسَّرٍ لما خُلِقَ له ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم ، انتهى
ما له في آخر « الإحاطة » بحروفه .

قلت : ولندكر ما تأخَّر تأريخه عن الإحاطة أو أُشير إليه فيها مجملًا فنقول :
من أشهر تواليفه رحمه الله تعالى كتاب « ربحانة الكتاب ونجعة المتأب »
في عدة مجلدات ، وهو داخل في قوله السابق في الإحاطة : والنثر في غرض
السلطانيات كثير ، وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير في أغراض
شئ من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصلقاتهم وغير ذلك من أحوالهم
وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى ، وذكر في صدره خطب
بعض كتبه ، وفي آخره بعض مقاماته وتحليته لأهل عصره ، وغير ذلك ،
وبالحملة فهر كتاب مفرد في بابه .

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى في
كتابه « نير فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان » ما صورته^٢ : لابن الخطيب

١ وهو المؤلف : زيادة من ق ، لم ترد في الإحاطة .

٢ نير فرائد الجمان : ٢٤٤ وأزهار الرياض : ١٨٩ .

الأوضاع المصنّفات ، التي آذَانُ إحسانها هي المُعَرَّطَات المُشَبَّهَات ، منها في التصوف ، الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر الشوف « روضة التعريف بالحب الشريف » ، انتهى ، وسرَدَ غير هذا الكتاب ممَّا قلنا ذكره وغيره .

وهذا الكتاب — أعني « روضة التعريف » — غريب المتزع ، وعارض به « ديوان الصباية » لابن أبي حجلة صاحب « السكران » ، وضمنه من التصوف وصبارات أهله العجيب العُجاب ، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المُطلقة ، وبذلك سجل عليه أعداؤه في نكيتة الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ، وتَسَبَّوه إلى مذهب الحلول وغيره ، ممَّا ذكره يطول حسبما أُلِّعنا بذلك فيما سبق ، وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان وعمود ، مشتمل على القشر والعود ، وأوراق ، وصورة طائر فوقها ، ولم أر في فنّه مثله ، جازاه الله تعالى عن نيته ، فإثته في الحب الشريف الرباني ، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته .

ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ما سبق « اللحة البسوية في الدولة النصرية » وكتاب « السحر والشعر » و « معيار الأخبار » و « مفاضلة مالقة وسلا » و « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » وقد ذكرهما في الرحانة بنصهما ، وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه ، و « المسائل الطبية » في مجلد ، و « الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة » ورسالة « تكوّن الجنين » و « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » وكتاب « الوزارة » و « مقامة السياسة » و « الغيرة على أهل الحيرة » و « حمل الجمهور على السّنّ المشهور » و « الزبدة الممخوضة » و « الرد على أهل الإباحة » و « سد الذريعة في تفضيل الشريعة » و « تقرير الشبه وتحرير الشبه » و « استئزال اللطف الموجود في سر الوجود » و « أبيات الآيات » فيما اختاره رحمه الله تعالى من مطالع ما له من الشعر ، و « فُتَات الخوان ولقط الصوان » في سفر يتضمن المقطوعات فقط ، و « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ، و « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » جمع فيه نظم ابن صفوان ، و « أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يمر ذلك

من شجون الكلام ، و « المباخر الطيبة في المفاخر الخطيبة » و « خلع الرسن
 في أمر القاضي ابن الحسن » وتلويح شعر شيخه ابن الجياب ، وجمع نثر المذكور
 وسمّاه « تافه من جم » ونقطة من يسمّ « وشرحه لكتاب نفسه » رقم الحلل في
 نظم الدول ، فهذا ما حضرني علمه من توالييف لسان الدين رحمه الله تعالى ،
 فأما « البيزرة » ففي مجلد ، وأما « البيطرة » فكللك في مجلد جامع لما يرجع إليه من
 محاسن الخليل وغير ذلك ، وأما « رجز الأصول » فقد شرّحه قاضي القضاة ولي
 الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور ، وأما « رقم
 الحلل في نظم الدول » فهو في غابة الحلاوة والعلوية والجزالة ، وقد كنت
 بالمغرب أحفظ أكثره ، فنتيسه الآن ، وابتدأه بقوله :

الحمد لله الذي لا ينكره من سرّحت في الكائنات فكره

وعلق بحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد :

ثم الوليد بن يزيد العاثي قد نقلت من فعله خباث
 وفي آخر دولة بني أمية قوله :

وصار قصر الملك من أمية أقفر ريعاً من ديار مية

وفي الأمين :

باع الملا بشادين وكاس وصحة الشيخ أبي نواس

وفي المعتصم :

وهو الذي تألف الأثر اكا فتصّبوا لقومه الأشر اكا

ومن أبيات هذا الكتاب قوله :

وَيَقْسُدُ الْمَلِكُ بِالاحتِجَابِ كَذَلِكَ بِالزَّهْوِ وَالإِعْجَابِ

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك :

وأقفرْتُ من ملكه أوطأنهُ سبْحانَ من لا ينْقضي سلْطانه

[معلومات عن كتاب الإحاطة]

وأما كتاب « الإحاطة » فهو الطائر الصيت بالشرق والمغرب ، والمشاركة أشد إصجاباً به من المغاربة ، وأكثر لهجاً بذكره ، مع قلته في هذه البلاد الشرقية ، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي^١ ، وسماه « مركز الإحاطة في أدباء غرناطة » وهو في مجلدين بخطه ، رأيت الأخير منهما بمصر ، وقال في آخره ما نصه : هذا آخر ما أردت إيرادَه ، وفوقْتُ إيرادَه ، من كل طرفة ونخلة وفائدة أدبية ونادرة تاريخية ، في كتاب « الإحاطة بتاريخ غرناطة » ، ولما كان المعول عليه ، والباعث الداعي إليه ، ذكر أدبائه ، وماكر علمائه ، سميت « مركز الإحاطة بأدباء غرناطة » والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقيرُ إلى عفوَ ربِّه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي ، لطف الله تعالى به بمحبه وكرمه ، مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى . وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل في مجلد ، إذ هو في مجلدين كما سبق ، ونسخة الأصل في ثمانية مجلدات ، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها . ولما وقف سلطان الأندلس من كتاب « الإحاطة » نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابنُ عاصم حجة الوقفية بخطه ، ولتثبتها لما فيها من القوائد ، قال

١ هو محمد بن إبراهيم بن محمد أبو القتياد بدر الدين الأنصاري البشتكي الدمشقي الأصل المتوفى بالقاهرة سنة ٨٣٠ (انظر الفهرست للشيخ ٦ : ٢٧٧ وطاقم البدر ١ : ٨٠) .

الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي نزيل تلمسان المحروسة : كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، والفائقة الكمال ، من « الإحاطة بتاريخ غرناطة » المحبسة على المدرسة اليوسفية ، من الحضرة العلية ، بخط قاضي الجماعة ، ومفتد الأحكام الشرعية المطاعة ، صدر البلاء ، وعلم العلماء ، ووحيد الكبراء ، وأصيل الحسباء ، الوزير الرئيس المعظم أبي يحيى ابن حاصم - رحمه الله تعالى عليه - ما نصه : الحمد لله الجاعل الاستدلال بالآثر على المؤثر مما سلمه الأعلام ، وشهدت به العقولُ الراجحة والأحلام ، وهو الحجة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام ، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عرّضت الأوهام ، وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة ، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلة ، فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون القن المشار إليه بالقبول ، ويستنبط المهتدي لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول ، وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل ، ومنتهى من صحة النظر إلى أكرم قبيل ، فلا يخاف أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - من أثر هذه الدولة النصرانية أدامها الله تعالى بكل اعتبار ، ومآثرها التي هي عبرة لأولي الألباب وذكرى للنوي الأيصار ، أما الأول فلا أن الأنبياء التي أظهرت بهجتها ، وأوضحت حجتها ، وشرفت مقصدها ، وكرمت مصطلحها ، إنما هي مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خفائنها الأعلام ، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صلور حملة السيوف والأقلام ، وألذاذ حكمة الدين والدنيا ، والشرف والعليا ، والملك والإسلام ، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك ، ويتنظم نظم الجثمان في ذلك السلك ، من حياطة قلعتها ، وأصالة منحتها ، وقديم انحطاطها ، وكرم جهادها ورياطها ، وحسن تربيتها ووضعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربّتها ، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممن اتناها

من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل ، وأما ثانياً فإن راسم آياتها المطلوبة ، ومُبدع عاينها المجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوة ، إنمّا هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصيرية الكريمة ، ونشأة من نشأت جودها الشامل النعمة الهامل الدائمة ، فما ظهر عليه من كالات الأوصاف ، على الانصاف ، فأخلاف هذه المكارم النصيرية أرضعته ، وعناياتها الجميلة أسمته فوق الكواكب ورفعتته ، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشریفها اكتسب ، والحضرة هي مشرّقه الذي عظم فيه قدره ، بل أفضّله الذي أشرق فيه بدره ، والتشريفات السلطانية التي نعتت اللهأ بالثأ ، وأحلت من مرافق العز فوق السها ، وأمكنت الأيدي من اللخازن والأعلاق ، وطوقت المن كالقلائد في الأعناق ، وقلدت الرئاسة والأقلام أقلام ، وثنت الوزارة والأعلام أعلام ، فبهت أنواع المحاسن ، وورد معين البلاغة غير المطروق^١ ولا الآسن ، وبرعت التوايف في القنون المتحدة ، واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكدة ، إذ أظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتبه الإجمال ، فلتفصّل الآن بما قصّد ، ولنتحقّق من أنجم السعادة ما رصّد ، وذلك أن لولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصيرين ، أيده الله وقصره ، وسنّى له الفتح المبين ويُسّرّه ، ماثر لم يُسبق إليها ، ومكارم لم يمر أحد ممن وسم بالكرم عليها ، بلحالة قدرها ، وضخامة أمرها ، من ذلك هذا المقصد الذي أثير لها كالكتاب المذكور وسواه ، ممّا هو واحد في فنه وفد في معناه ، عقّد في جميعها التحسيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ، والله تعالى يتّفق بهذا المقصد الكريم ، ويتولى المتوبة على هذا العقد الجسيم ، وهذه النسخة في اثني عشر سقراً متفقة الخط والعمل ، اكتب هذا

١ المطروق : الماء الذي يالت فيه الثواب .

على ظهر الأول منها ، ويتأريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة ، عرف الله تعالى بركته بمنتهى انتهى .

وكان لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - أرسل في حياته نسخة من « الإحاطة » إلى مصر ، ووقفها على أهل العلم ، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء ، وقد رأيت منها المجلد الرابع ، وهذا نص وقفيته : الحمد لله وحده ، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي - نفع الله تعالى به - عن موكله مصنفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السلمي - فسح الله تعالى في مدته ، وفتح لنا وله أبواب رحمته ، ومنحنا وإياه من رفده وعطيته ، وأسكننا وإياه أعالي جنته - جميع هذا الكتاب « تاريخ غرناطة » ، وهو ثمانية أجزاء ، هذا رابعها ، عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره ، وهو أنه فوض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلها ، وشؤونه جميعها ، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها ، تفويضاً تاماً على العموم والإطلاق ، والشمول والاستفراق ، لم يستثن شيئاً مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه ، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بشير الإسكندرية المحروس - أدام الله تعالى أيامه - كمال الدين بخالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الرهبي المالكي ثبوته. مؤرخ بقال ذي الحجة عام سبعة وستين وسبعمائة ، وفقاً شرعياً على جميع المسلمين يتصفون به قراءة ونسخاً ومطالعة ، وجعل مقره بالخانقاه الصالحية لسعيد السعداء ، رحم الله تعالى واقفها ، وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة ، حرسه الله تعالى ، ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة ، فلا يجل لأحد ، يؤمن بالله العظيم ، ويعلم أنه صائر إلى ربه الكريم ، أن يطله ولا شيئاً منه ،

ولا يبدله ولا شيئاً منه ، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين
يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور
جعل الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام
ثمانية وستين وسبعمائة ، انتهى .

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء ، فمن
ذلك ما كتبه الحافظ المقرئ المؤرخ ، ونصّه : انتفى منه داعياً لمؤلفه أحمد
ابن علي المقرئ في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة .

وما رقمه الحافظ السيوطي ونصّه : الحمد لله وحده ، طالعت على طبقات
النحاة واللغويين ، وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين
وثمانمائة ، انتهى

وبعد هذين ما صورته : انتفى منه داعياً لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني
سنة أربع وخمسين وتسعمائة .

وبعد ما صورته : أنها نظراً وانتقاء على الحموي الحنفي ، لطف الله به .
ويخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان سيدي الشيخ محمد
البكري الصديقي ما نصّه : طالعت مبتهجاً برياضه الموقفة ، وأزهار معانيه
المشرقة ، مرتقياً في درج كلماته العذاب سماه الاقتباس ، مقتنياً من لظافه درراً
وجواهر بل أحاشيها بذلك القياس ، كتبه محمد الصديقي غفر الله له ، انتهى .

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب كابن
دُقْمَاق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر ، ومن المغاربة ابن المؤلف
أبي الحسن علي [ابن] الخطيب ، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ،
والعلامة أبي الفضل ابن الإمام التلمساني ، والنحوي الراعي ، والشيخ القهامة الشهير
يحيى المجيبي شارح الألفية وصاحب التأليف ، وغير هؤلاء ممن يطول

تعدادهم ، رحم الله تعالى جميعهم .

وقد أشار ابن الأحمر خفيد الغني بالله تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيراً له ثم انفصل عنه حسبما تقدم إلى ما يتعلق بكتاب « الإحاطة » في جملة كلام نصّه : وتلقينا ممن نثق به أن الكاتب المجيد الأصيل حسياً ، البارع أدبياً ، أبا عبد الله ابن جُزَيّ وقد على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فأكرم جنابه ، وكمل من تقيده واصطناعه آرايه ، فالتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي ، وصاح بمن عُدّله :

أَيَا وَيَحَ الشَّجِيَّ مِنَ الْخَلِي

وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه ، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه ، فلم يكن شيء من الكلام إلا قال الإحسان وأنا معه ، استوعب ما شاء ، وأبدع في كل ما تفل سواء كان شعراً أو إنشأ ، لكن سابقاً أجله مَنَعَ من الإمتاع بمجمله ومُتَّصِلُهُ ، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فعين لتعريف صاحب المغرب بالكاتبة خالص الدولة ورئيس الحملة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فوقف من تاريخ ابن جُزَيّ على شاطئ نهر فياض ، وانتش من ورقاته أزهار رياض ، وحمله النظر في بدائعه على أن يأخذ في جمع كتابه المسمى بـ « الإحاطة فيما تيسر من تاريخ غرناطة » ووجد لللك موجباً أغراه بجمعه ، وهو أن الشيخ الحجة الشاعر الملقب أبا إسحاق ابن الحاج وقد على الأندلس بعد جُزَيّ في الآفاق ، وترحل إلى ما وراء الشام والعراق ، وإعلامه أنه يذهب في بداية تاريخ مذهب ابن جُزَيّ وغيره ، وكان وحيداً في فنون الآداب ، والمساجلة لأعلام الكتّاب ، وبحكم الاتفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان وجدّ الجحجج الخطير أبا

النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك المسمى ، وبأن وقته دون طموحه إلى عادته من المرقب الأسمى ، فأنتج الانتباز من تلك الرياسة الخطيية أن ألقى الخطبة على جلالة مقدارها ، وتوضّع أنوارها ، في مرتقى إجلالها وإكبارها ، وأخذ في تأليف « الإحاطة » مستنداً تصحيح الموالد والوقيات ، والأسماء والسميات ، ومستكثراً من طرّف المصنّفات ، ليتم قصده من الإطناب ، ونقله العيون الراقدة من كلّ كتاب ، وألقى جميع مقاصده ، والمعظم من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العمدة معلم الحملة منا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم أبي عبد الله الشريشي ، قدس الله تعالى ضريحه ، وهذا الشيخ الذي لم يماز سنّ الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من الميضات نقله ، وأحكم جنسه وقصّله ، وانحتم على مجلدات ستة . ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس بعودة جدنا الغني بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاشت الفروع من كتاب « الإحاطة » بالأصول ، وأنجز من التبحر فيه الوعد المملوك ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء نسخته المتممة من اثني عشر سقراً ؛ انتهى كلامه .

وقد علمت أن المكتوب في الوقفية كما مر ثمانية مجلدات ، لا اثنا عشر ، فلعل ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
والكاتب أبو عبد الله ابن جزّي الذي أشار إليه قد عرفنا به فيما سبق فليراجع .

[ترجمة ابن الحاج النميري]

وأما العلامة ابن الحاج ، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي النميري ، ويُعرف بابن الحاج الغرناطي ، قال

في الإحاطة^١ : نشأ على عفاف وطهارة ، وبر وصيانة ، وبلغ الغاية في جودة الخط ، وارتسم في كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مع حسن سمت ، وجودة أدب وخط ، وظهور كفاية ، يقيد ولا يفتر^٢ ، ويروي الحديث مع الطهارة والنزاهة ، مليح الدعابة ، طيب الفكاهة ، شرق وحج وتطوف وقيد واستكثر ودون رحلة سفره ، وناهيك بها طرفة ، وقلل لإفريقية ، وخدم بعض ملوكها ، وكتب ببجاية ، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن ، ثم كتب عن صاحب بجاية ، ثم تنزه عن الخدمة ، وانقطع بترية الشيخ أبي مكدن مؤثر إجمول ، ذاهباً مذهب المكوف بباب الله تعالى ، حجة على أهل الحرص والتهافت ، ثم جبر على الخدمة عند أبي حنان ، ثم أفلت عند موته فلقح بالأندلس ، وتلقى ببر وتوبه وعناية ، وولي القضاء بقرب الحضرة ، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه ، متوسط الاكتمال ، روى عن مشيخة بلده واستكثر ، وأخذ في رحلته عن ناس شتى ، وألف توالييف منها « إيقاظ الكرام بأخبار المنام » وجزء في بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة ، و « نزهة الحلق في ذكر الفرق » وكتاب « اللباس والصحة في جمع طرق المتصوفة » المدعي أنه لم يجمع مثله ، وجزء في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالشرق ، وجزء في الأحكام الشرعية سمّاه : « القصول المقتضية في الأحكام المنتخبة » ورجز في الجدل ، ورجز صغير في الحجب والسلاح ، ورجز صغير سمّاه : « مثالث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين » ، مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وامتنحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين ، ثم فكّه الله تعالى ، انتهى ملخصاً .

وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب « التحفة » وغيره ، وهو من الأدباء المكثرين ، وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بخطه ،

١ الإحاطة ١ : ١٩٣ والمقري ينقل ملخصاً .

٢ الإحاطة : وهو في أثناء هذه الحال يقيد ولا يفتر .

وقد أتى فيه بالعجب العُجاب ، وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق ،
لأنه لقي جماعة من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزي ، وناهيك بالثلاثة ،
وغيرهم ممن يطول تعداده ، وله النظم الرائق ، العذب الجامع بين جزالة المغاربة
ورقة المشاركة ، كما ستراه ، فمن نظمه يمدح الحفاظ جمال الدين يوسف بن
الزكي عبد الرحمن المزي ، وقد أبصره على أسيرة دار الحديث الأشرفية بدمشق :

جمالُ الدين للإقراء يعلو أسرته إذا اصطفَّ الرجالُ
فمدَّ جُلَيْتَ محاسنه بدا لي مُحْيَاً في أسرته الجمالُ

ضمن قول المعري^١ :

أهلٌ فيشترَ الأهلين منه محيّا في أسرته الجمالُ

وقوله في الحفاظ علم الدين أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي :

نوى النوى علمُ الدين الرضى فأنا من بعد فرقة بالشام ذو ألم
فلا تكلمي على حيي دمشق فقد أصبحت فيها زماناً صاحب العكم
وقال فيه أيضاً :

نوى النوى علمُ الدين الرضى فذكرتُ نارُ اشتياقي حتى استعظموا ألمي
فقلت : إني من قومٍ شعارهمُ جودٌ ، فلا تنكروا ناري على العكم

وقال في الحفاظ شمس الدين الذهبي :

رحلتُ نحو دمشق الشام مبتغيًا روايةً عن نوي الأحلام والأدب
ففتتُ في كتب الآثار حين غدت تُروى بسلسلةٍ عظمى من الذهب (ي)

١ شرح القط : ١٧١٧ .

وقال في الحافظ المزي أيضاً :

جَمَالُ الدِّينِ أَضْحَى فِي دِمَشْقٍ إِمَاماً نَحْوَهُ طَالَ الدِّمِيلُ
فَلَمْ أَعْدَمْ بِمِثْلِهِ جَمِيلاً فَعَيْتُ هُوَ الْجَمَالُ هُوَ الْجَمِيلُ

وقال حين بُدِّوهُ عَلَى الْأَمِيرِ الصَّالِحِ الْمُحَدَّثِ الْبُخْلِيلِ قُطْبِ الدِّينِ أَبِي
إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَلِكِ الْمُجَاهِدِ سَيْفِ الدِّينِ إِسْحَاقَ بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الرَّحِيمِ
بَدْرُ الدِّينِ بْنِ لَوْلُؤِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التُّورِيِّ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ لِيُرِي عَنْهُ :

إِلَى قَصِيدِ قُطْبِ الدِّينِ وَأَفَيْتُ عِنْدَمَا أَقَمْتُ عَلَى التَّرْحَالِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ
وَأَصْبَحْتُ كَالْأَفْلَاقِ فِي السَّيْرِ وَالشَّرَى فَهَا أَنَا فِي مِصْرٍ أَدُورُ عَلَى الْقُطْبِ
وقال في قَاضِي الْقَفْضَةِ الْعَالِمِ الشَّهِيرِ صَاحِبِ التَّضْمِيرِ عِمَادِ الدِّينِ الْكَنْدِيِّ ،
وَهُوَ مِمَّنْ أَخَذَ عَنْهُ بِشْغَرِ الْإِسْكَانِيَّةِ :

وَلَمَّا اخْتَبَرْتُ ذَوَاتِ الْوَرَى تَعَجَّبْتُ مِنْ حَسَنِ ذَاتِ الْعِمَادِ
فَتَنَكَّ الَّتِي لَمْ أَكُنْ مَبْصِراً مَدَى حُمْرِي مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ

وقال في الْقَاضِي وَجِيهِ الدِّينِ يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ الصَّنَهَاجِيِّ :
أَضْحَى وَجِيهُ الدِّينِ أَسْبَقَ سَابِقٍ فِي الْعِلْمِ وَالْعِلْيَاءِ وَالْخَلْقِ النَّبِيَّةِ
عَجَبَ الْوَرَى مِنْ سَبْقِهِ وَتَعَجَّبُوا فَأَجَبْتَهُمْ لَا تَنْكُرُوا سَبْقَ الْوَجِيَّةِ

وَمِنْ بَدِيعِ نَظْمِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلُهُ :

قَدْ قَارَبَ الْعَشْرِينَ ظِلِّي لَمْ يَكُنْ لِيَرَى الْوَرَى عَنْ حَبَّةِ سُلُوفَانَا
وَبَدَا الرَّبِيعُ بِخُدَّةٍ فَكَأَنَّمَا وَافَى الرَّبِيعُ يَنَادِمُ التُّعْمَانَا

وقوله :

وَعَارِضٌ فِي خُدَّةِ نَبَاتِهِ بِحَسَنِهِ بَيْنَ الْوَرَى يَسْتَحِرُّنَا
أَجْرَى دُمُوعِي إِذْ جَرَى شَوْقَانَهُ فَقُلْتُ ﴿ هَذَا عَارِضٌ مِمَّ طَرَانَا ﴾

وقال وقد توقّي أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس وولي ابنه أبو حفص
عمر بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حوى الملك غاصباً وإخوته أولى وقد جاء بالثكر
فقلت لهم كفوا فما رضي الوري سوى عمر من بعد موت أبي بكر

وقال :

أتوني فعبوا من أحبّ جماله وذلك على سمع المحبّ خفيف
فما فيه حبّ غير أن جفونه مِرْاضٌ ، وأنّ الخصر منه ضيف

وقال :

أيا عجباً كيف تهوى الملوك علمي وموطن أهلي وناسي
وبحسدي وهي ضلومة يوما أنا إلا خديم بفاس

وقال :

في المدح يروى منذ كنتُ كأنما تصوّتُ صلحاً للورى وثناء
وما لي هجاء فاصجنّ لشاعرٍ وكاتبٍ سرّ لا يقيمُ هجاء

وقال في حقّه القاضي أبو البقاء خالد البلوي^١ : فقلت من خط سيدي ورفيقي
وصديقي إمام المسلمين ، برهان الدين ، أبي إسحاق ابن إبراهيم بن عبد الله بن
الحاج وأكثره ممّا كان أنشدنيه قديماً من نظمته في التورية قوله :

وبهامة تقول إن هي كلّت ودخا للمزاح غسل مباح

١ انظر أيضاً تاج المفرق ، الورقة : ٢٢١ .
٢ حتما عاد البلوي من رحلته ووصل قسطنطينة (سنة ٧٤٠) نزل عند صديقه ابن الحاج (تاج المفرق ،
الورقة : ٢٠٩) .

وازيّر الردفَ إنَّ في الأُزْرِ مني رَمَلٌ يَبْرِين يا طيبُ وعالج

وقوله :

وروض ممحِل جَدْبِ الراعي سريع القِيط وكُذْأً والنهبَا
حكى ابن أبي ربيعة لا شجُوناً ولكن كونه يهوى الربابَا

وقوله :

وظبي طرَّ عارضُهُ وأعنى عذاراً بعدَ يزهر باخضرار
رأى سقماً بمقلته فوالى بأسر عاد لكن من عِذار

وقوله :

أتوني بنمامٍ من الروضِ يافع سقته الفؤادي كلَّ أسجَمَ مَذْرَارٍ
فلا غرو إن أصليته نار زَفَرَتِي وحكم على النمام الالقاء في النار

وقوله :

هذه الشمسُ بالحجابِ توارتْ بعدَ نورٍ لما ورحبَ وبشر
وأنى الليلُ بالنسيمِ عكلاً فهو يمشي من أفقه لابن زُهر

يعني بذلك الوزير الكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلي الأندلسي ،
لأنه كان وحيد دهره في الطب ، فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة إلى الغاية .

وقال أبو إسحاق النميري المذكور :

أيا ضوء الصباحِ ارفُقْ بِصَبِيّ تسيلُ دموعه في الخلدِ سَيْلاً
وكنْتُ بِلَيْلَةٍ ليلاء طالت فما أنا في الورى مجنون ليلاً

١ كتبناها هكذا لتناسب التورية في « ليلاء » .

وقال يخاطب شيخه سيف الدين :

لمولاي سيف الدين في الفقه بيننا مقامُ اجتهادٍ ليسَ يلحقهُ الحيفُ
فتقليده فرضٌ على أهلِ عصرنا ولا عَجَبٌ عندي إذا قُلِدَ السيفُ

وقال :

رعى اللهُ معطسَ النسيمِ فإنه رأى من غصونِ البانِ ما شاء من عطفٍ
وأبدى حديثَ الفيثِ وهو مُسكَلٌ لذلكَ لعمري ليسَ يخلو من الضعفِ

وترشحت الثورية بكونَ المحدثين يقولون « الحديثُ المسلسل لا يخلو من الضعف ، ولو في التزام التسلسل ، مع كون متن الحديث صحيحاً » كما قرر في عمله .

وقال رحمه الله تعالى :

نظرتُ إلى روضِ الجمالِ بوجهه وسقته دمعاً به العينُ تكلفُ
فصحَّ حديثُ الحسنِ عن وردِ خدِّها وإن كانَ أضحى وهو راوٍ مضعفُ

وقال رحمه الله تعالى :

بدا عارضُ المحبوبِ فاحمرَّ خجلتهُ وأهدى لنا ورداً بهِ الحسنُ ناهضُ
فقلتُ له لا تنكِرِ الوردَ قاضراً فقد سال في خدِّك من قبلُ عارضُ

وقال :

النومُ من إنسانٍ عيني نافرٌ كالوحشٍ ليسَ يقاربُ الإنسانا
والدمعُ منها قاضٍ طوفاناً فلا عجبٌ إذا ما غرقَ الأجفانا

وقال رحمه الله تعالى :

بَكَتْ شَجْنًا قَاضٍ الدَّمْعَ بِحِكْمِي يَتَامَى الدَّرُّ إِذْ يَهْوِي تَوَامَا
وَسَلَّتْ مِنْ حَاجِرِهَا مَسِيوْفًا فَخَفَّتْ عَلَى الْمَحَاجِرِ وَالْيَتَامَى

وقال القاضي خالده البلوي رحمه الله تعالى : من نظم صاحبنا أبي إسحاق ابن
الحاج النميري يخاطب شيخه وشيخنا أيضاً صاحب ديوان الإنشاء الإمام جمال
الدين إبراهيم ابن الإمام العلامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قس القصاحة
شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي ، وقد تقرب إليه في قصد الرواية عنه :

إِلَى ابْنِ شَهَابٍ الدِّينِ طَالَ تَفَرُّبِي فَلَمَّا سَرَتْ عَيْسِي لَهُ وَرَكَابِي
رَوَيْتُ حَدِيثَ الْفَضْلِ عَنْهُ فَصَحَّ لِي كَمَا شَتَّ مَرْوِيًّا عَنْ ابْنِ شَهَابِ

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور :

أَشْبَهْتَ وَالدُّكَّ الرِّضَى فِي فَضْلِهِ وَأَخْلَصْتَهُ عَنْهُ بِخَيْرِ مَنَابِ
وَمَلَكْتَنِي فَحَدِيثُ فَضْلِكَ فِي الْوَرَى عَنْ مَالِكٍ يَرَوِي عَنْ ابْنِ شَهَابِ

وقال رحمه الله تعالى :

لِعَمْرِكَ مَا ثَغَرَهُ بِاسْمٍ وَلَكِنَّهُ حَبَبٌ لَاعِبٌ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رِيقُهُ مَسْكُورًا لَمَا دَارَ مِنْ حَوْلِهِ الشَّارِبُ

وقال رحمه الله تعالى ملفزاً في القلم :

سَأَلْتُكَ مَا وَاشٍ يَرَادُ حَدِيثُهُ وَيَهْوَى الْغَرِيبَ النَّازِحُ الدَّارَ الْفَصَاحَةَ
تَرَاهُ مَكْدَى الْأَيَّامِ أَصْفَرَ نَاحِلًا كَثُلَ عَكِيلُهُ وَهُوَ قَدْ لَازِمُ الرَّاحَةِ

وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعض الثغور وشرب منها :

تَعَجِبْتُ مِنْ ثَغْرِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَمَوْلَايَ مِنْ عَيْنِهَا شَارِبُ
فَلَمْ يَثْغُرْ أَرَى شَارِبًا وَعَيْنٌ بَدَا فَوْقَهَا حَاجِبُ

وقال :

وحمراء في الكأسِ مشمولة تحت على العودِ في كلِّ بيتٍ
فلا غرو أن جامني سابقاً إلى الأنس خلَّ يَحْتِ الكمينَ

وقال :

بروضتنا الظمياء طالَ اكتئابنا ظلَّه غيْثٌ مَبِيتٌ آمالنا أحيا
وأشبهَ مهياراً فهسا تلك عينه تفيضُ إذا شامَ البروقَ على ظميا

وقال :

إثنانَ حرّاً فلم يظفرَ بتيلهما وأحوزا منَ هما في الدهرِ مَطْلَبُهُ
أخُ مودته في الله صادقاً ودرهمٌ من حلالٍ طابَ مكسبُهُ

وقال مورياً بالقائد نافع على ما اختاره البخاري وجماعة أن أصبح الأسانيد
مالك عن نافع :

عن نافعٍ لِسُنْدٍ حَلِيثٍ أَحْبَبِي يا مالِكاً رِقِي بحسنِ صنائعِ
فأَجَلُ إِسْنَادٍ وَخَيْرُ رِوَايَةٍ عِنْدِي رِوَايَةُ مالِكٍ عن نافعٍ

وقال :

إِنِّي لأَعْجَبُ منَ فَعَالِكَ في الْهَوَى لَمَّا حَلَّتْ بِحَسَنِ ذَاتِكَ ذَاتِي
وَنَفِيتُ نَوْمِي ثُمَّ أَثَبْتُ الْأَمَى فَجَمَعْتَ بَيْنَ الْفُضِيِّ وَالْإِبِلَتِ

وقال :

أَلَمْ تُعْصِمِ للصَّبِّ منَ وَفْيِ مِعْصَمٍ أَطَلْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ التَّوَمِّ
فَأَبْقَيْتُ بِهِ عَيْنِي حُلًى منَ سَوَادِهَا وَبَعْضَ سَوَادِي وَسَطَ قَلْبِي التَّيَمِّ

وليس خضاباً ما علاه ، وإنما جرى فيه بعد اللمع ما عزّ من دمي
ولم يعد منّي اللون لونُ سواده خلا أنّي أشقى وقيلَ له : انعم
وقال وقد جاء الشاعر الملقب أبو العباس أحمد بن عبد المنان بيت الكتاب وفي
حيه خضرة :

أيا أحمدُ المرتضى للعُلا ومنَ حاز في صنيعة كلِّ زين
تراءيتَ في العلم روضاً نضيراً فلا تنكرنْ خضرةً حولَ عين
وله فيه :

لك الخيرُ عدَمُ السبكِ بطلِ ناظري زمردة خضرةً من بلجنيه
فلا تنكروا ما راع من ذاك إنّي لصائعُ تبرِ القولِ ناعداً شبه
ولا حجبَ إن أعوز السبكُ صائفاً فأوجبَ عدمَ السبكِ خضرةً عينه
وقال فيمن يُعرف بالصهال :

ألا ربَّ فرسانٍ توافوا فأدركوا مع الليل أوتاراً لهم دون إمهال
وأجروا بصهالٍ كيتاً كما ابتغوا فلا تنكروا الإجراء منهم بصهالٍ
ولما كتب الرئيس الكاتب الجليل أبو عبد الله الغزني مداعباً :

يا عصابة كلِّ فتي منهم علكم فرغم من كتبكم ودُّوا القلم
أجابه ابن الحاج المذكور بقوله :

ألا احتسبوا ما قد أحرتم لفتية تكثرُكم بالصفح عن فعلهم قاضي
ولا تطمعوا في الردِّ فالناس كلهم رأوا أن مولانا له القلمُ الماضي
وقال الوادي آثي : قلقت من خط الكاتب العلامة الصدر البارع الحاج

القاضي النازم النائر الجامع للمحاسن والمفاخر أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج
التميري ما نصّه : كتب إليّ الفاضل النخبة أبو الفضل ابن رضوان متمثلاً
بقول المأمون :

ملك الثلاث الآفات عتافي

فكبت إليه في التورية :

هنيئاً لك البشرى بهنّ فدم كما تريدُ بنعمى السعادة جامعة
وإن كنتُ من أهل الصلاح فلا تكن بمائلٍ قلبٍ منك عن حبٍّ رابعة
فأجاني بقوله :

ياسيدي ذكّرتني بالزاهية لعلّها لكلّ خيرٍ جامعة
إني أخافُ أن تكونَ باقية ففركَ المفاضلَ المطاوعة

ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة :

لمن الخيامُ سَطَلَتْ ببيضٍ صفاحٍ وارتُ سواداً غالٍ كلّ صباحٍ
إن مُزِقَّتْ رُفَعَتْ بِنَقعٍ كَثَاقِبٍ أو قُوِّضَتْ عُمِدَتْ بِسُمرٍ رَمَاحٍ
وله في رثاء الطيب ابن عمار ، واقترح عليه ذلك ابن جُزَي :

ألا أسعدا عيني على السهدِ واليكا فقد واصلَ السهد المبرحُ تذكاري
وأبدى الردى فتكَّ ابن جادٍ أذسطا فلا غرو أن أبكي لفقدِ ابن عمارٍ

وقال ممّا يُكتب في الرس :

أنا الرسُ قد أنشأتُ بالأمر عُدَّةً ليوم جهادٍ مُطلعٍ غُرَّةَ النصيرِ

فلا تهاؤا بني الأعداء في زعمهم ولا
ولا تنكروا سري لمقتل حاملي

وله يهني السلطان أبا عنان أمير المؤمنين الميراني بالإبلال من المرض :

مطالبُ إلا أتتهن مواهبُ
شفاءُ أمير المؤمنين وإنه
وكم قلت غاب البلر والشمس ضلة
ولم يغيبا لكن شكا الضر فارس
لك الله يا خير الملوك وخير من
وقتل لمن وافى بشيرا نفوسنا
أقول لجرود الخيل قبا بطونها
طوالع من تحت السجاج كأنها
محتجلة شرا كأن رجلا
من الأعوجيات الصوافن ترتمي
هنيئا فقد صح الإمام الذي به
ومستأصل الفل المغد جياده
ومن حطم الشمر الطوال كعوبها
وكر على أرض العدا بضاريس
كأن ظباهم في المياج أكفهم
كأن رماح الخط أحسابهم ، وما
هم ما هم ، حدث عن البحر أو بني
من البيت شادت قيس حيلان فخره
وأحيا له ملك الخليفة فارس

قضى الله أن تقضى ، فنعى المطالب
لأكرم من تحدى إليه الركائب
ورأت على قلبي المومم النواصب
وأوحش منه مجلس الملك غائب
نحن له حتى العتاق الشواذب
فما هي إلا بعض ما أنت وأهب
معدة منها لحرب سياسي
نعام بكشيان الصريم خواصب
بحار جرت فيها الصبا والحنائب
إذا رجفت يوم القراع مقائب
تفل السيوف المرفقات القواصب
لضرب كما ترغو الفحول الضوارب
بطعن كما امتاح الركيعة شارب
كأنهم في الحرب أسد غوالب
تجود وأرواح العدا مواهب
حوت من نفوس المعتدين مناقب
ميراني فنهج القول أبلغ لأحب
فطالت معاليه وطابت مناسب
مآثر غائتها الليالي اللواهب

كريمٌ فلا الحادي التجائب غفقُ
 أرى بلله التعمى ففقت مكاسبُ
 أنامله يُروى الورى صوبُ جودِها
 وكم خلت برقاً في الدجى نور بشره
 فأنجلي أني أرى البرق خلباً
 أعزني أمير المؤمنين بلاغة
 وأنطق لساني بالبيان معلماً
 وكيف ترى لي بعد في الجود رغبة
 وقد شبت الآمال إذ شبت ثم إذ
 بلغت بك الآمال حتى كانت
 حبيبت وما تولى ، وأوليت مُعجبا
 وحسي دعاء لو سكت كُفَيْتُهُ
 وما أنا إلا عبدك المخلص الذي
 فخذها تبث العذر لا المدح ؛ إنه
 بقيت بقاء الدهر ملكك قاهر
 وعوفيت من ضرر وأعطيت أجره

وقال رحمه الله تعالى :

ولولا ثلاث جاء جبريل سائلاً
 مقامات إسلام أزيد بفعله
 لخبر الورى عنها لآثرتُ قعداني
 ثواباً وإيماناً أديم وإحساني

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني السلطان أمير المؤمنين أبو عنان فارس ابن
 أمير المسلمين أبي الحسن المريني رحمهما الله تعالى لنفسه :

يا ملماً بأرض تلك البلاد حتى فاساً وحتى أهل الوداد
إن تئامت بشخصها عن عياني فتحماها مصوراً في فؤادي

[قصائد في مدح تلمسان وفلس]

قلت : تذكرت بهذا البحر والروي والغرض قولَ الفقيه الكاتب العلامة
الناظم النائر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير
المسلمين أبي حاتم موسى بن يوسف الزباني يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة :

أيها الحافظون عهد الوداد جدّوا أنسنا يباب الجياد
وصلوها أصالاً بليال كلالٍ نُظِمْنَ في الأجياد
في رياضٍ مُتَضَّدات المجاني بين تلك الرُّبَى وتلك الوهاد
وبروجٍ مُشِيدات المباني باديات السنا كَشُهْب بَواد
رقّ فيها النسبُ مثلَ نسيبي وصفنا النهرُ مثلَ صفو وذادي
وزها الزهرُ والنصونُ تَشْتَت وتفتّت حليته ورقّ شَواد
وانبرى كلُّ جدولٍ كحسامٍ عاري الغمدِ سنديّ التجاد
وظلالُ النصون تكتبُ فيه أحرفاً سَطَرَتْ بغير مداد
تذكر الوشمَ في معاصم جُودٍ نصبت فوقه ذوات امتداد
وكؤوس المني تُدارُ علينا بجنى حَفّةٍ ونَقْلٍ اعتقاد
واصفراءُ الأصيل فيها مُدامٌ وصفيّرُ الطيورِ نعمةُ شاد
كم غَدَوْنَا بها لأنسٍ ورحنا جادما رائعٍ من الزمن غاد
ولكم روحه على النوح كادت أن تريح الصبا لنا وهو غاد
رَقَّت الشمسُ في عشاياه حتى أحدثت منه رقةً في الجهاد
جدّدت بالغروبِ شجوةً غريبٍ هاجه الشوقُ بعد طولِ البعاد

يا حَيَّا المَزْنَ حَيَّتْهَا مِنْ بِلَادِ
وَتَعَامَدُ مَعَاهِدَ الْأَنْسِ مِنْهَا
حَيْثُ مَغْنَى الْهَوَى، وَمَلْهُى الْغَوَايِ
وَمَقَرُّ الْعَلَا، وَمَرْقَى الْأَمَانِي
كُلُّ حَسَنِ عَلَى تَلَمَّاسَانٍ وَقَفْتُ
ضَحْكَ النَّوْرِ فِي رُبَاهَا وَأَرْبَى
وَسَمَا تَاجُهَا عَلَى كُلِّ تَاجٍ
يُدْعِي غَيْرَهَا الْجَمَالَ فَيَقْضِي
وَبُشْعَرِي فَهَمْتُ مَعْنَى عُلَاهَا
حَضْرَةً زَانِهَا الْخَلِيفَةُ مُوسَى
وَحَبَابَهَا بِكُلِّ بَذْلٍ وَعَدْلٍ
مَلِكٌ جَاوَزَ النَّدَى فِي الْمَعَالِي
مَتَعْقِلٌ لِلْهَدَى مَنِيْعُ النَّوَاحِي
قَاتِلُ الْمُحَلِّ وَالْأَعْصَادِي
كَلَّمَا ضَمَّتِ السَّحَابُ أَغْنَتْ
كَمْ هَبَاتٍ لَهُ وَكَمْ صَدَقَاتٍ
فَأَيَّادِي خَلِيفَةِ اللَّهِ مُوسَى
رَكِبَ الْجُودَ فِي بَسِيطِ يَدَيْهِ
جَلَّ بَارِيهِ مُلْجَأُ الْبَرَايَا
جَلَّ مَنْ خَصَّهْ بِتِلْكَ الْمَرَايَا
شَيْمٌ حُلُوٌّ الْجَنَى وَسَجَايَا
يَا إِمَامَ الْهَدَى وَشَمْسَ الْمَعَالِي

غُرْسُ الْحَبِّ غُرْسَهَا فِي فُؤَادِي
وَعَهْدُ الصَّبَا بِصَوْبِ الْعِيَادِ
وَمَرَادُ الْمُنَى، وَنَيْسَلُ الْمَرَادِ
وَمَجْرُ الْقَنَا، وَمُجْرَى الْجِيَادِ
وِخْصُوصاً عَلَى رَبِي الْعِيَادِ
كَهْفُ ضَحَّاكِهَا عَلَى كُلِّ نَادٍ
وَنَمَّا وَهْدُهَا عَلَى كُلِّ وَادٍ
حَسْنُهَا أَنْ تِلْكَ دَعْوَى زِيَادٍ
مِنْ حَلَاهَا فَهَمْتُ فِي كُلِّ وَادِي
زِينَةُ الْحَلِيِّ عَاطِلُ الْأَجْيَادِ
وَحِمَاها مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَعَادِ
فَالنَّهَابَاتُ عِنْدَهُ كَالْمَبَادِي
مَظْهَرُ الْعُلَا رَفِيعُ الْعِمَادِ
جَمِيعاً بَغْرَارُ الظُّبَى وَغُرُّ الْأَيَّادِي
رَاحَتَاهُ عَنِ السَّحَابِ الْغَوَادِي
عَائِدَاتٍ عَلَى الْعَفَاةِ بَوَادِ
أَجْرٌ عَذْبَةٌ عَلَى الْوَرَادِ
فَتَلَفَى بِهِ تَكْلَافَ الْعِيَادِ
كَالْحَيَا ضَامِتاً حَيَاةَ الْبِلَادِ
بَاهِرَاتٍ مِنْ طَارِفٍ وَتِلَادِ
شَهْدَةُ الْمَجْدِ أَنَّهَا كَالشَّهَادِ
وَعَمَامَ النَّدَى وَبَدْرَ النَّادِي

لَكَ بَيْنَ الْمُلُوكِ سِرٌّ خَفِيٌّ
فَكَانَ الْبِلَادَ كَقُلُوكَ مَهْمَا
قَبَضْتَ كَقُلُوكَ الْبَتَانَ عَلَيْهِ
بِكُمْ تَصْلُحُ الْبِلَادُ جَمِيعاً
لَمْ تَزَلْ دَائِماً نَحْنُ إِلَيْكُمْ
لَوْ أَهَيْتَ بِمَنْطِقٍ شُكْرَتَكُمْ
قَدْ أَطَاعَتْكُمْ الْبِلَادُ جَمِيعاً
فَارْجِعُوا الْجِيَادَ أَتَعَبْتُمُوهَا
وَاهْتَأَوْا خَالَدِينَ فِي عِزِّ مَلِكٍ
وَالْيَكْمَ مِنْ مَدْهِيَاتِ الْقَوَانِي
كُلَّ يَتٍّ مِنَ النِّظَامِ مُشِيدٍ
فَوِ ابْتِسَامٍ كَزَهْرِ رَوْضٍ بِجُودٍ
وَانتِظَامٍ كَسَلَكِ دَرٍّ بِجَادٍ

ولأبي المكارم مندبيل ابن الإمام الشهير صاحب « المقامة الآجرومية » قصيدة
في المنحى وافقت قصيدة الثغري في البحر وبعض المطلع ، فلا ندري أيهما
نسج على منوال الآخر : إذ هما متعاصران ، إلا أن ذاك قالها في تلمسان ، وهذا في
مدينة فاس ، وهي :

أَيُّهَا الْعَارِفُونَ قَدَّرَ الصُّبُوحُ جَدُّوهُ أَنْسَنَا بَابَ الْفَتْوحِ

يعني بباب الفتوح أحد أبواب فاس ، كما أن باب الجياد في كلام الثغري
أحد أبواب تلمسان .

ثم قال ابن آجروم بعد المطلع :

جَدُّوْا ثَمَّ أَنْسَا ثَمَّ جَنُّوْا
 حَيْثُ شَابَتْ مَفَارِقُ اللَّوْزِ تَوَرَّأَ
 وَبَدَأَ مِنْهُ كُلُّ مَا أَحْمَرُ يَحْكِي
 وَكَانَ الَّذِي تَسَاقَطَ مِنْهُ
 وَإِذَا مَا وَصَلْتُمُ الْمَصَلَّى
 وَبَطَيْنُفُورِهَا فَطُورُوا لِكَيْمَا
 وَلَتَقِيمُوا هُنَاكَ لِمَحَّةِ طَرَفِ
 ثَمَّ حَطُوا رِحَالَكُمْ فَوْقَ نَهْرٍ
 فَوْقَ حَافَاتِهِ حَدَاقُ خَضِرٍ
 وَكَانَ الطُّيُورَ فِيهَا قِيَانٍ
 وَهِيَ تَدْعُوكُمْ إِلَى قُبَّةِ الْجَوْ
 فِيهِ مَا تَشْتَهَوْنَ مِنْ كُلِّ ثَوْرٍ
 وَغَصْبُونٍ تَبِيجُ رَقْصًا إِذَا مَا
 فَأَجْبِيُوا دَعَاءَهَا أَيُّهَا السَّرِ
 وَاجْنَحُوا لِلْمَجُونِ فَهُوَ جَدِيرٌ
 وَانْخَلَعُوا ثَمَّ لِلتَّصَابِي حِلَاراً
 وَإِذَا شَقُمُ مَكَانًا مَسْوَاهِ
 فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ لِنَحْوِ خَلِيجِ
 عَطْرَتْ جَانِبِيهِ كَفُّ الْغَوَادِي
 قُلْ لِمَهْيَارٍ إِنْ شَمِتَ شَدَاهَا
 أَيْنَ هَذَا الشَّدَا الدَّكِيَّ مِنَ الْقِيَمِ
 حَبْنًا ذَلِكَ الْمَهَادُ مَهَاداً
 ثَمَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَهَادِ أَفِيضُوا

يَسْرَحُ الطَّرْفُ فِي جَمَالٍ فَتَسِيحُ
 وَتَسَاقُطُنِ كَاللَّجَيْنِ الصَّرِيحِ
 شَفَقًا مَزَقْتَهُ أَيْسِدِي الرِّيحِ
 نَقَطَ لُحْنٍ مِنْ دَمٍ مَسْفُوحِ
 فَتَحَلَّوْا بِمَوْضِعِ التَّسْبِيحِ
 تَبْصُرُوا مِنْ ذَرَاهِ كُلِّ سَطُوحِ
 لَتَرُدُّوْا بِهِ ذَمَاءَ الرُّوحِ
 كُلُّ فِي وَصْفِهِ لِسَانُ الْمَدِيحِ
 لَيْسَ عَنْهَا لِعَاشِقٍ مِنْ نَزْوَحِ
 هَضْبَتُ بَيْنَ أَعْجَمٍ وَتَصْبِيحِ
 زِي هَلُمُّوْا إِلَى مَكَّانٍ مَلِيحِ
 مَظَلٍّ فِي الْكِمَامِ أَوْ مَفْتُوحِ
 سَمِعْتَ صَوْتَ كُلِّ طَيْرٍ صَدُوحِ
 بُوْ وَخَلُّوْا مَقَالَ كُلِّ نَصِيحِ
 وَخَلِيقٍ مِنْ مِثْلِكُمْ بِالْجَنُوحِ
 إِنْ خَلَعَ الْعِلَادِي غَيْرُ قَبِيحِ
 هُوَ أَجَلُ مِنْ ذَلِكَ فِي الْوُضُوحِ
 جَاءَ كَالْمَلِّ مِنْ قَفَارِ فُصِيحِ
 بِشَدَا حَرَفٍ زَهْرَهَا الْمُنُوحِ
 تَوَلَّ مَسْتَخِيرٍ أَنْحَى عَجْرِيحِ
 صَوْمٍ وَالرَّقْدِ وَالنَّصْبِ وَالشَّيْحِ
 بَيْنَ دَانٍ مِنَ الرَّبِيِّ وَنَزْوَحِ
 نَحْوِ هَضْبٍ مِنَ الْمَعْمُومِ مَرِيحِ

فيه للحن دَوْحَةٌ وروايا
وحجارٌ تدعى حجارَ طبولٍ
تشرُّ الشمسُ ثمَّ كلَّ غلوةٍ
وسوى من هناك يسبي عقولاً
وعيون بها تقرَّ عيونٌ
فرشت فوقها طنائسُ زهرٍ
كلِّما مرَّ فوقعنَّ طلحٍ
فانهضوا أيها المحبُّون مثلي
هكذا يربحُ الزمان ولا
وانشراحٌ للذي فؤادٍ قريب
غيرَ أنَّ التطليلَ غيرُ صحيح
زغفراناً مبتلاً بنضوح
ويحلي لحاظَ طرفٍ طموح
وكلاهما يأسو كلومَ الجريح
ليس كالعن نسجها والمسوح
عاد من حُسنٍ غيرَ طلحٍ
لنرى ذاتَ حُسنها الملموح
كلَّ عيشٍ سواه غيرُ رنيح

وما أجسَن قول الكاتب الثغري يمدح تلمسان والسلطان المذكور أنفاً

تاهت تلمسانُ بحسنِ شبابها
فالبشر يبدو من حجابِ ثغورها
قد قابلت زهرَ النجوم بزهرها
حسنت بحسنِ مليكها المولى أبي
ملكٌ شمالك كزهرِ رياضها
أعلى الملوك الصيِّد من أعلامها
غارت بفرَّة وجهه شمسُ الضحى
والبدرُ حينَ بدتْ أشعثها له
قد حضرته التي قد شرَّفتْ
فالثمَّ في بستانه يُبلغها المنى
ويلا طرازُ الحسنِ في جلبابها
متبسماً أو من ثغورِ حجابها
وبروجها يبروجها وقبابها
حمو الذي يصحى حمى أربابها
ونكاه فاضَّ بها كفيضِ عبابها
وأجلَّها من صفوها ولُبابها
وتنقبت خجلاً بثوبِ ضبابها
حسناً تضاملاً نوره وخبأ بها
خدأها فسموا بخفمة بابها
والملاحُ في حلياء من أسبابها

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي جمو ،

ووصف بلاد تلمسان ، وأجاد فيها إلى الغاية ؛ وهي ^١ :

قم مبصراً^٢ زمنَ الربيع المقبل
وانشق نسيم الروض مطولاً^٣ وما
وانظر إلى زهر الرياض كأنه
في حولة^٤ فاضت يداها بالندى
بسطن^٥ بأرجاء البسيطة علما
سلطانها المولى أبو حمو الرضى
تاهت تلمسان^٦ بدولته على
راقت عاسنها ورق^٧ نسيمها
عرج بمنعرجات باب جياها
ولتغد للعباد منها غلوة^٨
وضريح تاج العارفين شعيبها
فمزاره للدين والدنيا معاً
وبكهفها الضحاك قف متراها
وتمش في جنباتها ورياضها
تسليك في دوحاتها وتلاعها
وبروبة العشاق سلوة عاشق
بنواسم وبواسم من زهرها
فلو امرؤ القيس بن حجر راءها

تَرَ ما يسرُّ المُجتني والمُجتلي
أهداك من عَرَفٍ وعَرَفٍ فاقبل
در^٩ على لَبَّاتِ رَبَّاتِ الحلي
وقضت بكل مَنى لكل مؤمل
وسطت بكل معاند لم يعدل
ذو المنصب السامي الرفيع المعتلي
كل البلاد بحسن منظرها الجلي
فحلا بها شعري وطاب تغزلي
وافتح بها باب الرجاء المُقفل
تصبح هموم النفس عنك بمزل
زُرْه هناك فحبدا ذاك الولي
تُمنحى ذنوبك أو كرويك تنجلي
تسرح نفوسك في الجمال الأجل
واجنح إلى ذاك الجناب المخضل
نغم البلابل واطراد الجسول
فتنت والحافظ القزال الأكحل
تهديك أنفاساً كعَرَفِ المنديل
قلماً تسلي عن معاهد مأسل

١ القصيدة في بنية الرواد ١ : ١٣ .

٢ البنية : مجتل .

٣ البنية : دور .

٤ البنية : جفوفك .

أو حامٍ حولَ فَنائها وظبائها
فاذكر لها كلقي بسقط لوائها
كم جاد لي فيها الزمانُ بمطلب
واعمد إلى الصفصيف يوماً ثانياً
وادر تراه من الأزاهر خالياً
ينسابُ كالأيامِ انسياً دائماً
فزلاله في كلِّ قلبٍ قد حلا
واقصدْ يوماً ثالثَ فَوَارةٍ
تجري على درٍ بلحناً سائلاً
واشرف على الشرفِ الذي يلزائها
تاجٌ عليه من المحاسنِ بهجةٌ
وإذا العشيُّ شمسها مالتْ فملْ
وبلعب الخيلِ القسيحِ مجاله
فلحبة الأشرافِ كلَّ عشيّةٍ
فرى المجتلي والمصلّي خلقه
هلاً يكرّ وذا يفرّ فينتهي
من كل طريفٍ كلَّ طريفٍ يستهي
ورّدْ كان أدبته شفقٌ الدجى
أو من كُتبتْ لا نظيرَ لحسنه
أو أحمرّ قاني الأديمِ كمسجدٍ
أو أدهمِ كالليلِ إلا غرّةً
جمع المحاسنَ في بديع شياثه
عقبانُ خيلٍ فوقها فرسانها
فرسانُ عهدِ الوادِ آسادُ الوغى

ما كانَ مختلاً بحومةِ حومل
فهوي عنها الدهرُ ليس بمُتَسَلِّ
جادته أخلافُ الغمامِ المُسبِل
وبه تسلّ وعته دأباً فاسأل
أحسنَ به عَطْلاً وغيرَ معطل
أو كالحسامِ جلّاه كفّ الصيّقل
وجماله في كلِّ عينٍ قد جُكِّي
وبلّغ منهلها المباركِ فانهل
أحلى وأعذب من رحيقِ سلسل
لترى تلمسانَ العليّة من عل
أحسنَ بتاجِ البهائمِ بهكل
نحو المصلّي ميكةً المتهمل
أجلِ النواظرِ في التماقِ المُفعل
لمبٍ بذاك الملعبِ المتسهل
وكلاهما في جريه لا يأتلي
عطفاً على الثاني عنانَ الأول
قيّد النواظرِ فتنةً المتأمل
أو أشهبَ كسهابٍ رجمِ مرسل
سامٍ معمٍ في السوابقِ مُخَوَّل
أو أشقرٍ يَزْهو بعرفِ أشعل
كالصبحِ ، يورك من أغرِ عجّل
مهما ترقّ العينُ فيه تسهل
كالأسدِ تنقضُ انقضاضَ الأكجِد
حامو النمارِ أولو الفخارِ الأطول

فإذا دنت شمسُ الأصيلِ لغربها
 من بابٍ ملعبها لبابٍ حديدِها
 وتأنَّ من بعدِ الدخولِ هنيهةً
 فهو المومِّلُ والديارُ كنايةُ
 فإذا أَميرُ المؤمنين رأيتُهُ
 فالمجدُّ لفظٌ في الحقيقةِ مجملٌ
 بشرى لعيدِ الواد بالملك الذي
 بأعزهم جاراً ، وأمنهم حمى
 بالعدل المستصر المنصور وال
 وكفاهمُ سعداً أبو حمو الذي
 وبمن نيته لهم وبمسده
 ذو الهمّة العليا التي آثارها
 بحر الندى الأحلّ وفخر المنتدى
 ينهلُ منه لنا الجدا وبه الدجى
 هنيء به زمنَ الربيع وقل له
 وعلى علاه من صنعة فضله

وكأنّه عارض بهذه القصيدة قطعة في بحرهما ورويهما في مدح مدينة فاس
 لبعض العلماء ، وأظنته القاضي المزدغي ، وهي :

يا فاسُ حياً الله أرضك من ثرى
 يا جنة الدنيا التي أريّت على
 غرفٍ على غرفٍ ويحري تحتها
 وبساتين من ستلح قد زُخرفت
 وبجامع القروين شُرف ذكره
 ومساك من صوب الغمام المُسبِّل
 حمص بمنظرها البهيّ الأجل
 ماء ألدّ من الرحيق السلسل
 يمداول كالآيم أو كالقصيل
 أنس بذكره أبيض تلمكي

وبصّحه زمن المصيف عجائبُ فمع العشي الغرب فيه استقبل
واشرب بتلك الليلة الحسناء به واكرع بها عني فديتك وانهل

وقد تمثل لسان الدين رحمه الله تعالى في مدينة فاس بقول القائل ٢ :

بكد أعارته الحمامة طوقها وكساه ريش جناحه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مُدّامة وكان ساحات الديار كؤوس

وما أحسن قوله - أعني لسان الدين - في مدح تلمسان ٣ :

حيّا تلمسان الحيا فربوعها صدفٌ يهود بذرهُ المكنون
ماشتت من فضل عيم إن سقى أروى ومن ليس بالمنون
أوشّت من دين إذا قدح الهدى أورى ودنيا لم تكن باللون
وردّ النسيم لها بنشر حديقه قدّ أزهرت أفنانها بفنون
وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت فلها الشفوف على عيون العين

يعني بحبيبة أم يحيى عين ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها ، وكانت
جارية بالقصور السلطانية ، ولم تزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم ، والبقاء
لله تعالى وحده .

وممن مدح تلمسان الحاج الطيب أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير
بالتلاسي رحمه الله تعالى ، إذ قال ٤ :

سقى الله من صوب الحيا هاطلاً وبلاً ربوع تلمسان التي قدّرها استمل

١ قد شرحنا الليلة ، هامش : ١ : مجلد : ١ : ص : ٢٠٦ .

٢ مر البيتان والقول في نسبتهما ، المجلد : ١ : ص : ١٦٩ وانظر مشاهدات لسان الدين : ١١١ .

٣ أزهار الرياض : ١ : ٧ .

٤ أورد له صاحب بنية الرواد عدداً من القصائد والموشحات في الجزء الثاني ، وهذه القصيدة في الجزء
الأول ص : ١٧ .

دموعُ بها كانَ الشبابُ مُصاحبي
 فكُم نلتُ فيها من أمانِ قصية
 وكُم غازلتني الغيدُ فيها تلاعياً
 وكُم لَيْلَةً يَبْتَنَّا عَلَى رُحْمِ حاصدٍ
 وكُم لَيْلَةً يَبْتَنَّا بِصَفْصِفِهَا الَّذِي
 وكبديةُ عشاقِ لها الحسنُ يَنْتَهِي
 نَعَمَ ، وغديرُ الخوزةِ السَّالِبُ الحَجِي
 ومنه ومن عَيْنِ آمٍ يَمِى شَرَابنا
 وصَادها ما القَلْبُ ناسٍ فَمَامه
 به شِخْنا المذكور في الأرضِ ذَكَره
 لها بِهَجَّةٍ تُزْري على كُلِّ بَلَدَةٍ
 فَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا الَّتِي رَاقَ حُسْنُهَا
 ولا عَجَبٌ أَنْ كُنْتُ فِي الْحَسَنِ هَكَذَا
 وَلاحَتْ لَدِينَا فِيكَ مِنْهُ عَاسِنٌ
 مطاعٌ شَجَاعٌ فِي الْوَحْيِ ذُو مَهَابَةٍ
 كَرِيمٌ حَكِيمٌ حَاتِمِي نَوَالِسِهِ
 لَهُ رَاحَةٌ كَالغَيْثِ يَنْهَلُ وَدَقُّهَا
 هُوَ الْمَلِكُ الْأَرْقَى هُوَ الْمَلِكُ الرُّضَى
 وَمِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ فِيهِ تَجَمَّعَتْ
 إِمَامٌ حَبَّاهُ اللَّهُ مَلَكاً مُؤَزَّراً
 مِنْ الزَّوَابِ وَأَفَانَا عَزِيزاً مَظْفَراً

جَرَرْتُ إِلَى الذَّلَاتِ فِي دَارِهَا النَّيْلَا
 وَكُم مَتَحَ الدَّهْرُ الضَّئِينَ بِهَا النَّيْلَا
 وَكُم مِنْ عَنَلٍ لَا أُطِيعُ لَهُ قَوْلَا
 نَدِيرُ كُؤُوسِ الْوَصْلِ إِذْ بِالْصَّفَا تُمْلَا
 تَسَامَى عَلَى الْأَنْهَارِ إِذْ عَدِمَ الْمَثَلَا
 يَعُودُ الْمَسْنُ الشَّيْخُ مِنْ حَسَنَاتِ طِفْلَا
 نَعَمْتُ بِهَا طِفْلاً وَهَمْتُ بِهَا كَهْلاً
 لِأَمْنَاهُ فِي الطَّيْبِ كَالنَّيْلِ بَلْ أَحَلَّنِي
 بِهِ رَوْضَةً الْخَيْرِ قَدْ جَعَلْتُ حِلَالاً
 أَبُو مَدِينٍ أَهْلًا بِهِ دَائِماً أَهْلَا
 يَتَّحِجُّ عَلَيْهَا كَالْعُرُوسِ إِذَا تُجَلَّى
 فَحَازَتْ عَلَى كُلِّ بِلَادٍ بِهِ الْفَضْلَا
 وَمَوْعَى الْإِمَامِ الْمَرْتَضَى فِيكَ قَدْ حَلَا
 كَانَ سَنَاها حَاجِبُ الشَّمْسِ إِذْ جَلَّى
 حَسَامٌ عَلَى الْبَاغِينَ فِي الْأَرْضِ قَدْ سَلَا
 سَعِيدٌ حَمِيدٌ يَصْدُقُ الْقَوْلَ وَالْفِعْلَا
 وَصَارُمٌ نَصِيرٌ مَرَهْفُ الْحَدِّ لَا فُكْلَا
 هُوَ الْمَلِكُ الْأَسْنَى هُوَ الْمَلِكُ الْأَعْلَى
 حَقِيقاً عَلَى كُلِّ مَعَالَى قَدْ اسْتَوَى
 فَلَا مَلِكٌ إِلَّا لِعَزَّتِهِ ذَلَا
 يَمُرُّ مِنَ النُّصْرِ الْمَتَوَطِّ بِهْ ذَيْلَا

بدت إليك .ألفرب شدةُ بأسِهِ
 فبادَرَهُ بالصلحِ خوفَ فوائِهِ
 فكان بحمدِ الله صلحاً مهتناً
 لهُ في المعالي رتبةٌ لا ينالها
 لطاعته كلُّ الأنام تبادرت
 أحسادهُ موتوا فلنَّ قلوبكم
 لقد جَبَرَ اللهُ البلادَ بملكه
 فلا زالَ هذا الملكُ فيه غلداً
 وإنعامه للمعشرين وما أولى
 وسألهُ إذ كانَ ذاكَ به أولى
 به طابت الدنيا وجزنا به السبلا
 سواء وكُتِبَ في فضائله تُنقل
 فيا سعدَ من وافي ويا ويحَ من وكى
 يجرم الغضا ممّا بها أبداً تصل
 به مُلكتُ أمناً ، به مُلكتُ عدلاً
 وصارمه الأمضى وخادمه الأعلى

ومما مُلحت به تليسان قولُ الإمام الصوفي أبي عبد الله محمد بن خميس
 الذي قلنا ذكره في هذا الكتاب وبعض ما يتعلق به ، وذكرنا أيضاً فيما مرّ
 بعض أمداحه لها^١ :

تليسانُ جادتكِ السحابُ الرواحُ^٢
 وسحَّ على ساحاتِ بابِ جِياذِها
 يطيرُ فؤادي كلما لاحَ لامعُ
 ففي كلِّ شفرٍ من جفوني مائعُ
 فما الماءُ إلّا ما تسحَّ مدامعي
 خيلِي لا طيفَ لعلوةٍ طارقُ
 نظرتُ فلا ضوءَ من الصبحِ ظاهرُ
 بحسكما كعَمّا اللامَ وساعا
 ولا تعلداني واعلراني فقلما
 وأرستَ بواذكِ الرياحُ الواقعُ
 مِلْتُ يصابي تربتها ويصافحُ
 وينهلُ دمي كلما ناحَ صادحُ
 وفي كلِّ شطرٍ من فؤادي قاذحُ
 ولا النارُ إلّا ما تُجِنُّ الجوانحُ
 بليلٍ ولا وجهٍ لعصبي لامعُ
 لعيني ولا نجمٍ إلى الغربِ جانحُ
 فما الخُلُ كلُّ الخُلُ إلّا المسامحُ
 يردُّ عثاني عن عيَّةٍ ناصحُ

١ وردت القصيدة في بنية الرواد : ١ ، ١١ .

٢ البنية : الدوالح .

كُنتُ هواها ثم بَرَحَ بي الأُمى
لساقيةِ الرومي عتدي مزيةً
فيكُم لي عليها من غلور وروحة
فطرفُ علي تلك البساتين سارحُ
تَحَارُ بها الأذهانُ وهي ثواقبُ
ظباءِ مقانيها عَوَاطِ عَوَاطِفُ
تَقْتَلُهُمْ فيها حيونٌ نواظرُ
عل قرية العباد مني نحيةً
وجادٌ تَرى تاج المعارفِ ديمةً
إليك شبيب بن الحسين قلوئنا
سميتُ فما قصرت عن نيل غايةٍ
نسيتُ وما أنسى الوريطةَ ووقفةً
مطلأً على ذاك الغدير وقد بدت
أماؤك أم نعمي عشيّة صدقت
لئن كنت ملاكاً بنعمي طافحاً
وإن كان مُهْرِي في تلاعك سالحاً
فراح أنى ينصب من رأس شاحق
أرق من الشوق الذي أنا كاتمُ
أما وهوى من لا أسميه إنني
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي
ليمتُ رشادي فيه بالنفي ضلةً
وأَيُّ مقامٍ ليس لي فيه حاسدُ

وكيف أطيحُ الكَمِّ والدمعُ فاضحُ
وإن رغمت تلك الروامي الرواشحُ
تُساعدني فيها المني والمنائحُ
وطرفُ إلى تلك الميادين جامعُ
وتَهفو بها الأحلامُ وهي بوارحُ
وطيرُ مجانيها شوادِ صوادحُ
وتيكيمُ منهم حيونٌ نواضحُ
كما فاح من مسك اللطيمة فائحُ
تغصُّ بها تلك الرُبى والأباطحُ
نوازعُ لكنَّ الجسوم نوازعُ
فسحبك مشكورٌ ومجربك رابعُ
أنافحُ فيها روضه وأفاوحُ
لإنسان عيتي من صفاه صفائحُ
عليه فينا ما يقول المكاشحُ
فلاني سكرانٌ بحبك طافحُ
فذلك غزالي في حُبابك سابعُ
بمشل حلاه تستحث القرائحُ
وأصفي من السمع الذي أنا سافحُ
لعرضي كما قال النصيحُ لناصحُ
يقال فلانٌ ضيقُ الصدر بائحُ
وكم صالحٍ مثلي غداً وهو طالحُ
وأي مقالٍ ليس لي فيه مادحُ

أَلَا قُلْ لِّفِرْسَانِ الْبَلَاغَةِ أَسْرَجُوا
أَيُّجُمْلَ ذَكَرِي عِنْدَهُمْ وَهُوَ نَابِهٌ
بِدَوْرٍ إِذَا جَنَّ الظُّلَامُ كَوَامِلُ
تَرَكْتِكَ سَوْقَ الْبِزْ لَا عَنْ تَهَاوُنٍ
وَلَانِي وَقَلْبِي فِي وَلَائِكَ طَامِعٌ
أَيَا أَهْلَ وَدِّي وَالْمَشِيرُ مُؤَمِّنٌ
وَهَلْ ذَلِكَ الظُّبْيُ النَّصَاحِي لِلَّذِي
كَتَبْتُ بِهَا عَنْهُ حَيَاءٌ وَحُشْمَةٌ
قَدْ جَاءَكُمْ مِنِّي الْمَكَافِي الْمَكَافِي
وَيُخَمِّطُ شَجْوِي عِنْدَهُمْ وَهُوَ شَائِعُ
وَأَسْدٌ إِذَا لَاحَ الصَّبَاحُ كَوَالِحُ
وَكَيْفَ وَظِي سَانِعٌ فَيْكَ بَارِحُ ؟
وَنَظَرُ وَهْمِي فِي سَمَاطِكَ طَامِعُ
أَتَقْضِي دِيُونِي أَمْ غَرِيبِي قَالِحُ
يَقْطَعُ مِنْ قَلْبِي بِعَيْنَيْهِ نَاصِعُ
وَوَجْهُهُ اعْتِدَارِي فِي التَّقْصِيَةِ وَاضِعُ

[عريف بلمسان]

ولمسان هذه هي مدينتنا التي حَكَمَتْ بها التمام ، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقرئ بن علي صاحب الشيخ أبي مدين ، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم ، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء ، حسيما قال ابن مرزوق :

كفّيك منها ماؤها وهواؤها

وقال الكاتب أبو زكريا يعقوب بن خلدون في كتابه « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمزة الشاذلي الأطواد » بعد كلام في شأن البربر ، ما صورته ١ : ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن ، كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع ، و « سن » ومعناه اثنان : أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الألبلي ، رحمه الله تعالى ، وكان

حافظاً بلسان القوم ، ويقال « تلمشان » ، وهو أيضاً مركَّب من « تلم »^١ ومعناه لها ، و « شان » أي لها شأن ، وهي مدينة عريقة في التمدن ، لليلة الهواء ، عذبة الماء ، كرمية المنبت ، اقتعدت بسفح جبل ، ودُوِّين^٢ رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب ، عروساً فوق منصّة ، والشماريخ مشرفة عليها لإشراف التاج على البحين ويطل منها^٣ على فحص أفيّج معد للفلاحة تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أستمّة المهارى ، وتقر في بطونه عند تلميح الغمام بطون العذارى^٤ ، وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفاتقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الرائقة ، ممّا زخرفت عروشه ، ونمّقت غروسه ، ونوسبت أطواله وعروضه ، فأزرى بالخورنق ، وأخجل الرصافة ، وعبت بالسدير . وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن ، تتجاذبه أيدي المذانب والأمراة المكفورة^٥ خلخالها ، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الحياض ، ويسقي ريعه^٦ خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب ، فهي التي سحرت الأبواب رواء ، وأصبت النّهى جمالاً^٧ ، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا ، إلى أن قال : فأنّا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها لآه عندي^٨ :

ما جنةُ الخلدِ إلا في منازلكم وهذه كنتُ لو خيّرْتُ اختارُ

١ البنية : تل .

٢ البنية : ودون .

٣ البنية : تطل منه .

٤ البنية : العذارى . والعذارى : الأراضي التي لم توطأ .

٥ المكفورة : المستورة .

٦ البنية : يساقها .

٧ جمالا : سقطت من البنية .

٨ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٤ .

لَا تَتَقَمَّرُوا بَعْدَهَا أَنْ تَلْخَطُوا مَقَرّاً فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ

وتوسّط قطراً ذا كَوَرٍ عذيلة تعمّرها أشجار البربر والعرب ، مَرِيعة
الجنّات ، منجبة للحيوان والنبات ، كريمة الفلاحة ، زاكية الإصابة ، فربما
انتهت في الزَّوْجِ الواحد منها إلى أربعمائة مد كبير ، ثم أطال في ذلك ابن خلدون
المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور .

ومما يُنسب لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورته :
تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ،
كانّها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من الدوحات حشّته وأعلاجه ، عباده
يدها وكهفها كفها ، وزينتها زيناها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ،
وهواؤها المملود صحيح عتيد ، وماؤها بَرُودٌ صَريد ، حجبتها أيدي القلعة
عن الجنوب ، فلا تُحولَ فيها ولا شحوب ، خزائنُ زرع ، ومسرحُ شَرع ،
فواكهها عذيلة الأنواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رقاق رفاع ،
إلاّ أنّها بسبب حب الملوك ، مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها الصيّد في جوف
القرا ، مغلوبة للأمرأ ، أهلها ليست عندهم الراحة ، إلاّ فيما قبضت عليه الراحة ،
ولا فلاحة ، إلاّ لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب ، إلاّ فيما بين
الأقارب ، ولا شطارة ، إلاّ فيمن ارتكب الخطارة ، انتهى .

وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتاباً ممتعاً أسميته «أنواء
نيسان في أنباء تلمسان» وكتبت بعضه ، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار ،
وارتملت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتدّ الرواق ، فشغلت
بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها ، ثم ارتحلت بنية الحجاز ، وجعلت
إلى الحقيقة المجاز ، وها أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية ، وفي حلم الله تعالى ما لا
تعلم ، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم ، والله تعالى يحتم لنا بالحسنى بجماع نبيّه
ومصطفاه صلى الله عليه وسلّم .

وبها ولدت أنا وأبي وجدي وجد جدي ، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلتُ عنها في زمن الشيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف . ، إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف ، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف ، وأبْتُ منها إلى مصر أواخر شوال من العام ، وشرعت في هذا المؤلف بالقلعة من العام .

[ترجمة أبي مدين]

وقد تخرّج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضبط ، ويكفيها افتخاراً دَقْنُ وليّ الله سيدي أبي مدين بها ، وهو شعيب بن الحسين الأندلسي ، شيخ المشايخ ، وسيد العارفين ، وقلوة السالكين ، قال الشيخ أبو عبد الله محمد ابن التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان^١ الشيخ سيدي أبو مدين فرداً من أفراد الرجال ، وصدراً من صدور الأولياء الأبدال ، جمَعَ الله له علم الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هادياً وداعياً للحق ، فقصد بالزيارة من جميع الأقطار ، واشتهر بشيخ المشايخ ، وذكر التادلي وغيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات ، وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته : كان أبو مدين زاهداً فاضلاً عارفاً بالله تعالى ، خاض بحار الأحوال ، ونال أسرار المعارف ، خصوصاً مقام التوكل ، لا يُشَقُّ غباره ، ولا تُجهل آثاره ، قال التادلي : كان مبسوطاً بالعلم ، مقبوضاً بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم له بذلك ، أخبرني مَنْ شهد وفاته أنه رآه

١ انظر ليل الإبهاج : ١٠٧ فأكثر هذه الترجمة منقول عنه .

في آخر الرمتى يقول : الله الحق . وكان من أعلام العلماء ، وحفاظ الحديث ،
 خصوصاً جامع الترمذي ، وكان يقوم عليه ، ورواه عن شيوخه عن أبي ذر ،
 وكان يلازم كتاب « الإحياء » ويعكف عليه ، وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك
 فيجيب عنها في الوقت ، وله مجلس وعظ يتكلم فيه ، فجتمع عليه الناس
 من كل جهة ، وتمر به الطيور وهو يتكلم فتصف تسمع ، وربما مات بعضها ،
 وكثيراً ما يموت بمجلسه أصحاب الحب ، تخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء
 والمحدثين وأرباب الأحوال ، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه جليلاً ، ويخصه
 بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل ، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ
 الحافظ أبي الحسن ابن حرزهم ، وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن ابن غالب .
 وذكر عنه أنه قال : كنت في أول أمري وقرامتي على الشيوخ إذا سمعت
 تفسير آية أو معنى حديث فنت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أخذته
 مأوى للعمل بما فُتح به عليّ ، فإذا خلوت به تأتيني غزاة تأوي إليّ وتؤنسني ،
 وكنت أمرني في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس ، فيدورون حولي ، ويصيصون
 لي ، فبينما أنا يوماً بفاس إذا برجل من معارفي بالأندلس سلم عليّ ، فقلت :
 وجبت ضيافته ، فبعث ثوباً بعشرة دراهم ، فطلبت الرجل لأدفعها له ، فلم
 أجده هنالك ، فخليتها معي ، وخرجت لخلوتي على عادتي ، فمررت بقريتي ،
 فتعرض لي الكلاب ، ومنعوني المظاوي ، حتى خرج من القرية من حال ييني
 وبينهم ، ولما وصلت لخلوتي جاءتني الغزاة على عادتها ، فلما شمتني لغرت
 عني ، وأنكرت عليّ ، فقلت : ما أوتي عليّ إلا من أجل هذه الدراهم التي
 معي ، فرميتها ، فسكنت الغزاة ، وعادت لحالها معي ، ولما رجعت لفاس جعلت
 الدراهم معي ، ولقيت الأندلسي ، فدفعها إليه ، ثم مررت بالقرية في خروجي
 للخلوة ، فدار بي كلابها وبصيصوا على عادتهم ، وجاءتني الغزاة فشمتني من

١ انظر أيضاً التالي : ٣٢٠ .

مفرقي لقنمي ، وأنست بي كمادتها ، وبقيت كذلك مدة ، وأخبار سيدي أبي يعزى ترد عليّ ، وكراماته يتداولها الناس وتُنقل إليّ ، فملأ قلبي حبه ، فقصدته مع جماعة الفقراء ، فلماً وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني ، وإذا حضر الطعام منعي من الأكل معهم ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فأجهدتني الجوع ، وتغيرت من خواطر ترد عليّ ، ثم قلت في نفسي : إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان ، فقام ، ومرغت وجهي فقامت وأنا لا أبصر شيئاً ، وبقيت طول ليلي باكياً ، فلماً أصبح دعاني وفرّني ، فقلت له : يا سيدي ، قد حميت ولا أبصر شيئاً ، فمسح بيده على عيني ، فعاد بصري ، ثم مسح على صدري ، فزالت عني تلك الخواطر ، وفقدت ألم الجوع ، وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته ، ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء القريضة ، فأذن لي وقال : ستلقى في طريقك الأسد فلا يرُعبك فإن غلب خوفه عليك قتل له : بحمرة يدنور^١ إلا انصرف عني ، فكان الأمر كما قال . فتوجه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوار^٢ الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء ، وتعرف في عرفة بالشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني ، قرأ عليه في الحرم الشريف كثيراً من الحديث ، وألبسه خرقة الصوفية ، وأودعه كثيراً من أسرارهِ ، وحلاه بملايس أنواره ، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ، ويعدّه أفضل مشايخه الأكابر .

وعن بعض الأولياء قال : رأيت في النوم قائلاً يقول : قل لأبي مدين : بُتّ العلم ولا تُبالِ ، ترتع غداً مع العوالي ، فإنك في مقام آدم أبي اللراري ، فقصصتها عليه فقال لي : عزمت على الخروج للجيل والقيافي حتى أبعد عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بي عن هذا العزم ، وتأمرني بالجلوس ، فقولك « ترتع غداً مع العوالي » إشارة لحديث «خلق الذكر مراتع أهل الجنة» ، والعوالي أصحاب عليين ، ومعنى قوله «أبي اللراري» أن آدم أعطي قوة على النكاح

١ التدنور : يلدور .

وأمر به ، ولم يجعل له قرة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا بيته وتعليمه ، ولا فترة لنا على كون أتباعنا موفقين .
وكان يقول : كرامات الأولياء نتائج معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ، وطريقتنا هاهنا أخلناها عن أبي يزي بسنده عن الجعيد عن سري السقطي عن حبيب المعجمي بالسند إلى رب العزة جل جلاله .

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال : سمعت سيدي أبا مدين يقول : أوقفني ربي عز وجل بين يديه وقال لي : يا شعيب ماذا عن يمينك ؟ قلت : يا رب عطاؤك ، قال : وعن شمالك ؟ قلت : يا رب قضاؤك ، فقال : يا شعيب قد ضاعفت لك هذا ، وغفرت لك هذا ، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك .
وعن سيدي أبي العباس المرسي : جئت في ملكوت الله تعالى ، فرأيت سيدي أبا مدين متعلقاً بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق ، فقلت له : وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال : علمي أحد وسبعون علماً ، وأما مقامي فراجع الخلفاء ، ورأس السبعة الأبدال .

وسئل رضي الله عنه عما خصه الله تعالى به ، فقال : مقامي العبودية ، وعلومي الألوهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سري وجهري ، وأضاء بنوره برّي وبحري ، فالتقرب من كان به عليمًا ، ولا يسمو إلا من أوتي قلباً سليماً ، الذي يسلم مما سواه ، ولا يكون في الوعاء إلا ما جعل فيه موله ، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾ وهي تمرّ مرّ السحاب ﴿ (النمل : ٨٨) .
وسئل عن الحياء ، فقال : أوله دوام الذكر ، وأوسطه الأنس بالمذكور ، وأعلاه أن لا ترى شيئاً سواه .

واختلف أهل مجلسه : هل الخضر ولي أم نبي ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فقال صلى الله عليه وسلم : الخضر نبي ، وأبو مدين ولي .

وذكر التادلي^١ وغيره أن رجلاً جاءه ليمرض عليه ، فجلس في الحلقة ، فأخذ صاحب الدولة في القراءة ، فقال له أبو مدين : أمهل قليلاً ، ثم التفت للرجل ، وقال له : لِمَ جئت ؟ فقال : لأقتبس من نورك ، فقال له : ما الذي في كك ؟ قال له : مصحف ، فقال له : اختحه واقرأ في أول سطر يخرج لك ، ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانَ لَمْ يَخْتَوُوا﴾ فيها ، الذين كَذَّبُوا شُعْبًا كانوا همُ الخاسرين ﴿﴾ (الأمرات : ٩٢) فقال له أبو مدين : أما بكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل وتاب وصلاح حاله .

وذكر صاحب «الروض» عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال : مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب ، فرأى أسداً أفرس حماراً وهو يأكله ، وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة ، فجاء أبو مدين وأخذ بتأصية الأسد ، وقال لصاحب الحمار : أمسك الأسد واستعمله في الخدمة موضع حمارك ، فقال له : يا سيدي أخاف منه ، فقال : لا تخف ، لا يستطيع أن يؤذيكَ ، فمرَّ الرجل يقوده والناسُ ينظرون إليه ، فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له : يا سيدي هذا الأسد يتبعني حيث ذهبتُ ، وأنا شديد الخوف منه ، لا طاقة لي بعشرته ، فقال الشيخ للأسد : اذهب ولا تعد ، ومتى آذيت بني آدم سلطتهم عليكم .

ومن مشهور كراماته أنه كان ماشياً يوماً على ساحل ، فأسره العلو ، وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين ، فلما استقرَّ في السفينة توقفت عن السير ، ولم تتحرك من مكانها ، مع قوة الريح وساعدها ، وأيقن الروم أنهم لا يقدرّون على السير ، فقال بعضهم : أنزلوا هذا المسلم فأنته قسيس ، ولعله من أصحاب السرائر عند الله تعالى ، وأشاروا له بالتزول ، فقال : لا أفعل إلاّ إن أطلتكم جميع من في السفينة من الأسارى ، فعلموا أن لا بد لهم من ذلك ،

فأنزلوهم كلهم ، وسارت السفينة في الحال .
ومن كراماته أنه لما اختلف طلبة بجاية في حديث « إذا مات المؤمن أُعطي نصف الجنة » وأشكل عليهم ظاهره : إذ يموت مؤمنين يستحقان كل الجنة ، فاجأوا إليه وهو يتكلم على رسالة القشيري ، فكاشفهم في الحال بلا سؤال ، وقال لهم : المراد أنه يعطى نصف جنته هو ، فيكشف له عن مكعبه ليتنعم به وتقر عينه ، ثم النصف الآخر يوم القيامة .

وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل .
وذكر تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي عنه أنه قال : سمعت برجل يسمى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء ، وكان رجل يأتيني عند صدع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس ، فوقع ليلة في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به ، وطال عليّ الليل في انتظاره ، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل ، فإذا هو الذي يسألني ، فقلت له : أنت موسى الطيار ؟ فقال : نعم ، ثم سألني وانصرف ، ثم جاءني مع رجل آخر فقال لي : صليتما الصبح ببغداد ، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح^١ ، فأعدنا معهم ، وجلسنا^٢ حتى صليتما الظهر ، وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر ، فقال لي صاحبي هذا : نعيد معهم ، فقلت : لا ، فقال لي : ولم أعدنا الصبح بمكة ؟ فقلت له : كذلك كان شيعي يفعل ، وبه أمرنا ، فاختلفنا وأتيناك للجواب ، فقال أبو مدين : فقلت لهم : أما إعادة الصبح بمكة فلا أتتها بها عين اليقين ، وبغداد علم اليقين . وهين اليقين أولى من علم اليقين ، وصلاتكم الظهر بمكة - وهي أم القرى - فلذلك لا تعاد في غيرها ، قال : فقتنا به وانصرفا .

وكان استوطن بجاية ويقول : إنها معينة على طلب الحلال ، ولم يزل بها

١ ق : فوجدناهم في الظهر في صلاة الصبح .

٢ نيل الابتهاج : فبقينا .

يزداد حاله على مر الليالي رفعة ، ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق ،
ويغير بالوقائع والغيوب ، إلى أن وَشَى به بعضُ علماء الظاهر عند يعقوب
المنصور ، وقال له : إنا نخاف منه على دولتكُم ، فإن له شَبَهًا بالإمام المهدي ،
وأتباعه كثيرون بكل بلد ، فوقع في قلبه وأهمته شأنه ، فبعث إليه في القُدوم
عليه ليختبره ، وكتب لصاحب بيجاية بالوصية به والاعتناء ، وأن يُحمَل خير
معمل ، فلمَّا أخذ في السفر شق على أصحابه وتغيروا وتكلموا^١ ، فسكتهم
وقال لهم : إن منيَّي قُربت ، وبغير هذا المكان قُدرت ، ولا بد لي منه ، وأنا
شيخ كبير ضعيف^٢ ، لا قدرة لي على الحركة ، فبعث الله تعالى مَنْ يَحْمِلني إليه
برقي ، ويسوقني إليه أحسن سوق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني ، فطابت
نفوسهم ، وذهب بوسهم ، وعلموا أنه من كراماته ، فارتحلوا به على أحسن
حال ، حتى وطلخوا به حَوْزَ تلمسان ، فبلدت له^٣ رابطة العباد ، فقال لأصحابه :
ما أصلحه للرقاد ، فمرض مرض موته ، فلمَّا وصل وادي يسر اشتد به المرض ،
ونزلوا به هناك ، فكان آخر كلامه : الله الحق .

وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فحُمِل إلى العباد ،
مدفن الأولياء الأوتاد ، وسمع أهل تلمسان بجنائزته ، فكانت من المشاهد العظيمة ،
والمحافل الكريمة ، وفي ذلك اليوم تاب الشيخ أبو علي عمر الحباك ، وجاقب الله
تعالى السلطان ، فمات بعده بسنة أو أقل .

ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب ، وجربه جماعة ، وقد
زرتُه مَئِثَين من المرات ، ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله .

وقد أطلال في ترجمته التادلي في كتابه «التشوق لرجال التصوف»^٣ وقد

١ وتكلموا : سقطت من ليل الاحتجاج .

٢ نيل الاحتجاج : وقد كثرت وضعت .

٣ انظر هذا الكتاب ص : ٣١٦ - ٣٢٥ .

أفردها ابن الخطيب التسميطي بتأليف سمائه وأنس الفقير .
ومن كلامه : من رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم ، ومن اشتغل بطلب
الدنيا ابتلي فيها بالذل ، ومن لم يجد من قلبه زاجراً فهو خراب .
وقوله : بفساد العامة تظهر ولاية الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجة
الدين الفشانون .

وقوله : من عرّف نفسه لم يغرّب بثناء الناس عليه ، ومن خدم الصالحين
ارتفع ، ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالمت من خلقه ، وانكسار
العاصي خير من صولة المطيع .

وقوله : من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق .
وسئل عن المحر والشيخ ، فقال : المحر من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرك
بالاحترام والتعظيم ، والشيخ مَنْ هُذِّكَ بأخلاقه ، وأيدك بإطراقه ، وأثار
باطنك بإشراقه ، إلى غير ذلك من كلامه التبر ، وهو بحر لا ساحل له .

وله نظم كثير مشهور بأيدي الناس ، ومما يُنسب له قوله :

بكت السحابُ فأضحكت لبيكاتها	زهرَ الرياضِ وقاضيتِ الأنهارُ
وقد آقلت شمسَ النهارِ بحلّةٍ	ختفراً ، وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيعُ بغيّله وجنوده	فتمتعتُ في حننه الأنبصار
والوردُ نادى بالورودِ إلى الحسنى	فصابقِ الأطيّارُ والأشجار
والكأسُ ترقصُ والبقارُ تشعشعتُ	والجوّ يضحكُ والحبيبُ يُزار
والعودُ للغيرِ الحسانِ مجاوبٌ	والطارُ أخفى صوتهُ الزمار
لا تحسبوا الزمرَ الحرامَ مرادنا	مزمناً التمسيحُ والأذكار
وشرابنا من لطفه ، وغناؤنا	نعم الحبيبُ الواحدُ القهار
والعودُ عاداتُ الجميل ، وكأسنا	كأسُ الكياسة ، والبقارُ وقار

فَتَسَافَرُوا وَتَطِيَّبُوا وَاسْتَغْنَمُوا قَبْلَ الْمَمَاتِ فَمَدَّكُمْ غَدَّارُ
وَاللَّهُ أَرْحَمُ بِالْفَقِيرِ إِذَا أَتَى مِنْ وَالِدَيْهِ فَإِنَّهُ غَفَّارُ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الشَّفِيعِ الْمُصْطَفَى مَا رَكَّعَتْ بَلْعَانِهَا الْأَطْيَارُ

وإنما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرك به ، ولكونه شيخ
جدي ، فأنا في بركته لقول جدي : إِنَّهُ دَعَا لَهُ وَلِلرَّيْثَةِ بِمَا ظَهَرَ قَبُولُهُ ، وَلَئِنَّا
ذَكَرْنَا فِي هَذَا التَّأْلِيفِ كَثِيرًا مِنْ أَنْبَاءِ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، فَأَرَدْنَا كِفَارَةً ذَلِكَ بِذِكْرِ
الصَّالِحِينَ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِحَسَنَةِ وَكْرَمِهِ ، آمِينَ .

الباب السابع

في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستهدين به على المنهاج ، المثلثين أنواع
العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهرم من سراجِه الوهاج

اعلم أن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرون ، إلا أنه لم يُرزق
السعادة في كثير منهم ، بل يارزوه بالعنادة واجتهدوا في إيصال المكروه إليه .

١ - فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك^١ ، وارث مرتبة
من بعده ، ومقتعد أريكة سعده ، وقد ألمع به في « الإحاطة » وكان إذ ذاك من
جملة أتباعه ، إذ قال ما محصله : محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن
يوسف الصريمي يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن زمرك .
أصله من شرقي الأندلس ، وسكن سلفه ريف^٢ البيازين من غرناطة ، وبه
ولد ونشأ ، وهو من مفاخره .

حاله — هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبتها ، مختصر
مقبول هش خلوب ، عذب الفكاهة حلو المجالسة ، حسن التوقيع . خفيف الروح

١ ترجمة ابن زمرك في الإحاطة ٢ : ٢٢١ - ٢٤٠ والكتيبة : ٢٨٢ ونيل الابتهاج : ٢٨٢
ونثر فرائد الجمان : ٣٧٧ والتشريف : ٢٧٤ مجلة القياس : ١٨٤ والدرر الكاسنة :
٤١٢ وأزهار الرياض : ٣ : ٧ - ٢٠٦ ، وقد نقل بعض ما أورده ابن الخطيب في الإحاطة ، وما
جاء عنه في كتاب مستقل لابن الأحرر ، وسيكرر هذا في ترجمته هنا ، ولهذا أيجريت المقارنة
بين ما ورد في النسخ والأزهار دون أن أفير إلى كل موضع على حدة .

٢ ق : روس .

عظيم الانطباع شره المذاكرة ، فطن بالمريض حاضِر الجواب ، شعلة من شعل الذكاء تكاد تحتمل جوانبه ، كثير الرقة فكه غزل مع حياء وحشمة ، جواد بما في يده مشارك لإخوانه ، نشأ عفاً طاهراً ، كلفاً بالقرامة عظيم الدؤوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ظاهر النبل ، بعيد مدى الإدراك جيد الفهم ، فاشتهر فضله وذاع أرجه وغشا خبره ، واضطلع بكثير من الأغراض وشارك في كثير من الفنون ، وأصبح مثقف كرة البحث وصارخ الحلقة [وسابق الحلبة] ومظنة الكمال ، ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع وخاض لجة الحفظ ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق ، ونصب نفسه للناس مثكلاً فوق الكرسي المنصوب ، وفوق المحفل المجموع ، مستظهراً بالفنون التي بَعُدَ فيها شأوه من الرمية والبيان [واللغة] وما يقدف به في لجج النقل من الأخبار والتفسير ، متشوقاً مع ذلك إلى السلوك مصاحباً للصوفية آخذاً نفسه برياض ومجاهدة ، ثم عانى الأدب فكان أملك به ، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد ، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سلم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعُرف في يابه بالإجادة . ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس ، واستقر بالمغرب ، أنس له وانقطع إليه ، وكر في صحبة ركابه إلى استرجاع حقه ، فلفظ منه محله وخصه بكتابة سره ، وثابت الحال ودالت الدولة وكانت له الطائلة ، فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية كثير الدالة ، مضطجماً بالحلقة خطاً وإنشاء ولناً ونقداً ، فحسن منابه واشتهر فضله وظهرت مشاركته وحسنت وساطته ، ووسع الناس تحلقه ، وأرضى للسلطان محله ، وامتد في ميدان التنظيم والنثر بابه ، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة ، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد ، أعانه الله تعالى وسدده .

شيوخه - قرأ العربية على الأستاذ رحلة المغرب في فنها أبي عبد الله ابن الفخار ،
ثم على القاضي الشريف إمام القنون السانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني ،
والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد ابن لب ، واختص بالفقيه الحطيب
الصدر المحدث أبي عبد الله ابن مرزوق فأخذ عنه كثيراً من الرواية ، ولقي
القاضي الحافظ^١ أبا عبد الله المقرئ عندما قدم على الأندلس وذاكره ، وقرأ
الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي ، ويروي عن جملة منهم القاضي
أبو البركات ابن الحاج ، والمحدث أبو الحسين ابن التلمساني ، والحطيب أبو
عبد الله ابن اللوشي ، والمقرئ أبو عبد الله ابن يبيش ، وقرأ بعض القنون العقلية
بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوي^٢ التلمساني ، واختص^٣
به اختصاصاً لم يخل فيه من استفادة مران وحكمة في الصنعة .

شعره - وشعره مترام إلى هدف الإجادة ، غفاجي التزعة ، كلف بالمعاني
البديعة والألفاظ الصعبة ، غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبني به ، وهو من أول
ما نظمته قصيدة مطلعها :

أما وانصداع النور من مطلع الفجر

وهي طويلة .

ومن بدائعه التي عقم عن مثلها قياس قيس ، واشتهرت بالإحسان اشتها
الزهد بأوريس^٣ ، ولم يخل بجاريه ومباريه إلا يويح ووينس ، قوله في إعدار
الأمير ولد سلطانه المنوره بمكانه ، وهي من الكلام الذي عنيت الإجادة بتذهيبه
وتبليبه ، وناسب الحسن بين مديحه ونسيه :

١ ق : الحافظ القاضي .

٢ سقطت هذه اللفظة من الإحاطة .

٣ هو أوريس القرني من أوائل الزهاد في العصر الأموي .

مَعَاذَ الْهَوَى أَنْ أَصْغَبَ الْقَلْبَ سَالِيَا
 دَعَانِي أَعْطِ الْحُبَّ فَضْلَ مَقَادِنِي
 وَحُونَ الَّذِي رَامَ الْعَوَازِلُ صَبُوءَ
 وَقَلْبَ إِذَا مَا الْبَرَقُ أَوْمَضَ مَوْهِنَا
 خَلِيلِي لِي يَوْمَ طَارِقَةِ النَّوَى
 وَبِالْخَيْفِ يَوْمَ الْفَتْرِ يَا أُمَّ مَالِكْ
 وَذِي أَشْتَرِ عَذِيبِ الثَّنَائِيَا مَحْضَرِي
 أَحْمَرُ عَلَيْهِ مَا دَجَا اللَّيْلُ سَاهِرَا
 يَضِيءُ ظِلَامَ اللَّيْلِ مَا بَيْنَ أَضْطَلِي
 أَجِيرَتَنَا بِالرَّمْلِ وَالرَّمْلُ مَتَزَلْ
 وَلَمْ أَرْ رَبَّهَا مِنْهُ أَقْضَى لُبَّانَةً
 سَقَتْ طَلَهُ الْفَرْغَ الْغَوَايِي وَتَطَلَّمَتْ
 أَبْشَكُمُ أَتَى عَلَى النَّاسِي حَافِظُ
 أَنَا شَدَّكُمْ وَالْحُرُّ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
 هَلْ الْوَدُّ إِلَّا مَا تُحَامَاهُ كَالشَّحْ
 تَأْوِينِي وَاللَّيْلُ يُدْكِي عَيُونَهُ
 وَقَدْ مَثَلَتْ زُهْرُ النُّجُومِ بِأَفْقِهِ
 خِيَالُ عَلَى بُعْدِ الزَّوَارِ لَمْ يَبِي
 عَجِبْتُ لَهُ كَيْفَ اهْتَدَى لِحَوْ مَضْجَعِي
 رَفَعْتُ لَهُ نَارَ الصَّبَابَةِ فَاهْتَدَى
 وَمِمَّا أَجَدَّ الْوَجْدَ سَرَبٌ عَلَى النَّعَا

وَأَنْ يَشْغَلَ الْوَوَامُ بِالْعَذْلِ بِأَلِيَا
 وَيَقْضِي عَلَيَّ الْوَجْدُ مَا كَانَ قَاضِيَا
 رَمَتْ بِي فِي شَيْبِ الْغَرَامِ الْمَرَامِيَا
 قَلْبَتْ بِهِ زَنْدًا مِنَ الشُّوقِ وَارِيَا
 شَفِيتُ بَيْنَ لَوْ شَاءَ أُنْعَمَ بِأَلِيَا
 تَخَلَّفَتْ قَلْبِي فِي حَبَالِكَ عَانِيَا
 يَسْقِي بِهَ مَاكَ التَّحِيمِ الْأَقَامِيَا
 وَأَصْبَحَ دُونَ الْوَرْدِ ظَمَانٌ صَادِيَا
 إِذَا الْبَارِقُ النُّجْلِي وَهْنًا بَدَا لِيَا
 مَضَى الْمَيْشُ قَبْلَهُ بِالشَّيْبَةِ حَالِيَا
 وَأَشْجَى حَمَامَاتٍ ، وَأَحْلَى مِجَانِيَا
 مِنَ الْقَطْرِ فِي جِيدِ الْفُصُونِ لَأَكِيَا
 ذَمَامَ الْهَوَى لَوْ تَحْفَظُونَ ذَمَامِيَا
 وَلَنْ يَعْلَمَ الْأَحْسَانُ وَالْخَيْرُ جَازِيَا
 وَأَحْفَقَ فِي مَسَامِهِ مَنْ جَاءَ وَاشِيَا
 وَيَسْحَبُ مِنْ ذَيْلِ الدُّجْنَةِ ضَافِيَا
 حَبَابًا عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ طَسَافِيَا
 فَأَذْكُرُنِي مَنْ لَمْ أَكُنْ عَنْهُ سَالِيَا
 وَلَمْ يُبَيِّنْ مِنِّي السَّعْمُ وَالشُّوقُ بَاقِيَا
 وَخَاضَ لَهَا عَرْضَ الدُّجْنَةِ سَارِيَا
 سَوَانِعُ يَصْقَلْنَ الْعُلَى وَالرَّاقِيَا

نزعن عن الأحاظ كل مسد
ولما تراءى السرب قلت لصاحبي
حذارك من سقم الجفون فإنه
وإن أمير المسلمين محمداً
تضيء النجوم الزاهرات خلاله
معال إذا ما النجم صوب طلباً
يسابق علوي الرياح إلى التدي
ويغضي عن العوداه إغضاء قدير
همام يروع الأسد في حومة الوغي
منقاب تسمو للفخار كأنما
إذا استبق الأملاك يوماً لغاية
بهرت فأخفيت الملوك وذكرها
جلوت ظلام الظلم من كل معتد
حديث سيل الله من ضل رشده
أفدت وحيي الملك مما أفدته
وقد عرفت منها مزين سوابقاً
وكان أبو زيان جيداً معطلاً
لك الخير لم تقصد بما قد أفدته
فما تكبير الأملاك غيرك أمراً
ولا تشتكي الأيام من داء فتنة
وأندلساً أوليت ما أنت أهله
تلاقيت هذا الثغر وهو على شفا
ومن بعد ما ساءت ظنون بأهلها

فنادن أفلاذ القلوب دوايسا
وأيقن أن الحب ما عشت دانيسا
سيعدي بما يعصي الطبيب المداويا
ليعدي نداء السازيات الموايسا
وينث في روع الزمان المعاليا
مبالغها في العز حكن وانيسا
ويضخ جدوى راحيه الغوايا
ويرجع في الخطر الجبال الرواسيا
كما راعت الأسد الطباء الجوازيا
تجاري إلى المجد النجوم الجوايا
أبيت وذاك المجد إلا التناها
ولا عجب فالشمس تخفي الدراريا
ولا غرو أن تجلو البور الدياجيا
فلا زلت مهدياً إليه وهاديا
وطوقت أشراف الملوك الأياديا
تقر لها بالفضل أغرى اللياليا
فزيته حتى اغتلى بك حاليا
جزاء ولكن همة هي ما حيا
ولا تهرب الأشراف غيرك ناهيا
قد عرفت منك الطبيب المداويا
وأوردتها ورداً من الأمن ضافيا
وأصبحت من داء الحوادث شافيا
وجاموا على ورد الأماني صوايا

فما يأمونَ العَيْشَ إِلَّا تَعْلًا
 عطفَ على الأيامِ عطفَ راحمٍ
 فَاتَّسَرَ من تلقائكَ الملكُ رُشدُهُ
 وقتَ على الإسلامِ نفساً كريمةً
 فرأيَ كما انشقَّ الصُّباحُ ، وعزْمُهُ
 وكانت رماحُ الخطِّ خُصماً ذوابلاً
 وأوردتَ صفحَ السيفِ أيضاً ناصعاً
 لك العزمُ تستجلي الخطوبَ بجليه
 إذا أنتَ لم تفخرْ بما أنتَ أهلهُ
 وبينكَ دونَ العبدِ عيدٌ شرَّعتَهُ
 أقمتَ بهِ من فطرةِ الدينِ سنَّةً
 صنيحٌ تولى اللهُ تشييدَ فخره
 تودُّ النجومُ الزُّهرُ لو مثَّلتَ بهِ
 وما زالَ وجهُ اليومِ بالشمسِ مشرقاً
 على مثلهِ فليعددِ الفخرُ تاجَهُ
 بهِ . تفرُّ الأتواءُ كلُّ مَقْوَةٍ
 ويوسفُ فيهِ بالجمالِ مفتحٌ
 وأقبلَ ما شابَ الحياءَ مهابةً
 وأقدمَ لا هَيَابَةَ الحُفْلِ وإجماعاً
 شمائلُ فيهِ من أيِّه وجَدُهُ
 فيا علماً أشجى القلوبَ لو آتانا
 جريتَ فأجريتَ السموعَ تمطُّقاً
 وكمْ من وليٍّ دونَ بابك مخلصٍ
 ولا يعرفونَ الأمنَ إِلَّا أمانيا
 وأبستها ثوبَ امتنانكَ ضافيا
 وقالَ بكِ الإسلامُ ما كانَ راجيا
 تصدُّ عدواً عن حِمَاهُ وعاديا
 كما صقلَ القَيْنُ الحسامَ اليمانيا
 فأهلتَ منها في الدماءِ صواديها
 فأصدرتهِ في الروحِ أحمرَ قانيا
 ويُلقي إذا تنبؤ الصوارمُ ماضيا
 فما الصبحُ وضاحُ المشرقِ عاليا
 نبئُ . بهِ في الحافقينِ التهانيا
 وجددتَ من رسمِ الهدايةِ عافيا
 وكانَ لما أوليتَ فيهِ مجازيا
 وقصَّتَ من الزُّلْفى إليكَ الأمانيا
 سروراً بهِ والليلُ بالشَّهَبِ حاليا
 ويسمو بهِ فوقَ النجومِ مراقيا
 ويعلو بهِ من كانَ بالقفرِ ساريا
 كانَ له من كلِّ قَلْبٍ مُناجيا
 يقلبُ وجهَ البدرِ أزهرَ باهيا
 ولا قاصراً فيهِ الخطا متوانيا
 ترى العزَّ فيها مستكنّاً وباديا
 فدينكَ بالأعلاقِ ما كنتَ غاليا
 وأطلعتَ فيها للسرورِ نواشيسا
 يقدِّيهِ بالنفسِ النفيسةِ واقيا

وصيد من الحيين أبناء قيلة
 بهاليل غرر إن أعدوا لفسارة
 فوالله لولا أن توخيت سنة
 لكان بها للأعوجيات جولة
 وترك أوصال الوشيج مقصداً
 ولما قضى من سنة الله ما قضى
 أفضنا نهني منك أكرم منعم
 فبهني صفاح الهند والبأس والندى
 وبني الهند الحافقات فلانها
 كآتي به يشقي الصوارم والظبي
 كآتي به قد توج الملك يافعا
 وقضى حقوق الفخر في ميمة الصبا
 وما هو إلا السعد إن رمت مطلقا
 فلا زلت يا فخر الخلافة كافلا
 ودئت قدير العين منه بقطعة
 نظمت له حرر الكلام تالما
 لأن بها تباي الملوك ففاسة
 أرى المال يرميه الجليدان باليل
 تكف الأعادي أو تبيد الأعاديا
 أعادوا صباح الحي أظلم داجيا
 رضيت بها أن كان ربك راضيا
 تُشيب من القلب الشباب النواصيا
 وببيض الظبي حمر المتون دواميا
 وقد حسنت منه النجوم المساميا
 أبى لعمير الجود إلا تواليا
 وسمر العوالي والعناق المداكيا
 سيقدها في ذمة النصر غازيا
 وعظم في اللأم الصلاب العواليا
 وجمع أشات المكارم ناشيا
 وأحسن من دين الكمال القاضي
 وسدت سهما كان ربك راميا
 ولا زلت يا خير الأئمة كافيا
 وكان له رب البرية واقيا
 جعلت مكان الدر فيها القوافيا
 وجعلت لعمري أن تكون لأليا
 وما إن أرى إلا المحامد باقيا

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وقد الأحاشيش
 بهدية من ملك السودان ، ومن جعلتها الحيوان الغريب المسمى : « الزراقة » ، فأمر
 من يُعاني الشعر من الكتاب بالنظم في ذلك الغرض ، فقال وهي من بلاده :

لولا نألقُ بارقِ التذكاري
 لكنهُ مهما تعرّضَ خافقاً
 وعلى المشوقِ إذا تذكّرَ مهدياً
 أمذكّري غرناطةً خلّت بها
 كيف التخلّصُ للحديثِ وبيننا
 هذا على أنّ التفرّبَ مركبي
 فلکم أقمّتُ غداةً زُمّتْ عيسهم
 وطفقتُ أستقري المنازلَ بعدهم
 إنّما بني الآمالِ تخلّعتنا المني
 نتجسّمُ الأهوالَ في طلبِ العلا
 لا يحرزُ المجدَ الخطيرَ سوى امرئ
 إمّا يُفأخّرَ بالمتادِ ففخرهُ
 مستبصرٌ مرمى العواقبِ واصلٌ
 فأشدّ ما قادَ الجهولَ إلى الردي
 ولربّ مربدٍ الجوانحِ مزيدٍ
 فتفتتَ كعائِمُ جناحه عن أنجمٍ
 متكلّتْ على شاطي المجرّة نرجساً
 وكأنما بدرُ التمامِ يجنّعه
 وكأنما خمسُ الثريا راحةً
 أسرجتُ من عزمي مصليحاً بها

ما صابَ واكفُ دمي المدوارِ
 قلحتُ يدُ الأشواقِ زبدُ أوارِ
 أن يُغرّي الأجفانَ باستسبارِ
 أيدي السحابِ أزرةً التوارِ
 عرضُ القلاةِ وطاقُ الزخارِ
 وتولّجَ الفيحِ الفساحُ شعاري
 أبني القرارَ ولاتَ حينَ قرارِ
 يحمرُّ البكاءُ مواقعَ الآثارِ
 فنخادعُ الآمالَ بالسيارِ
 ونروغُ سربَ النومِ بالأنكارِ
 يُمطي³ العزائمَ سهوةً الأخطارِ
 بالمشرقةِ والفتنِ الخطارِ
 في حملهِ⁴ الإيرادَ بالإضدادِ
 عمّةُ البصائرِ لا عى الأَبصارِ
 سيجُ اللالُ بلجّةِ الزخارِ
 سمرتُ زواهرهنّ عن أزهارِ
 تصطفُ منه على خليجِ جاري
 وجهُ الإمامِ بمحفلِ جرارِ
 ذرعتُ مسيرَ الليلِ بالأشجارِ
 تهدي السراةَ لها من الأقطارِ

١ ق : ودوتنا .

٢ ق : انفساح .

٣ ق والإحاطة : يُمطي ، والصواب ما في الأزهاري .

٤ ق : جملة .

وارتاعَ من بازي الصباحِ غرابُهُ

ومنها :

وغريةٌ قطعتْ إليك على الوفي
تُسيهٍ طيقتُهُ التي قد أمَّها
يقتادها من كلِّ مشتملٍ اللججِ
تشلو بجمدِ المستعينِ حدانها
إنَّ مَسَّهمْ لفحُ المجيرِ أبكهمْ
خاضوا بها لججِ القلا فتخلَّصتْ
سلمتْ بسعدك من غوائلٍ مثلها
وأنتك يا ملكَ الزمانِ غريبةٌ
موشيةٌ الأعطافِ راقيةٌ الحلي
راقدةٌ العيونِ أدعيا فكانه
ما بينَ مبيضٍ وأصفرٍ فاقع
يحكي حداثتي فرجسٍ في شاعري
تحلوا قوائمَ كالخلجوعِ وفوقها
وسستُ بجيدٍ مثلِ جذعٍ مائلٍ
تستشرفُ الجدرانُ منه ترائياً
ناهتٌ بكلِّكها وأتلعَّ جيدُها
خرجوا لها اللحمُ الغفيرُ ، وكلهمْ
كلٌّ يقولُ لصاحبه قوموا انظروا
ألقَّتْ ببابك رحلها ولطلما
علمتْ ملوكَ الأرضِ أنك فخرُها

لما أطلَّ فطارَ كلُّ مطَّارٍ

بيداً قيدُ بها همومُ الباري
والركبُ فيها ميتُ الأجارِ
وكأنما عيناهُ جنوةٌ نسا
يتعلونَ بهِ على الأكوارِ
منهُ نسيمٌ ثنائِكَ المطَّارِ
منها خلوصُ البدرِ بعد سرائِرِ
وكفى بسعدك حامياً للمبارِ
قيدُ النواظرِ نزهةُ الأبصارِ
رقتْ بدائعها يدُ الأقدارِ
روضٌ تفتحُ عن شقيقٍ بهارِ
سال اللجينُ بهِ خلالَ نُصارِ
تسابُ فيه أراقمُ الأنهارِ
جبلٌ أقمُ بنورهِ متوارِ
سهلٌ التعطفِ لينِ غوارِ
فكأنما هو قائمٌ بمنسارِ
ومشى بها الإعجابُ مشي وقارِ
متعجبٌ من لطفِ صنعِ الباري
كيفَ الجبالُ تُقادُ بالأسيارِ
ألقى الغريبُ بهِ عصا التسيارِ
فتساقطتْ لرضاك في مضمارِ

١ كذا في جميع الأصول ، ولها « تجلر » بريد : تنصب .

يَتَبَوَّأُونَ بِهِ وَإِنْ بَعُدَ الْمَدَى
فَارْفَعْ لَوَاءَ الْفَخْرِ غَيْرَ مَدْفَعٍ
وَاهْتَأْ بِأَعْيَادِ الْفَتْوحِ غَوَّلاً
وَالْبِكْمَا مِنْ رَوْضِ فِكْرِي نَفْحَةً
فِي فَصْلِ مَنْطِقِهَا وَرَائِقِ رَسْمِهَا
وَعَمِلْ مَنْ أَصْفَى لَهَا فَكَأَنِّي

وَأُنْشِدُ السُّلْطَانَ فِي لَيْلَةِ مِيلَادِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَبَ مَا فَرَّغَ
مِنَ الْبَنِيَّةِ الشَّهِيرَةِ بِبَابِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

تَأْمَلْ أَطْلَالَ الْهَوَى فَتَأَلَّمَا
أَسْوَى زُفْرَةٍ هَاجَتْ لَهُ نَارَ ذِكْرَةٍ
وَسِيمَا الْجَوَى وَالسَّقَمِ مِنْهَا تَعَلَّمَا
فَتَأَجَدَّ فِي شِعْبِ الْغَرَامِ وَأَتَهَمَا

وَسَرِدَ لِسَانُ الدِّينِ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ بِطَوْلِهَا ، وَهِيَ تَقَارِبُ التَّسْعِينَ بَيْتاً ، ثُمَّ قَالَ
مَا نَصَهُ : وَأُنْشِدُ السُّلْطَانَ فِي وَجْهَةِ اللَّصِيدِ أَعْمَلَهَا ، وَأُطْلِقُ أَعْنَتَهُ الْجِيَادِ فِي مِيَادِينِ
ذَلِكَ الطَّرَادِ وَأَرْسِلُهَا ، قَوْلُهُ :

حَيَّاكَ يَا دَارَ الْهَوَى مِنْ دَارِ
وَأَعَادَ وَجْهَ رَبِّكَ طَلْقاً مُشْرِقاً
أَمْدُكُورِي دَارَ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى
عَاطِيَتِي عَنْهَا الْحَدِيثُ كَأَنَّمَا
إِلَيْهِ وَإِنْ أَذْكَيْتَ نَارَ صَبَابِي
يَا زَاجِرَ الْأَطْلَعِ وَهِيَ مَشْوُوقَةٌ
حَبَّتْ لِي نَجْدٌ وَلَيْسَتْ دَارَهَا
شَاقَتْ بِهِ بَرْقُ الْحَمَى وَاعْتَادَهَا

نَوَى السَّمَاءِ بِدِيمَةِ مِدْرَارِ
مُتَضَاحِكاً بِمِاسِمِ النُّوَارِ
حَيْثُ الشَّبَابُ يَرْفُ غُصْنُ نُضَارِ
عَاطِيَتِي عَنْهَا كُؤُوسَ عُقَارِ
وَقَدْ حَبَّتْ زُفْدَةُ الشَّوْقِ بِالتَّذْكَارِ
أَشْبَهَتْهَا فِي زُفْرَةٍ وَأَوَارِ
وَعَبَّتْ إِلَى هِنْدِيَّةٍ وَالْفَارِ
خَلِيفُ الْكُرَى بِمَزَارِهَا الْمُزَوَارِ

١ الأزهاري : حسن .

٢ كلما في الإِسْطَاعَةِ ، وفي الأزهاري :

لكنها شامت به برق الحمى واعتادها

واعتادها طيف الكرى بمزار

هل تُبلغُ الحاجاتِ إن حملتها
عرض بذكري في الخيامِ وقلْ إذا
عارُ بقومك يا ابنةَ الحين أن
أمتعتِ ميسورَ الكلامِ أنما الهوى
وأبان جاري النعمِ علرَ هيامِهِ
هذا وقومك ما علمتُ خلاهم
الله في نفسِ شعاعِ كلما
بالله يا لمياء ما منع الصبا
يا بنتَ مَنْ تشدو الخداةُ بذكره
ما ضرَّ نسمةَ حاجرٍ لو أنها
هلْ بأنه من بعدنا متاود^١
وهل الظباء الآساتُ كهذا^٢
يفتكن من قاماتها ولحاظها
أشعرتْ قلبي حُبهنَّ صبا^٣
وعلى الكتيبِ سوانحَ حمرِ الحلى
أدنى الحبيجِ مزارهنَّ ثلاثة^٤
لكنَّ يومَ التفَرُّجِئ لنا بما
يا ابن الألى قد أحرزوا خصلُ العلا
وتوبُ غن صوب الغمامِ أكثهم
من آلِ سعدٍ رافعي علمِ الملقى

إنَّ الوفاءَ سجةُ الأحرارِ
جنتَ العقيقَ مُبلِّغَ الأوطارِ
تكوي الديونَ وأنتِ ذاتُ يسارِ
وبخلتِ حتى بالخيالِ الساري ؟
لكن أضحت له حقوقي^١ البطارِ
أوفى الكرامِ بلمة وجوارِ
هبَّ النسيمُ تطيرُ كلَّ مطارِ
أن لا تهبَّ بعرفك المعطارِ
مصلكين به على الأكوارِ
أهدتْ لنا خبراً من الأخبارِ ؟
متجاوبٌ منرَّمُ الأطيارِ ؟
يسرعنَّ أسدَ الغابِ وهي ضواري ؟
بالشرقية والقنا الخطارِ
فرميتني من لوعي بجمارِ
يبيضُ الوجوهَ يُصَلِّدُ بالأفكارِ
بني لو أن ميني ديار^٢ قرارِ
عودتنا من جفوة ونصارِ
وسموا بطيبِ أرومة ونجارِ
وتوبُ أوجههم عن الأقمارِ
والمصطفين نصرة المختارِ

١ الأزار : أضمت حقوق ذلك .

٢ الأزار : كهذا .

٣ الإحاطة : يدار .

٤ الأزار : فضل .

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم
وجه^١ كما حَسَرَ الصباحُ ثيابهُ
جددت دون الدينِ عِزَّةَ أروع
حطت البلاد ومن حوته ثغورها
فقد رحلتك التي فلنا بها
أوردتنا فيها بلودك مورداً
وأقضت فينا من نَدَاكَ مواهباً
أضحكتنا ثغر الثغر لما جثتهُ
حتى الغلاة تقيم يومَ وردتها
وسرت عِقَابُ الجَوِّ هَدْيَكَ الذي
والأرض تعلم أنك الغوث الذي
ولرب ممتد الأباطح موحش
همك المسارح لا يُراعُ قنيصه
مرحت عنانَ الربيع فيه وربما
باكرته والأفق قد خلع الحجى
وجرى به نهرُ النهارِ كمثل ما
عَرَضَتْ به المستغفرات^٢ كأنها
أبتمتها غورَ الجياد كواكباً
والهاديات يؤمها عَيْلُ الشوى^٣

ومشرق الأعصار والأعصار
ويد تمد أنامله يبحار
جددت منها سنة الأنصار
وكفى بسعدك حامياً للدار
أجر الجهاد ونزعة الأبحار
مستعذب الإيراد والإصدار
حسنت مواقعها على التكرار
وخصمته بخصائص الإشار
سنن القرى بثلاثة الأنوار
تصطاد من وحش ومن أطيار
تضمي عليها وآقي الأستار
عالي الرُبى متباعد الأقطار
إلا لباق فارس ميقوار
ألقى بساحته عصا التسيار
مسحاً ليكنس حلة الإسفار
سكب الندم سلاقة من قار
خيل عراب جئن في مضمار
تنفض رجماً في سماء غبار
مقدق كقدق التسيار

- ١ في الإحاطة والأزهار ؛ يتلألأ الأنوار ؛ وأرى الأصل فيه ما أتته لأنه يتحدث عن خروج السلطان
للمعيد ، ورميه ثلاثة ثيران ، فكان لالة العيد راحت سنة القرى يتقدمها الثيران له .
٢ المستغفرات : الحيوانات التي استغفرت لكي تمحو الجياد ورامحاً ، ويمرّ السلطان لالة مطاردتها
وصيدها .
٣ حيل الشوى : كناية عن الثور ، والهاديات : المتقدّمات سبقاً .

أزجيتها شقراء رائقة الحللى
أثبت فيه الرمح ثم تركته
حامت عليه الدايلات كأنها
طفقت أرانبه غداة ألترتها
هل ينفع الباع الطويل وقد غدت
من كل منحفر بلمحة بارق
وجوارح سبقت إليه طلابها
سود. ويبيض في الطراد تتابع
ترمي بها وهي الخنايا ضجراً
ظنت بأن ينجو لها ، كلا ولو
وبكل فتخاه الجناح إذا ارتمت
زجل الجناح مصفق كمن الردى
أجل الطريد من الوحوش ولا ترمي
وأريتنا الكسب الذي أعداده
بيض وصفر خلت مطرح سرحها
من كل موشي الأديم مفوف
خلط البياض بصفرة في لونه
أو أشعل راق العيون كأنه
سرح بمخضر الجوانب يانع
قد أروضته الساريات لبانها
أخذت سودك حلرها فلهكمة
لما أرتك الشمس صفرة حاسد
نفت عليك السحب نقت معود
فارفع لواء الفخر غير مدافع

فرميت منها بشعلة نار
خضب الجوانح بالدم المزار
طير أوت منه إلى أوكار
تبغي القرار ولات حين فرار
يوم الطراد قصيرة الأعمار
فاتت خطاه مدارك الأبصار
فكأنما طالبت طالبها بالشار
كالليل طارده بياض نهار
مثل السهام نزع عن أوتار
أغرته بأرانب الأقمار
فكأنها نجم السماء الساري
في غلب منه وفي مقار
طيراً أذاك به على مقدار
ملأت جمالا عين النظار
روضا تفتح عن شقيق بهار
رقت بداعة يد الأقدار
فرى اللجين يشوب ذوب نصار
عكس يغالط سدفه بنهار
تنساب فيه أرقام الأنهار
وحلن فيه أزرة النوار
أغرث جفون الزن باستجار
لجيتك المتألق الأنوار
من عينها المتوقع الإصرار
واسحب ذيول السكر الجرار

واهنأ بمقدمك السعيد مخولاً
قد جئتُ داركَ محسناً ومؤملاً
واليكها من روضِ فكري فحة
ومن شعره في غير المطولات قوله^١ :

لقد زاحني وجدلاً وأغرى بي الجوى
تشرُّ وراء الليلِ منهُ بنانةُ
تلوحُ سناها حين لا تفتحُ الصبا
قطعتُ به ليلاً بطارخي الجوى
إذا قلتُ لا يبدو أشالَ لسانه
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى
لك الله يا مصباح أشبهتُ مهجتي
ومما ثبت له صدر رسالة :

أزورُ بقلبي معهدة الأكسر والموى
ومهما سألتُ البرقَ يهغو من الحمى
فيا ليتَ شعري والأمانى تَمَكُّلُ
وهل جبرني الأولى كما قد عهدتهم
ومن أبياته الغراميات :

قيادي قد تملكه الغرامُ
ودعني دونه صوبُ الغوادي
ووجدني لا يُطاقُ ولا يُرامُ
وشجوي فوق ما يشكو الحمامُ

١ يصف مصباحاً .

٢ الأزهار : وتبدو .

إذا ما الوجدُ لم يرح فؤادي على الدنيا وساكنها السلامُ

وفي غرض يظهر من الآيات :

ومشتمل بالحسن أحوى مُهتَهِفٍ قضى رجعُ طرفي من محاسنه الوطرُ
فأبصرتُ أشباهَ الرياضِ محاسناً وفي خدّه جرحٌ بدا منه لي أثرُ
فقلتُ بلحلامي خلوا الحلزَ إنما به وصَبَّ من أسهم الفُنج والحورُ
ويا وجنةً قد جاورتُ سيفَ لحظةٍ ومن شأها تكمن من اللمح بالبصرُ
تخيّلَ للعينينِ جرحاً وإنما بدا كلفٌ منه على صفحة القمرُ

ومما يرجع إلى باب الفخر ، ولعمري لقد صدق :

الألمة في الجود والجود شيمةٌ جئيلُ على إثارها يوم مولدي
خرفي فلو أنني أخذتُ بالنفي لكنتُ ضنيناً بالذي ملكتُ يدي

وقال :

لقد علمَ الله أني امرؤ أجترُّ ذيلَ الضافِ التشيبِ
فكم غمضَ الدهرُ أجفاتهُ وفازتُ قِداحي بوصل الحبيبِ
وقيلَ رقيبك في غفلةٍ فقلتُ أخافُ الإلهَ الرقيبِ

وفي مدح كتاب «الشفاء» [وقد] طلبه الفقيه أبو عبد الله ابن مرزوق عندما

شرع في شرحه :

ومسرى ركابٍ للصبا قد وكتت به نجائبُ سحبٍ للربابِ نزوعها
تسلُّ سيوفَ البرقِ أيدي حداثها فتنهلُ خوفاً من سلطانها دموعها
تمرّضنَ غرباً بيتغينَ مَحْرَساً فقلتُ لها : مراكشُ وريوعها
لتسقي أجداثاً بها وضرائحاً عياضُ إلى يومِ المعادِ ضجيعها

وأجلد من تبكي عليه يراعة
فكم من يد في الدين قد سلفت له
ولا مثل تعريف الشفاء حقوقه
بمراة حسن قد جعلتها يد النسي
نجوم اهتداء ، والمداد يحنها
لقد حزت فضلاً يا أبا الفضل شاملاً
ولله ممن قد تصدّى لشرحه
فكم مجمل فصلت منه وحكمة
عاسن والإحسان يبدو خلافا
إذا ما أجتئت العين فيها تعالما
معاني كلامه الزلال لدي صدّي
رياض سقام الفكر صوب ذكائه
تفجّر عن عين اليقين زلالها
ألا يا ابن جاري الله يا ابن وليه
إذا ما أصول المرء طابت أرومة
بقيت لأعلام الزمان تنيلها

بصفحة طرس ، والمداد نجيعها
يرضى رسول الله عنه صنيعها
قد بان فيه للعقول جميعها
فأوصافه يلتاح فيه بديعها
وأسرار غيب ، والبراع تلجّعها
فيجزيك عن نصح البرايا شفيعها
فلبّاه من غر المعاني مطيعها
إذا كم الإدماج منه تشيعها
كما أقرّ عن زهر البطاح ربيعها
نجوماً بأفاني الطروس طلوعها
والفاظه در يروي نصيغها
فأخصب للوراد منها مريعها
فلذ لأرباب الخلوص شروعا
لأنت إذا عدّ الكرام ربيعها
فلا عجب أن أشبهتها فروعها
هدى ، ولأحداث الخطوب تروعها

مولده رابع عشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين
في « الإحاطة » في ترجمة تلميذه أبي عبد الله ابن زمرك .

قلت : ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين — رحمهما الله تعالى —
على هامش هذه الترجمة من « الإحاطة » كلاماً في حق ابن زمرك رأيت أن
أذكره بجملة الآن ، وإن تقدم بعضه في هذا الكتاب :
فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته : أتبعه الله تعالى خيراً ؛
وعامله بما يستحقه ، فهذا ترجمه والذي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم

يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شر من أحسننا إليه ؛ انتهى .
 وكتب على قوله « نشأ عفاً طاهراً — إلى آخره » ما نصه : هذا الوغد ابن زمرك
 من شياطين الكتاب ، ابن حداد باليازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فعات
 من ذلك ، وهو أحسن عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة وأخملهم شكلاً ،
 استعمله أبي في الكتابة السلطانية ، فجئنا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر ،
 وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي رباه وأدبه واستخدمه ،
 حسيماً هو معروف ، وكفانا الله تعالى شر من أحسننا إليه وأسأء إلينا ؛ انتهى .
 وكتب على قول والده « فترقى إلى الكتابة — إلى آخره » ما صورته : على يد
 سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ انتهى .

وكتب على قول « معاذ الهوى أن أصحاب القلب ساليا — إلى آخره » ما نصه :
 هذه القصيدة نظم له مولاي الوالد تغمده الله تعالى برحمته منها النسيب كله ،
 وهكذا جرت عادته معه في الأمداح السلطانية حضرة الملك^١ ، والله المطلع على
 ذلك ، قاله ابن المصنف علي بن الخطيب ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لولا تآلقت بارق التذكار — إلى آخره » ما صورته : هذا
 الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم في هذا الوزن ، ويتبع حمارة هذه الرأ ، حتى
 لا يتركها جملة ، إذ الرجل ابن حمار مكارى حداد ، فالنفس تميل بالطبع ؛
 انتهى .

وكتب على قوله « حيّاك يا دار الهوى من دار — إلى آخره » ما صورته :
 انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الرأ ، علقت له بها ما خلوا ؛ انتهى .
 وكتب على قوله « وجوارح سبقت إليه طلاياها — إلى آخره » ما صورته :
 سرق طردية إبراهيم بن خطابة ، فانظرها تجده سرق المعاني والألفاظ ، مع أن

٢ ق : حضرت لك ، ولعلها : « حضرتك » .

والذي نظم له أكثرها على حسب عادته معه ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .
وكتب على قوله « يا مصباح » ما نصه : كان يحب صبيّاً اسمه مصباح ، وهو
الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة ؛ انتهى .

وكتب على قوله « الأثمي في الجود » إلى آخره - ما صورته : كذبت يا
نجس ، من أين الفخر لك أو لبيتك ؟ لست والله من الجود في شيء ، نعم سُنْخَةُ
عين الجود ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لقد علم الله أني امرؤ - إلى آخره » ما معناه : لا والله ،
فأنت مشهور بكذا ، يا فرد ، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا ؟ إلى
أن قال : وأنفسهم بيتاً ؛ قاله مولاك الذي ربيت في نعمته ونعمة الله علي بن
الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

وقد نسب إلى ما لا يليق ، فإله أعلم بحقيقة الأمر .
وكتب غيره على قول ابن زمرك « أزور بقلبي - الأبيات المتقدمة » عند
قوله « سائلاً » في موضعين : هما من السؤال ، فحصل على الإيطاء المذموم ؛
انتهى .

قلت : أما ما ذكره ابن لسان الدين من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك
والله أعلم كان في ابتداء أمره ، وإلا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين
وبعد موته بالبدائع التي لا تُنكر ، كما سنذكره ، وأما كونه سعى في قتل لسان
الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله ، وقُتل بمرأى من أهله ومسمع ،
وأزهدت معه روح ابنه ، حسبما نذكره ، وهذا قصاص الدنيا ، وعفو الله تعالى
في الآخرة منتظر للجميع .

ولنذكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر في مجلد ضخيم
رأيت بالمغرب جمع فيه شعر ابن زمرك وموشحاته ، وعرف به في أوله ، إذ
قال ما نصه : أما بعد ما يجب من حمد الله تعالى في كل حال ، وشكره على ما

أولى ويسر من صلاح الأحوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء وسيد الأرسال^١ ، والرضى عمن له من صحبٍ وأنصار وآل ، فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان ، وتؤثر من أشهر به بالملاحظة بلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان ، ولا خفاء أن أيام مولانا الجلد المقدس الغني بالله - تولاه الله تعالى برضوانه - كانت غرراً في وجوه الأيام ، ومواسم تجمع الطم والرّم من الرؤساء الأعلام ، الآخذين بأعنة الكلام ، السابقين في حلبة النثار والنظام ، وأن الفقيه الرئيس المدرك ، الناظم النائر أبا عبد الله محمد بن يوسف ابن زمرك ، عفا الله تعالى عنه ، وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجلد رحمه الله تعالى لكتابته ، وصرفه في الوجوه المتعددة من رسالته وحجابه ، وكان بذلك خليقاً ، لما جمع من أدوات الكمال علماً وتحقيقاً ، وإدراكاً ونبلاً وفقهاً وأصولاً وفروعاً وأدباً وتحصيلاً ، وبياناً وتفسيراً ونظماً وترسيلاً - لما كان قد أخفت الأيام سنناً صبحه ، وخابت وسائل نصحه ، وعادت بعدوانها بعد فوز قلعه ، وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أيّ دخر فقدوا ، ولا أيّ مطلق من تصرفاته الجميلة قيدوا ، مستبصرين بالجهل في دياجي غيهم ، معجبين بما ارتكبه من جياذ بغيمهم جميعهم يلحظه بمقل دامية ، وألفاظ حامية ، يصاحبونه بأوجه خلّت عن الوجاهة سيماها الحسد ، وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد :

فخرٌ على الآلاء لم يوسدْ كأنّ جبينه سيفٌ صقيل^٢

فيا لله من أشلاء هنالك ضالمة ، وأعلاق غير مصونة ، ووسائل مخفورة ، وأذمة قطعت أرحامها ، ولم يُرْعَ ذمامها ، وعانت الأيدي الفاتكة حيثنّ على بنيّه ، وارتكبوها شعاء في أهله وفؤيه :

١ الأرسال : جمع رسول ، وهو غير مألوف .
٢ البيت لابن عنته الضبي في رثاء بسطام بن قيس (الحامية رقم : ٣٥٥ من شرح المروزي) ؛ والآلاء : الواحدة من شجر الآلاء .

هل كان إلّا حياً نجا العبادُ به هل كان إلّا قذراً في عين ذي عورٍ
 إن قال قولاً ترى الأبصارَ خاشعةً لما يخبّر من وحيٍ ومن أثرٍ
 يا لطف قلبي لو قد كنتُ حاضرةً غداةَ جرّعه أدهى من الصبرِ
 لما تركتُ له شلواً بمضيعةٍ ولا تولي صريحِ التابِ والظفرِ
 « وكان ما كان مما لست أذكره حفظنٌ خيراً ولا تسألن عن الخيرِ »

وإن سألت سائل عن الخبر الذي ألعنا بذكره ، وضمتنا هذا البيت ذرواً^١ من
 فطخ أمره ، فذلك عندما تسبّ صاحبُ الأمر إليه ما راب ، وتكّه وابنيه للجبين
 معقّرين بالتراب ، وصلحه في جنح الليل والمصحف بين يديه يتوسل بآياته ،
 ويشفع بعظيم بركاته ، فأخذته السيوف ، وتماورته الختوف ، وأذهبه سلباً
 قتلاً ، مُصيّراً مصراع منزله كثيباً مهيباً ، وكنا على بعد من هذه الآفة التي
 أورثت القلوب شجناً طويلاً ، فأغرينا برثائه حكماً وفكراً ، وارتملنا عند ذكره الآن هذه الآيات
 أعظم ذكرى ، فأغرينا برثائه حكماً وفكراً ، وارتملنا عند ذكره الآن هذه الآيات
 إشارةً مقننة ، وكتابة في السلوان مطمحة ، وأرضينا بالشفقة-أوداده ، وأرغمنا
 بتأنيبه أعدامه ، ولما تليج الصبح لذي عينين ، وتلقينا راية الفرج بالراحتين ،
 عطفتنا على آبنائه بمواطف الشفقة ، وأطلقنا لهم ما عانت الأيدي عليه صلةً لرحمٍ
 طالما أضاعها من جهل الأذمة ، وأخضر عهد نعدّه لمن سكف من الأئمة ،
 وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا ، وجعلنا ضمّ ما نثرته الحوادث من
 منظومات من أكيد أعمالنا ، وكان تعلق بمحفوظنا جملة وافية من كلامه ،
 مشتملة على ما راق وحسن من نثاره ونظامه ، فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه
 اجتدادنا من رقاعه الخاتلة المنتهية بأيدي النواب ، الدائرة المستلبة بتعدي
 النواصب ، فخلص من الحملة قلائد عتيان ، وعقود در ومرجان ، ترتاح

١ ذرواً : طرفاً ، وفي ق : ذرواً .

النفوسُ النفيسة لإتشادها ، وتخصر الأبصارُ والأسماعُ^١ عند إيرادها ، إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا ، والإشارة بمعظيم ملكتنا ، فشرعنا في تقييد أوابدها الشاردة ، وإحياء رسومها البائدة ، كلفاً بالأدب لوضوح فضله ، وتأدية لما يجب من رعاية أهله . ولنبداً بالترعيف بحال هذا الرئيس المنبه عليه ، ونظهر ما كنا نضمرة من الميل إليه ، في كل ما له أو عليه ، فتقول :

هو الفقيه الكاتب القذ الأوحـد ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحي ، ويُعرف بابن زمرك .

أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة ، وبها وُلد ، فنشأ ضليلاً كالشهاب يتوقد ، مختصر الحرم والأعين بإطالة فواضله تشهد ، ومكتب الفتن القرائية يؤثره بالجناب الممهد . فاشتغل أول نشأته بطلب العلم والنُزوب على القراءة ، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس ، ولم يبلغ حد وجوب المفترضات إلا وهو متحمل الرواية ، وملتبس لفوائد الدراية ، ومُصابيح كل يوم أعلام العلوم ، ومستمد بمصاييح الحدود العلمية والرسوم ، فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبي عبد الله ابن الفخار الآية الكبرى في فنّ العربية ، وتردد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء ، وبذ النحاة البلاء ، بما أوجب رثاءه^٢ عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التي أولها :

أغرى سرّاة الحميّ بالإطراقِ

واحتدى في طريق الخطبة ومناهج الصوفية بالخطيب العظيم أبي عبد الله ابن مرزوق الوافد على مولانا الجلدّ أبي الحجاج ، رضي الله تعالى عنه ، في عام ثلاثة

١ الأذهار : وتخصر الأبصار الأسماع ؛ ق : وتخصر .

٢ ق : أن رثاء .

وخمسين وسبعائة ، وإليه جنح ، وإياه قصد عند تغربه إلى المغرب في دولة
السلطان أبي سالم ، فتوجه بالعمامة التي ارتجل بين يديه فيها :

تَوَجَّهْتَنِي بِعِمَامَتِهِ تَوَجَّهْتَ تَاجَ الْكَرَامَةِ
فَرَوْضُ حَمْلِكَ يُزْهِى مِنِّي بِسَجِّ الْحَمَامَةِ

وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد أبي علي منصور الزواوي ، وبرع في الأدب
أثناء الانقطاع وأولَ الطلب لأبي عبد الله ابن الخطيب ، ولكن لم يحدد بينهما
المآل ، واقتدى في العلوم العقلية بالشریف أبي عبد الله التلمساني قدوة الزمان ،
وحصلت له الإجازة والتحذيث بقاضي الجماعة وشيخ الحملة أبي البركات ابن
الحاج ، وبالخطيب البليغ أبي عبد الله اللوشي ، وبالخطيب الورع أبي عبد الله ابن
بيش^١ البغدادي ، رضي الله تعالى عنه وعن جميعهم ، وبواجب محافلتنا على
عهدهم ، إذ نحن وردنا بالإجازة التامة عَدَبَ^٢ وِردهم ، وصل سبينا بهم الكثير
من شيوخنا مثل الإمام المظلم أبي محمد عبد الله بن جزي ، ومعلمنا الثقة المجتهد
أبي عبد الله الشريشي^٣ ، والقاضي الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن علاق ،
وغيرهم ، رحمة الله تعالى عليهم ، لذلك صار صدرأ في نوادي طلبة الأندلس
وأفراد نجائها ، فما شاءه المحاضر يحمده في خضله^٤ ، ويتلقاه من باهر فضله ،
فكاهة وبجالة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة ، وجواباً مطبقاً للمفصل^٥ ،
وذهناً سابقاً لإيضاح المشكل ، مع انقياد الطبع ، وإرسال الذمعة في سبيل الخشوع
والرقة ، ورشح الجلين عند تلقّي الموعظة ، وصون الوجه بجلباب الحياء ، ومقابلة
الناظر إليه بالاحتشام والمبادرة للاستدعاء ، على طهارة وبذل وسع وكرم نفس ،
لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه ، ولا أمتع منه بمجاهه ، إلى مبالغة في المشقة

١ ق : بيش .

٢ الفضل : القوم ؛ وفي ق : خضله .

٣ هذه رواية ق والأوزار ؛ وفي التجارية : شافياً للمفصل .

والبرّة والإيثار بما منع ، وجنوح إلى حبّ الصالحين ، وذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولي أبي جعفر ابن الزيات ، وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبي مهديّ ، قلنس الله تعالى مغناه ، وسواهما من أهل الاندلس والعُدوة ، وحمله أشد الحمل على كل ملبس^١ كأبي زكريا البرغواطي وسواه . ومن تنديراته — زعموا — على أبي الحسن المحروق ليلته عنه :

ولدُ الفقير والرباط ولكنّ نفسه للسلوك ذات افتقار

وخطب الأدب يافعاً وكهلاً ، وحاز علمه إدراكاً ونهلاً ، ولما كانت الحادثة على مولانا الجلد — رحمه الله تعالى — واجتاز إلى المغرب كما تقرر في غير هذا ، كلف به وأنس إليه ، لحلاوة منطق ورفع استيجاش ومراوضة خلّق ، ثمّ كرّ في صحبة ركابه فعكّت منزلته ولطّفت محله .

وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبدى فيها ويعيد ، ويقول : خلعتني سبماً وثلاثين سنة : ثلاثاً بالمغرب ، وباقيها بالاندلس ، أنشدته فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً ، وكلّ ما في منازل السعيدة من القصر والرياض والشار^٢ والسيبكة من نظم رائق ، ومدح فائق ، في القباب والطاقات والطرز وغير ذلك فهو لي ، وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج ، وهما كبيراً ملوك أهل الأرض ، وهنّاه بكذا وكذا قصيدة ، وفوّض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين ، وصلح التصاري عقدته تسع مرات ، ألحست^٣ فوّض إليّ ذلك ؟ قلنا : صدق في جميع ما ذكره ، والعقود بذلك شاهدة له . وخصّه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره ، واستعمله بعد أعوام في السفارة بينه وبين ملوك عصره ، فحمّد متابعه ، ونعت أحواله ورغيد جنابه ، وكان هنالك بعض تقولات تشين

١ ملبس : غلط ؛ وفي الأزهار وق : متلبس .

٢ النشار : القرية أو الكفر ، والجمع دشر ودشائر .

وجه اجتهاده ، وتوميء بما احتسبه من سوء مقاصده وما صرفه من قبيح أغراضه ،
وهاجت الفتنة ، فكانت سفارته أعظم أنبيائها .

وعند الأشد من عمره عرضت لأفكاره تقلبات ، وأقلعته عن قبح
السياسة آفات غفقات ، وأشعرته حدة ذهنه أن يتخبط^١ في أشراك وقعات ،
فبعد بمجامع مائلة^٢ ثم بمسجد الحمراء ملقياً على الكرسي فتوناً جمّة ، وعلوماً لم
يزل يتلقاها عن أولياء التعظيم والتجلة ، فانحاز إلى مادة^٣ أمم بمالقة طما منهم
البحر ، وترأى لأبصارهم وبصائرهم التخر ، وكان التفسير أغلب عليه لفرط
ذكائه ، وما كان قيده وحصله أيام قراءته وإقرائه ، فما شئت من بيان ، وإعجاز
قرآن ، وآيات توحيد وإخلاص ، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص ، يوم الأخط
بالنواص ، ومراراً علة صمغ ما يلقيه ولي^٤ الأمر ، ويا شدة البلوى التي أذاقه
مرّها ، وأطاه إلى طيبة الملاك ظهرها ، ويا قريب ما كان القوت ، والحسام
الصلت ، من متباعد هذه القرب التي ألفت^٥ .

قلنا : لقد جمع جواد القلم فأطلقنا^١ ونحن نشير إلى هذا الرئيس* وتبدل
طباعه ، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاع ، وإحراز شيم أدت إلى علو مقداره ،
واستقامة مداره ، قال عمر مولانا جدنا إلى النقاد ، ورمت رئيس كتابه هذا
أنهم الحساد ، فظهر الخفي ، وسقط به الليل على مراحان ، وقد طالما جرب
الوفي والصفي . وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة ،
والإسبرسال في الرد عليهم بالطبع والحييلة ، مع الاستغراق في غمار الفن أندلساً
وغرباً ، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصباً ، أما الجرامة فالتنصّي سبونها ،

١ الأزهار : أنه متخبط .

٢ ق : مائلة .

٣ الأزهار : من تلمذ ... ألفت .

٤ يعني أطلقنا له العنان .

٥ ق : الراس ؛ وشيما وقتت .

وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نَوْع صنوفها ، وأما المجاهرة فوقف
بميدان الاعتراض صفوها ، وأما المجاملة فنكَّرَ معروفها ، أداه هذا النبأ العظيم
إلى سكنى المحتل بقصبة الموية ، وعلى الأثر كان الفرج قريباً ، وسطور المؤاخلة
قد أوسعها العفو تضيئاً ، ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا إجلد الغني بالله ،
وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبعائة ، لأسباب يطول شرحها
أظهرها شراسة في لسانه ، واغترار بمكانه ، وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه ،
فكبا للدين والقسم ، إلى أن منَّ الله تعالى بسراحه ، وأعادته إلى الحضرة في أول
شهر رمضان المعظم من عام أربعة وتسعين وسبعائة ، فكان ما كان من وفاة
مولانا الوالد رحمه الله تعالى ، وقيام أخينا محمد مقامه بالأمر ، فاستمر الحال أياماً
قليل ، وقدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمعة من عام ، ثم أعاد المذكور إلى خطه
وقد دَمِثَتْ بعضُ أخلاقه ، وخملت شراسته وحلا بعض مذاقه ، فما كان إلا
كلا وليت وإذا به قد ساء مشهداً وغيباً ، وأوسع الضمائر شكاً وزياً ، وغلبت
الإحسَنُ عليه ، وغلبت مَراجِلُها لديه ، فصار يقلب على جمر الغضا ، ويتبرم
بالقضا ، ويظهر النصيح وفي طيه التشفي ، ويسم نفسه بالصلاح ، ويعلن
بالخشوع ، ويشير بأنه الناصح الأمين ، ويتلو قوله تعالى ﴿ ولكن لا يحبون
الناصحين ﴾ (الأمرات : ٧٩) وترب على المشتغلين كثيرهم وصغيرهم ذنوياً لم
يقترفوها ، ونسب إليهم نسباً من التضييع لم يعرفوها ، وأنهم احتجوا الأموال ،
وأساموا الأعمال والأقوال ، فلم يظفر من ذلك بكبير طائل ، ولا حصل على
تفاوت أعدداده على حاصل ، هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ،
وعدم اضطلاع بالأمور الجبائية ، فمن نفس يروِّع سيرتها ، ويكدر بالامتحان
والامتحان شربها ، ومن ضارعة خاشعة لله تعالى سَلَبَتْ ، وطولبت بغير
ما اكتسبت ، وتعلت الأيدي إلى أقوام جَلَّتْ سَعْلُوا بشقائه ، وامْتَحِنُوا
وهم المبرأون من تزويره واعتدائه ، وسيسألون يوم لا يغني مال ولا بنون .

وصار يصرف أغراضه ، ويظهر أحقادَه ، بين إفساح بما كان الإعجامُ خيراً
 من إلقائه ، وإن عمر المسكين المستضعف لا حاجة في طول بقاءه ، إلى مجاهرة
 عهد منه أيام شيبته تقيضها ، وانعكس في شاخته تصرعها المنخص وتعريضها ،
 لا يريح نفسه من جهد ، ولا يقف من اللجلة عند حد ، وقد كان ثقل سمعه
 فساعت إجابته ، وطفئت أخلاقه فشم الناس وساطته ، وربما استحلف فلم يكن
 بين اللازمة واللازمة إلا الحث عن قصد وغير قصد ، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز
 وعهد ، وأن يقيض الله له ولهم قاتل عمه ، فسيحان القاهر فوق عبادِه ، الرحيم بهذا
 الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده ، فاستمر على ذلك إلى إحدى الليالي ،
 فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد غلومه ، تلقاه — زعموا — عند
 الدخول عليه ، وهو بالمصحف رافع يديه^١ ، فجدلته السيوف ، وتناولته الحتوف ،
 فقضي عليه ، وعلى من وجد من خدامه وإبنيه ، كل ذلك بمرأى عين من أهله
 وبناته ، ولم يتقوا الله فيه حق ثقاته ، فكانت أنكى الفجائع ، وأفظع الوقائع ،
 وساءت القالة ، وعظم المصاب ، وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب . انتهى كلام
 ابن الأحمر في مقدمة كتابه^٢ .

وقد اطلعت منه على تصارييف أحوال ابن زمرك ، وقتله على الوجه الذي
 يعلم منه أن ثار لسان الدين ابن الخطيب لديه لا يترك ، بل قتلته أفضع من قتلة
 لسان الدين ، لأن هذا قُتل بين عياله وأهله ، وقُتل معه ابنه ومن وجد من خلمه ،
 ولسان الدين رحمه الله تعالى خُتق بمفرده ، وعند الله يجتمع الخصوم ، وهو العفو
 الغفور .

وقد شُهِم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين
 وسبعائة ، ولم أقف من أمره على غير ما تقدم .

١ ق : رافضاً به .

٢ سى هذا الكتاب والبقية والمذكور من شعر ابن زمرك .

ولا بأس أن نلم بشيء من نظمه البارع مما كنت انتقيته بالمغرب من تأليف
ابن الأحمر المذكور ، وأوردت كثيراً منه في «أزهار الرياض» .
فمن ذلك قوله في ذكر غرناطة العلية ، وتهنئة سلطانه الغني بالله ببعض المواسم
العديدة ، ووَصَفَ كرائم جياده ، وآثار ملكه وجهاده :

يا مَنْ يَحْنُ إِلَى نَجْدٍ وَنَادِيَا	غرناطةٌ قد ثَوَّتْ نَجْدٌ بِوَادِيَا
قَفَّ بِالسِّيْكَةِ وَانْظُرْ مَا بِسَاحَتِهَا	عَقِيلَةٌ وَالْكَثِيبُ الْقَرْدُ بِجَالِيهَا
تَقَلَّدَتْ بَوَاشِحَ النَّهْرِ وَابْتَسَمَتْ	أَزْهَارُهَا وَهِيَ حَلَّتْ فِي تَرَاوِيهَا
وَأَعْيَنَ التَّرْجَسَ الْمَطْبُولَ يَانَعَةً	تَرْقُقُ الطَّلَّ دَعْمًا فِي مَأْكِيهَا
وَأَفَرَّ نَفْرُ أَقْلَاحٍ مِنْ أَزْهَارِهَا	مَقْبِلًا خَدَّ وَرْدٍ مِنْ فَوَاحِيهَا
كَأَنَّمَا الزَّهْرُ فِي حَافَاتِهَا سَحَرًا	دِرَاهِمٌ وَالنَّسِيمُ اللَّذَنُ يَحْيِيهَا
وَانْظُرْ إِلَى اللَّذَوِّحِ وَالْأَنهَارِ تَكْنُفُهَا	مِثْلَ التَّدَامِي سَوَاقِيهَا سَوَاقِيهَا
كَمْ حَوْلَهَا مِنْ بَدْوٍ يَحْفِي زَهْرًا	فَتَحْسِبُ الزَّهْرَ قد قَبِلْنَ أَيْدِيهَا
حَصْبَاؤُهَا لَوْ لَوْ قد شَفَّ جَوْهَرُهَا	وَالنَّهْرُ قد سَالَ ذَوْبًا مِنْ لَأَلِيهَا
نَهْرُ الْمَجْرَةِ وَالزَّهْرُ الْمَطِيفُ بِهِ	زَهْرُ النُّجُومِ إِذَا مَا شَتَّتْ تَشْيِيهَا
يَزِيدُ حَسَنًا عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ قد	أَغْنَاهُ دَرَّ حَبَابٍ عَنْ دَرَارِيهَا
يَدْعِي الْمُنْجَمَ رَائِيهِ وَنَاطِرُهُ	مَسْمِيَاتٍ أَبَانَتْهَا أَسَامِيهَا
إِنَّ الْحِجَازَ مَعَانِيهِ بِأَنْدَلُسٍ	أَلْفَاظُهَا طَابَقَتْ مِنْهَا مَعَانِيهَا
فَظَنَّ نَجْدًا سَقَاها كُلُّ مَنْسَجَمٍ	مِنْ الْغَمَامِ يَحْيِيهَا فِيحْيِيهَا
وَبَارِقٌ وَعُدَيْبٌ كُلُّ مَبْتَسِمٍ	مِنْ الثَّغْوِ يَحْيِيهَا عَجَلِيهَا
وَأِنْ أَرَدْتَ تَرَى وَادِي الْعَقِيقِ فَرْدٍ	دَمُوعَ عِشَاقِهَا حَمْرًا جَوَارِيهَا
وَالسِّيْكَةِ تَاجٌ فَوْقَ مَفْرَقِهَا	نُودٌ دَرَّ الدَّرَارِي لَوْ تَحْلِيهَا

١ حين عد لسان الدين الباتين والمفازات في غرناطة قال : «ومدرج نجد ومدرج السبيكة وجهة
الريف» وتقع السبيكة إلى الجنوب الشرقي من الحمراء .

فإن حمراءها والله يكلوها
 إن البلور لتيجان مكللة
 لكنّها حصدت تساج السيكة إذ
 بروجها لبروج الأفق غيطة
 تلك القصور التي راقت مظاهرها
 لله عينا من رأى سحراً
 والصبح في الشرق قد لاحت بشائره
 تهوي إلى الغرب لما غالما سحراً
 وساجع العود في كف النديم إذا
 يُبدي أفانين سحر في ترتمه
 يحسه ناعم الأطراف تحسبها
 مقاتل بلحاظ قوس حاجبها
 فباكر الروض والأغصان مائلة
 لم يرقص اللوح بالأكمام من طرب
 وأسمعتها فنون السحر مبدعة
 غرناطة أنس الرحمن ساكنتها
 أعدى نسيمهم لطفاً نفوسهم
 فخلد الله أيام السرور بها
 وروى المحل منها كل منجس
 يحكي الخليفة كفاً كلما وكفت
 تفي العفاة وقد أمت مكارمه
 ياقوتة فوق ذاك التاج يعليها
 جواهر الشهب في أبي مجاليها
 رأت أزاهيره زهراً يحلّيها
 فشهبها في جمال لا تضاهيها
 تهوي النجوم قصوراً عن معاليها
 تلك المنارة قد رقت حواشيها
 والشهب تسن سقاً في مجاريها
 وغمض القمر من أجفان واشيها
 ما استوقفت ساجعات الطير يقرها
 يصبي العقول بها حسناً ويسبها
 لاكتسأ وهي نور في تلايها
 ترمي القلوب بها عمداً فتصفيها
 يثني القوس لها شوقاً تثنّيها
 حتى شدا من قيان الطير شاديها
 وُرّق الحمام وغناها مغنيها
 باحت بسر معانيها أغانيها
 فرقة الطبع طبع منه يعديها
 صُفراً عشيتها ييضاً لياليها
 إذا اشتكت بغليل الجذب يروها
 بالحدود فوق موات الأرض يحميها
 عن السؤال وبالإحسان يُغنيها

١ هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي التجارية : ما استوقفت الطير يثنيها ويقرها .

لها بَنانٌ فلا غيثٌ يسألها
 فإن تصبَّ سحبه بالماء حينَ هَمَّتْ
 يا أيها الغيثُ أنتَ للغوثِ في زمنٍ
 إنَّ الرعايا جزاكَ اللهُ صالحَةً
 إنَّ الخلائقَ في الأقطارِ أجمعِها
 فكلُّ مصلحةٍ للخلقِ تحكُمها
 إذا تيممتْ أرضاً وهي مجدبةٌ
 يا رحمةُ بَنَتِ الرحى باندلسٍ
 في فضلِ جودك قد عاشتْ مشيختها
 في طولِ صَمركَ يرجو اللهُ آمَلُها
 عوائدُ اللهِ قد عودتْ أفضَلُها
 سَلَّ السعودُ وغلَّ البيضُ مغمدةٌ
 اللهُ أيا مَكَّ الغرِّ التي اطردتْ
 اللهُ دولتُكَ الغراءِ إنَّ لها
 هِباتٍ أنْ تبلغَ الأعداءَ مأوِيةً
 هَلْبي سيفُكَ في الأجفانِ نائمةٌ
 سريرةٌ لك في الإخلاصِ قد عرفتْ
 لم يحجب الصبحُ شهبَ الأفقِ عن بصرِ
 يا ابنَ الملوكِ وأبناءَ الملوكِ إذا
 أبناءُ نصيرِ ملوكٍ عزَّ نصرهمُ
 همُ المصابيحُ نورَ اللهِ موقدها
 همُ النجومُ وأفقُ الهدي مطلقها

جوداً ولا سحبه يوماً تدانيها
 بمسجدٍ ولجينٍ صابٍ هامِها
 ملوكهُ تلفتْ لولا تلافيها
 ملكتْ شرقاً وغرباً من يراعِها
 سوائِمُ أنتَ في التحقيقِ راعِها
 وكلُّ صالحَةٍ في الدينِ تنوِها
 فرحمةُ اللهِ بالسقيا تغييها
 لولاكَ زلزلتِ الدنيا بمن فيها
 في ظلِّ أَمْنِكَ قد نامتْ ذُراريها
 بنصيرِ مُلكِكَ يدعو اللهُ داعِها
 لتبلغَ الخلقُ ما شامتْ أمانِها
 واضربْ بها فريةَ التلثِ تفريها
 فيها السعودُ بما ترضى ويرضيها
 لكافلاً من إلهِ العرشِ يكفيها
 في جبرِها وجنودُ اللهِ تحميها
 والمشركونَ سيوفُ اللهِ تُقنيها
 حُسنى عواقبِها حتى أعادِها
 إلا وهديكَ للأبصارِ يديها
 تدعو الملوكَ إلى طوعٍ تلييها
 وأوسعوا الخلقَ تنوياً وترفيها
 نضيء للدينِ والدنيا مشاكِها
 فوزاً لمهديها عزّاً لهاديها

١ الأزهار : لم تحجب شهب الافاق عن بصر .

همُ البُورُ ، كمالُ ما يفارقها همُ الشُّموسُ ، ظلامُ لا يوارىها
 قضتُ قواضِبُها أنْ لا انقضاءَ لها وأمضتُ الحُكمَ في الأعداءِ مواضِبُها
 وطلَّبتُ في صفاحِ الهندِ سِيرَها وأسندتُ عن عواليها معاليها
 وأورثتُك جهاداً أنتَ ناصره والأجرُ منك يُرضِيها ويحظيها
 كم موقِفَ ترهبُ الأعداءُ موقعه والحيلُ تردِّي ووقع السُّمِّ يرذِها
 ثارتُ عِجاجُتهُ واليومُ عِججُ والنفعُ يُوثرُ غِيماً من دِياجِها
 وللأسِنَّةِ شُهْبٌ كلما غرِبتُ في الدارِعينَ تجلَّتْ من عواليها
 وللسيوفِ بروقٌ كلما لمتُ تزعجِي الدماءَ وريحَ النصرِ يُزجِها
 أطلعتُ وجهاً تريك الشمسَ غرثه تباركَ الله ما شمسُ تَسامِها
 من أين للشمسِ نطقٌ كله حِكْمُ يفيدُها كلُّ حينٍ منك مَبدِها
 لكَ الجِياذُ إذا تجرِي سوابِها فللرياحِ جِياذُ ما تجاريها
 إذا انبرتُ يومَ سَبْقٍ في أعتَها ترى البروقَ طِلاحاً لا تبارِها
 من أشهبٍ قد بدا صبحاً تراع له شُهْبُ السماءِ فإنَّ الصبحَ يخفيها
 إلاَّ التي في بِلَامٍ منه قِيلَها فإنَّه سامِها عزاً وتَنوِها
 أو أشقرٍ مرَّ عن أشقرِ البروقِ وقد أبقي لها شفقاً في الجَوى تَنبِها
 أو أحمرٍ جمره في الحربِ متقدِّ يعلو لها شرٌّ من بأسٍ مذكِها
 لونُ العقيقِ وقد سالَ العقيقُ دماً بعِطْفِهِ من كِماةٍ كَرَّ يدمِها
 أو أدهمٍ ملءُ صدرِ الليلِ تنعلِ لعلَّه فوقَ وجهِ الأرضِ يندِها
 إن حارتِ الشُّهْبُ ليلاً في مَقْلَدِ فصَبَحُ غرثه بالنورِ يهدِها
 أو أصفرٍ بالعِشِيَّاتِ ارتدى مرحاً وعرفهُ بتمادي الليلِ يَنبِها^١

١ حكنا في ق ٤ وفي التجارية : مرعب ، ولا معنى له ؛ ق : تنبها .

٢ الأزهار : مثل .

٣ ق : ينبيها .

مموه بضار تاه من عجب
 ورب نهر حسام رقى راقعه
 تجري الرؤوس حباباً فوق صفحته
 وذابل من دم الكفار مشربه
 وكم هلال لقوس كلما نبضت
 أئمة الكفر ما يمت ساحتها
 يا دولة النصر هل من مبلغ دولاً
 أو مبلغ سالف الأنصار مألوفة
 أن الخلافة أعل الله مظهرها
 يا ابن الذين لهم في كل مكرمة
 أنصار خير الورى ، مختار هجرته
 سمتهم الملة السخاء تكرمة
 ففي حنين وفي بدر وفي أحد
 ولتسأل السير المرفوع مسندها
 ماثر خلد الرحمن أثرها
 ماذا يبيد بليغ أو ينمقه
 له الجهاد به تسري الرياح إلى
 تحدى الركاب إلى البيت الحقيق به
 بشارت تسمع الدنيا وساكتها
 كفى خلافتك الغراء منقبة
 وقد أفاد بنيه الدهر تجربة
 إذا رميت سهام الزم صائبة
 شكراً لمن عظمت منا مواهبه

فليس يعلم تنوباً ولا تبها
 متى ترده نفوس الكفر يردبها
 وما جرى غير أن البأس يجرها
 ينجي الفتوح وكف النصر تبجنيها
 ترى النجوم رجوماً في مراميها
 إلا وقد زلزلت قسراً صياصياها
 مضمين أنك تحيها وتنسيها
 والله بالخلد في الفردوس يجزيها
 أبقت لنا شرفاً والله يقيها
 مفاخر ولسان الدهر يعلها
 جيران روضته ، أكرم بأهلها
 أنصارها ، وبهم عزت أوالها
 تلتفي مفاخرهم مشهورة فيها
 فعن مواقفهم تروى مغازيها
 ينصها من كتاب الله قاريها
 من الكلام ووحى الله بآلها
 ممالك الأرض من شئ أقاصيها
 فمكة حمرت منه نواديها
 إذا دعا باسمك الأعلى مناديا
 أن الإله يوالي من يواليها
 أن السعد تعادي من يعاديها
 فما رميت ، بل التوفيق رامها
 وإن تعد فليس الدد يحصيها

عما قريب ترى الأعياد مقبلة
 وتبلغ الغاية القصوى بشائرها
 فاهناً بما شئت من صنع تستر به
 مولاي خذها كما شامت بلاعتها
 أرسلتها حينما الأرواح مرسله
 جاءت تهنيك عيد الفطر معجبة
 اليسر في وجهها ، واليمن في يدها
 لو رصح البر منها تاج مفرقه
 فإن تكن بنت فكري وهو أوجدنا
 في روض جودك قد طوَّقني مينا
 ولو أهرت لسان الدهر يشكرها
 بقيت للدين والدنيا إمام هدى
 والسعد يجري لغايات تؤملها

وقال رحمه الله تعالى شاكراً لنعم وصلته من المذكور في عاشوراء :

مولاي يا ابن السابقين إلى العلا
 إن لوحظوا في المملوات فإنهم
 أو فوخوا في المكرمات فإنهم
 أبناء أنصاري النبي وصحبه
 والمؤثرين ، وربنسا أنى بها
 فاضت علينا من نذكاء عمائم
 من كف شفاف الضياء تحاله

١ يشير إلى الآية الكريمة في الأنصار «وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» .

نِعَمٌ مُنَوَّعَةٌ تَعْدَدُ وَفَرْهَا
 فِي مَوْسَمٍ لِلدِّينِ قَدْ جَدَّدَتْهُ
 أَضْعَافٌ مَا أَهْلَيْتُنَا مِنْ مِنَّةٍ
 تُهْدِي إِلَيْكَ ثَوَابَهَا عَاشُورَا
 وَعَلَى الطَّرِيقِ بِشَاطِرٍ عَمُودَةٌ
 أَلْفَاكَ جَذَلَانَا بِهَا مَسُورَا

وقال يصف زهر القرففل الصعب الاجتناء بجبل الفتح ، وقد وقع له
 السلطان الغني بالله المذكور بذلك ، فارتجل قطعاً منها :

أَتُونِي بِنَوَارٍ يَرُوقُ نَفَارَةٌ
 وَجَامِعُوا بِهِ مِنْ شَاهِقٍ مَتَمَنِّعٍ
 رَجَى اللَّهُ بَنِي عَاشِقًا مَتَمَنِّعًا
 وَإِنْ هَبَّ خَفَاقُ النِّسِيمِ بِنَفْحَةٍ
 كَخَدِّ الَّذِي أَهْوَى وَطِيبُ تَنْفُسِهِ
 تَمْنَعُ ذَلِكَ الظُّلِي فِي ظِلِّ مَكْنَسِهِ
 بِزَهْرٍ حَكِي فِي الْحَسَنِ خَدِّ مَوْئِسِهِ
 حَكَتْ عَرَفَهُ طَيِّبًا قَضَى بِتَأْسِهِ

ومنها :

رَجَى اللَّهُ زَهْرًا يَتَمَيُّ لِقَرْفَلٍ
 وَمَتْنِيَّتُهُ فِي شَاهِقٍ مَتَمَنِّعٍ
 أَمِيلُ إِذَا الْأَغْصَانُ مَالَتْ بِرَوْضَةٍ
 وَأَهْوَى لَخَفَاقِ النِّسِيمِ إِذَا سَرَى
 حَكِي عَرَفَ مَنْ أَهْوَى وَإِشْرَاقِ خَدِّهِ
 كَمَا اِمْتَنَعَ الْمَحْبُوبُ فِي تَيْهِ صَدِّهِ
 أَعَانَقُ مِنْهَا الْقُصْبَ شَوْقًا لِقَدِّهِ
 وَأَهْوَى أَرِيحَ الْعُطْبِ مِنْ عَرَفِ نَدِّهِ

ومنها :

يَقْرَأُ بَعِيثِي أَنْ أَرَى الزَّهَرَ يَانِعًا
 وَمَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي كَزَهْرِ قَرْفَلٍ
 تَمْنَعُ فِي أَعْلَى الْمَضَابِ لِلْمَجْتَنِ
 وَفِي جَبَلٍ الْفَتْحِ اجْتَنَوْهُ نَفَاقِلًا
 وَقَدْ نَازَعَ الْمَحْبُوبَ فِي الْحَسَنِ وَصْفَهُ
 حَكِي خَدِّ مَنْ يَسِي الْقَوَادِ وَعَرَفَهُ
 تَمْنَعُهُ مَتْنِي إِذَا رَمَتْ إِلْفَهُ
 بَفَتْحِ لِبَابِ الْوَصْلِ يَمْنَعُ عَطْفَهُ
 إِذَا مَا ثَنَى نَحْوَ الْمَتِيمِ عِطْفَهُ

قال ابن الأحمر في الكتاب المذكور فيما مر : ومن القصائد التي يود الصبح سناها ،
والنسيم اللدن رقة معناها ، يهنيء مولانا الجلد رضي الله تعالى عنه عند وصول
خالصة مقامه ، وكبير خدامه ، القائد خالد رحمه الله تعالى من تلمسان بالهدية ،
وتجديد المقاصد الودعية ، ووافق استئناف^١ راحة من الذات العلية ، ومن بعض
فروع دوحتها^٢ الزكية :

أدرها ثلاثاً من لحاظك واحيس
إذا ما نهاني الشيب عن أكوسِ الطلا
عليري من لحظ ضعيف وقد غدا
وروض شباب ماس غصن قوامه
وما زال ورد الخلد وهو مضعف
وكم جال طريف الطرف في روض حسنه
أما وليالي الوصل في روضة الصبا
لئن نسي تلك العهد أحيي
وحاشا لنفسي بعدما افتر قودها
والبسها ثوب الوقار خليفة
وجدد للفتح المين مواسماً
وأورثه المكباء كل خليفة
فيا زاجر الأطلعان وهي ضوامر
إذا جثت من دار الغي بربه
فإن شئت من بحر السباحة فاغترف

قد قال منها السكر أبناء مجلس
تدير علي الأحمر منها بأكوس
يحكم منا في جصوم وأنفس
وفتح فيه اللحظ أزهار نرجس
يعبر أفاق الثغر طيب تنفس
يقيد في العذار بفسنن
ومألف أحبابي وعهد تأنسي
فقلبي عهد العامرية ما نسي
من الشيب عن صبح به تنفس
به لبس الإسلام أشرف ملابس
أقام بها الإيمان أفراس معرس
نماه إلى الأنصار كل مقدس
بغير القلا والوحش لم تأنس
مناخ العلا والعز فاعقل وعرس
وإن شئت من نور الهداية فاقبس

١ ق : استباق .

٢ ق : دوحتنا .

أمولاي إنَّ السعدَ منكَ لآيةٌ ١
إذا شئتَ أن ترمي القصيَّ من المني
فرمي بسهمٍ من سعدك صائب
أهنيك بالابلالِ ممَّنْ شفاؤه
ودعني أريدُ يَمَنَكَ فهي غمامةٌ
أقبلُ منها راحةً إثرَ راحةٍ
ومن نَسَبَ الفتحَ المينَ ولادةً
فيا أيها المولى اللذي بكَماله
لأَمَنْتَ موسى من عواذي سميَّة
بعثتَ بيمينِ النقيَّةِ في اسمه
فجاءك بالمالِ المريضُ هديةً
وشفَعها بالصافساتِ كأنَّها
تنصُّ من الإشرافِ جيدَ غزالةٍ
لك الخيرُ موسى مثلُ موسى، كلاهما
فلا زلتَ في ظلِّ النعيمِ وكلُّ مَنْ
عليك سلامٌ مثلُ حَمْدِكَ عاطرٌ
وقال في مولدِ عامِ سبعةٍ وستينَ وسبعمائةٍ وألَمْ في أخرياتها بوصفِ المشوَرِ الأسنى،
الرفيعِ المني :

زار الخيالُ بأيمنِ الزوراءِ
وسرى مع التسماتِ يسحبُ ذيلَهُ
هذا وما شيءٌ ألدُّ من المني

١ الأزمهر : أمولاي وال سعد منك ولاية .

يثنا خيالين التحفنا بالفضى
 حتى أفاق الصبح من غمراته
 يا سائلي عن سر من أحبته
 تالله لا أشكر الصباية والهوى
 يا دين قلبي لست أبرح عانيأ
 أبكي وما غير النجم مدايح
 أحفو إذا تهبو البروق ، وأنثي
 بالله يا نفس الحى رقفاً بمن
 عجباً له يندى على كبدي وقد
 يا ساكني البطحاء أي لئانة
 أرى النوى يوماً تحب قداحها
 في حيككم قمر فؤادي أفقه
 لم تنسى الأيام يوم وداعه
 أبكي ويسم والمحسن تجمل
 يا نظرة جاذبتها أيدي النوى
 من لي بثانية تنادي بالأسى
 ولرب ليل بالوصال قطعت
 أنسيت فيه القلب عادة حلمه
 وجرت في طلق التصابي جاماً
 أطوي شباني للمشيب مراحل

والسقم ما نخشى من الرقباء
 وتجاذبت أيدي التسيم ردائي
 السر عتلي ميت الأحياء
 لسوى الأحياء أو أموت بدائي
 أرضى بسقي في الهوى وعنائي
 أذكى ، ولا ضرر سوى أحشائي
 لسرى النواصر من ربي تيماء
 أغريته بتنقص الضملاء
 أذكى قلبي جمره البرحاء
 لي عندكم يا ساكني البطحاء
 ويفوز قديحي منكم بلقاء
 تقديه قسي من قريب نائي
 والركب قد أوفى على الزوراء
 فملقت بين تبسم وبكاء
 حتى استهلكت أدني بلاء
 وقدك انتد أسرفت في الغلواء ؟
 أجلو دجاء بأوجه الندماء
 وحشت فيه أكوس السراء
 لا أنثي لمقادة النصحاء
 برواحيل الإصباح والإساء

١ الأزهار : جادت بها .

٢ صدر بيت لأبي تمام : « كم تطلون وأنتم سراجي » ورواية الديوان : أريت في الغلواء .

يا ليت شعري هل أرى أطوي إلى
فتطيب في تلك الربوع مدائحي
حيث النبوة نورها متألّق
حيث الرسالة في ثنية قدسها
حيث الضريح ضريح أكرم مرسل
المصطفى والمرضى والمجتبي
غير البرية مجتباها ذخرها
تاج الرسالة ختمها وقوامها
لولاه للأفلاك ما لاحث بها
ذو المعجزات الغر والأي الألى
وكفالك رد الشمس بعد مضيها
والبلد شق له وكم من آية
وبليلة الميلاد كم من رحمة
قد بشر الرسل الكرام ببعثه
أكرم بها بشرى على قدّم سرت
أسمى بها الإسلام يشرق نوره
هو آية الله التي أنوارها
والشمس لا تخفى مزينة فضلها
يا مصطفى والكون لم تخلق به
يا مبظهير الحق الجلي ومطلع ال
يا ملجأ الخلق المشفع فيهم
يا آسي المرضى وممتجع الرضى

قبر الرسول صحائف اليداء
ويطول في ذلك المقام ثوائي
كالشمس تزهى في سنا وستاء
رقت لهدي الخلق غير لواء
فخر الوجود وشافع الشفعاء
والمتقى من عنصر العلياء
ظلّ الإله الوارف الأقياء
وعادها السامي على النظراء
شهب تنير دياجي الظلماء
أكبرن عن عدو وعن إحصاء
وكفالك ما قد جاء في الإسراء
كأنامل جاءت بنج الماء
نشر الإله بها ومن نعماء
وتقدّم الكهّان بالأنباء
في الكون كالأرواح في الأعضاء
والكفر أصبح فاحيم الأرجاء
تجلو ظلام الشك أي جلاء
إلا على ذي المقلة العمياء
من بعد أيدي الخلق والإنشاء
نور السني الساطع الأضواء
يا رحمة الأموات والأحياء
وموامي الأيتام والضعفاء

أشكو إليك - وأنت خير مؤمل
لنني ملدتُ يدي إليك - تضرعاً
إن كنتُ لم أخلص إليك - فإتما
وبسعدٍ مولاي الإمام محمد
ظلُّ الإله على البلادِ وأهلها
غوثُ العبادِ وليُّ مُشْتَجِرِ القنا
كالذَّهْرِ في سَطَوَاتِهِ وسماحه
رقتُ سجاياهُ وراقتُ مجتلى
كالزَّهْرِ في لِبَاقِهِ ، والبدرِ في
يا ابنَ الأُلى إجمالمُ وجمالمُ
أنصارُ دينِ اللهِ حزبُ رسوله
يا ابنَ الخلائفِ من بني نصرٍ ومن
من كلِّ مَنْ تَقَفُ الملوكُ بِيَابِهِ
قومٌ إذا قادوا الجيوشَ إلى الوغى
والعزُّ مجلوبٌ بكلِّ كنيةٍ
يا وارثاً عنها مناقبها التي
يا فخرَ أندلسٍ وعصمةَ أهلها
كم خُصِّتْ طوعَ صلاحها من مهمه
تهدي بها حادي المُرَى بهزائم
فَارَقَ لواءَ الفخرِ غيرَ مدافعٍ
واهنأَ بيمينك السَّيْدُ قلائدُ

داء الذنوبِ وفي يديكَ دوائي
حاشا وكلاءَ أن ينجِبَ رجائي
خطصتُ إليك محبتي وندائي
تعيدُ الأمانِي أن يَتَنَحَّ لقسائي
فخرُ الملوكِ السادة الخلفاء
يومَ الطمانِ وفارجُ الغمَاء
تجري صباهُ بزَعزَعٍ ورُخاء
كالنَّهْرِ وسطَ الروضةِ الفناء
إشراقه ، والزَّهْرِ في لآلئهِ
فلكي الصَّباحِ وواكفُ الأتواء
والسَّابِقُونَ بِمَحَبَّةِ العِلاء
حاطوا ذِمَارَ المَلِكِ السَّمْعَاء
يستطرون سحابَ النعماء
فالرَّعبُ رائدُهم إلى الأعداء
والنصرُ معقودٌ بكلِّ لواء
تسمر مراقبها على الجوزاء
يخزيك عنها اللهُ خيرَ جزاء
لا تهتدي فيه القَطَا للماء
تهدي نجومَ الأفقِ ففضلُ ضياء
واسحبُ ذِيولَ العزةِ القَعَاء
كهفٌ ليومٍ مشورةٍ وعطاء

لله منه هالةٌ قد أصبحت
 تتأهبها طيرُ الرجاء فتجنّي
 لله منه قُبّةٌ مرفوعةٌ
 دونَ السماءِ تقوّ لحظَ الرائي
 راقّتْ بدائعُ وشيها فكأنها
 عظمّتْ ميلادَ النبيِّ عمداً
 أحيّتْ ليلكُ ساهراً فأفدتنا
 يا أيها الملكُ الهامُ المجتبي
 من لي بأن أحصي مناقبك التي
 وإليك مني روضةٌ مطولةٌ
 فافسح لها أكتافَ صفحك إنها
 بكرٌ أنت تمشي على استحياء
 حرمَ العفاةِ ومصرعَ الأعداءِ
 تمرّ للمي من دوحَةِ الآلاءِ
 وشيُ الرّيعِ بمسقطِ الأنداءِ
 وشقعتَه بالسّيلةِ الغراءِ
 قوتَ القلوبِ بذلك الإحياءِ
 فانتَ علّاكِ مداركُ العقلاءِ
 ضاقتْ بين مذهبِ القصحاءِ
 أرجتْ أزاهرها بطيبِ ثناء
 أنت تمشي على استحياء

قال ابن الأحمر : ومن إمداريات ابن زمرّك المحكمة تسقاً ووصفاً ،
 المتناهية في كل فن حسن تحلية غريبة ووصفاً - حسيما اقتضته ملاحظة النسبة
 الرفيعة مولانا رحمة الله تعالى عليه واحفاله المناسب لمر ملكه من تعميم الخلق
 بالجنس في دعواهم ، واستدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب وسواهم ، تقبلاً
 في مكارم متمدة أيامها عن أصالة المجد معربة ، وإغراء لهم الملك بما لتتميم
 الأنس من أوضاع مغرية ، ومباهاة بعرض الجيوش والكتائب للعدو الكافر ،
 وتكاثراً من ممالك دولته بالعدد الوافر ، ممّا أبلغ اللسان الذكي حيّاً ، وغادر
 الإعذار الذنوبيّ منسياً ، كافاً الله سبحانه أبوته المولوية عنا وعن آيائنا ، وتلقى
 بالقبول الكفيل بتجديد الرضوان ما يصلّ له من خالص دعائنا ، إنه منعم جواد -
 قوله في الصنيع المختص من ذلك بمولانا الوالد قدس الله تعالى روحه ، وذلك
 سنة أربع وستين وسبعماية :

١ وري هنا بكتابي « قوت القلوب » و « إحياء علوم الدين » .

٢ ق : منها ؛ يعني للتصديّة .

معاذ الهوى أن أصبح القلب ساليا

القصيدة ، وقد تقدمت بتمامها فراجعها .

ثم قال : ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المخصوص بعين السنين الأميرين
سعد ونصر ، رحمة الله تعالى عليهما ، وأجاد في وصف الجند والجُرد والطلبة
وغرائب الأوضاع :

أرسلتهُ دمعاً تَصْرَجُ بالدم	ألمحة من بارق متبسم
يهفو فؤادك عن جوانح مفرم	وللمحة تَهفو بِياناتِ اللوى
خَلِيقَ الهوى تعادُ كلَّ متيسم	هي عادةٌ علويةٌ من يوم أن
أدري الهوى ، واليوم أعدلُ لوْمي	قد كنتُ أعدلُ ذا الهوى من قبل أن
حدَرَ الرقيبِ ولمع لم يُسجَم	كم زفرةٌ بين الجوانح ما ارتقتُ
هيهات واثي السقم لما يكم	إن كان واثي اللمع قد كم الهوى
قد. كاد يغفى عن خفي توهم	ولقد أجدُ هواي رمم دارس
فاطلتُ فيه ترددي وتلومي	وذكرتُ عهداً في حناه قد انقضى
ورقاء تنثتُ شجوها برنم	ولربما أشجى فؤادي عنده
أشجى النصيح بها بكاء الأعجم	لا أجذب الله الطلول فطالما
قف بي عليها وقفة المتلوم	يا زاجرَ الأظعان يحفزها السرى
حُمرًا كحاشية الرداء المُحَلَّم	لرى دموعَ الماشقين يرسمها
سقيًا لها ولعهدا المتقدم	دمن عهدت بها الشبية والهوى
أغزو بها السلوان غزو مصمم	وكثيرة للشوق قد جهزتها
وأريتُ للعشاق فضل تهمني	ورفعتُ فيها القلب بنداً خافقاً
لكن من أهواهُ ضايق مقلبي	فأنا الذي شاب الحماسة بالهوى
ورُبيتُ من غنج اللحاظ بأسهم	فطعنتُ من قد القوام بأسمر

يا قاتلَ الله الجفونَ فلَينها
ظلمتَ قاتِلَ الحُبِّ ثمَّ تَبيّنتَ
يا ظليّةً سَنَحَتْ بِأَكْثافِ الحَصى
ما ضُرَّ إذ أرسَلتَ نَظرةً قاتِلَكِ
فرايتَ جِسمًا قد أَصِيبَ فؤادُه
ولقد خَشِيتُ بأنَّ يَقادَ بِمِرحِه
كم خَضَعْتُ دونك من غمارِ مَفازِه
والنَجمُ يَسرِي من دِجاءِ بأَدَهم
والبدْرُ في صَفحِ السَماءِ كَأَنَّهُ
والزَهرُ زَهرٌ والسَماءُ حَديقَةُ
والبَيلُ مَربِدُ الجِوانِحِ قد بَعدا
فكَأَنَّمَا فَلَقَ الصَباحُ وقد بَدا
مَلِكٌ أَفاضَ على البَسيطَةِ عدلُه
هو مُنتَهى آمالِ كُلِّ مَوقِفٍ
لأَحْتِ مَنابِه كِواكِبَ أَسعدُ
ولقد تَراى بِأَسُوءِ وَسَماحُةٍ
مِثلَ الغَمامِ وقد تَضاحَكَ بِرقِه
أَنسى سَماحَ حاتمٍ ، وكَذاكَ في
سَيرِ سَيرِ النِيرانِ بِهَديها
فالبَدْرُ دونك في عَلاٍّ وإِثارةٍ
ولكَ القِبابُ الحَمرُ تُرْفَعُ لِلنَدى
يَذكى الكِباءَ بِها كَأَنَّ دِخانَه
ولكَ العِوالِي السَمرُ تُشْرِعُ لِلنَدى

مَهما رَمَتْ لَم تَخطِ شاكِلَةُ الرَمي
لَسَقَمَ فيها فِرةُ المَظَلَمِ
سَقي الحَصى صوبَ الغَمامِ المَسمُومِ
أَن لو عَطَفَتِ بِنَظرةٍ لِلرَحَمِ
من مَقتَلِكِ وَأَنتِ لَم تَنالِمي
فَوهِتَ لِحَظِّكَ ما أَحلَّكَ من دَمي
لا تَهتَدِي فيها . اللَيوثُ لِيَجُمَ
رَحِبِ المَقَلَدِ بِالرَيتِا مَلِجُمِ
مَراةُ هَندٍ وَسَطَ لُجِّ تَرمي
فَتَقَتِ كَما لَمَ جَنحُها عَن أَجَمِ
فيهِ الصَباحُ كَفرَةً في أَدَهم
مَراى ابنَ نَصرٍ لَاحَ لِلمَوسِمِ
فَالشاةُ لا تَحشى اِعتِداءَ الضَيفِمِ
هو مَورِدُ الصَادي وَكَثُرَ المُعَدِمِ
فَراَتِ مَلامِحَ نَورِه عَينَ العَسي
فَأَتى الجِلالُ من الجِمالِ بِتَواَمِ
فَأُفادَ بَينَ تَجمِهمِ وَتَيسَمِ
يَومَ اللَقاءِ رَيبَعَةَ بَنٍ مُكَدَمِ
وَتَعبيرُ عَرفِ الرَوضِ طَيبَ تَسمِ
وَالبَحرُ دونك في نَدى وَتَكرُمِ
فَترى العِمامَ تُحَنِّها كَالأَنجَمِ
قَطيعُ السَحابِ بِجَواها المَفتِيمِ
فَتَخرُ صَريعَ البَدينِ وَلِلقَمِ

ولك الأباذي البيضُ قد طوقتها
 شيمٌ يُقرُّ الحاسدونَ بفضلها
 ورث السباحةَ عن أبيه وجدهِ
 نكلوا المعالي كابرًا عن كابرٍ
 وتسنموا رتبَ العلاء بحقها
 يا آل نصر أنتمُ سرُّجُ الهدى
 الفاتحونَ لكلِّ صعبٍ مُعَقِّلٍ
 والباسمونَ إذا الكُفَاةُ عوابسُ
 أبناء أنصارِ النبي وحزبِهِ
 سلَّ عنهمُ أحملاً وبدراً تلقَّتهمُ
 وبفتح مكةَ كم لم في يومه
 أقسمتُ بالحرَمِ الأمينِ ومكةَ
 لولا مآثرهم وفضلُ علامٍ
 ماذا عسى أنفي وقد أثنتُ على
 يا وارثاً عنها مآثرها الي
 يا فخر أندلسٍ لقد مدَّتْ إلى
 أمّا سعودك في الوغى فتكفَلتْ
 وأهيت هذا الثغرَ وهو على شَمَا
 ورعيتهُ سياسةَ دارتْ على
 كم ليلةٍ قد بتَّ فيها ساهراً
 يا مظهرَ الألفاظِ وهي خفيّةُ
 لله دولتكِ التي آثارها
 ما بعد يومك في المواسم بطنما

صيدَ الملوكِ ذوي الثلاثِ الأقدم
 والصيحُ ليس ضيائهُ بِمَكْتَمٍ
 فالأكرمُ ابنُ الأكرم ابنِ الأكرم
 كالرمح مطَّرد الكعوبِ مقومٌ
 ما بين جد في الخلاقة وابنم
 في كلِّ خطبٍ قد نجَّهمَ مظلم
 والقارجون لكلِّ خطبٍ مبهم
 والقائمون على السواد الأعظم
 وذوي السوابقِ والحواري الأعصم
 أهلَ الغناء بها وأهلَ المغم
 بلواه غير الخلقِ من مُتَقَدِّمٍ
 والركنِ والبيتِ العتيقِ وزمزم
 ما كان يُعزى الفضلُ للمتقدم
 عليائهم آيُ الكتابِ المحكم
 قد شيدتْ للفقيرِ أشرفَ معلم
 عليكِ كَفَّ اللاتذِ المستصم
 بسلامةِ الإسلامِ فاخذلَّ واسلم
 فشفيتْ مُعْضِلَ دالهِ المستحكم
 غنَّطه دورَ السوارِ بمصم
 تهدي الأمانَ إلى العيون التوم
 ومُهيبٌ ريح النصرِ للمتشم
 سير الركابِ لمنجدٍ أو مُتَّهم
 أثبتتْ عيدَ الفطرِ أكرمَ موسم

وافكك أشراف البلاد ليومه
 صرفوا إليك ركبهم وتيمنوا
 وتبوأوا منه بدار كرامة
 ودت نجوم الأفق لو مثلت به
 والروض عتال بجيلة ستس
 ورياحه نمت بنشر لطيمة
 وأريتنا فيه عجائب جمّة
 أرسلت سرعان الجياد^١ كأنها
 من كل منحفر بمخطفة بارق
 طريف يشك الطرف في استنباته
 ومسافر في الجو تحبب أنه
 رام استراق السمع وهو منمنع
 رجسته من شهب النصال حواصب^٢
 وملاوة الأفلاك أعجز كنهها
 يمشي الرجال يخوفها وجميعهم
 ومنوع الحركات قد ركب للموا
 فإذا هوى من جوه ثم استوى

من كل تدب الللا متعم
 من بابك المتتاب غير مبسم
 فالكل بين مقرب ومنعم
 لتقو في برية المستخلم
 من كل مؤثي الرقوم منعم
 وأفاحه بسمت بشفر ملثم^٣
 لم تجر في خلد ولم تقوهم
 أسراب طير في التنوفة^٤ حوم
 قد كاد يسبق لمحة المتوهم
 فكأنه ظن بصدر مرجم
 يرقى إلى أوج السماء سلم
 فأصيب من قضب العصي^٥ بأسهم
 لولا تعرضه لما لم يترجم
 إبداع كل مهنس ومهندم
 عن مستوى قلميه لم يقدم
 يمشي على خط به متوهم
 أبصرت طيراً حول صورة آدم

- ١ في أسول أزهار الرياض وفي التجارة : سلم ، وصحبه محقق الأزهار : « ملثم » وأثبتنا ما
 في ق ، لكونه أقرب إلى الصواب .
 ٢ سرعان الخيل : أوائلها .
 ٣ التنوفة : المغارة .
 ٤ ق : قواضب ، ولما وجه ، لأنه يتحدث عن الجواد ، فالقواضب السيوف ، وهي ترجمه أي
 تعرض له .
 ٥ الأزهار : حل .

يمشي على فني الرشاء كأنه
واليك من صون العقول عقيلة
ترجو قبلك وهو أكبر منحة
طاردت فيها وصف كل غريبة
ودعوت أرباب البيان أريهم
ما ذاك إلا بعض أنعمك الي
فيه مساور ذابسل أو أرقم
وقفت ببابك وقفة المسترحم
فاستمع به خللت من متكرم
فنظمت شارده اللي لم ينظم
« كم غادر الشعراء من متردم »
قد علمت كيف شكر المنعم

ثم قال : وأنشد من ذلك في الصنيع المخصوص بعنا الأمير أبي عبد الله
— رحمة الله تعالى عليه — وأطنب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة
آثار مولانا رضي الله تعالى عنه :

سل الأفق بالزهر الكواكب حاليا
وحملت معتل التسيم أمانة
فيا من رأى الأرواح وهي ضعيفة
وساوسكم جدت وجدني الهوى
ومن يطع الألفاظ في شرعة الهوى
عدلت بقلبي عن ولاية حكمه
وما الحب إلا نظرة تبعث الهوى
فيا عجباً للعين تمشي طليقة
: ألا في سبيل الله نفس نفيسة
ويا رب عهد للشباب قضيته
خلوت بمن أهواه من غير رغبة
فلني قد أودعته شرح حاليا
قطعت بها عمر الزمان أمانيا
أحملها ما يستخف الرواسيا
فعدت به القلب المقلب هازيا
فلا بد أن يصي نصيحاً ولا حياً
غداة ارتضى من جائر اللحظ واليا
وتعقب ما يعيي الطيب المداويا
ويصبح من جرائها القلب عانيا
يرخص منها الحب ما كان غاليا
وأحسن من دين الوصال التقاضيا
ولكن عفاني لم أكن عنه خاليا

١ غير قول حنرة المفتاح بـ « هل » و « صجر البيت » : « أم هل حرفت الدار بعد توهم » وهو مطلع
معلقته .

ويوم بمسكن^١ الظباء شهدت^٢
ولم أصبح من خمير الحاظ^٣ وقد غدا
وجرد^٤ من غمد الغمامة صارماً
تبسم فاستبكي جفوني غمرة^٥
وأذكرني ثغراً ظمئت^٦ لورده
وراح خفق القلب مثلي كأنما
وليلة بات البدر فيها مضاجعي
كرعت^٧ بها بين العليب وبازق
رشت^٨ به شهد الرضاب سلاقة^٩
فيا برد^{١٠} ذلك الثغر روئت^{١١} غلتي
وروضة حسن للشباب نظيرة
وبت^{١٢} أسقي^{١٣} وردة الخلد أدمي
ومالت^{١٤} بقلبي مائلات^{١٥} قلودها
جزى الله ذلك العهد عوداً فظالما
وقل ليال^{١٦} في الشباب نعمتها
ويا وادياً رفئت^{١٧} علي^{١٨} ظلاله
رمتني عيون^{١٩} السرب فيه وإنما
فلولا اعتصامي بالأمير محمد
فقل للذي بيني على الحسن شجرة^{٢٠}
فكم من شكاة في الهوى قد رفأتها

أجد^{٢١} وصلاً^{٢٢} بالياً فيه بالياً
به الجو وضاح^{٢٣} الأمرة^{٢٤} صاحبا
من البرق مصقول^{٢٥} الصفيح يمانيا
ملأت^{٢٦} بلر^{٢٧} اللمع منها رداثيا
ولا والهوى العلوي^{٢٨} ما كنت ناسيا
يرق الحصى من لوعة الحب ما بيا
وباتت^{٢٩} عيون^{٣٠} الشهب نحوي روانيا
بمورد^{٣١} ثغر^{٣٢} بات بالدر^{٣٣} حاليا
وقبلت^{٣٤} في ماء التيمم^{٣٥} الأكاحيسا
ويا حر^{٣٦} أنفاسي أذبت^{٣٧} فؤاديا
همرت^{٣٨} بنفص^{٣٩} البان فيها المجانيا
فأصبح^{٤٠} فيها لرجس^{٤١} اللحظ^{٤٢} ذاويا
فما للقلود^{٤٣} المائلات^{٤٤} وما ليا
أحاد^{٤٥} على ربعي^{٤٦} الظباء الجوازيا
وغفبت^{٤٧} أنسا^{٤٨} : سقيت^{٤٩} لياليا
ومحن^{٥٠} تدير^{٥١} الوصل^{٥٢} قدسست^{٥٣} واديا
رمت^{٥٤} بقلبي^{٥٥} في الغرام^{٥٦} المراميا
لما كنت^{٥٧} من فلك^{٥٨} الواحظ^{٥٩} ناجيا
عليه^{٦٠} مع^{٦١} الإحسان^{٦٢} لا زلت^{٦٣} بانيا
ورفعت^{٦٤} بالمدح^{٦٥} إذ جاء^{٦٦} تاليا

١ الأزهار : حبرة .

٢ الأزهار : وقد بت أسقي .

٣ الأزهار : غفبت .

وكم ليلة في ملحه قد سهرتها
ولاح عمود الصبح مثل انتسابه
إمام أفاد المكرمات زمانه
وجاوز قدّر البدّر نوراً ورفعة
هو الشمس بثت في البسيطة نفعا
هو البحر بالإحسان يزخر موجه
هو النيث مهما بمسك النيث سحبة
شمائل لو أن الرياض بحسنا
فيا ابن الملوك الصبيد من آل خزوج
ألست الذي ترجو العفاة نواله
ألست الذي تخشى البغاة صياله
وهديك مهما ضلت الشهب قصدها
وعزك أنفى من حسامك في الوغى
فكم قادح في الدين يكفر ربه
وما راحه إلا حسام وعزمة
فلولاك يا شمس الخلافة لم بين
ولولاك لم ترفع سماء عجاوجة
ولولاك لم تنهل غصون من القنا
فأثمر فيها النصل نعرأ مؤزراً
ومهما غدا سقح سيفك عارياً

أباهي بدر التظم فيه الداريا
رفعت عليه المديح المبانيسا
وشاد له فوق النجوم المعاليا
ولم يرض إلا بالكمال مؤاليا
وأنوارها أهدت قريبا وقاصيا
ولكنه عذب لمن جاءه عافيا
يرو بسحب الجود من كان صاديا
لما صار فيها زهرها الغض ذاويا
وذا نسب كالصبح عز مساميا
فتخجل جلواه السحاب الغوايا
فتوجل عليه الصعاب العوايا
تولته في جنح الدجّة هاديا
وإن كان مصقول الغراين ماضيا
قلحت له زند الحفيظة واريا
يفيضان في ليل الخطوب اللواجيا
سيل جهاد كان من قبل خافيا
تلوح بها يفسر النصول داريا
وكانت إلى ورد النماء صوايا
وأجنى قطاف الفتح غضا ودائيا
يفادر وجه الأرض بالدم كاسيا

١ الأزار : أهدت .

٢ ق : جي ، والتصحيح من الأزار .

٣ الأزار : فنزل ، وكلتا القفتين غير موضحتين المعنى المقصود ، وسقط البيت من ق .

ففضى الله من فوق السموات أنه
فكم معقل للكفر صبحت أهله
رقيت إليه والسيوف مشيخة
فتفتحت مرقاه المنع عنوة
وناقوسه بالقصر أمسى محطلاً
عجائب لم تخطر ببال وإنما
فمنك استفاد الدهر كل عجيبة
وعنك يروى الناس كل غريبة
وقد ميناك الجميل فإتته
فكم فيه للأبصار من متنزّه
وتوى النجوم الزهر لو ثبتت به
ولو مثلت في سابقه^١ لسابتت
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا
وكم حلة جلته بجليتها
وكم من قسي في ذراه ترفعت
فتحبسها الأفلاك دارت قسيها
سوارى قد جاءت بكل غريبة
به المرمر المجلو قد شق نوره
إذا ما أضاعت بالشعاع تحالفا
به البحر دقاع العباب تحالفا
إذا ما جلت أيدي الصبا من صفحه

على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا
يجيش أعاد الصبح أظلم داجيا
وقد بلغت فيه النفوس الترافيا
وبات به التوحيد يعلو مناديا
ومنبره بالذكر أصبح حاليا
ظفرنا بها عن همة هي ما هيا
يباهي بها الأملاك أخرى لياليا
تخط على صفح الزمان الأماليا
يفوق على حكم السعد المباليا
تجد به نفس الحليم الأمانيا
ولم تك في أفق السماء جواريا
إلى خلعة ترضيك منها الجواريا
به القصر آفاق السماء مباهيا
من الوشي تشي السابري اليمانيا
على عمد بالنور باتت حواليا
تظل عمود الصبح إذ بات^٢ باديا
فطارت بها الأمثال تجري سواريا
فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
على عظم الأجرام منها لآليا
إذا ما أتبرى وقد التسم مباريا
أرتنا دروعاً أكسبتنا الأباديا

١ الأضمار : ساحبه .

٢ الأضمار : لاح .

وراقصة في البحر طوع عانها
إذا ما علت في الجو ثم تحلوت
بدوي بلين سال بين جواهر
تشابه جاري للعيون بجماد
فلن شئت تشبيهاً له عن حقيقة
فقل أرقصت منها البحيرة منها
أزتنا طباع الجود وهي وليدة
سقت نغز زهر الروض عذب برودها
كان قد رأت نهر المجرة ناضياً
وقامت بنات الدوح فيه موائل
رواضع في حجر الغرام ترعرعت
بها كل ملتفت الفدائر مسبل
وأشرف جيد الغصن فيها معطلاً
إذا ما عجلت در زهر غروسة
مصارفة التقدين فيها بمثلها
فإن ملأت كف التسيم بمثلها
فيملاً حجر الروض حول غصونها
تفرّد في أفنانها الطير كلما
تراجعها سجعاً فتصحب أنها

تراجع الحان القيان الأغاني
تحلي برفض الجمال النواحي
غداً يملها في الحسن أبيض صافيا
فلم أدري أيّاً منهما كان جاريا
تصيب بها المرمى وبورك راما
كبا يرقص الملوود من كان لاهيا
ولم ترض في الإحسان إلا تغاليا
وقامت لكي تهدي إلى الدهر ساقيا
فرامت بأن تجري إليه السواقيا
فرادى ويتلو بعضهم مثنائيا
وشبت فشبت حبها في فؤاديا
تجمل به أيدي التسيم مداريا
فقلدت النوار منه الترائيا
بيت لها التمام بالطيب واشيا
أجاز بها التقدين منها كما هيا
دراهم نور ظل عنها مكافيا
دنانير شمس ترك الروض حاليا
تجس به أيدي القيان للملاها
بأصواتها تحلي عليها الأغانيا

١ الأزهار : الفوانيس : للمعالي .

٢ الأزهار : لونها .

٣ الأزهار : الزهر .

٤ الأزهار : أجاز بها قاضي الجمال الجمال .

٥ الأزهار : مع الفنى .

ظلم ندي روضاً منه أنعم نضرة
 ولم ترقصاً منه أعلى مظاهراً
 معاني من نفس الكمال انتضيتها
 وفاتحت مبتاه بجد شرعه
 ولما دعوت الناس نحو صنيحه
 وأموره من أقصى البلاد تقرّباً
 وأذكرت يوم العرض جوداً ومنّة
 جزيت به كلاً على حال سعيه
 وأطلعت من جزل الرقود هودجاً
 وحين غدا يدكى بيابك للقرى
 وطاعة في الجوّ غير مطالعة
 تمدّ لها الجوزاء كفّ مسارعاً
 ولا عجب أن فاتت الشهب بالعلا
 فين يندى مثواك قامت نخلة
 وشاهد ذاً أتى بيابك واقف
 وقد أرضعت ندي الغمام قبلها
 فلما أبيت عن قرارة أصلها
 وعدت لقاء السحب عيداً وموسماً
 فأضحكت البرق الطروب غلامها
 رأت نفسها طالت فظنت بأنها

وأعطر أرجاء ، وأحلى مجانيا
 وأرفع آفاقاً ، وأفسح ناديا
 وزينت منها بالجمال المغانيا
 تبث به في الخائفين التهانيا
 أجابوا لهم من جانب الغرداعيا
 وما زال منك السعد يندى الأفاضيا
 بموقف عرض كنت فيه المجازيا
 فما غرست بمناه أصبح جانبا
 تذكر يوم النضر من كان ساميا
 فلا غرو أن أجريت فيه المداكيا
 يرد مداها الطرف أحسرت عانيا
 ويلنو لها بدر السماء متاجيا
 وأن جاوزت منها المدى المتاهيا
 ومن خدّم الأعلى استفاد المعاليا
 وقد حصلت زهر النجوم مكانيا
 بحجر رياض كن فيه نواشيا
 أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا
 لذلك اغظت بالزمر تلهي النوادي
 وباتت لأكواس الداروي معاطيا
 ثوت على رغم الحاق المراميا

فخَفَّتْ إِلَيْهَا الذَابِلَاتُ^١ كَأَنَّمَا
 حَكَتْ شَبَهًا^٢ لِلنَّحْلِ وَالنَّحْلُ حَوْلَهُ
 فَمَنْ مَثَبٌ مِنْهَا الرِّمَّةُ مَلَرَكٌ
 وَحَصْنٌ مَنِيعٌ فِي ذُرَاهَا قَدْ ارْتَفَى
 كَانَ^٣ بَرُوقُ الْجَوِّ غَارَتْ وَقَدْ أُرَتْ
 فَأَنْشَأَتْ بَرْجًا صَاعِدًا مَقْتَرَلًا^٤
 تَطَوَّرَ حَالَاتٍ آتَى فِي ضَرْبِهَا
 فَحَجَلٌ بِرَجْلَيْهَا وَشَاحٌ بِمَضْرَعِهَا
 وَمَا هُوَ إِلَّا طَيْرٌ سَعْدٍ بِدُرُودِ
 أُمُولَايَ يَا فَخْرَ الْمُلُوكِ وَمَنْ بِهِ
 بَنُوكٌ عَلَى حُكْمِ السَّعَادَةِ خَمْسَةٌ
 تَبَيَّتْ لَهُمْ كَفٌّ الثَّرِيَا مَعِينَةٌ
 أَسَامٍ عَلَيْهَا السَّعَادَةُ مِيسَمٌ
 جَعَلَتْ أَبَا الْحِجَاجِ فَاتِحَ طِيرِ سَهْمٍ
 وَحَسْبُكَ سَعْدٌ ثُمَّ نَصَرَ يَلِيهِمْ
 أَقَمْتَ بِهِ مِنْ فُطْرَةِ الدِّينِ سَنَةً
 وَجَاءُوا بِهِ مَلَأَ الْعِيُونَ وَسَامَةً
 فِيَا عَافَرًا^٥ مَا كَانَ أَجْرًا مِثْلَهُ
 وَجَاءَتْكَ مِنْ مِصْرَ التَّحَايَا كِرَامًا

طَيْرٌ إِلَى وَكِيٍّ أَطْلُكُنْ تَهَاوِيَا
 عَصِيٍّ إِلَى مَنَوَاهُ تَهْوِي عَوَالِيَا
 وَمَنْ طَائِفٌ فِي الْجَوِّ حَلَقٌ وَأَنِيَا
 فَأَبْعِدْ فِي الْجَوِّ الْقَضَاءِ الْمَرَايَا
 بِرُوحِ قُصُورٍ شَدَّ قَهْنُ سَوَامِيَا
 يَكُونُ رَسُولًا بَيْنَهُنَّ مَدَارِيَا
 بِأَنْوَاعِ حَلَمِي تَسْتَفِرُّ الْغَوَايَا
 وَتَاجٌ إِلَى مَا حَلَّ مِنْهَا الْأَعَالِيَا
 غَدَا زَاجِرًا مِنْ أَشْهَبِ الصَّبَحِ بَازِيَا
 سَيَّلُغُ دِينَ اللَّهِ مَا كَانَ رَاجِيَا
 وَذَا عِدَّةٍ لِلْعَيْنِ مَا زَالَ وَاقِيَا
 وَيَصْبِحُ مَعْلُ النَّوَاسِمِ رَاقِيَا^٦
 تَرَى الْعَزَّ فِيهَا مَسْتَكْنًا وَبَادِيَا
 وَقَدْ عَرَفْتَ مِنْكَ الْفَتْوحُ التَّوَالِيَا
 مُحَمَّدٌ الْأَرْضَى ، فَلَا زِلْتَ رَاضِيَا
 وَجَدَدْتَ مِنْ رَمَمِ الْمَدَايِي عَافِيَا
 يَقْبَلُ وَجْهَ الْأَرْضِ أَزْهَرَ بَاهِيَا
 فَمِثْلَكَ لَا يَلْمِي الْأَسْوَدُ الْفُؤَارِيَا
 فَمَا فَتَحْتَ أَبْدِي الشَّجَارِ الْغَوَالِيَا

١ ق : الخرافات .

٢ ق : شبحاً .

٣ سقط البيت من ق .

٤ يريد الذي يقوم بالتحلن .

ووافك من أرض الحجاز تيممة^١
وناداك بالتمويل^٢ سلطان طيبة
وقام وقد وافى ضريح محمد
سريرتك الرحى جزاك بسعيها
فوالله لولا سنة نبوت^٣
وعذر من الإعذار قرر حكمه
لراعت بها للحرب أهوال^٤ موقف
لك الحمد فيه من صنع تعدد
تشدد له الجوزاء عتد نطاقتها
وهنت بالأمجاد فيه وقد غدا
ودونك من بحر البيان جواهرأ
وطاردت فيها وصف كل غريبة
فيا وارث الأنصار لا عن كلاله
بأمداحه جاء الكتاب مصلاً
لقد عرف الإسلام مما أفلته
عليك سلام الله فاسلم غلداً

تتم صنع الله لا زال ياديا
فيا طيب ما أهدى إليك مناديا
لسلطانك الأعلى هنالك داعيا
إله يوفى بالجزء^٢ المساعيا
عهدها مهدياً إليها وهاديا
من الشرع أخبار رفعت حواليا
تشيب بمبيض النصول العواليا
فثالته في القصر عزز ثانيا
لتخدم فيه كي تنال المعاليا
وجودك فيه بالإجادة وافيا
كرمن فما يشترن إلا غواليا
فأعجزت من يأتي ومن كان ماضيا
تراث جلال يستخف الرواسيا
يرتله في الذكر من كان تاليا
مكارم أنصارية وأياديا
نجدد أعياداً وتبلي أعياديا

ثم قال : ومن ذلك في الصنيع المختص بالأمراء الجلية : أحننا المعز لتولتنا أبي
الحسن ، وأحننا أبي العباس ، وابن عمنا أبي عبد الله ، وصل الله تعالى سعودهم .
ولقد أبدع في تشييده وتأسيسه ، وبسط يد الحسن من براعته وتخصيصه^٤ ، وذلك

١ ق والأزهار : بالتمويل ؛ والتحويل : قوله « يا مولاي » .

٢ الأزهار : في الجزء .

٣ ق : الجزر .

٤ الأزهار : من براعة تخصيصه .

ج ١ - عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبته لما عادت إلى ملكه :

أرقتُ لبرقٍ مثلٍ جفني ساهرا ينظمُ من قطرة الغمام جواهرها
فيسمُ ثغرُ الروضِ عنه أزهرا وصبحَ حكي وجه الخليفة باهرا
نجسمُ من نورِ الهدى ونجسدا

شفائي مثلُ النسيم إذا أنيري وأستند عن دمي الحديث الذي جرى
وقد فتق الأرجاء منكأ وعبرا كأن الغني بالله في الروض قد سرى
فهبَّت به الأرواحُ عاطرة الردا

عليّ من قلب إلى الحسن قد صبا تبيحه الذكرى ويصبو إلى الصبا
ويجري جوادُ الهوى في ملعب الصبا ولولا ابنُ نصرٍ ما أفاق وأعيا
رأى وجهه صبح الهداية فاهتدى

إليك أميرَ المسلمين شكايته جنى الحسنُ فيها للقلوب جنايته
وأعظم فيها بالعيون نكايته وأطلع في ليل من الشعر آية
حيا جميلا بالصباح قد اوتدى

بهديك تُهتدى النيراتُ وتهتدي وأنوارها جمدى يمينك تجتدي
وعذلك للأملأك أوضحُ مرشدٍ بآثاره في مشكل الأمرِ تهتدي
فما بال سلطان الجمال قد اختدى

لحكم منّا في نفوسٍ ضعيفة وسل سيفاً من جفون نجيفة
لم يكد أتا في ظلال خليفة ودولة آمن لا ترأع متيفة
بها قدّ وسا دينُ الهوى وتمهدا

١ الأزهار : وذلك عام .

٢ الأزهار : فأضحك .

خطوا بدمٍ المشتاق لحظاً أراقه وبرقاً بأعلام الثنية شاقه
وإن كلفوه فوق ما قد أطاقه يث حديقاً ما ألد مساقه
خليفتنا المولى الإمام محمدًا

تقلدَ حكم العدل ديناً وملعباً وجوّزَ الليالي قد أراح وأذهب
فيا عجباً للشوق أذكى وألبها وسك صباحاً صارم البرق مذهبها
وقد بات في جفّن الفعامة مضمداً

يذكرني ثغراً لأسماء أشتبها إذا ابتست مجلو من الليل غيبها
كعزم أمير المسلمين إذا احبى وأجرى به طيفاً من الصبح أشهبها
وأصدّر في ذات الإله وأورداً

فبحان من أجرى الرياح بنصره وحطّر أنفاس الرياض بشكره
فبرد الصبا يطوى على طيب نشره ومهما تجلّى وجهه وسط قصره
تري حاله يلو السماء بها بدا

إمام أفاد المخلوقات زمانه فما لحقت زهر النجوم مكانه
ومدّ على شرق وغرب أمانه ولا عيب فيه غير أن بئانه
تغرق مستجديه في أبحر التلى

هو البحر مدّ العارض المهللا هو البدر لكن لا يزال مكملًا
هو الدهر لا يمتنى الخطوب ولا ولا هو العلم الخفاق في حضبة الملا
هو الصارم المشهور في نصرة المهدي

أما والذي أعطى الوجود وجوده وأوسع من فوق البسيطة جودة
لقد أصحب النصر العزيز بئوده ومدّ بأمالك السماء جنوده
وأتمز للإسلام بالنصر موعداً

أمولاي قد أنجحت رأياً ورايةً ولم تُبقِ في سبقِ المكارمِ غايةً
فتهدي سجايا كابنِ رشدٍ نهايةً وإن كان هذا السعدُ منك بدايةً
سيبقى على مرِّ الزمانِ مخلداً

سعودك تُخفي عن قراعِ الكتائبِ وجودك يُزري بالغمامِ السواكبِ
وإن زاحمتها شهبها بالناكبِ ووجهك بدرُ المنتدى والمواكبِ
وقد فسحت في الفخرِ أبناؤك للمدى

بنوك كأمثال الأتاملِ عِدَّةٌ أَعِدْتَ لما يُخشى من الدهرِ عِدَّةٌ
وزيدَ بهم بُرْدُ الخلافةِ جِدَّةٌ أطالَ لهم في ظلِّ ملكك مُدَّةٌ
إلهٌ يطيلُ العمرَ منك مؤبداً

بدورٌ بأوصافِ الكمالِ استقلتِ غمامٌ بغياضِ التوالِ استهلَّتِ
سيوفٌ على الأعداءِ بالنصرِ سَلَّتِ نجومٌ بأفاسِقِ العلاءِ تجلَّتِ
ولاحتْ كما شامتْ سعودك أسعدنا

وإنَّ أبا الحجاجِ سيفكَ منتضى ويدرُّ بأفاقِ الجمالِ تعرّضنا
بنوركِ يا شمسَ الخلافةِ قد أضنا وراقتْ على أعطافهِ حُللُ الرضى
فحلَّ محلاً من علاكِ ممهداً

ملكٌ له تمنو الملوكُ جلالهً يمرّرُ أذيالَ الفخارِ مطالهً
وتفرّقُ أسدُ الغابِ منهُ بسالةً وترضاهُ أنصارُ الرسولِ سلالهً
فأبتأوه طابوا فروحاً ومعدداً

أزاهرُ في روضِ الخلافةِ أينعتْ زواهرُ في أفقِ الملاء تطلعتْ

جواهرُ أغيتْ في الجمالِ وأبدعتْ وعن قيمةِ الأطلاقِ قلداً ترفعتْ
يسرُّ بها الإسلامُ غيباً ومشهدا

بمهدٍ وليّ العهدِ كرمَ عَهْدُهُ وأنجزَ في تخليدِ ملكك وعدُهُ
تنظّمَ منهم تحتَ شملكَ عَقْدُهُ وأورثهم فخرأُ أبوهُ وجدُهُ
فأعلى عليّاً حينَ أحمدَ أحمدا

نحوطُ بهمُ ملكاً عزيزاً وملةً وتلحظُ عينُ السعدِ منهمُ أهلةً
ستبدو على أفقِ العلاِ مستقلةً وسحباً بفياضِ العلاِ مستهلةً
تفجرُ بحراً للسماحةِ مُزبدا

ونجلكَ نصرٌ يقضي نجلَ رسمِهِ أميرٌ يزينُ العقلَ راجعُ حلمِهِ
أناكَ بنجلٍ يُستضاءُ بنجمِهِ لحبِّ رسولِ اللهِ سماءُ باسمِهِ
وباسمكَ في هذي الموافقةِ اقتدى

أقمتَ بإعذارِ الإمارةِ سُنَّةً وطوّقتَ من حليّ بفخرِكَ منَّةً
وأسكنتها في ظلِّ برِّكَ جَنَّةً وألحفتها برِّدِ امتنانك جَنَّةً
وعصرتَ منها بالتلاوةِ مسجدا

فله عينا مَنْ رآهم تطلّعا غصوناً بروضِ الجودِ منك ترعرعا
وفي دوحَةِ العلياءِ منك تفرّعا ملوكٌ يجلّسابِ الحياءِ تقنّعا
أضاء بهمُ من أفقِ قصرِكَ متلدى

وقد أشعروا الصبرَ الجميلَ نفوسهمُ وأضفوا بهِ فوق الحليّ لبوسهمُ
وقد زينوا بالبشرِ فيه شمسهمُ وعاطوا كؤوسِ الأنسِ فيه جليسهمُ
وأبدوا على هَوَلِ المقامِ تهلّدا

١ الأزهاري : وقد أنرفوا .

شمائلُ فيهم من أيهم وجدَّهم^{*} تفصلُ أي القُحْرُ فيها بمحملهم^{*}
وتنسبها الأنصارُ قِلماً لحملهم^{*} تضيءُ بها نوراً مصابيحُ سعدهم^{*}
ولم^{*} لا ومن صحبِ الرسولِ توقُّداً

فوافي لولا سُنَّةٌ قد أقمتمْها وسيرةٌ هَدَيْتِ للتَّيَّ عِلْمَها
وأحكامُ عدلٍ للجنودِ رسمتها بخالتِ بها الأبطالُ تقصدُ سمتها^{*}
وتتركُ أوصالَ الوشيحِ مقصداً

ويا عاذراً أبى لنا الشرعُ عُدْرَهُ طرقتَ حمى قد عظمَ الله قدرَهُ^{*}
وأجريت طياً يمسدُ الطيبُ نشرَهُ لقد جئتَ ما تستعظمُ الصيدُ أمرَهُ^{*}
وقضيه إن يقبلَ خطيفها فدا

رعى الله منها دعوةً مستجابةً أفادتْ نفوسَ المخلصينَ إجابةً^{*}
ولم تكلف من دونِ القبولِ حجابةً وعاذرها لم يُبدِ عذراً مهابةً^{*}
فأوجبَ من نقصٍ كمالاً تريداً

نقصُ كمالِ المالِ وفرُّ نصايهِ وما السيفُ إلا بعدَ مشقِّ ذبابهِ^{*}
وما الزهرُ إلا بعدَ شقِّ إهابهِ بقطعِ يراعٍ انحطَّ حسنُ كتابهِ^{*}
وبالنقصِ يزدادُ النبالُ توقُّداً

ولما قضوا من سُنَّةِ الشرعِ واجبا ولم تلقَ من دونِ الخلافةِ حاجبا
أقننا نهنئ منكَ جَدلانَ وإهابا أفاضَ علينا أنعماً ومواها
تعودُ بثلِّ الجودِ فيما تعودا

هنيئاً هنيئاً قد بلغت مؤملاً وأطلعتْ نوراً يهرُ المأملاً

وأحرزت أجرَ المتعين مكملاً تبارك من أعطى جزيلاً وأجلاً
وبلغ فيك الدين والملك مقصداً .

ألا في سبيل العزِّ والقهرِ موسمٌ يظلُّ به ثغرُ المسرةِ يسمُ
وعرفُ الرضى من جوهٍ يتسمُّ وأرزاقُ أربابِ السعادةِ تقسمُ
ففي وصفه ذهنُ الدكي تلبداً

وجللت في هذا الصنيعِ مصانعا تفى بدورُ التَّم منها مطالعا
وأبدت فيها للجمالِ بدائعا وأجريت للإحسانِ فيها مشارعا
يودُّ بها نهرُ التجارةِ مورداً

وأجريت فيها الخيلَ وهي سوابقُ وإن طلبت في الروحِ فهي لواحقُ
نجومٌ وآفاقُ الطرادِ مشارقُ يفوتُ التماحُ الطرفُ منها يوارقُ
إذا ما تجاري الشهبَ تسبقُ المدي

وتطلعُ في ليلِ القتامِ كواكبا وقد وردت نهرَ النهارِ مشاربا
تقودُ إلى الأعداءِ منها كواكبا فرسمُ من فوقِ الترابِ عاربا
تحوُّرُ رؤوسِ الرومِ فيهنَّ سجداً

سوابقُ بالنصرِ العزيزِ سوانحُ وهنَّ لأبوابِ الفتحِ فوانحُ
تقودُ إليك النصرَ والله مانحُ فما زلت بابَ الخيرِ والله فاتحُ
وما تمَّ شيءٌ قد عدا بعد ما بدا

رياحُ لها منى البروقِ أعتةٌ ظيئةٌ فإن جنَّ الظلامُ فجئنةٌ
تضيها من البدرِ التمامِ جئنةٌ وتشرعُ من زهرِ النجومِ أسنةٌ
فتظلفُ شهبَ الرجمِ في أنفِ العدا

فأشهبُ من نسلِ الوجيهِ إذا انتمى جرى فثأى شُهْب الكواكبِ في السما
وخلُفَ منها في المقلدِ أنجما تردَّى جمالاً بالصباحِ وربما
يقول له الإصباحُ : نفسي لك القدا

وأحمرُ قد أذكى به البأسُ جمرهً وقد سلبَ الياقوتَ والوردَ حمرةً
أدار به ساقٍ من الحربِ خمرهً وأبدى حجاباً فوقها الحسنُ غرةً
يزينُ بها خدّاً أسيلاً مُورداً

وأشقرُ مهما شمعش الركضُ برقَه أعار جوادَ البرقِ في الأفي سَبَقَه
بدا شفقاً قد جلت الحسنُ أفقَه ألم ترَ أنَّ اللهَ أبدعَ خلقَه
فسال على أعطافه الحسنُ عَسَجداً

وأصفرُ قد ودَّ الأصيلُ جمالهً وقد قدَّ من بُردِ العشيِّ جلالهً
إذا أسرجوا جِنَحَ الظلامِ ذبالهً فغَرَّتْهُ شمسٌ أ تضيءُ مجالهً
وفي ذيله ذيلُ الظلامِ قد ارتدى

وأدهمُ في مسحِ الدجى متجردُ يمحشُ بها بحرٌ من اللَّيْلِ مُزبدُ
وغرتهُ نجمٌ به تَتَوَقَّدُ له البدرُ صُرجٌ والنجومُ مَقَلَّدُ
وفي فلقِ الصبحِ المبينِ تقيداً

وأبيضُ كالقِرطاسِ لاحَ صباحهُ على الحسنِ مَعْدَاهُ وفيه مَراحهُ
وللظَبَّاتِ الآتِياتِ مِراحهُ تراهُ كَنَشْوَانِ أَمالتهُ راحهُ
ومحبتهُ وسطُ الجمالِ مَربداً

١ ق : نجم .
٢ ق : وأشهب .

وزاهبةً في البحر ملء عنانها وقد لفعت السحب بُرْدَ عنانها
يفوت ارتداد الطرف لمح عيانها وختمت الجوزاء سبط بناتها
وصاغت لها حكي النجوم مقبلاً

أراها عمود الصبح علو المصاعد وأوهما قرب المدى المتباعد
فقاتته سبطاً في مجال الرواعد وأنحفت الكف الخضيب بساعد
فطوقت الزهر النجوم بها يدا

وقد قلقتها للعصي حواصب قد انتشرت في البحر منها ذوايب
تراور منها في الفضاء حباب فيبينهما من قبل ذاك مناسب
لأنهما في الروض قبل تولدا

بنات لأم قد حيين لروحها دعاها الهوى من بعد كم لبوحها
فأقلامها تهوي لخط بلوحها فبالأس كانت بعض أغصان دوحها
فعاذت إليها اليوم من بعد عودا

ويا رب حصن في ذراها قد اعلى أنارت بروج الأفق في مظهر العلا
بروج قصور شدتها متولدا فأنشأت برجاً صاعداً متزلاً
يكون رسولا بينها مترددا

وهل هي إلا هالة حول بلدها يصوغ لها حلياً يليق بنحرها
تطور أنواعاً تشيد بفخرها فحجل برجلها وشاح بنصرها
وتاج بأعلى رأسها قد تنصدا^١

١ شبه بقوله في القصيدة السابقة :

فحجل برجلها وشاح بنصرها وتاج إلى ما حل منها الأماليا

أرادَ استراقَ السمعِ وهو ممنوعٌ فسلمَ بأذيانِ الدجى يتلفحُ
وأصغى لأخبارِ السما يتسمعُ فأتبعه منها ذوابِلُ شرعُ
لتظفنه بالرغبِ مثنى وموحدنا

وما هو إلا قائمٌ مدٌ كفتهُ لیسألَ من ربِّ السمواتِ لطفهُ
مولى تولاهُ وأحكمَ رصفهُ وكلفَ أريابَ البلاغةِ وصفهُ
وأكرمَ منه القاتلَ المتهجنا

ملاقى ركبٍ من وفودِ النواصيرِ مقبلٌ ففرَّ للبروقِ البواصيرِ
نظمَ كَفَّ بالنجومِ العوامِ مبلغَ قصدٍ من حضورِ المواسيرِ
تجسدهُ مهما صنعَ مجددا

ومضطربٌ في الجوّ أثبتَ قامهُ تقلمَ بمشي في الهواءِ كرامةُ
نطلعَ في فصرِ الرشاءِ كمامهُ ونحبهُ تحتَ الغمامِ غمامهُ
يسيلُ على أعطانها عرقُ الندى

هوى واستوى في حالةٍ وتقلبها كخاطفٍ يرقى قد تالتَ خلها
ونحبهُ قد دار في الأفقِ كوكبا ومهما مثنى واستوقفَ العقلَ معجبا
تقلبُ فيه العينُ لحظاً مرددا

لقد رامَ يرقى للسماءِ بسلمٍ فيمشي على خطٍّ به متوهمٍ
أجبلُ في الذي يديه فكرَ توسمُ ترى طائراً قد حلَّ صورةَ آدمي
وجيناً بمهواةٍ الفصماءِ تمرّدا

ومنتسبٍ للخالِ سموه ملجما له حِكَمَاتُ حكمها فاه ألبما
تخالَفَ جنساً والداه إذا انتمى كما جنسهُ أيضاً تخالفَ عنهما
عجبتُ له إذ لم يلدُ وتولدا

ثلاثتها في الذكر جاءت مبيّنة من اللاء سماها لنا الله زينة
 وأنزل فيها آية مستينة وأودع فيها للجهول سكة
 والآله فيها على الخلق بددا

كسوه من الوشي البماني هودجا يمد على ما فوقه الظل سجنجا
 وكم صورة تجل به تهر الحبي وجزل وقود ناره تصدع الدجى
 وقلب حبود غاظ مذكيه موقدا

وما هي إلا مظهر لمجاهد أرتنا بها الأفراح فضل اجتهاده
 ملاعبها هزت قنود صباه وأذكرت الأبطال يوم طراده
 فما ارتبت فيه اليوم صدقته غدا

الأجدد الرحمن صنما حضرته ودوح الأماني في ذراه حصته
 بقصر طويل الوصف فيه اختصرته يقيّد طرف الطرف مهما نظرت
 ومن وجد الإحسان قبلما تقيّد

دعوت له الأشراف من كل بلدة فجاموا بآمال لهم مستجدة
 وخصوا بالطاق لديه محدة أياد بفياض الندى مستجدة
 فكلهم من فضله قد تزودا

وجاءتك من آل النبي عصاية لها في مراتبي المكرمات إصابة
 أحبتك حباً ليس فيه استراية ولبت دواعي التوزي منها إجابة
 وناداهم التخصيص فابتلوا التلا

أجازوا إليك البحر والبحر يزخر لبحر سماح مدّه ليس يجر

١ حيز بيت المتنبي ، وصفه « وقيدت نفسي في ذاك محبة » .

فرواهم^١ من عذبِ جودك^٢ كوثر^٣ وواليت^٤ من نعماك^٥ ما ليس يحصر^٦
وعظمتهم^٧ ترجو النبي^٨ محمدا

عليه صلاة^٩ الله^{١٠} ثم^{١١} سلامه^{١٢} به^{١٣} طاب^{١٤} من هذا النظام^{١٥} اختتامه^{١٦}
وجاء^{١٧} بحمد^{١٨} الله^{١٩} حلوأ^{٢٠} كلامه^{٢١} يعز^{٢٢} على أهل^{٢٣} البيان^{٢٤} مرامه^{٢٥}
وتعسي^{٢٦} له^{٢٧} زهر^{٢٨} الكواكب^{٢٩} حسدا

أبت^{٣٠} به^{٣١} حادي^{٣٢} الركاب^{٣٣} مشرقا^{٣٤} حديث^{٣٥} جهاد^{٣٦} للنفوس^{٣٧} مشوقا^{٣٨}
رميت^{٣٩} به^{٤٠} من^{٤١} بالعراق^{٤٢} مفوقا^{٤٣} وأرسلت^{٤٤} منه^{٤٥} بالبديع^{٤٦} مطوقا^{٤٧}
حماما^{٤٨} على^{٤٩} دوح^{٥٠} الثناء^{٥١} مفردا

ركضت^{٥٢} به^{٥٣} خيل^{٥٤} البيان^{٥٥} إلى^{٥٦} مدى^{٥٧} فأحرزت^{٥٨} خصل^{٥٩} السبق^{٦٠} في^{٦١} حلبة^{٦٢} الهدى^{٦٣}
ونظمت^{٦٤} من^{٦٥} نظم^{٦٦} الدراري^{٦٧} مقلدا^{٦٨} وطلوت^{٦٩} جيد^{٧٠} الفخر^{٧١} عقدا^{٧٢} منضدا^{٧٣}
وقمت^{٧٤} به^{٧٥} بين^{٧٦} السماطين^{٧٧} منشدا

نسقت^{٧٨} من^{٧٩} الإحسان^{٨٠} فيه^{٨١} فرائدا^{٨٢} وأرسلت^{٨٣} في^{٨٤} روض^{٨٥} المحاسن^{٨٦} رائدا^{٨٧}
وقلدت^{٨٨} عطف^{٨٩} الملك^{٩٠} منه^{٩١} قلائدا^{٩٢} تعودت^{٩٣} فيه^{٩٤} للقبول^{٩٥} عوائلدا^{٩٦}
فلا^{٩٧} زلت^{٩٨} للفعل^{٩٩} الجميل^{١٠٠} معودا

ولا^{١٠١} زلت^{١٠٢} للصنع^{١٠٣} الجميل^{١٠٤} مجددا^{١٠٥} ولا^{١٠٦} زلت^{١٠٧} للفخر^{١٠٨} العظيم^{١٠٩} غلدا^{١١٠}
وعمرت^{١١١} عمرا^{١١٢} لا^{١١٣} يزال^{١١٤} مجددا^{١١٥} وعمرت^{١١٦} بالأبناء^{١١٧} أوحدا^{١١٨} أوحدا^{١١٩}
وقرت^{١٢٠} بهم^{١٢١} حيتاك^{١٢٢} ما^{١٢٣} سائق^{١٢٤} حدا

وقال في عيد :

بشرى^{١٢٥} كما^{١٢٦} وضع^{١٢٧} الزمان^{١٢٨} وأجمل^{١٢٩} يتغشى^{١٣٠} ستاها^{١٣١} كل^{١٣٢} من^{١٣٣} يتهلل^{١٣٤}

١ ق : الملى .

٢ الأزار : الفضل الجزيل .

أبدى لها وجهه النهار طلاقته
ومنابر الإسلام يا ملك الوري
تجلو لنا الأكوان منك محاسناً
فالشمس تأخذ من جبينك نورها
والروض ينفخ من ثالك طيه
والبرق سيف من سيوفك متضي
يا أيها الملك الذي أوصافه
والله أعطاك التي لا فوقها
وجه كما حمر الصباح نقابه
تلقاه في يوم السماحة والوغي
كف أبت أن لا تكف عن التني
وشمائل كالروض باكره الحيا
خلق ابن نصير في الجمال كخلق
نور على نور بأبهى منظر
فأق الملوك بسيفه وبسيه
وإذا تطاول للعميد عيدهم
يا آية الله التي أنوارها
قل للذي التبت معالم رنده
قد ناصح الإسلام خير خليفة
فلقد ظهرت من الكمال بمستوى

وافتر من ثغر الأحاح مقبل
بجلاك أو بجليتها تتكلم
تروى على مر الزمان وتنفك
والبشر منك بوجهها يتكلم
والورق فيه بالمادح تبدل
والسحب تهيم من يدك وتهمل
در على جيد الزمان يفضل
وحباك بالفضل الذي لا يجهل
لضياته تمشو البور الكمل
والبشر في جنتاته يتهلل
أبدأ فإن ضمن الحيا تسرسل
وسرت برياه الصبا والشمال
ما بعدها من غاية تستكمل
في حسه المؤمن ما يأمل
فعدله وفضله يتمثل
فله عليه تطاول وتطول
يهدى بها قصبة الرشاد الضلل
هيهات قد وضع الطريق الأمثل
وحى عزيز الملك أغلب مثل
ما بعنه للوي الخلافة مامل

١ هذه رواية الأحرار ؛ وفي ق : بالملك الملى .

٢ من وجز وتماه :

وقد أراد المشركون موتها عنك ويأبى الله إلا سوقها

٣ ق : بسيفه وبسيه . ؛ ق : مثل .

وعناية الله اشتعلت ردايها
فالجود إلا من يدك مقتر
والعمر إلا تحت ظلك ضائع
حيث الجهاد قد اعتلت رايته
حيث القباب الخمر تُرفع للقرى
يا حجة الله التي برهانها
قل للذي ناولك يرقب يومه
والله جل جلاله إن أمهلت
يا ناصر الإسلام وهو فريسة
يا فخر أندلس وعممة أهلها
لا يهزل الله الدين وعيتهم
لا يبعد النصر العزيز فرائسه
لولا نذاك لما نفع التدي
لولا كان الدين يُغمط حقه
لكن جيت الفتح من شجر القنا
ولقبل ما استفتح كل منبر
ومتى نزلت بمقل متأشب
وإذا غزوت فإن سعدك ضامن
فمن السوء أمام جيشك موكب

وعلقت منها عروة لا تُفصل
والنيث إلا من نذاك مبخل
والعيش إلا في جنابك ممحل
حيث المغانم للعقاة تتفصل
قد عام في أرجائهن المتدل
عز الحق به وذل البطيل
فوراه ملك يقول ويفعل
أحكامه مسترجا لا تهمل
أسد القلا من حولها تتسل
لك فيهم النعمي التي لا تجهل
فلأنت أكنى والينابة أكفل
آوى إليك وأنت نعم الموئل
ولطف من ورد الصنائع تهمل
ولكان دين النصر فيه يسطل
وجنى الفتوح لمن عهلك مؤمل
من دونه باب المطامع مقفل
فالعصم من شقاقه تستزل
أن لا نغيب وأن قصدك يكمل
ومن الملائك دون جنك جحفل

١ الأزار : قام .

٢ ق : يرغ .

٣ الأزار : المنا : ق : الل .

٤ الأزار : مطل .

وكتيبة أردفتها بكية
من كل منخفر كلمة بارق
أوفى بهاد كالظلم وخلفه
حي إذا ملك الكمي عنائه
حملت أسود كربة يوم الوغى
لبسوا الدروع غدائراً مصقولة
من كل متدل القوام مقف
أذكيت فيه شلة من نصله
ولرب لماع الصقال مشهر
رقت مضاربه وراق فيرنده
فإذا الحروب تسحرت أجزاءها
وإذا دجا ليل القتام رأيته
فاجب لما من جلوة لا تطفي
هي سنة أحييتها وفريضة
فإذا الملوك تفاخرت بمجدوها
يا ابن الدين جملهم ونوالم
يا ابن الإمام ابن الإمام
آباؤك الأكابر تلك شعارهم
فهم الألى نصروا الهدى بزائم
ماذا يجير شاعر في ملهم
مولاي لا أحصي مآثرك التي

والهيل تخرج في الحديد وتزل
بالبدر يسرج والأهلة تحمل
كفل كما ماج الكتيب الأهيل
يهوي كما يهوي بحر أجندك
ما غابها إلا الوشيع الذبيل
والسمر قصب فوقها تتهدك
لكنه دون الضربة يصل
يهدى بها إن ضل عنه المقتل
ماضي ولكن فعله مستقبل
فالحسن فيه مجمل ومفضل
ينساب في يملك منها جلول
وكأنه فيه ذبال مشعل
في بحر زخرت وهن الأمل
أديتها قربانها تتقبل
فلأنت أحى بالجهاد وأحل
شمس الضحى والعارض المتهلل
م ابن الإمام وقدرها لا يحجل
فلحيهم آوى النبي المرسل
مصقولة وبصائر لا تمحل
ويفضلهم أنى الكتاب المترك
بجديتها تنفى المطي الذل

١ الأزهار : مجردها .

٢ الأزهار : تضي .

وإذا الحقائقُ ليس يدركُ كنهها
فإليكَ من شوالِ غرّةٍ وجهه
عذراء راقٍ العيدَ رونقُ حسنِها
رُضعتْ لبانَ العلمِ في حِجرِ الشهي
سلكَ البيانُ بها سبيلَ إجاده
جاءتْ تنهي العيدَ أيمنَ قادمِ
وطوى الشهورَ مراحلاً معلودةً
وأنى وقد شفتْ التحولُ هلاله
عقدتْ بمرقبه العيونُ مسرةً
فاسلمُ لألفِ مظه في غبطةٍ
فلذا بقيتْ لنا فكلُ سعادةٍ
سيانٍ فيها مكرٌ ومُفكّل
أهداكها يومٌ أغرٌ مُحجّل
فقدنا بنظمِ حلّيتها يتجمّل
فوقتْ لها منه ضروعٌ حُفْل
لولا صفاتكَ كان عنها يعدل
وافى بشهرِ صيامه يتوسّل
كيما يرى بفناء جودك ينزل
ولشوقه للقاء وجهك ينحل
فمكبرٌ لطلوعه ومُهكّل
ظلّ المني من فوقه يتهدّل
في الدينِ والدنيا بها تتكفّل

وقال ابن الأحمر : ومن جياذ أناشيده المتميزة بالسبقية ، وبارقات تهايه في
المواسم الحقيقية ، قولهُ يهته - رضوان الله تعالى عليه - بطلوع مولانا الوالد
قدس الله تعالى روحه^١ :

طلعَ الهلالُ وأفقهُ متهللُ
أوفى على وجهِ الصباحِ بفرّةٍ
شمسُ الخلافةِ قد أمدّتْ نوره
للهِ منه هلالٌ سعدٍ طالعُ
وألحتْ يا شمسَ الهدايةِ كوكبا
والتاجُ تاجُ البدرِ في أفقِ العلا
فمكبرٌ لطلوعه ومُهكّلُ
فقدنا الصباحُ بنوره^٢ يتجمّل
ويسعدنا يرجو التمامَ ويكمل
لضياته تمشو البهورُ الكَمَلُ
يُعفي سناه كلَّ مَنْ يتأمل
ما زالَ بالزُهرِ النجومِ يكلّل

١ لتغايه التفسيرين تشابه كثير من الأبيات .

٢ الأزهار : بنورها .

ولئن حوى كل الجمال فإنه
أطلعت يا بدر السحاب هلاله
يبدو بهالات السروج وإنه
قلدت عطف الملك منه صارماً
حليته يحمل الكمال وجوهه
يغزو أمامك والسعود أمامه
من مبلغ الانتصار منه بشاره
أحيا جهادهم وجدد فخرهم
فيه إلى الأجر الجزيل توصلوا
من مبلغ الأخواء من يمن وهم
أن الخلافة في بنيهم أطلعت
من مبلغ فحطان آساد الشرى
أن الخلافة وهو شبل ليونهم
بني بني الانتصار أن إمامهم
بني البندوخ فإنها ستظله
بني الجياد الصافات فإنها
بني الملكاكي والعوالي والظبي
بني المعالي والمفاخر أنه
سبقت مقدمة الفتوح قدومه
وبدت نجوم السعد قبل طلوعه

بالشهب أبهى ما يكون وأجمل
والملك أبقى والخلافة مزل
من نور وجهك في العلا يستكمل
بغنائيه ومضائيه يتمثل
خلق النفيس وكل خلق يحمل
وملائك السبع العلا تنزل
غرر البشائر بعدها ترسل
بعد المئين فملكهم يتأكل
وبهم إلى رب السما يتوسل
قد توجوا وتملكوا وتقبلوا
قمرأ به سعد الخليفة يكمل
ما غابها إلا الوشيح الذئبل
قد حاط منها الدين ليث مشبل
قد بلغت سعوده ما يأمل
وجناح جبريل الأمين يظلل
بفتوحه تحت الفوارس تهدل
فيها إلى نيل المني يتوصل^١
في مرتقى أوج العلا يتوقل
وأناك وهو الوداع المتمهل
تجلو المطامع قبله وتوئل^٢

١ الأزهار : ملكهم .

٢ ق : يتوصل .

٣ الأزهار : لا تأئل .

وروتُ أحاديثَ الفتحِ غرائباً
أُفْتُتِ إليك بهِ السَّعُودُ زَمَانُهَا
فَالْفَتْحُ بَيْنَ مُعْجَلٍ وَمُؤْجَلٍ
أَوَّلِيسَ فِي شَأْنِ الْمَشِيرِ دَلَالَةٌ
نَادَاهُمُ دَاعِي الضَّلَالِ فَأَقْبَلُوا
عَصَبُوا الرِّسُولَ إِيَابَةً وَتَحَكَّمَتْ
كَانُوا جِبَالاً قَدْ عَكَتْ هَفْبَاتُهَا
كَانُوا بِحَاراً مِنْ حديدِ زَانِحٍ
رَكِبَتْ أَرْجُلَهَا الْأَدَاهِمُ كُلَّمَا
كَانَ الْحَدِيدُ لِبَاسَهُمْ وَشَعَارَهُمْ
وَاللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا
جَدَّدَتْ لِلْأَنْصَارِ حِكْمِي جِهَادَهَا
مَنْ يَتَحَفَّ الِيتَّ الْعَتِيقُ وَزَمَزَمَا
مُسَابِقِينَ إِلَى مَسَابَةِ رَحْمَةٍ
هَيْمًا كَأَفْوَاجِ الْقَطَا قَدْ سَاقَهَا
مِنْ كُلِّ مَرْفُوعِ الْأَكْفِ ضِرَاعَةً
حَتَّى إِذَا رَوَتْ الْحَدِيثَ مَسْلَسَلًا
مَنْ فَتَحَكَ الْأَسْنَى عَنِ الْجَيْشِ الَّذِي
أَهْدَتْهُمُ السَّرَّاءُ نَصْرَةً دِينَهُمْ
وَتَنَاقَلُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ مَسْرَةً
وَدَعَوْا بِنَصْرِكَ وَهُوَ أَعْظَمُ مَفْخَرًا

وَالنَّصْرُ يَمْلِي وَالْبَشَائِرُ تَقِلُ
فَالسَّعْدُ يُحْضِي مَا تَقُولُ وَيُفْعِلُ
يُنْسِيكَ مَاضِيَهُ الَّذِي يَسْتَقْبِلُ
أَنَّ الْمَقَاصِدَ مِنْ طَلَابِكَ تَكْمِلُ
وَدَعَاهُمْ دَاعِي النُّونِ فَجَدُّوا
فِيهِمْ سَيُوفُكَ بِعَدَاهَا فَاسْتَمَلُوا
نَسْفَتَهُمْ رِيحُ الْجِلَادِ فَوَزَلُوا
أَذْكَبَهُمْ نَارُ الْوَعْيِ فَتَسَلَّوْا
يَتَحَرَّكُونَ إِلَى قِيَامٍ تَصِلُ
وَالْيَوْمَ لَمْ تَلْبَسْهُ إِلَّا الْأَرْجُلُ
فَتَحَا بِهِ دِينَ الْهَدْيِ يَتَأَثَّلُ
فَالدِّينُ وَالْدُّنْيَا بِهِ تَتَجَمَّلُ
وَالْوَفْدُ وَغَدُ اللَّهِ فِيهِ يَتَزَلُ
مِنْ كُلِّ مَا حَدَّثَ إِلَيْهِ تَنْسَلُ
ظُلْمًا شَدِيدًا وَالْمَطَافُ الْمَنْهَلُ
وَالْقَلْبُ يَخْفِقُ وَالْمَدَامُ تَهْمَلُ
يَبْضُ الصَّوَارِمِ وَالرِّمَاحُ الْعُسْلُ
بَثْبَاتِهِ أَهْلُ الْوَعْيِ تَتَمَثَّلُ
وَاسْتَبْشَرُوا بِحَدِيثِهَا وَتَهَلَّلُوا
بِسَمَاعِهِ وَاهْتَزَّ ذَاكَ الْمَحَلُ
إِنَّ الْحَجِيجَ بِنَصْرِ مُلْكِكَ يَحْفَلُ

١ ق : ثاني .

٢ ق : فَتَفْتَحُ ... الضَّلَالِ .

٣ ق : فَتَسَلَّوْا .

فاهناً بملكك واعتمد شكراً به
 شرفت منه بأسر والدك الرضى
 أبديت من حسن الصنيع عجباً
 خففت به أعلامك الحمر التي
 هدرت طول العز تحت ظلالها
 ودعوت أشراف البلاد وكلهم
 وردوا ورود الميم أجهداً الظما
 وأثرت فيه الطراد فوارساً
 من كل وضاح الجبين كأنه
 يرد الطراد على أغر عجل
 قد عودوا قنص الكماة كأنما
 يستببون هواجس مؤشبة
 قد صوّرت منها غرائب جمّة
 وتضمنت جزل الوقود حمولها
 والعاديات إذا تلت فرسانها
 فخر خيلك ؛ إنها لسوايح
 من كل برق بالريا ملجّم
 أوفى بهاد كالظلم وخلفه
 هنّ البوارق غير أن جيادها
 من أشهب كالصبح يعلو سرجه
 أو أدهم كالليل قلّد شهبه

لطف الإله وصنعه تتحوّل
 يحيا به منه الكريم المفضل
 تُروى على مرّ الزمان وتُنقل
 بخوقها النصر العزيز موكل
 عنوان فتح إثرها يستجمل
 ينفي الجميل وصنع جودك أجمل
 فصفا لهم من ورد كنفك متهل
 مثل الشموس وجوههم تهلّل
 نجم وجنح القبح ليل مسبل
 في سرجه بطل أغر عجل
 عقابها ينقض منها أجندل
 من كل بدع فوق ما يتخيّل
 تسمي عقول الناظرين وتذهل
 والنصر في التحقيق ما هي تحمل
 آت القتال صفوفها تترتل
 بحر القتام وموجه متهلّل
 باليد يسرج والأهلة ينعل
 كفل كما ماج الكيب الأهيل
 عن سيق خيلك يا مؤيد تنكل
 صبح به نجم الضلالية بأل
 خاص الصباح فأثبت الأرجل

أو أشقرٍ سالَ النُّضارُ بعبقهِ
أو أحمرٍ كالبحرِ أضمرِ بأسه
كالبحرِ أترع كأسها لندامها
أو أصفرٍ لبسَ العشيَّ مُلَامَةً
أجملتَ في هذا الصنيعِ عوائلدا
أنشأتَ فيها من نذاك غمائمدا
فجرتَ من كفِّك عشرةَ أبحرٍ
من قاس كُفِّكَ بالغمامِ فإِنَّهُ
تسخو الغمامُ ووجهها متجهمُ
والسُّحبُ تسمعُ بالمياهِ وجودُهُ
من قاس بالشمسِ المنيرةِ وجهَهُ
من أين للشمسِ المنيرةِ منطلقُ
من أين للشمسِ المنيرةِ راحةُ
مَنْ قاس باللبدرِ المنيرِ كمالَهُ
من أين لللبدرِ المنيرِ شمائلُ
من أين لللبدرِ المنيرِ مناقبُ
يا مَنْ إذا فححتَ نواسمَ حمدهِ
يا من إذا لمحتَ محاسنَ وجههِ
يا مَنْ إذا تليتَ مفاخرُ قومهِ
كفلَ الخلافةِ منك يا ملكَ العلا
مأمونُها وأمينُها ورشيدها

وكساهُ صِبْغَةً بهجةً لا تنصل
بالركضِ في يومِ الحفيظةِ يشعل
وبها حبابُ غرةٍ تتسبيل
وبذله لليل ذيلُ مُسبِل
الحدودِ فيها جميلٌ ومفصل
بالفضلِ تنشأ والسماحةُ تهمل
ترجي سحابِ الحدودِ وهي الأمل
جهلِ القياسِ ومثلا لا يجهل
والوجهُ منه مع الندى يتهلل
ذهبُ به أهلُ الفنى تتحول
ألفيته في حكمه لا يعدل
ببيانهِ درُ الكلامِ يفصل
تسخو إذا بخلَ الزمانُ المحجل
فاللبدرُ ينقصُ والخليفةُ يكمل
تسري برياتها الصبا والشتال
بجهادها تُنفضي المطيُّ الذُّكُل
فالمسكُ يعبقُ طيبُهُ والمندل
تعضو العيونُ ويبهزُ المتأمل
أيُّ الكتابِ بذكرها تتزك
واللهُ جلُّ جلالهُ لك أكفل
منصورها ومهديها المتوكل

حَسْبُ الخَلقة أَنْ تكونَ وليَّها
حَسْبُ الزَّمانِ بَأَن تكونَ إمامَهُ
حَسْبُ الملوكِ بَأَن تكونَ عَميدها
حَسْبُ المعالي أَنْ تكونَ إمامها
يا حجةَ اللهِ الّتي برهانها
أنتَ الإمامُ ابنُ الإمامِ ابنِ الإمامِ
علّمتَ حتى لم تدعْ من جاهلٍ
وعنايةَ اللهِ اشتملتَ رِداءها
ومنها^١ :

أخَلتْ قلوبَ الكافرينَ مهابةً
حسبوا البروقَ صوارماً مسلولةً
وترى النجومَ مناصلاً مرهوبةً
يا ابنَ الآلى إجمالهم وجمالهم
مولاي لا أحصي مآثرَكَ الّتي
أصبحتُ في ظلِّ امتدادك ساجداً
طوقتهُ طوقَ الحمايمِ أنصفاً
غالبك من صونِ العقولِ عقيلةً
عنوا راقِ الصنعِ رونقَ حسنِها
غيرَها بينَ المني فوجدتها

فمقولم من خوفها لا تَعْتَلُ
أرواحهم من بأسها تَسْلُلُ
فيفرُّ منها الخائفُ المتصلِ
شمسُ الضحى والعارضُ المتهلِّلُ
بجهادها يتوصَّلُ المتوسِّلُ
ظلُّ^٢ الّتي من فوقه يتهدَّلُ
فقدنا بشكركَ في المحافلِ يهدلُ
أهداكها صنَّعَ أغرُّ عجِّلُ
فقدنا بنظمِ حليها يتكلَّلُ
أقصى منهاها أنها تُتَقَبَّلُ

١ قال في أزهار الرياض (٢ : ١٧١) يمد هذا البيت : اتصل بهذا البيت جملة من القصيدة المترجمة في المهديات التي أولها « بشرى كما وضع الصبح وأجمل » وطفئناها من هذه الاتصافاً لتكرار .
٢ الأزهار : ظل .

لا زلتَ شمساً في سماءِ خلّاقةٍ . وهلاكَ الأسمى يتمُّ ويكمل
قال : ومن رقيقِ منازعه في بعضِ نُزّه مولانا رضوان الله عليه بالقصر
السلطاني من شيل قوله :

نفسى القداء لشادن مهما خطرتُ
فضح الغزالة والأفاحه والقنا
عجبا ليلِ ذوائبٍ من شعره
عجبا لعقدِ الثغر منه منظماً
ما رمتُ أن أجنّي الأفاح بغيره
لم أنسه ليلَ ارتقابِ هلاله
بنسما نراقبه بأولِ ليلةٍ
طالعته في روضة كخلاله
وكلاهما ييلني عاسنَ جمّة
والكأس تطلع شمسها في خده
نورية كجيبه ، وكلاهما
هي نسخة^١ للشيخ فيها نسبة
أفرغت في جسم الزجاجة روحها
لا تسقى غير الروض فضلة كأسها
ما هب خفاق النسيم مع السحر
ناجى القلوب الخافقات كمثل^٢

فالقلبُ من سهم الجفون على خطر
مهما تنثى أو تبسم أو نظرو
والوجه يُسفر عن^٣ صباح قد سفر
والعقد من دمعى عليه قد انتثر
إلا وقد سلّ السيوف من الحور
والقلب من شك الظهور على غرر
فإذا به قد لاح في نصف الشهر
والطيب من هذي وتلك قد اشهر
ملء التنسم^٤ والسماع والبصر
فتكادُ تمشي بالأشعة والنظر
يحلو ظلام الليل بالوجه الأغر
ما إن يزلا برعشان من الكبر
فرايتُ روح الأتس منها قد بهر
فالفصن في ذيل الأزاهر قد عثر
إلا وقد شاق النفوس وقد سحر
ووشى بما تخفي الكمام من الزهر

١ الأزهار : والوجه منه عن .

٢ الأزهار : المشام .

٣ كلما في ق : وفي الأزهار : شمس ، وكلتا القفتين قاصرة الدلالة .

٤ ق : ليله ، والمعنى : أن القلوب خافقات كمثل خفق النسيم المذكور في أبيت السابق .

وروى عن الفضحك عن زهر الرئي
ونحلت عنه حديث صحيح
يا قصر شئيل وربك آهل
قد بحرك والصبا قد سردت
والأس حفا عذاره من حوله
قبلك بشري الزهر كفت خليفه
والفرش خلوة الورد تحت نعله
وانظم غناء الطير فيه مداحا
المتقى من جواهر الشرف الذي
والمنجي من عصير النور الذي
ذو سطوة مهما كفى، ذو رحمة
كم سائل للدهر أقسم قائلا :
مولاي سمدك كالهند في الوعى
مولاي وجهك والصباح تشابها
إن الملوك كواكب أخفيتهما
في كل يوم من زمانك موسم
فاستقبل الأيام يندى روضها
قد ذهبنت منها العشايا ضعف ما
يا ابن الدين إذا تعدد خلالم
إن أوردوا هيم السيوف غدائرا
سائل يدير عنهم يلو الهندى

ما أسند الزهرى عنه عن مطر
رسل النسيم وصدق الخبر الخبر
والروض منك حل الجمال قد انصبر
منه دروعا تحت أعلام الشجر
عن كل من يهوى العذار قد اعتل
يفتيك صوب الجود منه عن المطر
واجعل بها لون المضاعف عن نضرة
وانثر من الزهر الدراهم والدر
في ملح قد أنزلت أي السود
في مطلع الهندي المقدس قد ظهر
مهما عفا، ذو عفة مهما قدر
والله ما أياسه إلا غرر
لم يبق من رسم الضلال ولم يدر
وكلاهما في الحافقين قد اشتهر
وطلعت وحلك في مظاهرها قمر
في طيه للخلق أعياد كبر
ويرف والنصر العزيز له ثمر
قد فضضت منها المحاسن في السحر
نقد الحساب وأهجزت منها القدر
مصقولة فلطالما حملوا الصلر
فيهم على حزب الضلال قد انتصر

١ ق : اقتدر .
٢ الأزار : وجهك .

واسأل مواقفهم بكلّ مشهرٍ
تجد الثناء بيأسهم ويجوّدهم
فيمثل هديك قلتر شمس الضحى
ماذا أقولُ وكلّ وصفٍ معجزٍ
تلك المناقب كالنواقب في العلا
إن غاب عبدك عن حماك فإنه
فاذكرك إن الذكر منك سعادة
ورضاك عنه غاية ما بعدها
فاشكر صنيع الله فيك فإنه
وعليك من رَوْحِ الإله نحيّة

ثمّ قال : ومن أغراضه الوقتية - استرسالاً مع الطبع البديهي في الشكر عن
ضروب من التحف التي يقتضيها التحفّي السلطاني بأولياء خدمته - نبل متعددة
فيما يظهر فيها ، فمنها قوله :

يا خيرَ مَنْ ملكَ الملوكَ بجوده
والله ما عرفَ الزمانُ وأهلُه
وافيتُ أهلي بالرياضِ عشيةً
فوجدتهُ قد طلّهُ صوبُ الندى
وسفائني مشحونةً ألقي بها
رطبٌ من الطلحِ النضيدِ كأنها
من كلّ ما كان النبي يحبّها
وبدائعِ التحفِ التي قد أطلعتُ

وبفضله قد أشبه الأملكا
أمنّا ويمنّا دائماً لولاكا
في روضِ جاهك تحت ظل ذراكا
بسحابٍ تنهلُ من يمنّاكا
بحرُ السباحِ يعيشُ من نعمّاكا
قد نُظمتَ من حسنّها أسلاكا
وأحبّها الأنصارُ من أولاكا
مثلَ البلورِ أنارتِ الأحلاكا

١ الأثرار : رضاكا .

نُظِفَ من النورِ المينِ تَجَسَّتْ حتى حسينا أنهنَّ هُداكا
يحلو على الأفواه طيبُ مذاقها لولا التجسُّدُ خلتنَّ ثناكا^١
طافَتْ بها النَّشَأُ الصَّغارُ كأنَّها سِرْبُ القَطَا لما وردنَّ نداكا
نجواهُمُ مهباً سمعتُ كلامهمُ ونداؤهمُ : مولاي ، أو مولاكا
بَلَّغَتْ في الأبناء عِبْدَكَ سُؤْلَهُ لا زلتَ تبلغُ في بَنِكَ مُناكا
يتدارسونَ من الدعاء صحافاً كيما يطيلَ الله في بقياكا
فَبَقِيَتْ شمساً في سماءِ خلافةٍ وهُمُ البُلُورُ أمدُهُنَّ سناكا
ومنها وقد أهداه نعمة الله أطباقاً من حَبِّ الملوك^٢ :

كُتِبَ الإلهُ على العبادِ عِبةً لك كان فرضُ كتابها موقوتا
وأنا الذي شَرَّفْتُهُ من بينهمُ حتى جعلتَ له المحبةَ قوتا
ما زلتَ تُنَحِّضُهُ بكلِّ ذخيرةٍ حتى لقد أُنَحِّضْتَهُ الياقوتا
ولِى الملوكُ قد اعترى من عزِّه فعدا لهُ ياقوتُها معقوتا
ومنها في مثل ذلك :

يا خيرَ مَنْ ملكَ الملوكُ أهدَيْتَنِي حَبَّ الملوكِ
فكأنَّما ياقوتُها نظمتُ لنا نظمَ السلوكِ
إنَّ الملوكَ إذا لجؤا فغياثُهُمُ أنْ أملكوكِ
وكذا العُصاةُ إذا شكوا فغناهُمُ أنْ يسألوكِ
فاللهُ يقبلُ مَنْ دعا لملكٍ من أهلِ السلوكِ
لا زلتَ تَظْلَعُ غُرَّةً كالشمسِ في وقتِ الدُّلوكِ

١ الأزهار : سناكا .

٢ ما يعرف في مصر باسم «حب العزيز» .

ومنها ، وقد أهداه صيداً مما صاده أولاده :

يا خيرَ مَنْ ورثَ السَّاحَ عن الأُلى نصرُوا الأُلى وتبَوَّأُوا إِمَانَنَا
في كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ نَحْفَةً مِنْعِمٍ والى الجميلِ وأَجَزَلُ الإِحْسَانَا
قد أَذْكَرْتُ دَارَ النِّعَمِ عِيْدَهُ وتَضَمَّنْتُ مِنْ فَضْلِهِ رِضْوَانَا
تَهْدِي مَوَالِي^١ الدِّينَ تَفَرَّعُوا عَنْ دَوْنِ فَخْرِكَ فِي الْعِلَا أَغْصَانَا
بِلَهْلَاكَ الْأَعْلَى قَنِيصاً أَنْعَبُوا فِي صِيْدِهِ الْأَرْوَاحَ وَالْأَهْدَانَا
فَنَخْصِي مِنْهُ بِالْوَفْرِ قِسْمَةً فَسَحَّتْ لِعَبْدِكَ فِي الرِّضَى مِيلَانَا
فَقَدْ مِنْ مَوْلَى كَرِيمٍ بِاللَّيْ تَهْدِي لِلْمَوَالِي يُنَحِّفُ الْعَبْدَانَا
تَدْعُو بَنِيَّ إِلَى الْغَنَى بِرَبِّهِ يَا رَبَّنَا أَغْنِ الَّذِي أَغْنَانَا
وَعَلَيْكَ مِنْ قُدْسِ الْإِلَهِ نَحْمَةً نَهْدِكَ مِنْهُ الرُّوحَ وَالرِّيحَانَا

ومنها ، وقد أهداه أصنافاً من الفواكه :

يَا مَنْ لَهُ الْوَجْهُ الْجَمِيلُ إِذَا بَدَا فَاقَتْ مَحَاسِنُهُ الْبُيُورَ كَمَالَا
وَالْمُنْتَقَى مِنْ جَوْهَرِ الْقُحْرِ الَّذِي فَاقَ الْخَلَائِفَ عِزَّةً وَجَمَالَا^٢
مَا أَبْصَرْتُ عَيْنَايَ مِثْلَ هَدِيَّةٍ أَبَدْتُ لَنَا صَنَعَ الْإِلَهِ تَعَالَى
فِيهَا مِنَ التَّفَاحِ كُلُّ عَجِيَّةٍ تَذْكِي بِرَبَّاهَا صَبَّاً وَشَمَالَا
تَهْدِي لَنَا نَهْدَ الْحَبِيبِ وَخِدَّةً وَتَرِي مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِّيِّ مِثَالَا
وَبِهَا مِنَ الْأَنْجَرِ شَمْسٌ أَطْلَعَتْ مِنْ كُلِّ شَطْرِ الْعَيُونِ هَلَالَا
وَيَحْضُهَا وَرَقٌ يَرُوقُ كَأَنَّهُ وَرَقُ النَّضَارِ وَقَدْ أَجَادَ نَيْلَا
لُونُ^٣ الْعِشِيَّةَ ذَهَبَتْ صَفْحَاتُهَا رَقَّتْ وَرَاقَتْ بَهْجَةً وَجَمَالَا

١ الأزمهار : مواليك .

٢ الأزمهار : وجلالا .

٣ ق : لولا .

وبها من النُّقْلِ الشَّهِيّ مذكّرٌ
 قدّ منها خُصْرَةٌ من خُصْرَةٍ
 أذكرتني العهدَ القديمَ ومعهداً
 فأردتُ تهديدَ اليهودِ وإنّما
 فأدرتُ من ذكراك كأسَ مدامةٍ
 فبقيتَ شمساً في سماءِ خلافةٍ
 عهداً تولّى لينسه يتوالى
 تنفي المفاةِ وتُحسِبُ الآمالا
 كانتُ شمسُ الرّاحِ فيه تلالا
 كتبَ المشيبُ على عذارِي لا لا
 وشرّيتُ من حيّ لها جِرْيالا
 لا يستطيعُ لها الزّمانُ زوالا

ومنها يوم عاشوراء :

يا أيها المولى الذي بركاته
 لك راحةٌ ترجي الغمامَ بأملٍ
 واليومَ موسمُ قربةٍ وعبادةٍ
 راعيتُ فيه سُنّةَ نبويةٍ
 لا زلتُ عامكَ كله في غبطةٍ
 رفعتُ لواءَ النّدى منشورا
 فَجَرَّتْ منها بالنّوالِ بحورا
 وغداً، ظفرتُ بأجره، عاشورا
 تروي الثّقاتُ حديثه، المشهورا
 لُقيتُ منها نصرةً وسرورا

ومنها في بعض قطعة :

واليت ما أوليت يا بحر النّدى
 فإذا يهزّ لها اللسانُ حسامةً
 علّمتُ فرسانَ الكلامِ نظامها
 والبحرُ تمتازُ السحابُ مائه
 ووحقٌ جودك ما رأيتُ كهله
 فصفاةٌ فخرُك قد قضتُ بضاده
 كتلمّ التلميذِ من أستاذِه
 فتجوده من غيثها برّاذله

ومنها ، وقد أهداه باكوراً :

يا وارثَ الأنصارِ وهيّ مزيّةً
 أهديتني الباكورَ وهيّ بشارةً
 بغزارها أتى الكتابُ المتزلّ
 بيوكرِ القصرِ الذي يُستقبلُ

وولادة لـهلالِ نيمٍ طالعٍ
هو أولُ الأنوارِ في أفقِ الهدى
مولاي صديقُ القالِ قد جربتهُ
من لفظِ عبدك ، والعواقبُ أجملُ
وجهُ الزمانِ بوجهه يتهللُ
وترى الأهلّةَ بعدهُ تسترسلُ

ومنها في جفنة :

طعامك من دارِ النعيمِ بعثتهُ
بهضبةِ نعمى قد سمونا لأوجِها
وقوراء قد دُرنا بهالةِ بدرها
وقد حُملت فوقَ الرؤوسِ لأنها
فما شئت من طعمِ زكيٍّ مهتليٍّ
فلو أنها قد قدمتْ خليفتهُ
وكم لك من نعمى عليٍّ عميمةٍ
فلا زلت يا مولى الملوكِ مبلغاً
فشرفته من حيث أدري ولا أدري
فصدنا بأعلامها الشهي من الطيرِ
كما دارت الزهرُ النجومُ على البدرِ
هلبيةٌ مولى حل في مفرقِ الفخري
وما شئت من عرفِ ذكيٍّ ومن نشرِ
لأعظمها قلداً وبالع في الشكري
يقولُ لأدناها الجميلُ من الذكرِ
أمانى ترجوها إلى سالفِ الدهرِ

ومنها شكراً عن كتاب :

مولاي يومُ الجمعةِ
فانعم صباحاً واغنم
وابشر بصنع عاجلِ
وانتظر الفتح الذي
وبينفسه وسمره
واللطف مرجو قرد
سعوده مجتمع
أوقاتة المجتمع
أعلامه مرتفعه
يأتيك بالنصر معه
إلى العداة مشرعه
بفضل ربي مشرعه

١ ق : التنى .

٢ ق : لأجلها .

فأعنتني شرفتي	برقعة مرفعة
بل روضة مطورة	أزهارها منوعة
حديقة قد جدتها	بصوب جود مترعة
ورائسة منشورة	وآية مستبدعة ^١
كم حيككم لطيفة	في طيها مستودعة
عقيلة صورتها	من الجمال مبدعة
سقتني من فضلها	بفضل كاس مترعة
قدم وأملك الأورى	على علاك مجمعة

ومنها شكراً على خيلعة :

يا بدر تيم في سماء خلافة	حقت نجوم السعد هالة قصره
ألبيت عبدك من ثيابك ملبساً	قد قصرت عنه مدارك شكره
ورضاك عنه خير ما ألبيته	فلقد أشاد بحسامه وبيره
ألبيتني ، أركبني ، شرفني	أهديني ما ألا أقوم بحصره
نظري لوجهك وهو أجمل نيري	يزري على شمس الزمان وبدره
أعلى وأعظم منه لا سيما	وأنا المنعم في الحضور ببشره
لا زلت مولى للملوك مؤملاً	وحلاك للإسلام مفخر دهره

ومنها ، وقد خلع - رضوان الله تعالى عليه - على رسول من أرساله :

أبحر سراج مد عشرة أبحر	تفيض غمام الجود وهي الأنامل
بكفك غيت البلاد وأهلها	يروض محل الأرض، والعام ماحل

١ سقط البيت والذي يليه من ل .

٢ الأزهار : وملك .

لَكَ الْخَيْرُ إِنَّ أَصْبَحْتَ بِحَرَ سَاحَةِ يَمْ نَدَاهُ فَالْمَوَاهِبُ سَاحِلُ
خَلَمْتَ عَلَى هَذَا الرُّسُولِ مَلَابِسًا بِهَا تَنْتَسِي فِي عِلَالِكَ الْمَآئِلُ
وَبَلَّغْتَهُ آمَالَهُ كَيْفَ شَاءَهَا فَبَلَّغْتَ يَا مَوْلَايَ مَا أَنْتَ آمِلُ

ومنها وقد مرض بعضُ أبنائه رحمة الله تعالى على الجميع ، قوله سائلاً عن حاله :

أَسْأَلُ بِدَرِّ الَّتِي كَيْفَ هَلَالُهُ وَأَدْعُو لَهُ الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ
وَأَسْأَلُهُ تَجَمُّلَ رَاحَتِهِ الَّتِي وَسَيَلَّتْنَا فِيهَا النَّبِيُّ وَالْأَلُّهُ
سَتِيلُ فِيهِ مَا تَوَمَّلُ مِنْ مَنَى وَبِرُضِيكَ يَا بِدَرَّ الْكَمَالِ كَمَالُهُ

وفي مثله :

أَقُولُ لِبَدْرِ الَّتِي كَيْفَ هَلَالُكَ نَضَمْتُ صَبَاحًا بِالسُّعُودِ وَالْكَأِ
وَبَلَّغْتَ فِي النُّجُجِ الْكَرِيمِ سَعَادَةً تَهَرُّ بِهَا عَيْنًا وَيَنْمُ بِالْكَأِ
وَخَصَّصْتَ بِالْبَشَرِ مِنْ اللَّهِ رِبْتَ كَمَا عَمَّ أَفْطَارَ الْبِلَادِ نَوَالُكَ

ومن التورية باسم قائد ولاء على جماعة من الجند :

يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي أَيَّامُهُ تَهْمِي بِسُحُبِ الْجُودِ مِنَ الْآلِيهِ
أَبْشَرُ بِلَيْشِكَ بِالسَّعَادَةِ كُلِّهَا يَخْرُو وَتَضَرُّ اللَّهُ تَحْتَ لَوَائِهِ

وأنشده في مجلس اتخذه :

أَمَوْلَايَ يَا ابْنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْعَلَا وَمَنْ تَصَرُّوا الدِّينَ الْخَنِيفِي أَوَّلَا
خَتَيْتَ بِنُورِ اللَّهِ عَنْ كُلِّ زَيْنَةٍ وَأَلَيْتَ مِنْ رِضْوَانِهِ أَشْرَفَ الْخَلَى
وَقَارَكَ زَادَ الْمَلِكِ عِزًّا وَهِيَّةً وَسَوَّغَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْهَا

١ الأزهار : بالسُّعُودِ .

٢ الأزهار : السَّيِّدِ .

ويا شمس هدي في سماء خلافة
تبارك من أهداك في كل مظهر
فيحجل منك الشمس شمس هداية
إذا أنت ألست الزمان وآله
وطوقت أجياد الملوك أبادياً
فما شئت فاليس فالشاهد قائل :
ألا كل من صلى وضحي ومن دعا
وجودك شرط في حصول قبوله

وقال يرسم ما يرسم على ثوب في بعض هدايا مولانا رحمه الله تعالى للسلطان أبي العباس :

أهدي أباً العباس	ملك الندى والباس
ثوب السماء لآته	يلد بسدا الناس
فلق الصباح بوجهه	عوذته بالناس
يكسو إماماً لم يزل	بجلي المحامد كامي
فيما له من مرتد	ثوب التقى لباس
أذباله من حمده	مسكية الأنفاس
وبطرزه ملح زرى	بالمدح في القرباس
إن كنت في لون السما	ببنية وقياس
فلأنت يا بلى العلا	شرقتني بلباس
أنا منشده ما في وقو	فك ساعة من باس

١ الأزهار : مثفلاً .

٢ صدر بيت لأبي تمام ، وحجزه : تقضي ضمام الأربع الأدراس .

تري رياضاً ١ أطلعت
أوراقها توريقها
ومن المنيح مدامني
فلقد يمنع لابي
زهرأ على أجناس
بقضيها المياس
ومن المعابر كاسي
باليشير والإنساس

وقال في مثل ذلك :

إن الإمام محمدنا
لباسه ثوباً ، وقد
وعامة الشفق ٢ الي
يا حسنها إذ أرسلت
وكان وثني رقومها
وبطرزه لون السما
قد مئة نيسر
مستصر ، أعلى له
أهدى الخليفة أحمدنا
ليس المحامد وارتنى
من قرقها خمس المدي
من كفه حيث التلى
بالبرق طرر عسجدا
ووجهه قمر بنا
حل المنازل أسعدنا
نوق المنازل أسعدنا

ثم قال وأنشده وهو على جواد أدهم :

تجلى لنا المولى الإمام محمد
فأبصرت صبحاً فوق ليل وقد حكى
على أدهم قد راق حسن أديمه
مقلد ذاك الطرف بعض نجومه

وكتب له مع هدية زهر :

أمولاي تعيلي ليمناك شافني
ولما رأيت الدهر ما طلكتي بها
ولا ينكر الظمان شوقاً إلى البحر
وشوقني من حيث أدري ولا أدري

١ ق : رياضاً .

٢ الأزهار : الشفق .

بعثتُ لكَ الزَّهرَ البَنيَّ لعلَّهُ
وكتب إليه أيضاً متشوقاً :

كتبْتُ ودعيتُ بللَ الركبِ فطرهُ
حينئذٍ لمولتي أثلَّفَ المالَ جودهُ
وما عشتُ بعدَ اليَينِ إلَّا لأتِي
وأنشده أيضاً وهو بحال تألم :

كأنِّي بلطفِ الله قد عَمَّ بِحِلْمِهِ
وقاضي القضاء الحَتمَ سَجَلُ نَحْمِهِ
وله في مثل ذلك :

لكَ الخِيرُ يا مولاي أبشِرْ بعصمة
وعافية في صحَّةٍ مستجدةٍ
ووجهُ التَّهاني مُشرقٌ متهلِّلٌ
وقد ظهرتْ لغيرك منكَ علامةٌ
وفي مثل ذلك :

يا إماماً قد نَحَلْنَا
حَظُّكَ بِمَنَّاكَ ينادي
هُ من الصَّهرِ مَلَاخَا
صَحَّ هَذَا صَحَّ هَذَا

وقال مهتماً بالشقاء :

١ الأزهاري : حكمة .

٢ الأزهاري : الطي .

الحمدُ لله بكتفنا النقي
وفزّت بالأجر وكتبت العدا
لما رأيناك ، وزال العنا
من علينا من ظهور السنّا

وقال أيضاً في نحوه :

نعم قرّرت العيان وأنشّرح الصلرُ
سرنا بليلى التيه يكلبُ فجرهُ
فلما تجلّى فجرهُ صدقَ الصجرُ
أغرّ المحيّا بالحياء مُقنّعُ
إمامُ الهدى قد خصّه بخلاقه
له في خلقه النهي والأمرُ

وقال في مثله : وقد ركب زحمه الله تعالى المعاهد حضرته :

هنيئاً هنيئاً لا تقادّ لعدّه
فقد لاح بدرُ الهم في أفق العلّا
وطاف أميرُ المسلمين عمدهُ
ولاحت بها الأنوارُ من بشر وجهه
وأبصرت الأبصارُ شمسَ هدايته
ولوحت الأعلامُ فيها بنصره
ستهتني له الأيامُ كلّ مسرةٍ
فسلّ حيام السعد واضرب به العدا
ويشري الدين الله إنجاز وعده
وحلّ كما يرضى منازل سعده
يحضرته العكيا مبلغ قصده
وفاح بها التوارُ من نشر حمده
وأشرق الأرجاء من زهر رفده
كما لوح الصبح المبين بينده
ويحيي به الرحمن أثار جدّه
وتحلّ حسام الهند في كثر غمده
يقيم حلود الله قائم حده

١ الأزهار : إمام .

٢ الأزهار : المنير .

٣ الأزهار : واضرب بحده .

٤ الأزهار : في كثر .

وقال ، وقد عاد رحمه الله تعالى من بعض متوجهاته الجهادية لجبل الشوار :

على الطائر الميمون والطارح السَّعدِ قَدِمْتَ مع الصَّبحِ الجميلِ على وعدِ
وقد عُدْتَ من جَبَلِ الشَّوارِ لتجلي عَقائلَ للفنحِ المَبِينِ بلا عدِّ

وقال ممّا رسم في طيقان^١ الأبواب بالمباني السعيدة التي ابتناها رحمه الله تعالى :

أنا تاجُ كهلالِ أنا كرميُ جمالِ
يَنجلي الإبريقُ فيه كمرُّوسِ ذي الخيالِ
جودُ مولانا ابنِ نصرٍ قد حباني بالكمالِ

وفي مثله :

من رأى التاجَ الرَفيعا قد حوى الشكرَ البديعا
تحسُدُ الأفلاكُ منه قوسَهُ السهلَ المتينا
دمتُ ربّما للتهاني أنظمُ الشملَ الجَميعا

وفيه :

للفنّي باللهِ قصرُ للتهاني يصطفيه
فيه عرابُ صلاة يقفُ الإبريقُ فيه
تالياً سورةَ حُسنٍ والتعالي تقضيه

وفيه :

أي قوسِ ذي جمالٍ^٢ سهمهُ سهمُ السعادةِ

١ ق : طيقات .

٢ الأزار : حي .

٣ الأزار : كمال .

مَلِكُ الْإِبْرِيْقِ فِيهِ عَوْدَةُ الْإِحْسَانِ عَادَةً
فِي صَلَاةٍ مِنْ صَلَاتٍ كَلَّتْهَا دَائِبًا مُعَادَةً

وقال في المعنى مما كتب به لعمنا الأمير «سعد» رحمة الله تعالى عليه :

انظر لأفنى جمال به الأباريقُ تَصَعَّدُ
حُسْنُ بَيْعِ حَبَاهُ بِهِ الْأَمِيرُ الْمَجْدُ
فَخَرُ الْإِمَارَةُ سَعْدُ بِهِ الْخَلِيفَةُ يَسْعَدُ
وَكَيْفَ لَا وَأَبُوهُ فَخَرُ الْمُلُوكِ مُحَمَّدُ
عَلَيْهِ خَلْتِي رِضَاهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يُجَدُّ

وقال فيه أيضاً :

رَفَعْتُ قَوْمَ سَمَالِي يُزْمِي بِتَاجِ الْمَلَالِ
قَدْ قَلْبَتُهُ نَقُوشِي دُرُّ النُّوَارِي الْعَوَالِي
تَرَى الْأَبَارِيقَ فِيهِ تَهْدِيكَ عِلْبَ الزَّلَالِ
قَدْ زَانَ قَصْرِي سَعْدُ بِسَمْعِهِ الْمُتَوَالِي
قَدَامَ يَمْرُؤٍ رَبَّنِي فِي كُلِّ مَوْلَى الْمَوَالِي

وفي الغرض :

مَا تَرَى فِي الرِّيَاضِ أَشْبَاهِي يَسْحَرُ الْعَقْلَ حَسَنِي الزَّاهِي
زَانَ رَوْضِي أَمِيرُهُ سَعْدُ وَهُوَ نَجْمُ الْغِيِّ بِاللَّهِ
دَامَ مِنْهُ بِمِرْقَتِي عِزٌّ أَمْرٌ بِالسُّعُودِ أَوْ نَاهِي

وقال في غرض الشكر عن منطى^١ صنهاجي أهدها إياه :

١ ق : الأمين .

٢ يستدل من القطة أن المعطى نوع من السناديق .

لَنْ قَبَّةً حَمَاءَ مَدَّةً تُضَارَهَا
وما أرضها إلا خزانٌ رحمة
وقد شبهَ الرحمنُ خلقنا به
ومروثة الأرجاء مفروشة بها
تري الطير في أجوافها قد تصففت
ونبتها منهاجةً غير أنها
حتي بها دون الصيد خلقة
وفي مثله :

ما للعالم جمعت في قبعة
في صفح صرح بالزجاج موهبة
ما إن رأيت ولا سمعت كطائر
إن لم تكن تلك الطيور تغردت
صفت عليها القواكه كل ما
لو أبصرت منهاجةً أوضاعه
عوتقي الصنع الجميل ثقلاً
وبسورة الأنعام كم من آية
وقال تليلاً ليبي ابن المعتز :

صفتني في تيل شيه شعرها
فأسيت في ليلين للشعر والحي
شبهة خديها بفير رقيب
وشمين من خمر وغد حبيب

١ الأزهري : بطائر .

٢ انظر أثمار أولاد الخلفاء : ١٧٩ .

٣ الصولي : ثبت لنا البين بالشر .

٤ الصولي : وفيرين من زاح ووجه .

إلى أن بدا الصبح المبين كأنه
شماله مها أديرت كؤوسها
مُحبًا ابن نصر لم يُشَنَّ بغروب
قلائدُ أسمع وأنس قلوب
وقال مديلاً على بيت ابن وكيع ١ :

« هي في أوجه الندامى حقيقٌ
كأن نصر تراه في الحرب ليثاً
وهي مثلُ النصار في الأقداح »
وهو يدرُ الندى وغيثُ السباح
ذكره قد تلى قدودَ الندامى
وأعادَ الحياةَ في الأرواح
وقال مما يرسم للغني بالله :

لغني بالله مُلكٌ
دام في رفعة شانٍ
بُرَّده بالعزْ مُدهَبٌ
ما جلا الإصباحُ غيَّهَبٌ
وقال أيضاً :

يا ابن نصر لك مُلكٌ
دمت رُوحاً للمعالي
ليس تعدوه الفتح
ما سرى في الجسم روحٌ
ومن مقطوعاته :

وابن نصر له حيتا كصبر
فو حسام كأنه لمع برق
إن تجلَى جلالنا كل كُرب
في بنان كأنها غيثُ سحاب
ومن أخرى :

وكان النجوم في غَسَقِ الليل
على جُمانٍ يلوح في آبنوس

١ لم يرد في ديوانه المجموع .
٢ الأزهار : الأصيل ؛ وهي بين الأجام .
٣ الأزهار : جلا دحي .

وكانَّ الصَّبَاحَ في الأَثَرِ يَجِي
وكانَّ الرِّياضَ تَهْدِي ثَناءَ
يَجِي النُّجُومُ مِثْلَ العُرُوسِ
لَفِي بِاللهِ فَوْقَ الطُّرُوسِ

وقال من قصيدة أولها :

أُضِياءَ هَدْيٍ أَمْ ضِياءَ نَهارِ
قَسَمًا بِهَدْيِكَ في الضِّيَاءِ ، وإِنَّ
وَشَدَا المَحامِدِ أَمْ شَدَا الأَزْهارِ
شَمْسٌ تَمُدُّ الشَّهَبَ بالأَنْوارِ

ومنها :

كَمْ من لَطائِفَ للهِدْيِ أَوْضَحَتْها
كَمْ من جِرائِمَ قَدْ غَفَرْتَ عَظِيمَها
خَفِيَتْ لَطائِفُها^١ عَلى الأَفْكارِ
مُسْتَتَرًّا^٢ مِينَ رِحمَةِ الغُفَّارِ
عَلِمْتَ مُلوِكُ الأَرْضِ أَنَّكَ فُخْرُها
فَتَسايَقَتِ لِرِضائِكَ في مَضارِ

ومنها يصف الجيش :

سالتَ بِهِ نَحْتَ العِجاجِ سَفيقِة
أرْسَتْ بِجودِي الجُودِ في يومِ التَّدْيِ
لَقَحَتْ بِرِيحِ العِزِّ^٣ من أنْصارِ
وَجَرَتْ بِيومِ الحَرْبِ في تِيَّارِ

ومنها :

أَلَقَى بِأَيْدِي الرِّيحِ فَضَّلَ عَنانَهُ
فِيكَادُ يَسْبِقُ لَمَحَةَ الأَبْصارِ

ومنها :

فَفي المِرابِ مَتى أثِرتَ يَومَ الوَغَى^٤ قَدْ أَعْرَبْتَ عَنِ لَطْفِ صُنْعِ الباري

١ بين هذا البيت وسابقه في أزهار الرياض : ومنها معه كثير .

٢ الأزهار : مداركها .

٣ الأزهار : العزم .

٤ الأزهار : متى أثِرتَ في الوغَى ؛ ق : أثِرتَ يوم .

ومنها :

إن خاض في ليل العجاج رأيتُهُ
يُخلو دُجَّتَهُ بوجهٍ نهارٍ

ومنها :

كم فيهمُ من قارٍ غيبٍ طارقٍ
وضحتُ شواهدُ فضلهِ القارِ

ومنها :

يا أيُّها الملكُ الذي أيامُهُ
قد زاركَ العيدُ السعيدُ ميسراً
لما ازدحمتهُ عواطفُ ألفتها
فأتى يؤمُّ منك هدياً صالحاً
وأناك يسحبُ ذيلَ سحبٍ أغدقتُ
جادت بحاري اللعَم من قطْرِ الندى
فأعاد وجهَ الأرضِ ملكاً مشرقاً
لما دعاكَ إلى القيامِ بسنةٍ
فأفضتُ فينا من نداءك مواهباً
فأنا بعيدٍ عاد يشتملُ الرضى

ومنها :

لا عُدَّ لي إن كنتُ فيه مقصراً
فإذا نظمتُ من المناقبِ درهماً
فذلك أنظمتها قلادةً لؤلؤ
سدَّتْ صفاتك أوجهَ الأعداءِ
شرّفتني منها بتنظيمِ دروي
لألاؤها قد شَفَّ بالأنوارِ

وأشدد على لحدته المقدس رحمه الله تعالى ١ :

ضريح أمير المسلمين محمد
وحيتك^١ من روح الإله نحية^٢
وشقت جيوب الزهر فيك كاتم^٣
وصابت من الرحمى عليك غمام^٤
وزادتك من حور الجنان أوانس^٥
وجاءتك باليشرى ملائكة الرضى
وصافح منك الروض أطيب تربة^٦
رضى الله والصفيح الجميل وعفوه^٧
ويا صدقاً قد فاز من جوهر الملا^٨
أعتك أن العلم والحلم والحمى
وهل أنت إلا هالة القمر الذي
ويا عجباً من ذلك الرب كيف لا^٩
لقد ضاقت الأكوان وهي رحمة^{١٠}
قدمت على الرحمن أكرم مقدم^{١١}
أقام بك المولى الإمام محمد^{١٢}
ضجاء كما ترضى وترضى به العلا^{١٣}
ومد ظلال العدل في كل وجهة^{١٤}
وقام بمفروض الجهاد عن الورى^{١٥}
قضى بعدما قضى الخلافة حقها^{١٦}

يخصك ربي بالسلام الردد
مع الملا الأهل تروح وتفندي
يرف بها الرمان عن خصيل ندي
تروي ترى هذا الضريح المنجد
نواهم في كل النعيم المخلد
كما جاء في الذكر الحكيم المجدد
وخاهد منك المزن أكرم مهد
يؤلى على ذاك الصفيح المنضد
بكل^{١٧} قيس بالغماسة مفرد
وزهر الحل قد أدرجت ظني مكنود
بنور هداه الشهب تهدي وتهدي
يفيض ببحر السماحة مزبد
بما حزنت من فخر عظيم وسودد
وزودت من رحماه خير مزود
مؤمل فوز بالشفيع محمد
أنجز للأمال أكرم موعد
وكف أكف البغي من كل معتد
وصود دين الله خسير معود
وعامل وجه الله في كل مقصد

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ١٥٢ .

٢ الأزهار : وسياك .

٣ الأزهار : حاز ... لكل .

وَفَتَحَ بِالسَّيْفِ الْمَالِكَ عَنُوةً
 وَكَسَرَ تَمَالُكَ الصَّلِيبِ وَأَخْرَسَتْ
 وَطَهَرَ مَحْرَاباً وَجَدَّ مَنْبَرًا
 وَدَانَتْ لَهُ الْأَمْلَاقُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 وَطَبَّقَ مَعْمُورَ الْبَسِيطَةِ ذِكْرُهُ
 وَسَافَرَ عَنْ دَارِ الْقَنَاءِ لِيَجْتَلي
 وَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ حَقَّ قِيَامِهِ
 لَئِنْ سَارَ لِلرَّحْمَنِ خَيْرٌ مَوْعِدٍ
 فَقَدْ خَلَّفَ الْمَوْلَى الْخَلِيفَةَ يَوْسُفًا
 سَبِيلَكَ فِي سَبْلِ الْمَكَارِمِ يَقْضِي
 مُحَمَّدٌ جَلَى الْخَطْبِ مِنْ بَعْدِ يَوْسُفَ
 وَلَوْ وَجَّهَ النَّاسُ الْقِدَاءَ مَسْوَغًا
 سَتَبْكِيكَ أَرْضٌ كُنْتَ غَيْثَ بِلَادِهَا
 وَتَبْكِيكَ عَلَيْكَ السَّحْبُ مَلَّ جَفُونَهَا
 وَتَلْبَسُ فَيْكَ الثِّرَاثُ ظِلَامَتَهَا
 وَمَا هِيَ إِلَّا أَعْيُنٌ قَدْ تَسْهَدَتْ
 فَلَا زِلْتَ فِي ظِلِّ النِّعَمِ عُلْدَا
 وَأُورِدَكَ الرَّحْمَنُ حَوْضَ نَبِيِّهِ
 عَلَيْكَ سَلَامٌ مِثْلُ حِمْلِكَ عَاطِرٌ
 وَصَلَّى عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

ومدت له أملاكها كف مجتد
 نواقيس كانت للضلال بمزج
 وأعلن ذكر الله في كل مسجد
 وكلهم ألقى له الملك باليد
 وسارت به الركبان في كل قد قد
 بما قدّم اليوم السعادة في غد
 بعزّة لا وان ولا متردد
 وحلّ من القردوس أشرف مقعد
 يعيد له غرّ المساعي ويتنبد
 وهدّيك يا خير الأئمة يقتندي
 ويوسف جلّ الخطب بعد محمد
 فذاك يبدل النفس كل موحد
 وتبكيك حتى الشهب في كل مشهد
 بلعم يروني غلّة المجدي الصدي
 حداداً ويذكي النجم جفن مسهد
 فكحلّها نجم الظلام بإثم
 ونجلّك يحيا بالبقاء المخلد
 وأصدر من خلقت عن خير مورد
 يفضّ ختام المسك عن تربك الندي
 صلاة بها نرجو الشفاعة في غد

وقال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجاج^١ :

بما قد حزت من كرم الجلال
بما خولت من دين ودنيا
بما أوليت من صنع جميل
تعدني بفضلك ، واغفرها
وقال أيضاً ٢ :

أَتَعَطَّشُ أَوْلَادِي وَأَنْتَ خِمَامَةٌ
وَتَظْلُمُ أَوْقَاتِي وَوَجْهَكَ نِيرٌ
وَجَدُّكَ قَدْ سَمَّاكَ رَبُّكَ بِاسْمِهِ
وَقَدْ كَانَ أَعْطَانِي الَّذِي أَنَا سَائِلٌ
وَسِعْبِرِّي فِي غُرِّ الْمَصَانِعِ خَالِدٌ
وَمَا زِلْتُ أَهْدِي الْمَدْحَ مَسْكَامُتَقَا
وَقَدْ أَكْثَرَ الْعَيْدُ التَّشْكِيَّ وَإِنَّهُ
وَمَا الْجُودُ إِلَّا مَيْتٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ
فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْعُو لِدِينِ مُحَمَّدٍ

وقال أيضاً فيه وقد نزل بالولجة من مرج الحضرة :

مَثَلُ الْيَحْنِ وَالرَّضَى وَالسَّوْدِ
كُلُّ يَوْمٍ نَزَاهَةٌ إِنْ تَقَضَّتْ
أُنْجَزَتْ فِيهِ صَادِقَاتُ الْوَعْدِ
يَعْنِ بِأَسْ عَمَّ الْمُلُوكُ وَجُودِ
أَنْشَدَهَا السَّوْدُ : يَا لَهِ هُودِي

١ الأزهار : المال .

٢ ق : تشبها .

٣ الأزهار : ومن ذلك أيضاً يخاطب أمانا السلطان أبا عبد الله رحمة الله تعالى عليه متوسلاً بقدم
خامه ، والمقدم المتقدمة من نظامه .

فاهنٌ في غبطةٍ وعزةٍ مُلكٍ
أنت والله فخرٌ هذا الوجودِ
وقال أيضاً مشيراً لتوليته العلامة :

لك غُرَّةٌ ودَّ الصبايحُ جمالها
وشمائلٌ تمكي الرياضُ غلالها
للمستعين خلافةٌ نصريَّةٌ
وأنا الذي قد نالَ منك معاليُ
تهديهِ ما قد نلتَ من بعضها
فالقفرُ كلُّ القفرِ فيمن نالها
في كلِّ يومٍ منك منَّةٌ منعمٍ
لو طاولتُ سمكَ السما ما طالها
بلغْتَ آمالَ العبيدِ فيلجَّتْ
وعحسنُ تهوى البُورُ كالها
وأنا ملُّ فرجو الأنامُ خلاها
عرفتُ ملوكُ العالمين جلالها
تهدي النجوم الزاهرات منالها
فالقفرُ كلُّ القفرِ فيمن نالها
لو طاولتُ سمكَ السما ما طالها
فبك العبيدُ من البقا آمالها

وقال أيضاً وكتبها إليه مع خمسة أقلام :

أيا ملكاً لم يَبْدُ للعين حُسْنُهُ
سوى ملكٍ قد حلَّ من عالم القدسِ
لك الخير - خطها كالأناملِ خمسةٌ
تُموِّدُ مرآكَ المكملِّ بالخمسِ
فمن أبصرت عَيْنَكَ مرآةً قليلاً
أعوذُ بربِّ الناسِ أو آيةِ الكرسي

ثم قال ابن الأحمر : وقال يخاطب مولانا الوالد رحمة الله تعالى عليه وقد مرَّ
معه بفتح حصريّة ، والثلج قد عمَّ أنديته ، وبسط أرديته ، في وجهة توجهها
مولانا الجلد تغمده الله تعالى إلى مالقة :

يا مَنْ به رُتِبُ الإمارةُ تعلى ومعالِمُ الفخرِ المشيدةُ تَبْتِي

١ ق : ترجى .

٢ الأزهار : جمالها .

٣ الأزهار : سك الملا .

٤ الأزهار : العالي .

ازجرُ بهلما الطلجُ فالأُزنه تلجُ اليقينُ بنصرِ مولانا الغني
 بسطَ البياضَ كرامةً لقلوبهِ واقتَرَّ ثغراً عن مسرةٍ معني
 فالأرضُ جوهرةٌ تلوحُ لمجلٍ والدوحُ مزهرةٌ تنوحُ لمجني
 سبحانه من أعطى الوجودَ وجودَهُ ليدلُّ منه على الجوادِ المحسينِ
 وبلائعُ الأكوانِ في إقنانها أثرٌ يشيرُ إلى البديعِ المتقنِ

ثم قال : ومن أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد الله ابن الخطيب
 مادحاً قوله :

أما وانصداعِ الثورِ من مطلعِ الفجرِ

إلى آخره ، وقد نقلت .

ثم قال : وقال يرايح الكاتب أبا زكريا ابن أبي دلالة^١ :

على الطائرِ الميمونِ والطارِ السعدِ أنثى مع الصنع الجميلِ على وعدِ
 وأحييت يا يميني بها نفسَ مغرمٍ يحيلُ جياةَ الدمعِ في ملعبِ السهدِ
 نسيتُ وما أنسى وفائي وخلفي وأقهر ربيعُ القلبِ إلا من الوجدِ
 وما الطلُ في ثغرٍ من الزهرِ باسمٍ بأزكى وأصفى من ثنائي ومن ودي
 فأصنعتها من بحرِ فكري جواهرأ تنظم من درِّ الدراري في عقدِ
 وكنتُ أطيلُ القولِ إلا ضرورةً دهني إلى الإيجازِ في سورةِ الحمدِ

وأشدُّ السلطان أبا العباس المرمي في غراب^٢ ! من إنشائه :

أإنسانَ عينِ الدهرِ جفئتكَ قد خدا يصفك منه طائرُ اليُحْنِ والسعدِ
 إذا ما هتما فوق الزؤوسِ شراعه أراك جناحاً مدُّ للجزرِ والمدِّ

١ أزهار الرياض ٤ : ١٧٥ .

٢ الغراب : نوع من السفن .

وأنشد فيه أيضاً :

لك الخير شأن الجفن يحرم عينه وهذا بين الله يحرم دائما
تبيت له خمس الثريا معلقة تقلده زهر النجوم تماثما
فيا جفن لا تنفك في الحفظ دائما وإن كنت في لحن من البحر عالما
انتهى ما لخصته من كلام ابن الأحمر في حق ابن زمرك ، وذلك جملة من
نظمه .

[موشحات ابن زمرك]

وقد رأيت أن أعز ذلك بعض موشحات ابن زمرك المذكور^١ مما انتقته
من كلام ابن الأحمر .
فمنها قوله مشوقاً إلى غرناطة ويمدح الغني بالله :

بالله يا قامة القضيبي	وجعل الشمس والقمر
من ملك الحسن في القلوب	وأيد الحظ بالحوور
من لم يكن طبعه رقيقا	لم يدر ما للده الصبا
فرب حر جندا رقيقا	تملكه نفحة الصبا
نشوان لم يشرب الرقيقا	لكن إلى الحسن قد صبا
فعدب القلب بالوجيب	وتعم العين بالنظر
وبات والدع في صيب	يقدر من قلبه الشر

١ في الأزهار : وقد عن لي أن أذكر جملة من موشحات لمرابطها ، ولأن جل ما وثقت عليه منها
ينخرط في سلك الحرب ، إذ أكثره من خلق البسيط .

صَجِبْتُ مِنْ غَلْبَى الْمُنَى	يهفو إذا هبَّت الرياحُ
لو كان للصَّبِّ ما تَمَنَّى	لطارَ شوقاً إلى البطاحِ
وبُلْبُلُ الدَّوْحِ إن تَفَنَّى	أَسَهَرَ ليلي إلى الصباحِ
عساكَ إن زرتَ يا طيبي	بالطيفِ في رقدة السَّحَرِ
أن تجملَ النومَ من نصيبي	والعينَ تَحْمِي من السهرِ
كَمْ شادنٍ قَادَ في الخُتُوفِ	بمِرْيَعِ القَلْبِ قَدْرَ سَكَنِهِ
يَسْلُ مِنْ لَحْظَةٍ سَيُوفِ	فالقلبُ بالروحِ ما سَكَنَ
خَلَقْتُ مِنْ عَادَتِي أَلُوفِ	أَحْنُ لَلْإِلْفِ وَالسَكَنِ
غُرْنَامَةٌ. مَنَزَلُ الحَيِّبِ	وَقَرَّبَتْهَا السُّؤْلُ وَالوَمَرُ
تَبْهَرُ بِالنَّظَرِ الصَّجِيبِ	قَلَا عَدَا رَبَّعَهَا المَطَرُ
عُرُوسَةٌ تَاجُهَا السِّيَكَةُ	وَزَهْرُهَا الحَلِيُّ وَالْحُلُّ
لَمْ تَرْضَ مِنْ هَزْأِ شَرِيكَةِ	بِحَسَنَتِهَا يُضْرَبُ المَثَلُ
أَيَّدَهَا اللهُ مِنْ مَلِكِهِ	تَمْلِكُهَا أَشْرَفُ الدُّوَلِ
بِدَوْلَةٍ المَرْتَجَى المَهِيْبِ	الْمَلِكِ الطَّاهِرِ الأَخْصَرِ
تُخَالُ مِنْ بُرْدِهَا القَشِيبِ	فِي حُلَّةِ التَّوَرِ وَالزَّهَرِ
كَرْسِيَّهَا جَنَّةُ العَرِيفِ	مَرَاتِمَا صَفْحَةُ العَنِيدِ
وَجَوْهَرُهَا العُلَّالُ عَنْ شَوْفِ	تَحْكُمُهَا صِنْتَةُ القَنِيدِ
وَالْأَنْسُ فِيهَا عَلَى صَنُوفِ	فَمِنْ هَدِيلٍ وَمِنْ هَدِيدِ

١. الأزهار : بلا جنس .

كم يحرق الزهرُ من جيوبِ	وكللُ القُصْبِ بالدرِّ
فالغُصْنُ كالكاكبِ السَّوْبِ	والطيرُ تشلو بلا وترِ
ولا تمُ النصرُ في احضالِ	وفرِحُ دينِ المعوى ^١ جديدِ
سلطانها مُعَمِّلُ العوالي	عمد الظافرُ السعيدِ
وغجلُ البدرِ في الكمالِ	سلطانها المجتبي الفريدِ
أصْفَحَ طَوَلِي عن الذنوبِ	أكرمُ عافٍ إذا قلدِ
وشمسُ هَدْيٍ بلا مغيبِ	وبحرُ جودٍ بلا حَسَرِ
مولاي يا عاقدَ البنودِ	تظللُ الأوجُه الصُّباحِ
أوحشتُ يا نَجْمَ الوجودِ	غرناطة هالكة السَّماحِ
سافرتُ باليُمنِ والسعودِ	وعدتُ بالفتحِ والنجاحِ
يا ملُهم القلب للغيوبِ	ومُطعِمِ النصرِ والظفرِ
أسمعك الله عن قريبِ :	« على السلامة من السفر »

وقال أيضاً^٢ من الموشحات الرائقة^٣ ، في مثل أغراض هذه السابقة ، وأشار إلى حماس من وصف النشار :

نسيمُ غرناطة حليلُ	لكنه يبرىء العليلِ
وروضها زهره بليلُ	ورشفه يتنعم النليلِ
سقى بنجد ربي المصلّى	مباكرأ روضه الغمامِ
فجفنه كلما استهلا	تبسم الزهر في الكيامِ
والروض بالحسن قد تحلى ^٤	وجرد النهر عن حاسمِ

١ الأزار : المعوى .
٢ الأزار : الرائقة .
٣ ق : ثم ذكر .
٤ الأزار : قيل .

ودوحها ظلهُ ظليلُ يحسنُ في ربهِ المقيـلُ
 والبرقُ والجوُّ مستطيلُ يلبُّ بالصارمِ الصقيـلُ
 عقبةُ تاجها السبيكةُ تطلُّ بالمرقبِ المنيفُ
 كأنها فوقهُ ملكهُ كرسىها جنةُ العريفُ
 تطبعُ من صجدِ سبيكهُ شمسها كلما تطيفُ
 أبدعك الخالقُ الجميلُ يا منظرأ كلهُ جميلُ
 فكلني إلى حسنه يميلُ وقبلنا قد صبا جميلُ
 وزاد الحسنُ فيكَ حسنا محمدُ الحمدِ والسمـحُ
 جدُّ للفخرِ فيكَ معنىُ في طالعِ اليمنِ والنجاحِ
 تدعى دشارأ وفيكَ معنى ينصتُ الفسألُ بـافتتاحِ
 فالنصرُ والسعدُ لا يزولُ لأنهُ ثابتُ أصـيلُ
 سعدُ وأنصاره قبيـلُ آباؤه عيرةُ الرسـولُ
 أبدى به حكمةَ التعليلِ وتوجَّ الروضُ بالقباـبِ
 ودرعَ الزهرِ بالفتيلِ وزينَ النهرَ بالحباـبِ
 فمنَ هليلٍ ومن هليلِ ما أولعَ الحسنُ بالشباـبِ
 كبت على روضها القبولُ وطرפהُ بالسرى ككـيلُ
 فلم يزلَ بينَها يجولُ حتى تبدتْ لهُ حُجـولُ
 للزهرِ في عطفها رقومُ تلوحُ للعينِ كالنـجومِ
 وللندى بينَها رسومُ عقدُ الندى فوقهُ تـظيمُ
 وكلُّ وادٍ بها يهيمُ ولم يزلَ حولها يحومُ

١ ق : سى .

شئيلها مد منه نيل وعين واد به تسيل
والشين ألف المستيل من فوق خدر له أسيل

كم من ظلال به ترف ومن زجاج به يشف
تصفو له فوقها ستور ما بين نور وبين نور
ومن شمس بها تصف تديرها بيتها البلور

مزاجها العليب سليل وكيف والشيب لي حلول
يا هيل إلى رشفها سليل وصيغه صفرة الأصيل

يا سرحة في الحمى ظليله روضك الله من حميله
كم نلت في ظلك المني ينجي بها أطيب المني
وبرقها صادق المخيلة ما زال بالغيث حسنا

أنجز لي وعدك القبول فلم أقل مثل من يقول
يا صرحة المني يا مطول شرح الذي بيتنا يطول

ومن ذلك ما كتب به إلى الغني بالله ؟

أبلغ لفرناطة سلامي فلو رمى طيفها دمامي
وصف لها عهدي السليم ما بت في ليلة السليم

كم بت فيها على اقتراح أدير فيها كؤوس راح
أكل من عصرة الرضاب قد زانها الثغر بالحباب
أختل كاللهر في الجراح نشوان في روضة الشباب

أضاحكُ الزهر في الكمامِ مباحياً روضهُ الوردِ
وأفضعُ الغصنَ في القوامِ إن هبَّ من جوها نسيمُ

بيننا أنا والشبابُ ضافٍ وظلُّهُ فوقنا مديدُ
وموردُ الأُنسِ فيه صافٍ وبرده رائقٌ جديدُ
إذ لاح في القودِ غير خافٍ صبحٌ به نبه الوليدُ

أيقظَ مَنْ كان ذا منامٍ لما انجلى ليلهُ اليهمِ
وأرسلَ النسيمَ كالغمامِ في كلِّ وادٍ به أهِمِ

يا جيرةَ عهدهمُ كرمٍ وفعلهمُ كلُّه جميلُ
لا تغدوا الصبَّ إذ يهيمُ لقبله قد صبا جميلُ
القربُ من ربِّكم نعيمُ وبُعْدكم خطبهُ جليلُ

كم من رياضٍ به وسامٍ يزُهرى بها الرافضُ المسيمِ
غديرها أزرقُ الحمامِ ونبتها كلُّه جسيمُ^٢

أعندكم أنسي بفاشٍ أكابدُ الشوقَ والحزينِ
أذكرُ أهلي بها وناسي واليومُ في الطولِ كالستينِ
اللهُ حسبي فكم أقامي من وحشةِ الصبحِ والبنينِ

مطارحاً ساجعَ الحمامِ شوقاً إلى الإلفِ والحميمِ
والنمغُ قد لجَّ في انسجامِ وقد وهى عقدهُ التنظيمِ

١ الأزهار : الرائد .

٢ ق : جسيم .

يا ساكني جنة العريف	أُسكنتمُ جنةَ الخلودِ
كم تمّ من منظرٍ شريفٍ	قد حُفّ باليمن والسعودِ
ورُبّ طودٍ به منيفٍ	أدواحه الخضرُ كالبنودِ
والنهرُ قد سلّ كالخمامِ	لراحةِ الشربِ مستديمِ
والزهرُ قد راق باجسامِ	مقبلاً راحةَ التديمِ
بلغ عبيد المقامِ صحي	لا زلتمُ الدهرَ في هنا
لقاكمُ بغيةُ الحبِّ	وقربكمُ غايةُ المني
فعدكمُ قد تركتُ قلبي	فجدد اللهُ عهدنا
وداركُ الشملِ بانتظامِ	مينُ مرجي فضله الميمِ
في ظلّ سلطاننا الإمامِ	الظاهرِ الظاهرِ الحكيمِ ^٢
مؤمنُ العلوتينِ ممّا	يخافُ من سطوةِ العدا
وفارجُ الكربِ إن أَلّا	ومذهبُ الخطبِ والرّدى
قد راق حسناً وفاقَ حلما	وما عدا غير ما بكدا
مولاي يا نجبة الأنامِ	وحاترِ الفخرِ في القديمِ
كَمْ أرقبُ البدرَ في التمامِ	شوقاً إلى وجهك الكريمِ

منها موشحة عارض بها موشحة ابن سهل التي أولها « ليل الهوى يقظان »

وهي :

نواسمُ البُستانِ	تثرُ سلكَ الزهرِ
والطللُ في الأغصانِ	ينظمه بالجوهرِ

١ ق : من يرتجي .

٢ ق : الحكيم .

وراحة^١ الإصباح^٢ أضواء منها المشرق
تنشرها الأرواح^٣ فلا تزال تخفق^٤
والزهر^٥ زهر^٦ فاح^٧ لها عيون^٨ ترمق^٩
فتأبى^{١٠} النسيم^{١١} جواهر^{١٢} الشهبان^{١٣}
قد عرضت^{١٤} للمشتري^{١٥} يا أيها البارق^{١٦}
أذكرتني عهدا^{١٧} إذ الشباب^{١٨} راق^{١٩}
فالشوق^{٢٠} لا يهدأ^{٢١} ولا الفؤاد^{٢٢} الخافق^{٢٣}
وكيف بالسُلوان^{٢٤} والقلب^{٢٥} رهن^{٢٦} الفكر^{٢٧}
وسحب^{٢٨} المجران^{٢٩} تحجب^{٣٠} وجه^{٣١} القمر^{٣٢}
لولا شمس^{٣٣} الكاس^{٣٤} نديرها بين^{٣٥} البلور^{٣٦}
وعرج^{٣٧} الإنسان^{٣٨} منا على ريع^{٣٩} الصدور^{٤٠}
لكن لها وسواس^{٤١} يغري بربكات^{٤٢} الخلود^{٤٣}
كم^{٤٤} والله^{٤٥} هيمان^{٤٦} أصبح^{٤٧} وجه^{٤٨} مسفر^{٤٩}
ضياؤه^{٥٠} قد بان^{٥١} من تحت^{٥٢} ليل^{٥٣} مقمر^{٥٤}
يا مطلع^{٥٥} الأنوار^{٥٦} كم فيك من مرأى جميل^{٥٧}
ونزهة^{٥٨} الأبصار^{٥٩} ما ضر^{٦٠} لو تشفى^{٦١} الغليل^{٦٢}
يا روضة^{٦٣} الأزهار^{٦٤} وعرفها^{٦٥} يجري^{٦٦} العليل^{٦٧}

١ الأزهار : رواية .

٢ ق : الشبان .

قضييُك القينان^١ يُسقى بلعم^٢ همير
 فلاصج^٣ الأشجان^٤ فيض^٥ الدموع يمري^٦
 هل في الموى ناصر^٧ أو هل يجار^٨ الحالم^٩
 لو كان^{١٠} لي زائر^{١١} طيف^{١٢} الخيال الحالم^{١٣}
 ما بت^{١٤} بالساهر^{١٥} ودمع^{١٦} عيني ساجم^{١٧}
 والحب^{١٨} ذو جدوان^{١٩} يجهد^{٢٠} في ظلم البري^{٢١}
 وصارم^{٢٢} الأجفان^{٢٣} مؤيد^{٢٤} بالحوار^{٢٥}
 رحماك في صب^{٢٦} أذكرته عهد^{٢٧} العبا^{٢٨}
 بواعث^{٢٩} الحب^{٣٠} قادت^{٣١} إليه الوصبا^{٣٢}
 لم^{٣٣} تهف^{٣٤} بالقلب^{٣٥} ربح^{٣٦} العبا^{٣٧} إلا صبا^{٣٨}
 بكيلة^{٣٩} الأردن^{٤٠} قد ضمخت^{٤١} بالعزيز^{٤٢}
 يشير^{٤٣} غصن^{٤٤} البان^{٤٥} منها بفضل^{٤٦} المتر^{٤٧}
 طيبها^{٤٨} حمد^{٤٩} فخير^{٥٠} الملوك المجنى^{٥١}
 من^{٥٢} يرجع^{٥٣} الطود^{٥٤} من حلمه^{٥٥} إذا احتجى^{٥٦}
 قد^{٥٧} جرد^{٥٨} السعد^{٥٩} منه^{٦٠} حكاماً^{٦١} ملهبا^{٦٢}
 فالباس^{٦٣} والإحسان^{٦٤} والفنوت^{٦٥} للمستنصر^{٦٦}
 تحملته^{٦٧} الركبان^{٦٨} تحية^{٦٩} المنبر^{٧٠}
 عصاية^{٧١} الكتاب^{٧٢} حق^{٧٣} لها القوز العظيم^{٧٤}
 تحال^{٧٥} في أثواب^{٧٦} ألبسها^{٧٧} الطول الجسيم^{٧٨}
 فحبها^{٧٩} الإطناب^{٨٠} في الحمد^{٨١} والشكر^{٨٢} العيم^{٨٣}

١ ق والأزهار : يجري ٢ وامري اتصل من مري بمن استمر . ٣ ق : هيا .

خليفة الرحمن
يا مورد الظماني
لا زلت سامي المظهر
ورأس مال المسر

خذها على دعوى
جاءت كما تهوى
تزري على الرض الوسيم
أرق من لدن التسيم
قد طارحت شكوى

«ليل الهوى يقظان»
«والصبر لي خوان»
والحب يرب السهر
والنوم من عيني بري

وله في الصبوحيات :

ريانة الفجر قد أملت
رواية الصبح قد أظلت
خضراء بالزهر تزه
في مرقب الشرق تشهر

فالتحجب من غارة المباح
وأدهم الليل في جماع
ترعد خوفاً وتحقق
أحثة البرق يطلق
والأفق في ملتقى الرياح

والسحب بالجوهر استهلت
صفاحه المدهبات حلت
فالبرق سيف مجوهر
في راحة الجوّ تشهر

كم للصبا بسم من مقبل
والنهر كالصارم الصّقل
بطيه الزهر يشهد
في حلية النور يغمد
ورب قال به وقيل

فالسّن الورق قد أملت
ونسمة الصبح قد تجملت
مدائحاً عنه تشكر
في سندس الروض تعبر

١ الأجزاء : زلمي .

والكاسُ في راحة النديمِ
أقيستِ النار في القديمِ
والنهرُ في ملعب النسيمِ
فلَبَّتُ الحَكَمي^١ قد تَحَلَّتْ
وبهجة الكون قد تَجَلَّتْ
يُدْكرني وجنة الحبيبِ
وشاربَ الشاربِ العجيبِ
يديرو من ثغره الشيبِ
حَلَّتْ لأهل الهوى وجلَّتْ
كَمْ من نفوسٍ بها تَلَّتْ
يا غُصْنُ بَانٍ يَمِيلُ زَهْوَا
لو كنتَ تصفي لرفع شكوى
ومن لثلي بَيْتَ نَجْوَى
عزائمُ الصبرِ فيك حَكَّتْ
قد أَكْثَرْتَ منك ما اسْتَقَلَّتْ
كَمْ لَيْلَةٌ بَتَّهَا وَبَتَا
أَسَامِرُ النَجْمِ فيك حَقِي
أَرْقُبُ بِلَدَ الدَّجَى ، وَأَنَا
يَحُلُّو بها غيبِ المومِ
من قبل أن تَحُلْنَ الكرومِ
للزهر في عِطْفِهِ رَقُومِ
والطلُّ في الحلي^٢ جوهر
والروضِ بالحسنِ يَبهر^٣
والآسَ في صفحة العذار
بَسِينِ أَقْصَحِ وَجَلَّتْ
سُلَاقَةُ دُونِهَا الْعُقَارِ
بِالذِّكْرِ والوهمِ تُسَكَّرُ
فَمَا لَهَا الدَّهْرُ مِنْكَرُ
رِيَّانَ في روضةِ الشبابِ
أَطَلَّتْ من قصَّةِ العقابِ
للبلدِ في رُفْرِ السَّحَابِ
وعقيدةُ الصبرِ تَلْخُرُ
وَلَيْتَ لو كُنْتَ تَشعرُ
ضِدِينَ في السُّهْلِ والرقَادِ
عَلِمْتُ أَجْفَانَهَا السَّهَادِ
قد لَحَتْ في هَالَةِ الْقَوَادِ

١ ق : الشمس .

٢ الأزمَار : القصب .

٣ ق : يزهر .

٤ الأَزْخَار : أَجْفَانُهُ .

نَفْسِي وَكَلَيْتَ مَا تَوَلَّيْتُ دَعَاها عَلَى الشَّوْقِ تَصْبِرُ
لَوْ سُمِّتَها الْمَجْرَمَ مَا تَوَلَّيْتُ وَلَمْ تَكُنْ عَنْكَ تَفْرُ

عَلِمَها الصَّبْرُ فِي الْحُرُوبِ سُلْطَانُنا عَاقِدُ الْبُنُودِ
مَعْتَرِ الصَّيْدِ لِلْجَنُوبِ أَعَزُّ مِنْ حُفٍّ بِالْجُنُودِ
نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ فِي الْقُلُوبِ وَالْبَيْضُ لَمْ تَبْرَحِ الْعُمُودِ

عَناءَةُ اللَّهِ فِيهِ حَلَّتْ بِسَعْدِهِ الدِّينُ يُنْصَرُ
وَالْخَلْقُ فِي عَصْرِهِ تَمَلَّتْ غَنائِمًا لَيْسَ تُحْصَرُ

مَوْلَايَ يَا نَكْتَةَ الزَّمَانِ دَارَ بِمَا تَرْتَضِي الْفَلَكُ
جَلَلْتُ بِالْيُمْنِ وَالْأَمَانِ كُلُّ مُلِكٍ وَمَا مُلْكُ
لَمْ يَدِرْ وَصْفِي وَلَا حَيَايَ أَمَلِكُ أَنْتَ أَمْ مُلْكُ

جُنُودِكَ الْغُلْبُ حَيْثُ حَلَّتْ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ تُخْفَرُ
وَعَادَةُ اللَّهِ فَيْكَ دَلَّتْ أَنْتَ بِالْكَفْرِ تَظْفَرُ

يَا آيَةَ اللَّهِ فِي الْكَمَالِ وَمُخْجَلِ الْبَدْرِ فِي التَّمَامِ
قَلَمْتُ بِالْمَرْ وَالْجَلالِ وَالنَّهْرُ فِي ثَغْرِهِ ابْتِسامِ
بِخِتَالٍ فِي حُلَّةِ الْجَمالِ وَالْبَدْرُ قَدْ عَادَ فِي اخْتِتامِ

رِيحانةُ الصَّجَرِ قَدْ أَطْلَتْ خَضراءُ بِالزَّهْرِ تَزْهَرُ
وَرَايَةُ الصَّبْحِ قَدْ أَطْلَتْ فِي مَرْقَبِ الشَّرْقِ تَنْشُرُ

وقال سابعه الله تعالى .:

قَدْ طَلَعَتْ رَايَةُ الصَّبَاحِ وَأَذْنَ اللَّيْلِ بِالرَّحِيلِ
فَبَاكَرَ الرُّوضِ بِاصْطِباحِ وَاشْرَبَ عَلَى زَهْرِ الْبَلِيلِ

فَالْوُرُقُ هَبَّتْ مِنَ السَّيَّاتِ
تَسْجَعُ مَفْتَنَةَ اللَّفَافِ
وَالْفُغْمَنُ بَعْدَ النَّهَابِ يَأْتِي
لِلسَّيْرِ الدَّوْحِ نَحْبُ

وَأَدْمَعُ السَّحْبِ فِي الْبُيَاحِ
وَالْجَوَّ مُسْتَبْشِرُ النَّوَاحِ
فِي كُلِّ رَوْضٍ لَهَا سَبِيلُ
يَلْمُبُ بِالصَّارِمِ الصَّقِيلِ

قَمِ قَاغُظْ بِهَجَةِ النُّفُوسِ
وَشَقَّعِ الصَّبِيحَ بِالشُّمُوسِ
وَنُبِّهِ الشَّرْبَ لِلْكُؤُوسِ
مَا بَيْنَ تَوْرٍ وَبَيْنَ ثَوْرٍ
تَدِيرُهَا بَيْنَتَا الْبِلُورِ
تَمْزِجُ مِنْ رَيْقَةِ الثُّغُورِ

مَا أَجْمَلَ الرَّاحَ فَوْقَ رَاحِ
تَغَادِرُ الصَّبْرَ ذَا انْشِرَاحِ
صَفَرَاءُ كَالشَّمْسِ فِي الْأَصِيلِ
لِلْأَنْسِ فِي طَيْهِ مَقِيلِ

وَلَا تَكْذُرْ عَمْرَةَ الْجُفُونِ
وَلَتُخْشَ مِنْ أَسْهَمِ الْعُيُونِ
عَرَضَتْ مِنْهَا إِلَى الْفُتُونِ
فَسَكَّرَهَا فِي الْهَوَى جُنُونِ
فَلِئَلَّهَا رَائِدُ الْمُنُونِ
وَكُلُّ غَطَبٍ لَهَا يَهُونِ

أَهْمِمْ بِالْفَسَادَةِ الرَّوَاحِ
لَوْ بَتَّ مِنْهَا عَلَى اقْتِرَاحِ
وَالْجَسْمُ مِنْ حَبْثِهَا عَلِيلُ
نَقَعَتْ مِنْ رَيْقِهَا الْعَلِيلُ

أَوَاعِدُ الطَّيِّفِ الْمَتَامِ
أَسْهَرُ فِي لَيْلَةِ التَّمَامِ
وَأَلْمُ الزَّهْرِ فِي الْكِيَامِ
وَمِنْ لِمَعَتِي بِإِلْمَامِ
وَأَنْتَ يَا بَدْرُ فِي التَّمَامِ
عَلَيْهِ مِنْ فُتْرِكَ ابْتِمَامِ

سَفَرْتُ عَنْ مِهْمِ الْأَقَاخِ
قُلْ لِي يَا رَبَّةَ الْوُشَاخِ
وَرَيْقُكَ الْعَذْبُ سَلْسِيلُ
هَلْ لِي إِلَى الْوَصْلِ مِنْ سَبِيلِ

يا كعبة الحسن زدت حسنا وللهوى حولك المتطاف
وغصن بان إذا تثنى لو حان من زهرك القطف
ألا انعطاف على المعنى فالغصن يزهى بالانعطاف
أصبحت تزهو على الملاح بذلك المتنظر الجميل
ووجهك الشمس في انضاح لو أنها لم تكن تميل
ما الزهر إلا ينظم ذو تصد في حسنه العقود
للكمك الظاهر الأغر أكرم من حفت بالسود
محمد الحمد وابن نصر وبسط العدل في الوجود
مساجل السحب في السحاب بالغيث من رفده الجليل
ومضج البلبل في التباح بشرة ميا لها مثل
يا مخترب الحب في القلوب دواهي الصفح للصفاح
فصيرت بالرهب في الحروب والرهب أجلى من السلاح
قد لحت من علم الغيوب لم تعلم القوز والفلاح
مراكش تبه افتاح والصنع في قشها جليل
بشراك بالفتح والنجاح والشكر من ذلك التليل

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

في كل يوم من النفر من ذاك النفس راحة الأرواح
وتفتى الروض مسكي النفس عاطرة الأرواح
وكسا الأرواح زياً مذهباً يهبر الشمسنا

صجدٌ قد حلَّ من فوق الربِّي يبَّهَجُ النفسا
 فاتخذَ للهو فيه مركبا تلحقِ الأنسا
 منيرُ النُصْنِ عليه قد جكَّسَ ساجعُ الأرواحِ
 حلَّلَ السِّلْسِلَ خُضْرًا قد لبسَ عِطْفُهُ المراتحِ
 قُمْ تَرَى هذا الأصيلَ شاحبا حُسْنُهُ قد راقِ
 ولأذبالِ النُصُونِ ساحبا في حلِّ الأوراقِ
 وتَدِيمِ قالَ لي مُحَاظِبَا قولَ ذي إشتاقِ
 عادةُ الشمسِ بغربِ تُخْتَلَسُ هاتِ شمسَ الراحِ
 إنْ أَرَانَا الجَوْ وَجْهًا قد عَبَسَ أوقِدِ المِصْبَاحِ
 ووجوهُ الشَّرْبِ تغني عن شَمُوسِ كلما تُجَلِّ
 بلعاطِ أَسْكُرْتَنَا عن كُؤُوسِ خمرها أحلِّ
 مظهراتٍ من خفايا في النفوسِ سُورًا تُثَلِّ
 ما زمانُ الأَنْسِ إِلَّا مَخْتَلَسِ فاغتمِ يا صاحِ
 وعيونُ الشَّهْبِ تذكِّي عن حرسِ مخمِّمِ النُصْلِ
 ما تَرَى ثغرَ الوميضِ باسمِ يُظْهِرُ البِشْرَا
 وثناءَ الروضِ هبَّ ناسِما عاطِراً نُشْرَا
 بثَّ منْ أزهاره دراهما قائلًا : بَشْرَا
 ركبِ المولى مع الظهورِ القُرسِ وشغِي وارتاحِ
 يحنودِ الله دأبًا يَحْسِرُ إنْ غدا أو راحِ

وَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا وَالْحَنَاءُ
 فَرَمَانُ السَّعْدِ وَضَاحُ السَّنَا
 أَثْمَرَتْ فِيهِ الْعَوَالِي بِالْمُنَى
 يَخْضِي الْإِسْلَامُ مِنْهَا مَا اغْتَرَسَ
 فِي ضَمِيرِ النَّعَمِ مِنْهَا قَدْ هَجَسَ
 يَا إِمَامًا بِالْحَمَامِ الْمُتَنَفِّسِ
 ثَرَكَ الْوَضَاحِ مِمَّا أَوْضَا
 وَدَيُونُ السَّعْدِ مِنْهُ تَقْتَضِي
 لَكَ وَجْهًا مِنْ صَبَاحٍ مُقْتَبَسٍ
 وَجَمِيلُ الصَّفْحِ مِنْهُ مُلْتَمَسٌ
 هَاكُنَا نَمُزَجُ لَطْفًا بِالنَّسِيمِ
 قَدْ أَتَتْ بِالْبَرِّ وَالصَّنْعِ الْجَسِيمِ
 أُنْعِجْتَ مَنْ قَالَ فِي الصَّبْحِ الْوَسِيمِ
 كَلَّمَا هَبَّا تَشْكُرُ الرَّبَّ
 مَفْرَمًا صَبَا
 « غَرْدَ الطَّيْرِ فَنَبَّهَ مِنْ نَمَسٍ »^١
 « وَتَمَرَّتْ الْفَجْرُ عَنْ ثَوْبِ الْفَلَسِ »
 يَا مَلِيرَ الرَّاحِ
 وَانْجَلَى الْإِصْبَاحُ

وَقَالَ أَيْضًا سَامِعَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ بِالشَّفَاءِ
 فَتَنَطَّقِ الطَّيْرُ بِالْهَنَاءِ
 وَاسْتَكْمَلْتَ رَاحَةَ الْإِمَامِ
 وَلِيَضْحَكِ الزَّهْرُ فِي الْكِيَامِ
 وَجُودُهُ بِهِجَةُ الْوُجُودِ
 وَبِرُؤْهِ رَاحَةُ النُّفُوسِ

١ قصيدتين من شعر ابن وكيع .

واستبشرت أوجهُ الشُّموسِ	قد لآحَ في مرقبِ السُّعُودِ
أَكَامَهُ غَطَّتْ الرُّؤُوسُ	فَالنُّوْحُ يَوْمِي إِلَى الْبُنُودِ
كَالزَّهْرِ قَدْ رَاقَ بِابْتِسَامِ	وَالزَّهْرُ فِي هَرُوضَةِ السَّمَاءِ
وَالْبَدْرُ مُسْتَقْبِلُ التَّامِّ	وَالصَّبِيحُ مُسْتَشْرِفُ اللَّوَاهِ
جَاصَتْهَا الْعُقُلُ يَبْهَرُ	عَاسِنُ الْكُونِ قَدْ تَجَلَّتْ
وَالطُّلُّ فِي الْحَلَكِيِّ جَوْهَرُ	عَرَائِسُ بِالْبَهَا تَعَلَّتْ
مَدَالِحًا عَنْهُ تَشْكُرُ	وَالسَّنُّ الْوَرَقِ قَدْ أَمَلَتْ
كَأَنَّهَا تَحْسَنُ الْكَلَامِ	تَسْتَوْفُّ الْخَلْقَ بِالْغَنَلِ
تَقُولُ سَلَّمْتُ يَا سَلَامِ	تَطْلُبُ اللَّهَ فِي الثَّنَاءِ
تَبَسُّمٌ إِذْ جَاءَهَا الْبَشِيرُ	كَمْ مِنْ ثَنَوٍ لَهَا ثَعُورُ
يَشِيرُ مِنْهَا لَهُ الْمَشِيرُ	وَعَنْ خُجُودٍ بِهَا يَلُورُ
تَبَارَكَ الْمُنْعَمُ الْقَدِيرُ	تَقُولُ إِذْ حَفَّتْ السَّرُورُ
فِي ظِلِّ مَوْلَى بِهِ اعْتَصَامُ	قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ بِالْبَقَاءِ
فَالِدَاءُ عَنَّا لَهُ انْقِصَامُ	قَدْ صَادَفَ التَّجَحُّجَ فِي الدَّوَاءِ
بِإِرْقَاقِ الْإِدْنِ وَالْمُسْدَى	يَهْنِكُ مَوْلَايَ إِلٍ يُهْتَمُّ
بِمُذْهِبِ الْخَطْبِ وَالرَّدَى	فَالْغَرْبُ وَالشَّرْقُ مِنْكَ يُعْنَى
مَا فِيهِ مِنْ سَطْوَةِ الرَّدَى	وَاللَّهُ لَوْلَاكَ مَا تَهْتَا
قَدْ كَانَتْ يَسْطُفُّهَا الْأَوَامُ	يَا مَتَوَدِّ الْإِنْقِصَارِ الْعَظَامِ
رَدَدَتْ لِلْأَصْنَنِ التَّامِ	وَقَرَّةَ الْعَيْنِ بِالْبَهَاءِ

١ الأكرار : إلى السجود ... حلت .

لو أبدلُ الروحَ في البشارِ
فأنت يا نفسُ مستعارة
لم أدرِ إذ سطرَ الميثارة
لا زلت مولاي في عناء
يذلين بعني الذي ملته
مولاي بالفضل جملتك
أميك هُوَ أم ملكك
ودمت الملك في احتلاء
مبكغ القصد والمرام
تسحب أذياله الغمام

وقال في مائة :

عليك يا ريةُ السلامُ
مذ حلَّ في قصرِك الإمامُ
والنوحُ في روضِك الأنيقُ
والنخنُ في نهره غريقُ
والجو من وجهك الشريقُ
وأعينُ الزهر لا تنامُ
تشفُّ من تحتها النمامُ
عروسةُ أنت يا حقيلهُ
مدت لك الكفَّ مستقيلهُ
والبحرُ مرآتك الصقيلهُ
والخليُّ زهرُ له انتظامُ
قد راق من ثمره اجسامُ
ولا عدا ريتك المطرُ
تقربك السؤلُ والوطرُ
لشكر قد حطت الرؤوسُ
وفي حُلاه كما عروس
تصده أوجهُ الشمس
تستلبُ السهدَ والسهر
تجلى على مظهر الكمال
تصحُّ أعطافك الشمال
تشفُّ عن ذلك الجمال
يكللُ القُصْبَ بالذورُ
والوردُ في غدها خمرُ

١ ورد بهذه في الأجزاء :

كم فلك الدم المشرق
والروح
من منظر يهيج القوس
والبحر من وجهك
(ليت)

إن قيل مَنْ يَمْلِكُهَا الْقُدْرَى	ومن لَهُ وصلها مباح
أقول أَسَى الْمُلُوكِ وَقَدْ	عَلِدُ الْخَيْرِ بِالصَّفَاحِ
عَمْدُ الْحَمْدِ حِينَ يَهْدَى	تَسْلَاهُ حَاطِرَ الرِّيحِ
تَخْبِرُ عَنْ طَيْبِ الْكِفَامِ	وَالْخَيْرُ يَنْفِي عَنْ الْخَبَرِ
فَالْعَمْدُ وَالزَّعْبُ وَالْحَمَامُ	وَالنَّصْرُ آيَاتُهُ الْكَبِيرُ
ذُو غُرَّةٍ تَسْحَرُ الْبُحُورَا	وطلعة تُخْجِلُ الصَّبَاحُ
كَمْ رَايَةٍ سَامَهَا ظُهُورَا	تُظَلِّلُ الْأَوْجَهَ الصَّبَاحُ
وَكَمْ جِهَادٍ جَلَاهُ نُورَا	أُظْفِرُ بِالْفُؤُولِ وَالتَّجَاحُ
الطَّاهِرُ الظَّاهِرُ الْمَهَامُ	أَعَزُّ مَنْ صَالَ وَاضْخَرُ
لِسِيْقِهِ فِي الْعِلَا احْتِكَامُ	جَرَى بِهِ سَابِقُ الْقُدْرُ
يَا مَرْسَلِ الْخَيْرِ فِي الْفُؤَارِ	لَوْ تَطَلَّبُ الْبَحْرُ تَلْحُقُ
لَكَ الْجَوَارِي إِذَا تَجَارَى	سَوَابِقَ الشُّهُبِ تَسْبِقُ
تَسْتَنُّ فِي بِلْحَةِ الْبَحَارِ	فَالْكَفْرُ مِنْهُمْ يَفْرَقُ
فَالدِّينُ وَلِيْقَصْرِ الْكَلَامُ	بِسَيْفِكَ اعْتَرَى وَانْتَصَرَ
كَذَاكَ أَسْلَافُكَ الْكَرَامُ	هُمْ نَصَرُوا سَيِّدَ الْبَشَرِ

وقال من غير هذا البحر في المحدث^١ بمالقة :

قد نُظِمَ الشَّمْلُ أَمَّ انْتِظَامُ واغتم الأحابُ قُربَ الحبيبِ
واستضحك الروضُ نُفُورَ النِّصَامِ^٢ عن ميمم الزهرِ البرودِ الشَّيْبِ

١ المحدث : اسم بناء بمالقة .

٢ الأبحار : الكفام .

وعممَ النورُ رؤوسَ الرُّبى	وجلَّلَ النورُ صدورَ البطاحِ
وصافحَ القُصْبَ نسيمُ الصِّبا	فالزهرُ يرنو عن عيونِ وقاحِ
وعادَ النهرُ زمانُ الصِّبا	فقلَّدَ الزهرُ مكانَ الوشاحِ
وأطلعَ القصرُ برودَ التَّمامِ	في طالعِ الفتحِ القريبِ الغريبِ
خلودها قامت مقامَ الغمامِ	فلا اشتكى ^١ من بعدها بالخفيبِ
أصبحتِ ياريتُ على النفوسِ	جَمالَكَ العَينُ بها يهر
والبشرُ يسري في جميعِ الشُّموسِ	ورايةُ الأُنسِ بها تُشهر
والدُّوحُ للشكرِ تحطُّ الرؤوسُ	وأنجمُ الزهرِ بها تَهر
وراجعَ النهرُ غناءَ الحمامِ	وقد شدَّتْ تسجُّ تسجُّ الخطيبِ
بمنبرِ العُصْنِ الرشيقيِّ القوامِ	لَمَّا انثى يهنو بقدرِ رطبِ
يا حبذا ميناكِ فخرَ القصورِ	بُروجهُ طالتِ بروجَ السما
ما مظه في سالفاتِ العصورِ	ولا الذي شادَ ابنُ ماءِ السما
كم فيه من مرأى بهيجِ ونورِ	في مرتقى الجوى به قد سَمَا
خليفةُ الله ونعمَ الإمامِ	أخفَكَ الدهرُ بصنعِ عجيبِ
يهنيك شملٌ قد غدا في التَّمامِ	ممهداً في ظلِّ عيشِ خصيبِ
نواسمُ الوادي بمسكٍ نفوحِ	ونفحةُ التَّدْبِ به تبسُّ
وبهجةُ السَّكَّانِ فيه تلوحِ	وجوهُ مِن نورهم يشرُّ
وروضهُ بالمِرِّ منه ييوجِ	بلايلٍ عن وجهه تنطقُ

١ الأوزار : النهر .

٢ الأوزار : لا أشتكى .

لِمَ أَنْ مَنْ يَفْهَمُ عَنْهَا الْكَلَامُ
وَنَهَرَهُ قَدْ سَلَ مِنْهُ الْحَسَامُ
فَهِ فِي تَهْنِئِكَ هَذَا الْأَدِيبُ
يَلْحَظُهُ الرَّجْسُ لِحَظِ الْمُتَرِيبِ

فَأَجْمَلُ الْأَيَّامِ عَصْرُ الشَّبَابِ
يَا دُرَّةَ الْقَصْرِ وَشَمْسَ الْقَبَابِ
وَأَجْمَلُ الْأَجْمَلِ يَوْمُ اللَّقَا
وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ فِي الْمُتَلَقَى
بَشَرَكَ الرَّبُّ بِحَسَنِ الْمَالِ
مَتَّعَكَ اللَّهُ بِطَوْلِ الْبَسَا

وَلَا يَزَالُ الْقَصْرُ قَصْرُ السَّلَامِ
يَتَلَوُّ عَلَيْكَ الدَّهْرُ فِي كُلِّ عَامٍ
يَخْتَالُ فِي بُرْدِ الشَّبَابِ الْقَشِيبِ
﴿نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾

وقال من المخلع في الشفاء :

فِي طَالِعِ الْيَمْنِ وَالسُّعُودِ
فَأَشْرَقَ النُّورُ فِي الْوُجُودِ
قَدْ كَلَّتْ رَاحَةُ الْإِمَامِ
وَأَجْمَعَ الزَّهْرُ فِي الْكَيْمَامِ

قَدْ طَلَعَتْ رَايَةَ النِّجَاحِ
وَقَالَ حَيَّ عَلَى الْقِتْلَاحِ
وَأَنْهَزِمَ الْبُؤْسُ وَالْعَنَا
مُؤَذَّنُ الْقَوْمِ بِالْمُنَى
فَالسَّعْرُ يَأْتِي بِالْإِقْتِرَاحِ
مُسْتَبِلًا أَوْجُهُ هَذَا

تُخَفِّقُ مَنَشُورَةُ الْبُرُودِ
وَالْأَنْسُ مُسْتَجِمُّ الْوُفُودِ
وَالسَّعْدُ يَقْلَمُ مِنْ أَمَامِ
وَاللَّطْفُ مُسْتَلْبِ الْإِحْمَامِ

وَأَكُوسُ الطَّلُ مَرَعَاتِ
وَالطَّيْمُ مَفْتَبَةُ الْكَلَامِ
بِأَعْمَلِ السَّوْسَنِ النَّسْلِي
تَشْعُو بِأَصْوَاتِ مَحَبَّةِ
وَالنَّصْنُ يَلْهَبُ ثُمَّ يَأْتِي
بِالنَّسْلِ الْفَضْلِ مَرْتَفِي

١ الأزهاري : القوز .

والدُّوحُ يومي إلى السجودِ شكراً للذي ألتئمُ الجسمُ
والريحُ خفاقةُ البسودِ تياكُرُ الروضَ بالضمَامِ

مظلمُ للجمالِ تُجلى قد هزَّ أعطانها السرورُ
وباهرُ الحسنِ قد تجلَّى ما بينَ نورٍ وبينَ نورٍ
قد هنأت بالشفاءِ مولى بمصره تشخرُ المصوَرُ

ما بينَ بأسٍ وبينَ جودِ قد مهدَ الأمنَ للأنامِ
غالدينُ فوْأعينِ رُفودِ وكان لا يطعمُ النعامُ

والكاسُ في راحةِ السقا تروحُ طورا وتفتدي
يسديكها رائقُ السَّما ما بينَ برقٍ ولترقدِ
والشمسُ تلعبُ للبياتِ قد لبستُ ثوبَ صجدِ

والزهرُ في البائعِ المتجودِ يقابلُ الشَّربَ بإضامِ
والروضُ من حليةِ القمودِ قد جرَّدَ النهرَ عن حسامِ

مولاي يا أشرفَ الملوكِ وعصمةَ الخلقِ أجمعينِ
أهديك من جوهرِ السلوكِ يقلعهُ بحسركِ المعينِ
جعلتُ تنظيمةُ سلوكي وأنت لي المنجدُ المعينِ

تحيةُ الواحدِ المجيدِ ورحمةُ الله والسَّلامِ
عليك من راحمٍ ودودِ يا محجلَ البدرِ في التمامِ

وقال من الرملِ المجزوء :

وجهُ هذا اليومِ باسمِ وشلنا الأزهارِ باسمِ

هاتها صاحِرٌ كُؤوسا	جالساتٍ للسرورِ
وارتقبَ منها شموسا	طالعاتٍ في حُبُورِ
ما ترى الروض عروسا	في حُلٍّ تَوَرٍّ ونُورِ
وأنت رسلُ النواصمِ	تجتلِي هُلدي النواصمِ
قد أهلتُ بالبشائرِ	أضحكتُ ثغرَ الأزاهرِ
سَنَحَتِ في يَمْنٍ طائرُ	ونُظِمْنَ كالبواهرِ
فانشروها في العشائرِ	إنَّ هذا الصنعَ باهرُ
وأشيعوا في العوالمِ	الغني بإسلافه سالمِ
أَيَّ نورٍ يتوقدُ	أَيَّ بدرٍ يَللَا
أَيَّ فخرٍ يتخلدُ	أَيَّ غيثٍ يتوالى
إِنَّمَا المولى محمدُ	رحمةُ الله تعالى
كفَّهُ بحرُ المقاسمِ	وبها حجُّ المباسمِ
خيرُ أُملاكِ الزَّمانِ	من بني سَعْدٍ ونَصْرٍ
ما ترى أنَّ الشَّوافي	في صعيدِ البرِّ تجري
قد أطارتها التَّهاني	دونَ بحريٍّ وبحريٍّ
مُدُّ رأت بحرَ التَّعائمِ	كلَّها جارٍ وعالمِ
فهنيئاً بالشفاءِ	يا أميرَ المسلمينا
ولتنا حقُّ المَناءِ	وجميعُ المالمينا
إنَّ جهرنا بالدعاءِ	ينطقُ الدَّهرُ آمينا
دمتَ محروسَ المكارمِ	بظُبي البيضِ الصَّوارمِ

وقال يحيى السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان ، وقد وجه إليه الفني بالله أمه
وعياله عند تملكه المغرب من قبلكه :

قد نُظِمَ الشَّمْلُ أَمَّ انتظام	ولاحَظَ الأَكْمَارُ بَدَأَ المَغِيبُ
وأَضْحَكَ الرُّوضُ نَغْوَرَ الغَمَامُ	عن مِيسَمِ الزَّهْرِ البرودِ الشَّيْبُ
وعاودَ الفَصْنُ زَمَانَ الصَّبَا	وأَشْرَبَ الأَنْسَ جَمِيعُ النُّفُوسِ
وعَسَمَ التَّوَرُّ رُؤُوسَ الرُّبَى	وجَلَّلَ النُّورَ وَجْهَ الشُّمُوسِ
وأطربَ الفَصْنُ نَسِيمَ الصَّبَا	فَاللُّوحُ لِلشُّكْرِ نَحْطُ الرُّؤُوسِ
واستَقْبَلَ البِدْرُ لِيَالِي التَّمَامِ	وصافَحَ الصَّبَحَ بِكَفِّ خُضَيْبِ
وراجَعَ الأَطْيَارَ سَجْعَ الحَمَامِ	بِكَلِّ خُفْيَ الحَنِّ بِدَيْعِ غَرِيبِ
نَوَاسِمُ الوَادِي بِمَكِّ قَفُوحِ	وَقَضَعَةُ النَّدَى بِهِ تَعْبُ
وبَهَجَةُ السَّكَّانِ فِيهِ تَلُوحُ	وَجُوهٌ مِنْ نُورِهِ يَشْرِقُ
وعَرَفَهُ بِالطَّيْبِ مِنْهُ يَفُوحُ	كَأَنَّهُ مِنْ عَنَبٍ يَفْتَقُ
والنَّهْرُ قَدْ سَلَّ كَثْلَ الحَمَامِ	حَبَابُهُ تَطْفُو وَطُوراً تَغِيبِ
ونُفَرُهَا قَدْ رَاقَ مِنْهُ إِجْسَامِ	يُهْتَبِئُ الحَبِيبُ بِقُرْبِ الحَبِيبِ
كَوَاكِبُ أَجْرَاجِهِنِ المَحْشُورِ	يَلُوحُ عَنْهَا كُلُّ بَلَدٍ لِيَاخِ
جَوَاهِرُ أَصْدَافِهِنَّ القَصُورِ	نَظْمُهَا السَّحْدُ كَنَظْمِ الوِشَاحِ
يَا حَبْلًا وَاللَّهِ رَكْبُ السُّرُورِ	يَبْشُرُ المَوْلَى بِنَيْلِ اقْتِرَاحِ
ابْتَهَجَ الكَوْنُ بِمُوسَى الإِمَامِ	واخْتَالَ فِي بُرْدِ الشَّبَابِ اقْتِشَابِ
وعَادَهُ يُضْدَمُ مِثْلَ النُّعْلَامِ	شَبَابُهُ قَدْ عَادَ بِمَدِّ المَشِيبِ

أكرم به والله وفده الكريم
مرضاها تحظي بدار النعيم
بشر بالنصر وفتح جسيم
وملئها من الحرة في مقلعه

لقاوها المبرور مسك الختام
وتصرك الميمون قصر السلام
بشرك الله بصنع عجيب
خط يحفظ من صبح مجيب

مولاي يهنسك وحق المنا
قد غزت بالقهر ونيل المنى
وأنيذ السعد جميع الوعود
وكلما مر صنيع يعمود

فلا يزل ملكك حلف الدوام
يتلو عليك الشعر بعد السلام
يتجوز في التجليد أوف نصيب
﴿تصر من الله وفتح قريب﴾

وقال رحمه الله تعالى في وصف غرناطة والطرود وغيرها :

الله ما أجمل روض الشباب
في عهد أدوت كأس الرضاب
من قبل أن يفتح زهر المشيب
جبابها الدر بغير الحبيب

من كل من يضل بدر تمام
ويفضح الفعن بلين القوام
إذا تبدى وجهه للميون
ويكهل العقل ببحر الجفون

أبصرت منه إذ يخط الثقب
إذا تجلت بعد طول ارتقاب
شما ولكن ما لها من مغيب
صرقت عنها اللحظ خوف الرقيب

١ ق : ثناء ؛ وفي الأزهار : مولانا .

مَنْ عَازَرِي مِنْهُ فَوَادَا صَبَا
يَطِيرُ إِنْ هَبَّ نَسِيمُ الصَّبَا
مَا أَوْلَعَ الصَّبَّ بِعَهْدِ الصَّبَا
وَهَلْ عَلَى مَنْ قَدْ صَبَا مِنْ جُنَاخِ

فَقَلْبِهِ مِنْ شَوْقِهِ فِي التَّهَابِ
وَالْجَفْنُ مِنْهُ سَجَبُهُ فِي انْكَسَابِ
قَدْ أَحْرَقَ الْأَكْبَادَ مِنْهُ الرَّجَبُ
قَدْ رَوَّضَ الْخُلْدَ بِدَمْعِ سَكَبِ

غُرْنَاظُهُ رَيْعُ الْهَوَى وَالْمُنَى
وَطَيْبُهَا بِالْوَصْلِ لَوْ أَمَكْنَا
وَقَرَّبُهَا السَّوْلُ وَنِيلُ الزُّطْرِ
لَمْ أَقْطَعْ اللَّيْلَ بِطُولِ السَّهْرِ
يَعْنِي ذِي الْعُودَةِ بَعْدَ السَّفَرِ
عَمَّا قَرِيبٍ حَقَّ فِيهَا الْمُنَا

وَيَعْبُدُ النَّاسُ نِجَاحَ الْإِيَابِ
وَيَكْتُبُ الْقَالَ عَلَى كُلِّ بَابٍ :
بِكُلِّ صَنِيعٍ مُسْتَجِدٍّ غَرِيبٍ
﴿ نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾

مَا لَأَنَّ الْأَمْلَاقَ إِلَّا الْقَنْصُ
كَمْ شَارِدٍ جَرَعَ فِيهِ الْفُصْصُ
لَأَنَّهُ الْقَالَ بِصَيْدِ الْعَدَا
وَأُورِدَ الْمَحْرُوبُ وَرَدَ الرَّدَى
وَكَمْ بَذَا الْقُحْصِ لَنَا مِنْ حُصْصِ
قَدْ جُمِعَ الْبَأْسُ بِهَا وَالتَّنْدَى

ومنها بعد أبيات من الوزن والروي :

مَوْلَايَ مَوْلَايَ ، وَأَنْتَ الَّذِي
وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنَ الْعُودِ
جَدَّدْتَ لِلْأَمْلَاقِ عَهْدَ الْجَلَالِ
لَمَّا رَأَتْ مِنْكَ بَلِيغَ الْجَمَالِ
وَالرُّوْضُ فِي نِعْمَتِهِ يَفْتَنِي
بَطِيبِ مَا قَدْ حَزَنَتْهُ مِنْ خِلَالِ

بِشْرَاكَ بِشْرَاكَ بِحَسَنِ الْمَاتِ
وَدَمَتْ مَحْرُوسَ الْعُلَا وَالْجَنَابِ
تَسْتَضْحِكُ الرُّوْضَ بِشَفْرِ شَنِيبِ
بِعَصْمَةِ اللَّهِ السَّمِيعِ الْمَجِيبِ

انتهى ما انتقيته من كلام ابن زَمْرَك من كتاب ابن الأحمر ، رحمه الله

تعالى . وقد عرفت منه ما تسنى للنبي بالله ابن الأحمر من الفتوحات والسعود
وتفاد الأمر على ملوك المغرب ، فهو الأحق بقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه
الله تعالى :

ملكٌ إذا عابنتُ منه جبينه فارقتهُ والنورُ فوق جبينه
وإذا لثمتُ بيمينه وخرجتُ من أبوابه لثمتُ الملوكُ بيمينه

وكان النبي بالله المذكور معتقداً في الصالحين ، حتى إنه كتب وهو بفاس
مخلوعاً إلى ضريح ولي الله سيدي أبي العباس السبتي بمراكش ، ومن إنشاء وزيره
لسان الدين على لسانه :

يا وليَّ الإله أنت مطاعٌ

الأيام والثر بعدما ، وقد ذكرتهما في الباب الخامس فراجعهُ^١ ، وكان
ذلك بفضل الله تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه ، ونظم تلك الأماكن في سلكه ،
حتى حصل له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يعلم ذلك من كلام لسان الدين
وابن زمرَك وغيرهما .

[ترجمة الولي السبتي]

والسبتي المذكور : هو سيدي أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي
الخرجي^٢ ، الولي الصالح العالم العارف بالله القطب ذو الكرامات الشهيرة ،
والمناقب الكثيرة ، والأحوال الباهرة ، والفضائل الظاهرة ، والأخلاق الطاهرة ،

١ انظر أيضاً أذهار الرياض : ١ : ٢٧٣ .

٢ راجع ترجمة الولي السبتي في أنس الفقير : ٧ - ٩ وتطير الأنفاس في التعريف بالشَّيخ أبي العباس
لابن الموقت (ط . فاس ١٩١٨) وتبيل الابتهاج ٢١ - ٣٧ . وعن هذا الأخير ينقل المقرئ :
وراجع الاعلام لعماد بن إبراهيم : ١ : ٢٣٩ - ٣٤٨ .

نزىل مراكش ، وبها توفي سنة إحدى وستمائة ، وولادته بسنة عام أربعة وعشرين وخمسمائة ، ودفن خارج مراكش ، وقبره مشهور مقصود بإجابة الدعاة ، وقد زرتة مراراً كثيرة ، فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف ، وهو تريقاق مجرب .

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : كان سيدي أبو العباس السبي رضي الله تعالى عنه - مقصوداً في حياته ، مستغاثاً به في الأزمات ، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ، ومبتهى أمره على انفعال العلم عن الجود^١ ، وكونه حكمة في تأثير الوجود ، له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة ، ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربيته ، وتثبت بلحمه ، وانسحب على مكانه عادة حياته ، ووقع الإجماع على تسليم هذه اللصوصى ، وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعضها له من أماكنهم على بعد المدى ، واقطاع الأماكن القصوى^٢ ، فعملهم أجنحة نياتهم فتوهي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق ، فبهلون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة .

وقال ابن الزيات^٣ : كان أبو العباس قد أعطي بسطة^٤ في اللسان ، وقدرة على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، ولا يسأله إلا أجابه ، كان القرآن والحجج على طرف لسانه حاضرة ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر العامة والخاصة ببيانه ، يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلا مسلمين متقادين ، وشأنه كله عجيب ، وهو من عجائب الزمان . وحدثني مشايخنا أنهم سمعوه يقول : أنا

١ في الأصل : الوجود ، والتصويب عن التنيكي ، وأورد العباس بن إبراهيم أن ابن رشد أرسل أبا القاسم الخرزجي لحرف ملحق أبي العباس بمراكش ، فلما نقل الخرزجي خبره إلى ابن رشد قال له : « هذا رجل ملحقه أن الوجود ينفلج بالوجود » وهو ملحق فلان من قسام الفلاسفة .

٢ ليل الإبتهاج : المكان الأقصى .

٣ تنقل المصادر ترجمة السبي عن التشوف ، ولكن ابن الزيات صرح بأنه يفرد ترجمة السبي إذ لا يكفي في ذكره الاختصار ، وجعل ترجمته في آخر كتابه ، إلا أنها لم تطبع مع سائر الكتاب ، وقد نقل العباس بن إبراهيم ما ذكره ابن الزيات في تلك الترجمة .

القطب. وحديثي أبو الحسن الصنهاجي من خواص خدامه قال : خرجت معه مرة^١ لصهريج غابة الرمان يوم عرفة ، فجلستنا هناك وصلينا ، فقال لي : إنَّما سمي هذا اليوم يوم عرفة لانتشار الرحمة فيه لمن تعرّف إليه بالطاعات ، وقد فاتنا عرفة ، فعمال نمثل بهلنا المكان ونعمل كما يعملون ، لعلَّ الله تعالى يتغمدنا برحمته معهم ، فعمل^٢ مكاناً دائراً بالعين الكعبة^٣ ، وعمل عنصر الماء الحِجر ، وموضعاً آخر مقام إبراهيم ، غطاف بالعين أسبوعاً وأنا أطوف بطوافه ، وكبر على العنصر في كل طواف ، وصلى في مثل^٤ المقام ركعتين تامتين ، وأطال في سجود الثانية ، ثم استند إلى الشجرة ثم قال لي : يا علي ، اذكر كل حاجة لك من حوائج دنياك تُفُضْ ، فإن الله تعالى وعد في هذا اليوم من تعرّف له أن يقضي حوائجه ، فقلت له : ما أريد إلاَّ التوفيق ، فقال لي : ما خرجت معك من باب المدينة حتى وفقت ، فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته ، وبم تفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء ؟ ولم صار يأمر بالصدقة والإيثار من شكا إليه حالاً أو تمدّر عليه مطلب في هذه الدار ؟ فقال لي : ما أمر الناس إلا بما يتضعون به ، وإنّي لما قرأت القرآن وقعدت بين يدي الشيخ أبي عبد الله الفخار تلميذ القاضي عياض ونظرت في كتب الأحكام وبلغت من السن عشرين سنة وجدت قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ فتدبرته وقلت : أنا مطلوب به ، فلم أزل أبحث عنها^٥ إلى أن وقعت على أنها نزلت حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم حكم المؤاخاة ، فأمرهم بالمُشاطرة ، ففهمت أن العدل المأمور به في الآية هو المشاطرة ، ثم نظرت إلى حديث « تفرق أمّي على ثلاثين فرقة - الحديث » وأنه صلى الله عليه وسلم

١ ق : فصد ؛ نيل الابتهاج : فجل .

٢ في الأصل : قبل .

٣ نيل الابتهاج : فبحث عن الآية .

قاله صبيحة اليوم الذي آتني فيه بين المهاجرين والأنصار ، وذكر له^١ الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين ، فقال لهم ذلك بأثره^٢ ، فعلمت أن الذي هو عليه وأصحابه المشاطرة والإيثار ، فعقدت مع الله تعالى نيّة أن لا يأتيني شيء إلا شاطرت فيه الفقراء ، فعلمت^٣ عليه عشرين سنة ، فأثمر لي الحكم بالخاطر^٤ ، فلا أحكم على خاطري بشيء إلا صدق ، فلما أكملت أربعين سنة راجعت تدبر الآية فوجدت الشطر هو العدل ، والإحسان ما زاد عليه ، فعقدت مع الله تعالى نيّة لا يأتيني قليل ولا كثير إلا أمسكت ثلثه وصرفت الثلثين لله تعالى ، فعلمت عليه عشرين سنة ، فأثمر لي الحكم في الخلق بالولاية والزل فأولي من شئت ، وأعزل من شئت ، ثم نظرت بعد ذلك في أول ما فرضه الله تعالى على عباده في مقام الإحسان ، فوجدت شكر التعمة ، بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم ، ووجدت أصناف من^٥ تُصرف إليهم الصدقات^٦ الواجبة [سبعة] وسبعة أصناف أخر صرّفها فيها للإحسان والزيادة ، وذلك أن لنفسك عليك حقاً ، وللزوجة حقاً ، وللرحم حقاً ، ولليتيم حقاً ، وللضعيف حقاً ، وذكر صنفين آخرين ، فانتقلت لهذه الدرجة ، وعقدت مع الله تعالى عقداً أن كل ما يأتيني أمسك سبعة حق النفس وحق الزوجة وأصرف الخمسة أسباع لمستحقها ، فأقمت عليه أربعة عشر عاماً ، فأثمر لي الحكم في السماء ، فمضى قلت « يا رب » قال لي : لبنيك ، ثم قال لي : إنها نهايتي بتمام عمري ، وهو أن تنقضي لي ستة أعوام تكملة العشرين عاماً .

قال الصنهاجي : فأرخت ذلك اليوم ، فلما مات وحضرت جنازته تذكرت التاريخ المكتوب ، وحقت العدد ، فنقصت من ستة أعوام ثلاثة أيام خاصة ،

١ ليل الابتهاج : ذكر ذلك الحديث اثره .

٢ ليل الابتهاج : بقيت .

٣ ليل الابتهاج : حكم الخاطر .

٤ ليل الابتهاج : أصناف من يسلى الصلقة .

فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .
 وقال أبو بكر ابن مساعد : جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب ،
 وقال له : إلى متى تحميرنا ولا تصرح لنا عن الطريق ؟ فقال له : هو الإحسان ،
 فقال له : يميني ، فقال له : كل ما أردت أن يفعله الله تعالى ملك فافعله
 مع عبيده .

وقال له أبو الحسن الخياري^١ : أما ترى ما فيه الناس من القحط والغلاء ؟
 فقال : إنما حبس المطر ليلهم ، فلو تصدقوا لمطرؤوا ، فقل لأصحابك
 الفلاحين : تصدقوا بمثل ما أنفقتم تمطرؤوا ، فقال له : لا يصدقني أحد ، ولكن
 مررتي في خاصة نفسي ، فقال له : تصدق بمثل ما أنفقت ، فقال له : إن الله
 تعالى لا يعاملك بالدين ، ولكن أستسلف ، فاحتال وتصدق بها كما أمره ،
 قال : فخرجت إلى البحيرة التي عمرتها والشمس شديدة الحر ، فأيست من المطر ،
 ورأيت جميع ما غرست مشرفاً على الهلاك ، فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت
 البحيرة حتى رويت ، وظننت أن الدنيا كلها مطرت ، فخرجت فإذا المطر لم
 يتجاوزها ، انتهى .

والحكايات عنه في مثل هذا كثيرة .

وقال ابن الخطيب القسطنطيني في رحلته^٢ : حضرت عند الحاج الصالح
 الورع الزاهد أبي العباس أحمد بن عاشر بمدينة سلا ، وقد سأله أحد الفقراء
 عن كرامة الأولياء ، فقال له : لا تنقطع بالموت الكرامة ، انظر إلى السبي ،
 يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبي المدفون بمراكش ، وما ظهر
 عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات ، سمعت يهودياً بمراكش
 يلهج ببركته وينادي باسمه في أمر أصابه لا مع المسلمين ، فسألته عن سببه ،

١ نيل الإبهاج : الجنان .

٢ يعني أس الفقير ، كما تقدم ، انظر ص : ٨ .

فأخبر أنه وجد بركته في غير موطن ، فسألته عما بدا له في وقت ١ ، فقال لي :
 وحتى ما أنزل على موسى بن عمران ما أذكر لك إلا ما اتفق لي ، سرّيت ليلة
 مع قافلة في مفازة ، فخرجت دابتي ، فما شككت في اقلي وسلب مالي ، فجلست
 وبكيت ، وبني وبين الناس بعد ، وقلت : يا سيدي أبا العباس ، خاطرك ،
 قال لي : والله ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به ، وضربت
 دابتي ، وخف عرجها ، ثم زال ، واتصلت بالناس ، فقلت له : لم لم تُسلم ؟
 فقال : حتى يريد الله تعالى ، وعجبت من كون ذلك من يهودي ، وهذه شهادة من
 عدو في الدين . ولقد وقفت على قبره مرات ، وسألت الله تعالى في أشياء يَسِّر
 لي فيها سؤلي : منها أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويوصف به ، وأن يسر علي
 فهم كتب عيبتها ، فيسر الله تعالى علي ذلك في أقرب مدة . وكان السبتي آية
 في أحواله ، ما أدرك صحبته إلا الخواص من الناس ، وكان أصل مذهبه الخضر
 على الصدقة ، وكان أمره عجبا في إجابة الدعاء بتزول المطر ، واختصاصه بمكان
 دون آخر ، وقال لأصحابه : أنا القطب ، وكان تفقه علي أبي عبد الله الفخار ،
 ووقفت على قبره ، وله بركات وأنوار . وكان السبتي آية في المناظرة ، وأوذيت
 باللسان كثيرا جدا فصيح وتجاوز .

ورأى ٢ عبد الرحمن بن يوسف الحسيني النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ،
 فقال له : يا رسول الله ، ما تقول في السبتي ؟ قال : وكنت سبى الاعتقاد فيه ،
 فقال لي بعد أن تبسم : هو من السبّاق ، قال : فقلت يمين لي يا رسول الله ،
 فقال : هو ممن يمر على الصراط كالبرق ، قال : فخرجت بعد الصبح ،
 فلقيني أبو العباس ، فقال لي : ما رأيت وما سمعت ؟ والله لا تركتك ٣ حتى

١ أنس الفقير : ما رأى له في أقرب وقت .

٢ ما يزال النازل مستمرا عن أنس الفقير .

٣ ق : لا أتركك .

تعرفني ، بعرفته ، فصباح : كلمة الصفا من المصطفى صلى الله عليه وسلم ، انتهى ببعض اختصار .

وقال ابن الزيات : وحدثني أبو العباس الصنهاجي وغيره أن رجلاً يُعرف بابن الشكاز^١ ، وكان غنياً فدار عليه الزمان وافقر ، حدث أنه وصل لأبي العباس السبتي وعليه ثوب خلقٌ تظهر منه عورته ، فشكا إليه حالته ، فأخذ بيده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت ، فجاء إلى مِطْهَرَة هنالك ، قال : فدخل أبو العباس المظهرة وتجرد من أثوابه وناداني ، وقال لي : خذ هذه الثياب ، فأخذتها ، وكان بعد العصر ، فأردت أن أرى ما يكون من أمره ، فصعدت إلى حائط هناك إلى قرب المغرب ، فإذا بفتى خرج من الباب على دابة معه رزمة ثياب ، فلما رأيته نزلت إليه ، فقال لي : أين الفقيه أبو العباس ؟ فقلت : ها هو في الساقية عريان ، فقال لي : أمسك الدابة ، فسمعت الفقيه يقول له : أين تلك الثياب ؟ فأخذها منه وخرج ، فلما رأيته قال لي : وما لك هنا ؟ قلت : يا سيدي خفت عليك ، فلم أقدر على الانصراف وأتركك ، فقال لي : أفرى الذي فعلت ما فعلت له يركني ؟ ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه ، فذكر له أن إحدى الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب ، وقالت له : لا تدفعها إلا للفقيه ، ولا يلبسها إلا هو ، وهذه قصة صحيحة مشهورة .

وقال ابن الخطيب : وروضته يباب تاغزوت أحد أبواب مراکش غير حافلة البناء ، ربما يتبرع متبرع باحفظها فلا تساعده الأقدار ، وزرتها ، وربما شاهدت في داخلها أشياخاً من أهل التصوف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط رحمت الله تعالى عليها لكثرة زائريها ، فيقتحم^٢ ذو الحاجة بابها خالماً نعله مستحضرًا نيته ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته ، ويمين بين يدي التجوى صدقة

١ نيل الابتهاج : الشكاز ؛ ق : الشكاك ، والتصويب عن الأعلام .

٢ ق : فيقسم ؛ نيل الابتهاج : فيلج .

على قبره ، ويلبسها في أواني في القبر معدة لذلك ، ومن عجز عن التقدين تصدق بالطعام ونحوه ، فإذا خف الزائرون آخر النهار حمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك في تلك الأواني وفرغته على المحابيح الخافقين بالروضة ، ويحسون كل عشية ، ويعمهم الرزق المودع فيها ، وإن قصر عنهم كلوه في غده .

قال ابن الخطيب لسان الدين : وترافع خدام الروضة لقاضي البلد ، وتخاصموا في أمر ذاك الرزق المودع هناك ، فسألم القاضي عن خبره اليوم ، فقالوا : يحصل في هذه الأيام في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهباً حياً ، وربما وصل في بعض الأيام لألف دينار فما فوقها ، فروضة هذا الولي ديوان الله تعالى في المغرب لا يحصى دخله ولا تحصر جبايته ، فالنهر يسيل ، واللجين يفيض ، وذو الحاجة كالطير تغدو خيماً صاماً وترجع بطاناً ؛ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قال : وأنا ممن جرب المقول عن القبر ، فاطرد القياس ، وتريفت الشبهة ، وتعرفت من بده زيارته ما تحققت من بركته ، وشهد على برهان دعوته ؛ انتهى . وقال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلي في كتابه « التشوف إلى رجال التصوف »^١ : كان أبو العباس جميل الصورة ، أبيض اللون ، حسن الثياب ، فصيح اللسان ، مقتدراً على الكلام ، حليماً صبوراً ، يحسن إلى من يؤذيه ، ويعلم على من يسفه عليه ، رحيماً عطوفاً حسناً إلى اليتامى والأرامل ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق والسوق ، ويحضر على الصدقة ، ويذكر في فضلها آيات وأحاديث ، ويأخذها ويفرقها على المساكين ، ويرد أصول الشرع إلى الصدقة ، ويفسرهما بها ، ويقول : معنى قول المصلي « الله أكبر » أي : من أن نضن عليه بشيء ، فمن رأى شيئاً من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يحرم ولا كبر ، ومعنى رفع اليدين للتكبير : تخلّيت من كل شيء لا قليلاً ولا كثيراً ،

١ انظر الأعلام ١ : ٢٤١ .

وهكذا يتكلم بنحو هذا في جميع العبادات ، ويقول : سِرُّ الصوم أن نجوع ، فإذا جمعت تذكرت الجائع ، وما يقاسيه من نار الجوع ، فتصدق عليه ، فمن صام ولم يعطف على الجائع فكأنه لم يصم ، إلى غير ذلك من كلامه في مثل هذا .
وكان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة ، ويقول له : تصدق ، ويتفق لك ما تريده ، وأخباره في ذلك كثيرة عجيبة .

قال التادلي : وحدثني ولده الفقيه أبو عبد الله عن أبيه أنه قال : كان ابتداء أمري وأنا صغير أنني سمعت كلام الناس في التوكل ، ففكرت في حقيقته^١ فرأيت أنه لا يصح إلا بترك شيء ، ولم يكن عندي منه [بد] ، فترك الأسباب ، واطّرحت العلائق ، ولم تتعلق نفسي بمخلوق ، فخرجت سائداً متوكلاً ، ومرت نهاري كله ، فأجهدتني الجوع والتعب ، وقد نشأت في رفاة [من العيش]^٢ ، وما مشيت قط على قدمي ، فبلغت قرية فيها مسجد ، فتوضأت ودخلت المسجد فصليت المغرب ثم العشاء ، وخرج الناس ، فممت لأصلي ، فلم أقدر من شدة الجوع والتألم بالمشي ، فصليت ركعتين ، وجلست أقرأ القرآن إلى أن مضى جزء من الليل ، فإذا قارع يقرع الباب بعنف ، فاستجاب له صاحب الدار ، فقال له : هل رأيت بقرتي ؟ فقال : لا ، فقال : إنها ضلت وقد أكثر عجلتها من الحنين فطلبتها فلم نجدها في القرية ، فقال أحدهم : لعلها [دخلت] في المسجد وقت العتمة ، ففتحوا باب المسجد ودخلوا فوجدوني ، فقال صاحب البقرة : ما أظنك أكثرت الليلة شيئاً ، فذهب وجامني بكسرة خبز وقدر لبن ، ثم ذهب ليأتيني بالماء فوجد بقرته في داخل الدار ، فخرج لخيرانه وقال لهم : ما زالت البقرة من الدار ، وما كان خروجي إلا لهذا الفنى الجائع في المسجد ، ثم رغبني أن أمشي معه لمتزله ، فأبيت .

١ ق : دقيقه ، والتصويب من الاطلام .

٢ سقطت من ق .

وكان في أول أمره يسكن في الفندق^١ ويعلم الحساب والنحو ويأخذ الأجرة على ذلك ، وينفقها على طلبة العلم الغرباء ، ويمشي في الأسواق ، ويدكر الناس ، ويضربهم على ترك الصلاة ، ويأتي بالطعام على رأسه .

وبات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالذاكرة ، فلذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق فقام إليهم القيم بخدمته ، فقالوا له : ما تعلمون أن من رفع صوته بالليل يقتل ؟ ثم قعد اثنان من الحرس على باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للوالي^٢ ، فجاء القيم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم ، وأيقنّا بالهلاك ، فأخذ أبو العباس في الضحك ولا يبالي ، ثم خلا بنفسه عند السحر ساعة ثم قال لنا : لا خوف عليكم ، قد استوهبتكم من الله تعالى ، وهذان الحرسيان الواقفان غداً يقتلان إن شاء الله تعالى ، فقليل له : الجزاء عندك على الأفعال من الخير والشر ، وهما لم يفعلوا ما يوجب قتلهما ، بل جزاؤهما يروّعان كما روّعانا ، فقال : العلماء ورثة الأنبياء ، وترويعكم عظيم لا يقابله منهم إلا القتل ، فما زلنا نعارضه في ذلك حتى قال : عقوبتهما أن يضرب كل واحد منهما مائة سوط ، ثم اجتاز عبد الله الخراز صاحب الوقت بالجامع الأعظم ، فوجد حائوته^٣ مفتوحاً ، ورأى الحرسيين على قرب ، فلم يشكّ أنّهما حلاله^٤ ، فحملّا إلى رجة القصر قبل طلوع الفجر ، فقال لنا أبو العباس : اجسروا على ضربهما كما أرادا قتلكم ، فتبعناهما ، وحضرنا حتى ضرب كل واحد مائة سوط .

وكراماته ومناقبه كثيرة لا تحصى . .

وكان يقول^٥ : أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان ، وأصل الشرّ فيهما البخل ، قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ﴾ (الزلزال : ٥) وقال عن إبليس ﴿ ثُمَّ

١ زاد التبادلي في الأصل : الفندق الذي بأجادر ، المعروف بفندق مقبل .

٢ الاعلام : ليقتل .

٣ ق : تابوته .

٤ حلاه : فضاه ؛ وفي الاعلام : فصاماً .

٥ انظر الاعلام : ٢٥٨ .

لَا تَجْنِبُهُمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴿ (الأعراف: ١٧) وقال ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴿ (التوبة: ٧٥) وقال ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿ (الحشر: ٩) وقال ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿ (القصص: ١٧) وقال ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿ (آل عمران: ١٣٢) وقال ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴿ (البقرة: ١٧٧) وقال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - الآية ﴿ (الأحزاب: ٧٢) فهذه الأمانة هي الرزق ، فأعطت السموات ما فيها من الماء وهو المطر ، والأرض ما فيها من الماء النازل من الجبال ، والجبال ما فيها كذلك ، وأثبتت الأرض وأبّت إمساكها ، فحزن الإنسان جميعها عنده ومنع المساكين لأنه كان ظلوماً جهولاً ، وفي الحديث « هم الأقلون وربّ الكعبة ، إلا من قال هكذا وهكذا - الحديث » ولما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه دعا عليهم موسى بالبخل ، فقال ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ - إلى قوله : دَعَوْتَكُمَا ﴿ (يونس: ٨٨، ٨٩) وكان رضي الله عنه في آخر عمره كثيراً ما يقرأ هذه الآية ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى - إلى قوله : سَوْفَ يَرَى ﴿ (النجم: ٢٢) وكان يقول : من قال إن الله تعالى لا يجازي على الصدقات فقد وافق اليهود في الفرية على الله تعالى لأنهم قالوا ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴿ (المائدة: ٦٤) أي لا يجازي على الصدقات ، قال الله تعالى ﴿ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ - إلى آخره ﴿ أي يجازي على العطاء كيف شاء . وكان يقول في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ - الآية ﴿ (التوبة: ٣٤) إنما كُتِبَ هذه المواضع لأن الغني يُعرض عن المسكين بوجهه ، ثمَّ يَجْنِبُهُ ، ثمَّ يَظْهَرُهُ ، فعوقبت هذه المواضع بالكيِّ بالنار لإعراضه عن الفقير ، ومنزعه رحمه الله تعالى في أمثال هذا كثيرة ؛ انتهى ملخصاً .

وحدث أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعمر^١ أنه دخل صعبة الشيخ سيدي أبي العباس السبني إلى الأمير السيد أبي سعيد عثمان يعود ، فقال له : ادْعُ اللَّهَ^٢ أوردته في الأعلام : ٣١٠ نقلًا عن النسخ .

تعالى لي أيها الشيخ ، فقال له : ارجع إلى الله تعالى حق الرجوع بحيث تتحقق أنه المُمرض والمُعافي ، وأخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس ، لتكون ممن وُتي شح نفسه ، فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء ، ثم التفت إلى الحاضرين وقال : في المرض فوائد لا ينبغي أن تُجهل : الأولى معرفة قدر العافية ، الثانية تمحيص بعض الذنوب ، الثالثة توقع الثواب ، الرابعة تنقية الجسم من فضول الأخلاط ، الخامسة كثرة ذكر الله تعالى والتضرع إليه ، السادسة حدوث الرقة والشفقة ، السابعة - وهي العظمى - الصدقة والخروج عن رذيلة البخل ؛ انتهى .

وحدث الكاتب أبو القاسم ابن رضوان عن أبي بكر ابن منظور عن بعض أعيان مراكش أنه توفي وأوصى ابناً له كان من أهل البطالة أن يعمد إلى ألف دينار من متخلفه ، فيدفعها للشيخ سيدي أبي العباس السبتي ، ففعل ، وقال للشيخ : إن أبي توفي وأوصاني أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيث شئت ، فقال له الشيخ : قد قبلتها وصرفتها إليك ، فقال له : يا سيدي ، وما تأمرني أن أفعل بها ؟ قال : خذها ، قال : فانصرفت من عنده وسوت ظناً بقوله ، ثم قلت : وأنا أنفق مثل ذلك على عادي في الوجه الذي بلد لي ، فأفعلن بها ما أفعل بغيرها ، فأدخلتها في محفظة - وخرجت ألتمس الزنى ، فإذا امرأة على دابة وغلام يقودها ، فأشرت إلى الغلام ، فقال لي : نعم ، واتبعتني إلى بستان لي ، فترلت المرأة ، فأدخلتها إلى قبة كانت في البستان ، وأخذ الغلام الدابة وصار ناحية ، وقال : أغلق الباب ، ففعلت ، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة تكي بكاء شديداً حتى طال بكائها ، وبكيت لبكائها ، فقلت لها : ما شأنك ؟ فقالت : أفعل ما دعوتني لأجله ، ودع عنك هذا ، ونحيها يزيد ، فقلت لها : إن المعنى الذي دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء ، بل مع الأيس وانسراح الصدر وزوال الانقباض ورفع الحجل ، فقالت : نترك البكاء ونرجع للأنس على ما تحب ويوفى غرضك ، فقلت : لا ، حتى أعلم سبب بكائك ، وألححت عليها ، فقالت : أعترف حاجب الملك الذي سجنه ؟ قلت : نعم ، قالت : فأنا ابنته ،

ولم يبق له أحد غيري ، وقد سجنه الملك وأخذ أمواله ، فما زلت أبيع ما ترك أبي وأفقته عليه ، حتى لم يبق بيدي شيء ، فلما أعيتني الحيلة فيما أفقته أبحاث نفسي ووقفت هذا الموقف وأنا بكر ما رأى لي أحد وجهاً قط ، فرميت لما بالألف دينار وقلت لها : والله لا قربت منك على هذا الوجه أبداً ، فأفقتي الدنانير على والدك إلى أن تنفد ، وابعثي لي غلامك أعلمه بمنزلي ، ولازمي دارك ، واستمري على صيانتك وإلا فضحتك ، وتربني والله لا أزال أبيع أملاكه وأنفقها على والدك حتى أموت أو يفنى كل ما أملكه ، ثم خرجت ألتمس الغلام وإذا بجماعة يطليون البنت ، وقالوا : إن الملك رضي عن والدها ، ورد عليه ضياعه وأملاكه ، ووصله بعشرة آلاف دينار ، وقعد يلتمس بنته فلم توجد ، فسقط في يد الغلام الذي كان مع الدابة ، وظن أن الأمر على ما جرى بيني وبين البنت ، فبادرته وقلت له : لا عليك ، فتجاهل في خبرها حتى ينصرفوا ، ودخلت إلى البنت وقلت لها : إن الملك قد رضي عن والدك ، ورد عليه ماله ووصله ، فسيري إلى دارك ، فركبت دابتها وانصرفت ، فدخلت على والدها فقال لها : أين كنت ؟ وما الذي أخرجك عن دارك ؟ وهمَّ بها ، فقالت له : أخرج عني كل من في الدار ، ففعل ، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره ، ورمت إليه بالألف دينار ، وقالت له : هذا الذي أعطاني لأتفق عليك ، فقال أبوها : هذا والله هو الكبريت الأحمر ، والله لو كان أبوه كفافاً ما أنفت أن أزوجه منه ، فوجه العبد الذي كان معها إلى الشاب ، وقال له : إن سيدي يدحرك ، قال : فحفت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه ، ثم أقدمت إقدام من علم براءة نفسه ، فدخلت عليه ، فقام إليّ وعانقني ، وقد عرف لي مقامي ، وقال : أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قررت بك عيني ، وقال : والله لو كان أبوك كفافاً ما أنفت لبنتي أن أزوجه منها ، فما قام من المجلس حتى وجهته إلى

العدل وأشهد على نفسه بأنه زوج ابنته فلاتة من هذا الشاب ، وتقدّمها عنه الشطر الأول من العشرة آلاف دينار التي وصله بها الملك وأجلّ لها عنه الشطر الثاني ، وأهدى لها من الحلّى كذا وكذا ، ومن الثياب كذا وكذا ، حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك ، فحصل من إشارة الشيخ السبتي - رضي الله عنه - في تلك الألف دينار على أضعاف مضاعفة من الأموال ، وظفر بينت حاجب الملك ، انتهى .

رجع إلى ابن زمرك رحمه الله تعالى :

قال الشاطبي في «الإشارات والإفادات» ما صورته :
إفادة : أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك إثر إيباه إلى وطنه من رحلة العُدوة في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً : الفقه في اللغة ، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه «قرم» و«عام» إذا اشتهى ، لكن لا يستعمل «قرم» إلا مع اللحم ، ولا يستعمل «عام» إلا مع اللبن ، فقول : عَمْتُ إلى اللبن ، وكذلك قولهم : أصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، ولا يقال بالعكس ، وهذا كثير . والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتدال ، فلا يُستدل بالحوشي من اللغات ، ولا المبتدل في ألسن العامة . والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ؛ إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه ، والإتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتعرض السامع على الاستماع ، وأخبرني أن كتّاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويلمّون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها .

وذكر من شَرَحَ بديعة الحلّي من المغاربة وهو الشيخ النحوي عبيد التعاليبي في شواهد حسن الختام أن منه ختام قصيدة للكاتب البارح أبي عبد الله المعروف

باين زمرك الأندلسي مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولا من صاحب الأندلس ، وهو قوله :

ولو أنشدت بين العليب وبارق لقال رواة الغرب يا حبلنا الشرق^١
ولم يظهر لي كل الظهور دلالة في على حسن الختام، ولا بد، فالله سبحانه أعلم.
وقد أطلنا في ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشحة له زهرية مولدية
تضمنت مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهي هذه^٢ :

لو ترجع الأيام بعد الذهاب لم تقدح الأيام ذكرى حبيب^٣
وكل من نام بليل الشباب يوقظه الدهر بصبح المشيب
يا راكب المجز ألا نهضة قد ضيق الدهر عليك المجال
لا تحين أن الصبا روضة تنام فيها تحت فيء الظلال
فالعيش نوم والردي يقظة والمرء ما بينهما كالخيال^٤
والعمر قد مر كمر السحاب والملقى بالله عا قارب
وأنت مخلوع بلمع السراب تحسبه ماء ولا تستريب
والله ما الكون بما قد حوى إلا ظلال توهم النافلا
وعادة الظل إذا ما استوى تبصره مستلا زائلا
إننا إلى الله عييد الهوى لم نعرف الحق ولا الباطلا
فكل من يرجو سوى الله خاب وإثما الفوز لعبد مثيب
يستقبل الرجعى بصلق المتاب ويرقب الله الشهيد القرب

١ أوردها في أزهار الرياض ٢ : ٢٠٥ .

٢ الأزهار : الأشواق .

٣ ق : ذكر الحبيب .

٤ من قول أبي الحسن التهامي :

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

يا حسرتا مرَّ الصَّبَا وانقضى وأقبل الشيبُ يقصُّ الأثر
واختلجتا والرحلُ قد قوَّضَا وما بقي في الخير غير الخير
وليتني لو كنتُ فيما مضى أدخِرُ الزادَ لطول السفر
قد حان من ركب البصافي لإياب ورالدُ الرشِدِ أطالَ المتعب
يا أكمه القلبِ بغيرِ الحجاب كمَ ذا أناديك فلا تستجب
« حلَّ يحملُ الزادَ لدارِ الكريمِ »^١ والمصطفى الهادي شفيحُ مطاع
فجاءهُ ذخرُ التقديرِ العديمِ وجهُ زادي ونعمُ المتاع
والله سَمَّاهُ الرُّؤوفَ الرحيمَ فجاره المكنولُ ما إن يُضَاع
عسى شفيحُ الناسِ يومَ الحسابِ وملجأُ الخلقِ لرفعِ الكروب
يلحقني منه قَبُولُ عِجاب يشفعُ لي في مَوَاقِفِ الذنوب
يا مصطفىَ والخلقِ رهنُ العدمِ والكونُ لم يفتنْ كَلامَ الوجودِ
مزيةً أعطيتها في القديمِ بها حلَّ كلِّ نبيٍّ تسودُ
مولدك المرقومُ لنا نجم أنجز للأمة وعدَّ السُودِ
ناديتُ لو يُسمع لي بالحوابِ شهرَ ربيعٍ يا ربيعَ القلوبِ
أطلعتُ للهندي بغيرِ احتجاب شمساً ولكن ما لها من غروب

٢ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى ، الطيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا^٢ ، وشرحه عليها من أبدع الشروح ، وقد نقل عن لسان الدين

١ من قول الشاعر :

« لا استحييت الزاد قلت أكتفي حلَّ يحملُ الزادَ لدارِ الكريم
٢ يعني أرجوزة ابن سينا في الطب ، وأولها هذه التحيات :
الطب حفظ صحة بَره مرض من سبب في بدن منه عرض
(انظر فتاوى : مؤلفات ابن سينا : ١٧٢ وما بعدها) .

كثيراً ، واعتمد عليه في أمور الطب ، وقد طال عهدي به الآن ، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب ، ولم أره بهذه الديار الشرقية .

٣ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي أبو بكر ابن جَزَيَّ الكَلْبِي ، وأبوه الشيخ أبو القاسم ابن جزى شيخ لسان الدين ، وبيت بني جزى بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس ، وقد عرفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين الناطقين النادرين الكاتب أبي عبد الله محمد والقاضي أبي بكر المذكور ، فليراجع في الباب الثالث^١ .

ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - جميع تواليفه مع أنه مقاربه في السن ، ولكن الإنصاف في ذلك الزمان غير معلوم ، وقد عرف به لسان الدين في « الإحاطة » والذي فهمت من عبارته في الإحاطة أنه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالباً إلا على تلامذته ، وربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه ، رحمه الله تعالى ، وأتقن تاريخ أهل المغرب والأندلس ، رحم الله تعالى الجميع .

٤ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسبته رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبد الله الشريشي ، وهو الذي تولى أولاً نقل « الإحاطة » من مبيضتها ، كما سبقت الإشارة إليه في كلام حفيد السلطان ابن الأحمر ، وأحكم النسخة ، فكانت في مجلدات ستة ، وكان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتماداً منه عليه ، وثقة به ، لاشتغال لسان الدين بأمور المملكة .

٥ - ومن تلامذة لسان الدين : القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي .

١ انظر ترجمته في ما تقدم ٥ : ١٧٥ .

قال في «الإحاطة» : صاحبنا الفقيه الخطيب ، كاتب الإنشاء بالباب السلطاني
أبو محمد ، نسيج وحده في أصالة البيت وعفاف النشأة ، مقصود المنزل ، نبيه
الصهر ، معم محول في الأصالة ، بارع الخط ، جيد القريحة ، سيال المداد ،
نشط البنان ، جكّد على العمل ، خطيب ناظم ناثر ، قرأ بغرناطة ، وولي الخطابة
بالمسجد الأعظم والقضاء مستين ببلده في حداثه السن ، ثم انتقل إلى غرناطة
فجاءت به الكتابة السلطانية داحضة بالحق ، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة ببطل
كفاية ، فاستقل رئيساً في غرض إعانتني وانتشالي من هفوة الكلفة على جمل الضعف
ولإلمام المرض . ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة ، وإزعاجها من
الأندلس عن مساواة لا تُؤاوى ، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى ،
فسبحان من علّم النفس فجورها وتقواها ، إذ لصق بالدلائل الفاسق^١ فكان آلة
انتقامه ، وجارحة صيده ، وأجولة كيده ، فسفك الدماء ، وهتك الأستار ،
ومزق الأسباب ، وبدل الأرض غير الأرض ، وهو يزقه في أذنه زقوم النصيحة ،
وينحله لقب الهداية ، ويبلغ في شدّ أزره إلى الغاية ، عنوان عقل الفقى اختياره ،
يجري في سبيل دعوته طوالاً ، أخرق يسيء السمع فيسيء الإجابة ، بدويّاً قحاً
جهوياً ذاهلاً عن عواقب الدنيا والآخرة ، طرفاً في سوء العهد وقلة الوفاء ،
مردوداً في الحافرة ، منسلخاً من آية السعادة ، تشهد عليه بالجهل يده ، وقيم
عليه الحجج شره^٢ ، وتبوّه هفوات الندم جهالته ، ثم أسلم المحروم مصطنعه
أخرج ما كان إليه ، وتبرأ منه ، ولحقته بعده مطالبة مالية لقي لأجلها ضغطاً ،
وهو الآن بحال خزي ، واحتجاب تبعات ، واستدعيت شيئاً من نظمه ونثره
حال التصنيف ليترجم به ، فكتب إليّ ما نصّه :

يا سيّداً فاقَ في مجدي وفي شرفِ وقَاتِ سَبَقاً بفضلِ الذاتِ والسلفِ

١ يعني السلطان التصري الذي هرب منه لسان الدين إلى المغرب .

٢ ق : شره .

وفاضلاً عَنْ سَبِيلِ الدَّمِ منحرفاً
 وَتُحْفَةً الزَّمَنِ الْآتِي بِهِ فَلَقَدْ
 وَمَعْتَدِناً لِنَقِيسِ الدَّرَجَةِ فَهُوَ لِمَا
 وَبَحَرَ عِلْمٍ جَمِيعِ النَّاسِ مَعْتَرِفٌ
 وَسَابِقاً بِدَلِّ أَهْلِ الْعَصْرِ قَاطِبَةً
 مِنْ ذَا بِخَالِفٍ فِي نَارٍ عَلَى عِلْمٍ
 مَا أَنْتَ إِلَّا وَحِيدٌ الْعَصْرِ فِي شَيْئِهِ
 فَهُوَ مِنْ مُنْتَمِ لِمَتَجِدٍ مُتَسَبِّ
 فَهُوَ مِنْ حَسْبِ عَيْدٍ وَمِنْ كَرَمٍ
 إِلَيْهِ أَيَا مِنْ بِهِ تَبَايَ الْوِزَارَةُ إِذْ
 يَا صَاحِبَ الْقَلَمِ الْأَعْلَى الَّذِي جُمِعَتْ
 يَا مَنْ يَقْصِرُ وَصْفِي فِي عِلَالِهِ وَمَنْ
 شَرَفَنِي عِنْدَمَا اسْتَدْحَيْتَ مِنْ نَظْمِي
 وَدِيماً رَاقٍ تَغْتَرُّ فِي تَبَسُّمِهِ
 أَجِيلٌ قَدْرَكَ أَنْ تَرْضَى لِمُسْتَجِرٍ
 هَذَا ، وَلَوْ أَنَّي فِيمَا أَتَيْتُ بِهِ
 لَكُنْتُ أَفْضَى إِلَى التَّضَعُّبِ مِنْ خُجَلٍ
 فَحَسْبِيَ الْعَجْزُ عَمَّا قَدْ أَشْرَتْ بِهِ
 لَكِنْ أَجَبْتُ إِلَى الْمَطْلُوبِ مُمْتَلِئاً
 فَانْظُرْ إِلَيْهَا بَعَيْنِ الْصَفْحِ عَنْ زَلٍّ
 بَقِيَتْ لِلدَّهْرِ تَطْوِيهِ وَتَنْشُرُهُ

ثم ذكر نراً ، وأن مولده بوادي آش آخر عام تسعة وسبعمائة ، وتولى
 الخطابة والإمامة بها عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة ، ثم ولي القضاء بها وبأعمالها عام

ثلاثة وأربعين وسبعمئة ، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام سنة وخمسين وسبعمئة ، ومن شعره قوله :

ألا أيها الليلُ البطيء الكواكبِ . متى يتجلى صبحٌ لبَّيلِ المآربِ
 وحتى متى أرمى النجومَ مراقباً . فمن طالعٍ منها على إثر غاربِ
 أحدثُ نفسي أن أرى الركبَ سائراً . وذنبِي يُقْصِي بِأَقْصَى المَغَارِبِ
 فلا فُرْتُ من نيل الأمانِ بظالمٍ . ولا قمتُ في حق الحبيبِ بواجِبِ
 فكُم حدَّثني النفسُ أن أبلغ المني . وكم عكفتُ بالأمانِ الكواكبِ
 وما قصرتُ بي عن زيارة قبره . معاهدُ أنسٍ من وصالِ الكواكبِ
 ولا حُبُّ أوطانٍ نيتُ بي ربوعها . ولا ذكرُ خلٍّ حلَّ فيها وصاحبِ
 ولكن ذنوبٌ أثقلتني بها أنا . من الوجد قد ضاقتُ على مذاهبي
 إليك رسولَ الله شوقي مجدداً . فبا ليتني يموتُ صدرَ الركاكِبِ
 فأعملتُ في تلك الأباطحِ والرُبى . سرَّائي مجدداً بين تلك السابِغِ
 وقصيتُ من ثم البقيعِ لبَّاني . وجيتُ القلا ما بينَ ماشرٍ وراكِبِ
 ورويتُ من ماء يزمزمَ غلتي . فله ما أشناه يوماً لشارِبِ
 حبيبي شفيعي منتهى غايي التي . أرجي ومن يرجوه ليس بخائبِ
 محمدُ المختارُ والهاشرُ الذي . بأحمدٍ حاز المجد من كل جانبِ
 رؤوفٌ رحيمٌ حصَّنا الله باسمه . وأعظيمُ ببحرٍ في الثناء وعاقِبِ
 رسولُ كريمٍ رَقَعَ اللهُ قدره . وأعلى له قدراً رفيعُ الجوابِ
 وشرفه أصلاً وفرعاً ومعدداً . يزاحمُ آفاقَ السما بالكواكبِ
 سراجُ الهدى ذو الجاهِ والمجد والعلا . وخيرُ الورى الهادي الكريمِ المناسِبِ
 هو المصطفى المختارُ من آل هاشمٍ . وفو الحبيبِ العيدُ الرفيعُ المناسِبِ

١ كانه نسخ فيه قول ابن خفاجة (ديوانه : ٢١٧) :
 وحتى متى أرمى الكواكب سائراً . فمن طالعٍ أخرى البالي غاربِ

هو الأمدُ الأقصى هو الملجأ الذي
 إمامُ النبيين الكرام ، وإنه
 بشيرٌ نذيرٌ مُفضِّلٌ مُتَطَوِّلٌ
 شريفٌ منيفٌ باهرُ الفضلِ كاملٌ
 عظيمُ المزايا ما له مِنْ مُمَالٍ
 ملاذٌ متَّبعٌ ملجأٌ عاصمٌ لئن
 جليلٌ جميلُ الخلقِ والخلقِ ما له
 وناهيك من فرعِ تمته أصوله
 أولي الحسبِ العُدُ الرقيقِ جناهُ
 له معجزاتٌ ما لها من مُعارضٍ
 تحدّى بين الخلقِ شرقاً ومغرباً
 فدونها كالأنجمِ الشهبِ عدةٌ
 وإحصاؤها مهما تتبعتْ معوزٌ
 لقد شرفَ الله الوجودَ بِمُرْسَلٍ
 وشرفَ شهراً فيه مولده الذي
 فشهراً ربيعٍ في الشهورِ مقدّمٌ
 فله منه ليلةٌ قد تلاكَّتْ
 ليهنَ أميرَ المسلمين بها المني
 على حين أحياها بذكرِ حبيبهِ
 وآلفَ شملًا للمُحِبِّينَ فيهمُ

يتألُّ بهِ مرغوبُهُ كلُّ راغبٍ
 لكالبدرِ فيهم بين تلك الموابكِ
 سراجٌ منيرٌ بَدُّ نورِ الكواكبِ
 نفيسُ المعالي والحلى والمناقبِ
 كريمُ السجايا ما له من مناسبٍ
 يلوذُ به من بين آتٍ وذاهبٍ
 نظيرٌ ، ووصفُ الله حجةٌ غالبِ
 إلى خيرٍ مجدي من لؤي بن غالبِ
 بلورِ الدياجي أو صلدورِ الكتائبِ
 وآياتُ صدقٍ ما لها من مغالبِ
 وما ذاك عمن حاد عنها بغائبِ
 ونورِ سناً لا يخضِي للمراقبِ
 وهل بعد نورِ الشمسِ نورٌ لطالبِ
 له في مقامِ الرُّسلِ أعلى المراتبِ
 جلا نورهُ الأسنى دياجي الغياهِبِ
 فلا غرو أن الفخرَ ضربةٌ لازبِ
 بنورِ شهابٍ بينَ الأفقِ شهابِ
 وأن نال من موله أسنى الرغائبِ
 وذكرِ الكرامِ الطاهرينِ الأطايِبِ
 فسار على نهجٍ من الرشدِ لاحبِ

فصوف يُجَازَى عن كرمِ صنيعه
وصوف يُرَبِّه الله في نصر دينه
فيحمي حمى الإسلام عمن يرومه
ويستُر دينُ الله شرقاً ومغرباً
إلهي ما لي بعد رحماك مطلبٌ
سوى زورةِ القبرِ الشريفِ وإنه
عليه سلام الله ما لاح كوكبٌ
وما راقق الأطلان حادي الركائبِ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر
والكتابة وغير هذا الشعر قران ، فقل " أن ينتهي هذا الشعر في الضمة والاسر ذال
إلى ما دون هذا النمط ، فهو بغير ثان شعراً وشكلاً وبلداً ، لطف الله تعالى بنا
وبه ، انتهى باختصار .

٦ - ومن تلامذة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الكاتبُ أحمد بن
سليمان بن فركون^١ ، ومن نظمه على لسان من يرمى بالداء العُضال في قرَج^٢
عبد ابن زمرك الوزير بعد ابن الخطيب :

قالوا كلفت به غلاماً حالكاً فأجبتهم في فيه ما يرضي المهج
مهما جنت بحسنه وبجبه علفت فوقه منه حرزاً من سبج

١ ترجم له في الإحاطة ١ : ٢٢٨ وأثنى عليه بأنه شغل من شغل الذكاء والإدراك وجسوع خلال حمية
وأته طالب نبيل مدرك نجيب بد آفراته . . . ثم عاد فترجم له في الكتيبة الكامنة : ٢٠٥ وأثنى عليه
بالذم الشديد : « جرو محقور وفي جلدة كلب محقور . . . وسلفه يقال عنه ذكره : كفأك الله
شر من أحسنت إليه » وما ذلك إلا لأن ابن فركون كان من الزمرة التي تثيرت على لسان الدين .
٢ قال لسان الدين في الكتيبة الكامنة في ترجمة ابن زمرك : « وبينه وبين معاصريه مداخلات في غلام
له غريب (لعلها : غريب) جملة مرمى غزل ونسب . . . وجميعت الأقوال في هذا الميدان ،
فجست بين التمس والمندان ، والقاصي والبدان . . . إلخ » .

ورأيت بخط الوادي آشي ما صورته : وجلت بخط لسان الدين ، وشاعة
أعلام البيان المجيد ، ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب رحمه الله تعالى في
طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون ، المختص به ، المتأدب بما انفرد
به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصّه : يسقط هذا الساقط من الديوان ؛
انتهى .

ولعل " لسان الدين " إنما أمر بإسقاطه من الإحاطة لما يُشتم به من معنى يتيه
السابقين ، ويحتمل أن يكون لغير ذلك ^١ ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

١ قلت هذا الترجيح من المقري يؤكده أنه لم يطلع على الكتيبة الكاسية ، ولا حرف سبب التغير في نفس
لسان اللهين على أحد تلامذته .

الباب الثامن

في ذكر أولاده

الرافلين في حُكُل الجلالة ، المقتضين أوصافه الجميلة ونِعَمَ لاله ، الوارثين العلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلاله ، ووصيته لهم الجامعة لأدب الدين والدنيا ، المشتغلة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلائُنْيا ، المتقلة من أنواع الضلالة ، وما يقع في ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية ، التي لها على حسن الختام أظهر دلالة

اعلم — وفقني الله تعالى وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يعتبر بالدهر في معصاته — أن أولاد لسان الدين ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلي ، وكلهم حَدَّثَ عن أبيه وعن ابن الجلياب .

أما محمد فقد نال حظه من التصوّف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوّف ، ولم يحضر في الآن نص من أنبأه أكتبه لعدم وجود الكتب التي هي مظان ذلك ، إذ قد تركتها بالمغرب .

وقد سبق فيما مرّ^١ من كلام ابن خلدون أن أولاد لسان الدين كانوا من نُدَماء السُلطان وأهل غلوته ، وأن عليّاً كان خالصة السلطان ، رحم الله تعالى الجميع .

وأما عبد الله فقد كتب بالعُدوتين ، للملوك الحضرتين ، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبر النولة ، وأكثر الناس بها كالمخواص

١. فيما مر : سبقت من ق .

حونه ، ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه ، وقد ألمَّ ببعض التعريف
بمبدل أحواله أبوه لسان الدين في كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة » فقال في
حقه ما ملخصه^١ : عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن الخطيب التلمساني ،
حسن الشكل ، جيد الفهم ، يُغَطِّي منه رمادُ السكون جمرةَ حركة ، منقبض
عن الناس قليل البشاشة ، حسن الخط ، وسَطَ النظم ، كتب عن الأمراء بالمغرب ،
وأُنشدتهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات^٢ والإحسان ، واختال في خيلهم ، ثم
لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة ، قرأ على قاضي
الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني ، والخطيب أبي سعيد فرج بن لب
التفليبي ، واستظهر بعض المبادئ في العرية ، واستجيز^٣ له مَنْ أدركه ميلادهُ
من أهل المشرق والمغرب . وشعره مرفوع عن الوسط إلى الإجابة ، يكلِّله عنر
الحداثة ، فمنه قوله في مولد أربعة وستين وسبعمائة :

يحقُّ الهوى يا حُداةَ الحمولِ	قفوها قليلاً بتلكَ الطلولِ
معاهدُ مرَّتْ عليها السحابُ	يرقُ خُفوقٍ ودمعِ همولِ
أحنُّ إليها حينَ العِشارِ	وأبكي عليها بشجرِ طويلِ
فيا سعدُ حَرِّجْ عليها الركابَ	ففيها لقلبي شفاءُ الغليلِ
سقاها من المزن صوبُ الغمامِ	وحَيَّا بِمَرَفِ النسيمِ العليلِ
ولا زالَ فيها يجرُّ الليلولَ	فيحيي النفوسَ بِجسرِ الذبولِ
لئن حُلَّتْ ياربعَ عَنَ عهدنا	فعهدُ الهوى ليس بالمستحيلِ
وممَّا شجاني وميضُ خُفوقٍ	كقلبي غداةَ النوى والرحيلِ
وميضُ إذا سلَّ المزنُ وهنا	يضيءُ سناءه كمضِبِ صقيلِ

١ انظر الإحاطة ، الورقة : ٢٣٧ .

٢ الإحاطة : بالإقطاع .

٣ الإحاطة : وأجاز .

أطار القوادَ قوادَ المشوقِ
فبتُ أطاولُ لئيلَ التمامِ
ودعِمَ يساجلُ دمعَ النعامِ
فيا ليت شعري وهل من سبيلِ
وهلْ يسمعُ الدهرُ بعدَ العنادِ
وهلْ راجعُ عهدُنَا بالحمى
فيا حُسنَ مأوى صراءِ جميلِ
وفي ذمّةِ الله ركبٌ سرّوا
نشأوى بكأسينِ كأسُ الهوى
يؤمنونَ بالعيسِ أمْ اقترى
ديارُ بها الوحيُ وحيُّ السما
بها أشرقَ الدينُ كالشمسِ نوراً
فيا حاديَ العيسِ يطوي الفلا
سفائنَ آلِ طواها السرى
نشدتك بالبأنِ بأنِ الحمى
إذا ما حلتَ لدى طيبةٍ
وقبراً ثوى فيه خيرُ الوردى
فأبلغَ بحمةٍ صبَّ مشوقِ
وقلْ يا رسولَ الهدى والشفيعِ
عليكَ الصلاةُ وطيبُ السلامِ
نبيُّ كريمٍ رؤوفٌ رحيمٌ
لإمامِ الهدى المجتبي المصطفى

وأغرى الشهادةَ بطرفِ كليلِ
بوجدٍ جديدٍ وصبرٍ مُحيلِ
وشجراً الحماثمِ عندَ الهدبيلِ
على الوجدِ يوماً بصبرِ جميلِ
بجبرِ الكسيرِ وعزِّ الدليلِ
على رغمِ دهرٍ ظلومٍ جهولِ
ويا طيبَ مأوى بظلِّ ظليلِ
يحدّونَ والليلُ مُرُخى السدولِ
وكأسٍ من الأمنِ مثلَ الشمولِ
وقبرِ النبيِّ الشفيعِ الرسولِ
تنزّلُ ، أكرمُ بهِ من نزولِ
وآن من الشركِ وقتُ الأفولِ
بوخذِ القلاصِ ونصِّ الدّميلِ
وشقَّ الحزُونِ وقطعُ السهولِ
وبالموردِ الملبِ والسلبِ
وجئتُ محلَّ الرضى والقبولِ
وبشرى الكليمِ وفخرُ الخليلِ
عدّتهِ عوادي الزمانِ الخذلِ
إذا ضاقَ صدرُ أبٍ عن سليلِ
يجيبُكَ عندَ الضحى والأصيلِ
بنصِّ الكتابِ وحكمِ العقولِ
بأزكى شهيدٍ وأهدى دليلِ

به أظهر الله دين الهدى
 وقام بأصنام دين الإله
 فأكرم بآية ميلاده
 لك الله من ليلة فضلها
 وأبد بالنصر مولى أقام
 أعاد بها الليل مثل النهار
 وأبدى الرضى نحوها والقبول
 سمى النبي الكريم الرسول
 محمد المرتضى المستجار
 من الضر الشؤ أسد الكفاح
 تراحم لدى السلم أطواد حليم
 ميد العطاء ، وعجي العفاة
 فبأس حكي النار عند احتدام
 فبصلي عداه لدى الحرب نارا
 إذا قلت البيض يوم الوضى
 ملك كليل لمن يرتجيه
 وفرح كريم حميد الخلال
 فدام لنا سرى في الرياض
 وحن مشوق لأرض الحجاز

وقال يمدح السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نصر من مدينة فاس :

لن تطل بالرقمتين محيل عفت دميته شمال وقبول

١ أورد بعضها في نسخة الإحاطة المشار إليها .

يَلُوحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ غَيَّرَهُ الْيَلِي
فِيَا سَعْدُ مَهْلًا بِالرَّكَابِ لَعَلَّنَا
قَفَّ الْمَيْسَ تَنْظُرُ نَظْرَةً تَذْهَبُ الْأَمْسَى
وَعَرَجَ عَلَى الْوَادِي الْمَقْلَسِ بِالْحَمَى
فِيَا حَبْلًا تَلِكِ الدِّيَارُ وَحَبْلًا
دَعَوْتُ لَهَا سَقَى الْحَمَى بَعْدَمَا سَرَى
وَأَرْسَلْتُ دُمْعِي لِلضَّمَامِ مَسَاجِلًا
فَأَصْبَحَ ذَاكَ الرَّيِّعُ مِنْ بَعْدِ مَحَلِّهِ
لَنْ حَالٍ رَمَمُ الدَّارِ عَمَّا عَهْدَهُ
وَمِمَّا شَجَانِي بَعْدَمَا سَكَنَ الْمَوَى
تَوَسَّدَنْ فِرْعَ الْبَانِ ، وَالتَّجَمُّ مَائِلُ
فِيَا صَاحِبِي دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّهُ
تَقُولُ : اصْطَبَارًا عَنْ مَعَاهِدِكَ الْأَلَى
فَلَهُ عَيْنًا مِنْ رَأْيِي وَلِلْأَمْسَى
يَطَاوُلُ لَيْلَ الْتَمِّ مَنِي مُسْبَهَدُ
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ يَعُودُنَّ مَا مَضَى
وَهَلْ رَاجِعُ عَهْدِ الْحَمَى سَكَى الْحَمَى
وَأَيَّامُ أَنْسَرِ كَمْ نَعْمَنَا بِقُرْبَاهَا
حَلَقْتُ بِرَبِّ الرَّاغِبَاتِ إِلَى مَنَى
لَتَجُودُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدٍ
مَلِكُ أَتَاهُ اللَّهُ فِي الْمَلِكِ عَزْمَةً
هُوَ الْمَلِكُ الْمُتَصَوِّرُ وَالْبَطْلُ الَّذِي

وَجَادَتْ عَلَيْهِ السَّحْبُ وَهِيَ هَمُولُ
نَسَائِلُ رَيْبًا فَاَلْحَبُّ سَكْرُولُ
وَيَشْفَى بِهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ غَلِيلُ
فَطَابَ لَنِيهِ مَرَبْعٌ وَمَقِيلُ
حَدِيثُ بِهَا لِلْعَاشِقِينَ طَوِيلُ
وَمِيضُ وَعَرَفَ النَّسِيمَ طَلِيلُ
فَسَالَ عَلَى الْخَدَيْنِ مَتْنُ حَسِيلُ
رِيَاضًا بِهَا الْفَضْنُ الْمَرْوَحُ يَمِيلُ
فَمَهْدُ الْمَوَى فِي الْقَلْبِ لَيْسَ يَحُولُ
بُكَاءُ حَمَامَاتٍ - لَنْ - هَدِيلُ
وَقَدْ آتَى مِنْ جَيْشِ الظَّلَامِ رَحِيلُ
كَلَامٌ عَلَى سَمْعِ الْحَبِّ ثَقِيلُ
وَهِيَهَاتَ صَبْرِي مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
غَدَاةً اسْتَقَلَّتْ بِالْخَلِيطِ حَمُولُ
وَقَدْ بَانَ عَنِّي مَرْتَلُ وَغَلِيلُ
وَهَلْ يَسْمَحُنَّ الدَّهْرُ وَهُوَ يَحِيلُ
وَزَلَّ - بَيْنَ التَّمَعِ فِيهِ - ظَكِيلُ
وَقَدْ غَابَ عَنَّا حَاسِدُ وَعَنُولُ
لَنْ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذَمِيلُ
بِكُلِّ مَرَامٍ فِي الزَّمَانِ كَثِيلُ
يَرُوحُ الْأَعَادِي بِأَسْهَاهَا وَيَهُولُ
يَهُونُ عَلَيْهِ الْخَطْبُ وَهُوَ جَلِيلُ

إِذَا قُلَّتِ الْبَيْضُ الرِّقَاقُ وَجَدْتَهُ
 يَقْتَرُّ بِأَعْ الدَّحْ دُونَ صَفَاتِهِ
 مِنَ التَّفْرِ الْبَيْضُ الْوَجْهَ لَدَى الْوَعَى
 هُمْ مَا هُمْ وَالْحَرْبُ قَدْ شَبَّ نَارَهَا
 إِذَا سَلُّوا يَوْمَ النَّدَى فَنَوَالَهُم
 بِهِمْ عَزَّ دِينَ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
 هُمْ السَّادَةُ الْأَنْصَارُ وَالْعَرَبُ الْأَلُ
 لَهُمْ يَوْمُ بَدْرِ وَالرَّسُولُ أَمِيرُهُمْ
 فَأَصْبَحَ أَصْحَابُ الْقَلْبِ كَأَنَّهُمْ
 وَقَدْ أَمَنَ الْإِسْلَامُ كَيْدَ عُلُوِّهِ
 وَعَدُوا رَوَاحًا لِلْمَنِينَةِ وَالرَّضَى
 فَمَنْ ذَا يَمَارِي أَوْ يَدَانِي عَصَابَةً
 لَكُمْ يَا بَنِي نَصْرِ مِنَ الْمَجْدِ هَفِيَّةٌ
 فَيَا سَيِّدَ الْأَمْلَاقِ وَالْوَاحِدِ الَّذِي
 لَقَدْ قَرَعَ الْأَعْدَاءَ مِنْكَ مُؤَيِّدٌ
 قَلَمٌ يَدْرِكُوا مَا أَمَلُوا غَيْرَ سَاعَةٍ
 تَمَازِينَ فِي بَابِ الْبُنُودِ بِسِحْرَةٍ
 أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتُوا بِغِيظِهِمْ
 فَأَضْحَوْا حَتِيئًا فِي الْبِلَادِ وَيَوْمَهُمُ
 بِسَعْدِ إِمَامٍ يُنْزَلُ الْعُصْمَ سَعْدُهُ
 وَفَرَحَ كَالِ فِي الْخِلَافَةِ ثَابِتٍ
 حَكِي وَجْهَهُ شَمْسَ النَّهَارِ إِذَا بَدَأَ
 أَحَادَ لَنَا بِالْعَدْلِ أَيَّامُهُ الَّتِي

أَنَا عَزَمَاتِ مَسَا بَيْنَ فُلُولُ
 وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْفَكْرُ وَهُوَ كَكَيْلُ
 لَهُمْ غَرَرٌ وَضَّاحَةٌ وَحُجُولُ
 وَالْخَيْلُ فِي جَنَحِ الْعِجَاجِ صَهِيلُ
 تَقِيضُ شَايِبٌ لَهُ وَسِيُولُ
 وَأَصْبَحَ دِينَ الْكُفْرِ وَهُوَ ذَلِيلُ
 حَمَى الدِّينِ حَيٌّ مِنْهُمْ وَقَبِيلُ
 تَصُولُ بِهِ أَرْمَاحُهُمْ وَتَطُولُ
 كَتِيبٌ لَوْطَاءُ الْمَرْهَفَاتِ مَهِيلُ
 وَغَوْدَرُ رَيْحِ الْكُفْرِ وَهُوَ مُحْصِيلُ
 لَهُمْ مِنْهُ فَوْزٌ عَاجِلٌ وَقَبُولُ
 جَزَائِهِمْ عِنْدَ الْإِلَهِ جَزِيلُ
 تَزُولُ الرُّوَامِي وَهِيَ لَيْسَ تَزُولُ
 إِذَا عُدَّ فَعَزَّ لَيْسَ عَنْهُ عُدُولُ
 لَهُ الدَّعْرُ نَصْرٌ وَالْحَسَامُ دَلِيلُ
 كَذَلِكَ مَتَاعُ الْأَخْمَرِينَ قَلِيلُ
 كَلَابٌ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَوِيلُ
 فَوَيْلٌ لَهُمْ مِنْ مَكْرَهُمْ وَأَلِيلُ
 وَسَاءَ صَبَاحٌ عَنْدهُمْ وَأَصِيلُ
 وَيُرْوِي نَدَاهُ وَالزَّمَانُ حَوْلُ
 نَمَتْهُ إِلَى الْمَجْدِ الزَّكِيِّ أَصُولُ
 وَرِيَّاهُ عَرَفَ الرُّوْضَ وَهُوَ بَلِيلُ
 عَهْدَنَا ، فَنَادَتْ لِّلرُّوْرِ شَمُولُ

فدام لنا ما هبَّ صَرْفٌ من الصَّبَا
وحَنٌّ مشوقٌ للحجاز إذا بدت
وأشرقَ نجمٌ مثلَ قلبي خافق
ولا زالتِ الأقدارُ تجري بأمره
ولومضُ برقٍ في الظلامِ كليلٍ
لمينتهُ منه شامةٌ وطفيلُ
وحانَ له عندَ الغروبِ أقولُ
وصنعُ إلهِ العرشِ فيه جميلُ

وقال في إصدار ابن السلطان رحمه الله تعالى ورَضِي عنه :

أليرها عزمةٌ تُنْضِي الركايا
لعلَّ الوجدَ تطفأ منه نارُ
أما بعد الأل ترجو قلوبُ
فيا أحنوي كُفًّا عَنّ عتابي
تذكرتُ العقيقَ فال دمي
أقولُ لنسمةٍ مرّت صباحاً
ألا يا هله بكوني رسولي
نشدتك بكنّي صحي سلامي
يلومني العواذلُ في اشتياقي
وكم بين الأباطح من مهابةٍ
رمني ثم قالت وهي تُزري
إذا ما الشهبُ للغرب استمالت
أوجهُ إن ركدت إليك طيفي
قلتُ : لقد بخلت على مشوقي
وكيف له بنومٍ بعد وجدٍ
وإن دميّ لها المينُ انسكابا
أبتُ إلا زفيراً والنهبا
تسارعُ نحو أرضهم انقلابا
فلستُ بسمع أبداً عتابا
عقيقاً من تذكره مذابا
يعطرُ عرقها القفرَ اليابا
وكوني إن رجعت لي الجوابا
إذا جئت المعاهدَ والقبابا
إذا ما القلبُ من وجدي تصابي
تروعُ بلحظها الأسدُ النضابا
ولم تحلرُ بشكها العقابا
وفودُ الليلِ بالإصباحِ شابا
كلعُ البرقِ يحرقُ السحابا
أبى إلا غراماً وأكتسابا
بذيبٍ لحيه الصمُّ الصلابا

سيصره من الأنصار مئكت
 كريم الذات من ملا كرام
 تواضع رجمة وعلا محلاً
 فليس يصد عن جلواه راج
 له عطف على الراجي جميل
 وعدل آمن الأرجاء حتى
 أملاي الذي أحيا المتعالي
 مددت على البلاد جناح عدل
 وتاب للنعم مما قد جناه
 وسكن عز دولتك الدوامي
 وبالله إعلال سعيد
 صبت لمقدم والروح يهفو
 ومن شيلر أطلع أنا سلاح
 وهل علز لعاذر ليث غاب
 فلولا سنة حكمت وهدي
 لحامت عصبة الأنصار عنه
 من الصيد الذين لهم نفوس
 تير الليل أوجههم إذا ما
 دعوت به الأنام ليوم حشر
 رأوا من زخرف الدنيا مقاماً
 وأبهم فما عاطوا حديثاً

إذا ناداه مظلوم أجابا
 لقد طابت سجاياهم وطابا
 وسهل منه للناس الحجابا
 وليس يسد عن عافيه بابا
 يقل من الردى ظفراً وثابا
 ترى الغزلان لا تخشى الذئابا
 وقد بليت وألخت الترابا
 وكف الجور تستلب استلابا
 فجلت له بفوك حين تابا
 فكانت رحمة دقت عذابا
 دعوت السعد فيه فاستجابا
 بأقنعة الكمة وما استرابا
 وحكمه اصطبأ واحتسابا
 أظن فؤاده والعقل ظابا
 أصبت وقد سبكت به الصوابا
 بأسياف تشد بها الرقابا
 لغير الفخر لا تعمل الطلابا
 أرادوا السير أو حثوا الركابا
 ولم تلخر لهم إلا الثوابا
 يذكر بالحنان لمن أنابا
 ولا عرفوا السؤال ولا الجوابا

ولو مكثوا به دحراً طويلاً
 وطاردت الصَّوَارَ بكلِّ ضارٍ
 ضربت به على الآذان منها
 ومعضوب الجبين بتاج روقٍ
 تعرف أن تحت الأرض ثوراً
 وكنت به مضيم الكشح أجتى
 تباعدت جمع الشدين منه
 فائتته كوخى الطرف حتى
 وصاح به الصَّوَار وقد رآه
 ونفض الطرف إنك من نمر
 وأرسلت الجياد إلى استباق
 فمين ورد أهب ومن كسيت
 وساقية العمد إذا أطلت
 تحوم بها العصي فراكش ليلٍ
 تحف بها خيول القوم منا
 عجائب أبدعت عليك فيها
 محمد لا علمت الدهر حمداً
 وزكى نفسك الرحمن لنا
 تداركت البلاد ومن عليها
 لقد أوليتنا بيض الأيادي
 روتك عنك العوالي في المعالي
 ستفتح من بلاد الشرك أرضاً

لما ذكروا الطعام ولا الشراب
 كما أتعت غفرتاً شهباباً
 فلم تسطع حراكاً واضطراباً
 يروع خواره الأسد الغضاباً
 فرام بأن يشق له التراباً
 حديد الثاب تحسبها حراباً
 وسال الموت بينهما لعاباً
 توثق منه جازره غلاباً
 حيس الكلب قد منع الإياباً
 فلا كماً بلغت ولا كلاباً
 كأن يوارقاً شقت سحاباً
 وأشهب يلهب الأرض التهاباً
 إلى الأدوار تنساب أنساباً
 تروم بسمه منه اقتراباً
 فترسل نحوها الجرد العراباً
 بوملك يدع الأمر العجاباً
 فقد أحسنت في الملك المتاباً
 رأك ملكك للمجير النصاباً
 فأمنت التناثف والشعاباً
 لقد طوقنا المن الرخاباً
 حديث القفر حقاً لا انتساباً
 قد اعتقلت غصائلها اغضاباً

وتُعمل في العدا بيض المواضي
لما كاس من الصهباء صرف
وطاف بها من الرهبان بدر
نجد الأنس عوداً بعد بدء
بأحدب من ثالك حين يطوي
أمولاي استمعها بنت فكر
وغاص على فراثها الغوالي
وهناك الإله بكل نعمي
ودمت لعزة الإسلام ركناً
وقال ، وقد أنشدنا السلطان ليلة
نفس الصبا أهدى إلي نسيمي
يا هل يلغني الشرى خير الورى
وأصابى الركبان فوق نجية
وأخط رحلي في كريم جواره
حتى إذا بلغوا الذي قد أمكوا
وتراحموا في الرب يستلمونه
قبلت ذلك الرب من شوقي إلى
وبكيت من جمع المآقي زمزماً
صلى عليه الله ما هبت صبا
لله مولده الذي أنواره
شرعت من التأيد سيف هداية
كسر الأكاسر بالعراء ولم يدع
إلى أن ينكر السيف القربا
تعيد الشيخ من طرب شبابا
يهتك من دجى الليل الحجابا
وربع المم تركه خرابا
به الركب الأباطح والمضابا
تخيرها فأبرزها لبابا
وشق على نفائسها العبابا
تقود لك الأمانى الصبابا
إلى أن يشمل الشيب الغرابا
الميلاد عام خمسة وستين وسبع مائة :
قد رام ممتناً ورام عظيماً
فأرى معاهد الهوى وروسماً
تقري من اليد العراض أديماً
أرجو نعيماً في الجنان مقيماً
ورأوا مقاماً بالرضى موسوماً
أرأيت في الورد الظماء الهيماً
من حله وأقمت فيه لزيماً
وتركت جسمي كالخطيم حليماً
تهدي من الطيب الزكي شميناً
صدعت ظلاماً للضلال بيماً
أردت ظباه فارساً والروما
أن رد قيصر قاصراً مهزوماً

لله منها ليلة أضحي بها
 أبداً أمير المسلمين أعدّها
 ملك أقسام الله منه خلّقه
 بحمي ذمار المسلمين من الردى
 بمحمد قد عاد دين محمد
 أحيا به الله الخلافة بعدما
 من آل سعد الخرج بن عبادة
 تلقاه في يوم الكربة والوغي
 ونخال كفيه إذا شحّ الحيا
 تأبى خلل العدل والشمع الملا
 كهف المباد وفخرها وثناؤه
 لا زال يلقى العيش طلقاً والملا
 ما اهتر غصن في الحليقة ناعم

مولده بغرناطة ، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعماية ؛

انتهى .

[أشعار لسان الدين]

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ولده عبد الله المذكور ما في
 « التفاضة » من قوله : أنشدت ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني
 حيث جرابته ووظيفته ، وأنجز حديث ما فقد بغرناطة في شجون الكلام :

يا بُنيَّ عبدَ الإله احساباً عن أثاثٍ ومثلٍ وعقارٍ

كَيْفَ يَأْتِي عَلَى خسارة جزء
هَدَفَ لَا تَتِي سَهَامُ اللَّيَالِي
وَاحِدٌ طَائِشٌ وَسَهْمٌ مُصِيبٌ
غَيْرَ ذِي الدَّارِ صَرَفَ الِهِمَّ فِيهَا

انتهى . وقال أيضاً رحمه الله تعالى : مِمَّا أَنشَدْتَهُ وَلَدِي عَبْدَ اللَّهِ ، وَأَمَرْتَهُ
بِحِفْظِهِ وَالتَّأَدُّبِ بِهِ وَاللَّهْجِ بِحِكْمَتِهِ :

إِذَا ذَهَبْتَ بِمِثْلِكَ لَا تُصَيِّعْ يَسَارَكَ فِي الْبُكَاءِ وَلَا الْمَصِيهَ
وَيُسْرَاكَ اغْثَمْ فَالْقَوْسُ تُرْمِي وَمَا تَلْرِي أَرْشَقَتْهَا قَرْيَهَ
وَمَا بِغَرْيَةٍ نُوبُ الْيَسَالِي وَلَكِنَّ النِّجَاةَ هِيَ الْغَرْيَةُ

قال : ومن المنظوم في قريب من هذا قولِي :

أَيَا أَهْلَ هَذَا الْقَطْرِ سَاعِدِهِ الْقَطْرُ دَهَيْتُ فِدْلُونِي لِمَنْ يُرْفَعُ الْأَمْرُ
تَشَاغَلْتُ بِالدُّنْيَا وَنَمْتُ مَفْرَطًا وَفِي شُعْلِي أَوْ نَوْمِي سُرِقَ الْعَمْرُ

وقال رحمه الله تعالى : وَمِمَّا قُلْتُهُ وَقَدْ انصرفت عني الولدُ عبد الله إلى مدينة
فَاسَ لإِقَامَةِ رَسْمِهِ مِنَ الْخِدْمَةِ ، وَأَشْجَانِي انصرافَهُ لَوْقُوعِ قَرْحَةٍ عَلَى قَرْحِ ، وَاللهُ
الْمُسْتَعَانُ :

بَانَ يَوْمَ الْخَمِيسِ قَرْعٌ حَتَّى حَسِبَى اللَّهَ أَيَّ مَوْقِفٍ بَيْنِ
لَوْ جِئْتُ مَوْقِفَ النَّوَى حِينَ حَيَا حَانَ يَوْمَ الْوَدَاعِ وَاللهُ حَتَّى
ضَائِقَتِي صُرُوفُ هَذِي اللَّيَالِي وَأَطَالَتْ هَمِّي وَأَلَوْتُ بِدَيْتِي
وَطَنٌ نَازِحٌ وَشَمْلٌ شَيْتٌ كَيْفَ يَبْقَى مُعَذَّبٌ بِعَذَابِ ذَيْنِ
يَا لِمَنِ أَدْرَكَ بِطَلْقِكَ ضَعْفِي إِنَّ مَا أَشْتَكِيهِ لَيْسَ بِهَيِّئِ

وقال رحمه الله تعالى : أَنشَدْتُ يَوْمًا وَلَدِي عَبْدَ اللَّهِ وَقَدْ رَأَيْتَ مِنْهُ نَشَاطًا

ومرحاً انتقل مني إليه بعد السن :

سرقَ الدهرُ شباي من يدي وقوادي مُشمرٌ بالكمدِ
جملةُ الأمرِ إذا أبصرته باعَ ما أقتلني من ولدي

وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه الله تعالى .

[علي وتعليقاته على الإحاطة]

وأما علي بن لسان الدين رحمه الله تعالى فهو شاعر البيت بعد أبيه النبيه ،
وكان مُصاحباً للسلطان أحمد المريني المستنصر بالله ابن السلطان أبي سالم ابن
السلطان أبي الحسن المريني ، رحمهم الله تعالى .
وحكى بعضهم أنه حضر معه في بيتان ، سَحَّ فيه ماء المذاكرة المثنان ،
وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزعم النهار لما قدم الليل على الفرار ،
فقال المستنصر لما لان جانبه ، وبالت بين سرحات البستان جداوله ومكاديه :

يا فاسُ إني وإيْمُ الله ذَوْ شَغَفٍ في كلِّ ربيعٍ لهم مِثْقالُ يَسِينِي
وقد أنستُ بقربِ منك يا أملي ونظرةً فيكم بالأنسِ نَحِينِي

فأجابه أبو الحسن علي بن الخطيب ، بقوله المصيب :

لا أوحشَ الله رَيْعاً أنت زائرُه يا بهجةَ الملك والدنيا معَ الدينِ
يا أحمدَ الحمدِ ، أبقاكَ الإلهَ لنا فخرَ الملوكِ وسلطانَ السلاطينِ

وقد رحل رحمه الله تعالى إلى مصر ، ولم يحضرني الآن من أحواله بعد دخوله
مصر ما أعول عليه ، وقد كان وقف بالقاهرة على نسخة « الإحاطة » التي وجهها
أبوه إلى مصر ووقفها بخانقاه سيد السعداء كما أشرنا إليه فيما مر ، فكتب
بالخواشي كتابات مفيدة ، وقد ذكرنا بعضها فيما أسلفناه من هذا الكتاب ،

فليراجع : إما تكميل لما أغفله أبوه ، وإما إختيار عمّا شاهده هو ، أو رواية له عن المترجم به ، أو جواب عن أبيه فيما انتقد عليه .

[نحاذج في تعليقاته من ترجمة ابن جابر]

ولندكر شيئاً منها غير ما تقدم بعد إيراد نص « الإحاطة » فنقول :
قال في « الإحاطة » في حرف الميم في ترجمة شمس الدين الهوارى الضمير
شارح ألفية ابن مالك وصاحب البديعة الشهيرة بالأعشى والبصير ، ما صورته :
محمد بن أحمد بن علي الهوارى ، يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن جابر ،
من أهل المرية .

حاله - رجل كفيف البصر ، مدل على الشعر ، عظيم الكفاية والمنة على
زَمَانِهِ ، رحل إلى المشرق ، وتظاهر برجل من أصحابنا يُعرف بأبي جعفر الإلييري ،
صارا روحين في جسد ، ووقع الشعر منهما بين لَحْنِيْنِيْ أسد ، وشمر للعلم
وطلبه ، فكان وظيفة الكفيف النظم ، ووظيفة البصير الكتّاب ، وانقطع الآن
خبرهما ، انتهى .

فكتب المذكور على أوّل الترجمة ما صورته : نعم الرجل وزَفيقه أبو جعفر .
أحسن الله تعالى إليهما ، فلقد أحسنا الصبغة ، في الغربة ، وانفردا بالتزاهة
والفضل وعلو الهمة ، إلا أن المصنف قصّر فيهما بعض قصور ، ومنهما يُطلب
الإغضاء والصفح ، فالرجل مات ، وذكرُ الأموات بالخير مشروع ، وهما
والله الشرف الباهر بقطرهما علماً وعملاً ، أمتع الله تعالى بهما ، قاله ولَدُ
المؤلف علي بن الخطيب بالقاهرة ، انتهى .

١ قد ترجم المقرئ لابن جابر الضمير ورفيقه أبي جعفر الإلييري (المجلد ٢ : ٦٦٤ - ٦٨٧)
وهما هو يهود إلى الإسهاب في ذكر الرجلين في هذا الجزء .

وكتب على قول أبيه «واقطع الآن خيرهما» ما نصّه : هما الآن بإلبرة من حلب ، تحت إنعام ولطف ، نحت إليهما الرواحل ، وتضرب إليهما آباط النُجَب .

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من «الإحاطة» :

قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصّه ، وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه :
محسوب من طلبتها الجليّة ، ومعدود فيمن طلع بألقها من الأهلة ، رحل إلى المشرق وقد أصيب ببسّره ، واستهان في جنب الاستفادة بمشقة سفره ، على بيان علوه ، ووضوح ضره .

شعره — وشعره كثير ، فمنه قوله :

سلوا حُسنَ ذاك الخالِ في صفحة الخدِّ متى ركمُوا بالمسكِ في ناهمِ الوردِ
وقولوا لذلك الثغرِ في ذلك اللَّيِّ متى كان شأنُ الدرِّ بوجدٍ في الشهدِ
ومنَّ هزَّ غصنَ القدِّ منها لفتني وأودعه رمائتي ذلك النهدي
ومن متع التَّضْبُّبَ اللِّدانَ بوصفها إلى أن أعزَّ الحسنَ من ذلك القدِّ
فتاةً تفتُّ القلبَ مني بمقلة لها رقةُ الزَّلانِ في سطوةِ الأسدِ
تمنيتُ أن تهدي إليَّ نهودها فقالت رأيتَ البدرَ يهداه أو يهدي
فقلْتُ أَلرُّمَانِ بُدٌّ من الجنى فتاحتْ وقالت : بالواضحِ لا الأيدي
فقلتُ أليس القلبُ عندك حاصلاً فقالت قلوبُ الناسِ كلُّهمُ عندي
فقلتُ اجعليني من عبيدك في الهوى فقالت كفاني كم لحسني من حيدِ
إذا شئتَ أن أرضاك عيدا فمتَّ جوى ولا تشتكي واصبرْ على ألمِ الصَّدِّ
ألم ترَ أنَّ النحلَ يُحْمَلُ ضرها لأجل الذي تجنيه من خالصِ الشهدِ
كذلك يبدلُ النفسَ سهلٌ لذي النهى لما يكسبُ الإنسانُ من شرفِ الحمدِ
ألستَ ترى كفَّ ابنِ جانةٍ طالما أضاع كريمَ المالِ في طلبِ المجدِ

وكتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته : عارضة قوية ، ونزعة
تحفاجية ، وكيف لا والشيخ أبو عبد الله صدر صدور الأندلس علماً ونظماً
ونحواً ، زاده الله تعالى من فضله ، انتهى .

رجع إلى الترجمة — قال لسان الدين : وقال ، يعني ابن جابر :

عرج على بان العديب ونادي	وانشد فديتك أين حل فوادي
وإذا مروت على المنازل بالحمى	فاشرح هناك لوعي وسهادي
إيه فديتك يا نسيمة خبيري	كيف الأحبة والحمى والوادي
يا سعد ، قد بان العديب وبانه	فانزل فديتك قد بكاء إسعادي
أخذ في البشارة مهجتي يوماً إذا	بان العديب ونور حسن سعادي
قد صبح عيني يوم أبصر حسنها	وكلنا الحلال علامة الأعيادي

ومما نقلته من جزء قبله لي صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو علي الزواوي مما
ادعاه لنفسه :

علي لكل ذي كرم ذمام	ولي بمدارك المجد اهتمام
وأحسن ما لدي لقاء حرر	وصحبة معشر بالمجد هاموا
ولاني حين أنسب من أناس	على قعر النجوم لهم مقام
يميل بهم إلى المجد ارتياح	كما مالت بشاربها السدائم
هم لبسوا أديم الليل برداً	ليستقر عن أديمهم الظلام
هم جعلوا متون العيس أرضاً	فمد عزمو الرحيل فقد أقاموا
فمن كل البلاد لنا ارتحال	وفي كل البلاد لنا مقام
وحول موارد العلياء منا	لنا مع كل ذي شرف زحام
تصيب سهامنا غرض المعالي	إذا ضللت عن الغرض السهام
وليس لنا من المجد اقتناع	ولو أن النجوم لنا خيام

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها ، وذكر بعد ما سبق اثنين وستين بيتاً ، ولم تثبتها طولها ، ثم قال بعدها : تجزت وما كادت ، ثم قال بعدها أيضاً : وقد وطئاً لإمطاء قروحها ، وأعيا لإكثار سروحها ، ثم قال بعده : والله ولي النجاة بفضلته ، انتهى .

وكتب ابنه علي أول القصيدة وهو : « علي لكل ذي كرم ذمام » ما نصه : نزعة معرية ، قاله ابن المؤلف رحمه الله تعالى ، انتهى .

وكتب الشيخ ابن مرزوق على قوله « تجزت إلى آخره » ما صورته : ما أنصف المصنف هذا الفاضل في ترجمته ، وقدره شهر ، ومكانه من الفضيلة كبير ، وعلمه غزير ، ولعلمه لم يطلع إلا على ما أودعه .

وكتب إثره ابن لسان الدين ما صورته : نعم يا سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق لم ينصف المترجم به المؤلف ، ولولا أنهما بالحياة ما صدر منكم التنبيه ، ولو حصلا تحت الصفيح لم تُعلموا فيها قلماً ، هكذا شأن الدنيا بقلّة الوفاء شتنة معروفة ، والمحدد على الأموات شأن المغاربة ، قاله علي ابن المصنف رحمه الله تعالى ، انتهى .

[استطراد بأشعار ابن جابر]

ولا خفاء أن لسان الدين لم يستوف حقوق الشمس ابن جابر الهواري المذكور مع أن له محاسن جمّة . ومن محاسنه رحمه الله تعالى :

هناؤكم يا أهل طيبة قد حقاً فبالقرب من خير الورى حُرِّمُ السبّا
فلا يتحرك ساكنٌ منكمُ إلى سواها وإن جار الزمانُ وإن شقا
فكم ملكٍ رام الوصولَ لثل ما وصلتم فلم يقلر ولو ملك الخلقا
فبشراكم نلتم عنايةَ ربكم فها أنتم في بحر نعمته غرقى

تروى رسول الله في كل ساعة
 متى جفتم لا يلقا الباب دونكم
 فيسمع شكواكم ويكشف ضرركم
 بطيبة مثواكم ، وأكرم مرسل
 فكم نعمة الله فيها عليكم
 أنتم من الدجال فيها فحولها
 كذلك من الطاعون أنتم بئامن
 فلا تتظروا إلا لوجه حبيبكم
 حياة وموتاً تحت رحماه أنتم
 فيا راحلاً عنها لدنيا يريدنا
 أنخرج من حيز الدنيا وحوزة
 لئن سرت تبغي من كريم إهانة
 هو الرزق مقسوم فليس يزال
 فكم قاعد قد وسع الله رزقه
 فمش في حصى خير الأنام ومث به
 إذا قمت فيما بين قبر ومنبر
 لقد أسعد الرحمن جار محمد

ومن يره فهو السعيد به حقاً
 وباب ذوي الإحسان لا يقبل الغلقا
 ولا يمنع الإحسان حرراً ولا رقاً
 يلاحظكم فالدهر يجري لكم وثقاً
 فشكراً ، وشكر الله بالشكر يستبقى
 ملائكة يحمون من دونها الطرقات
 فوجه القيالي لا يزال بكم طلقاً
 وإن جاءت الدنيا وموت فلا فرقاً
 وحشراً فسر الجاه فوقكم ملقى
 أنطلب ما يفنى وترك ما يبقى
 إلى غيره ؟ تسفيه مثلك قد حقاً
 فأكرم من خير البرية ما تلقى
 ولو سرت حتى كدت تحترق الأفقا
 ومحل قد ضاق بين الودى رزقا
 إذا كنت في الدارين تطلب أن ترقى
 بطيبة فاعرف أين منزل الأرقى
 ومن جار في ترحاله فهو الأشقى

ومن محاسنه رحمه الله تعالى المقصورة الفريدة ، وهي قوله ^١ :

بادر قلبي للهوى وما ارتأى
 فرب الوجد لقلبي حبا
 لما رأى من حسنها ما قد رأى
 وكان قلبي قيل هذا قد نأى

١ واضح أن هذه المقصورة من « المشرات » كل حروف المسم وقد فصلنا بين أجزائها لتضح
 القارئ سرورها .

يا أيها العاذلُ في حبي لها أقصرُ فلي سمعُ عن العذلِ بأى^١
لو أبصرُ العاذلُ منها لمحةً ما فُضَّ بابَ جدِّه ولا فأتى^٢
سرحتُ طرفي طالباً شأوا العلا وتابعا في جهها ما قد شأى^٣
لأتى لأرغها على تنبيعها عهدي ، ومثلي من وفى إذا وأى^٤
من منصفى من شادن لم أرجه نخاجة من وصله إلا زأى^٥
وإن قبضتُ النفس عن سلوانه مدَّ أديمَ هجره لي وسأى^٦
لاقطن^٧ اليدَ أفرى حاذها بضامٍ يقسري الحصى إذا جأى^٧
حتى أزورَ ربَّةَ الخلدِ وقده ذاد الكرى غي الوشاة وذأى^٨

• • •

يا ربَّ ليلٍ قد تعاطينا به حديث أنسٍ مثل أزهار الربى
في روضةٍ تعانقت أعضائها إذ واصلت ما بينها ريح الصبا
نادمتُ فيها من بني الحسن رشاً يصبو له من لم يكن قط صبا
حلوا رخيماً الدل في أعظافه لين وفي الحافظة يبيض الظبي
أبام كان العيش غصاً حسنه حذب الجنى ريان من ماء الصبا
أي زمانٍ وعملٍ للمنى ما ضاق مفناه بنا ولا نبا
يا مربعا ما بين نجدٍ والحصى ويا زماناً قد حباي ما حبا

١ بأى يبلى : فخر ؛ وفي ق : فلي قلب ... نأى .

٢ فأتى : شق وخرج .

٣ شأى : قد تعي ؛ يمد ؛ أو « أحب وأطرب » .

٤ وأى : وعد ؛ وفي ق : ومثلي من فأتى ... الخ .

٥ زأى : تكبر ، عن ابن الأعرابي .

٦ سأل الخوب والأديم : منه حتى انشق .

٧ الحاذ : طريقة المتن وهو موضع اليد من الفرس ؛ وجاءى : قلذ .

٨ ذأى : ساق سوقاً شديداً وطرد .

اللهُ يَرعاهُ زماناً لم يَحُلْ
فأيّ مَنَعَتِي أَهْلَ بَيْمَتِهِ
هل تُرْجِعُ الأَيَّامُ عَيْشاً بِاللَّوَى
عن بَلَدٍ ما نَأْمَلُهُ ولا أُنْبِئُ
لَقَصْدِ حَلَّتْ لَنَا فِيهِ الْحُبَا
فراقه كان الأُلهِيمَ الأُرْبَى

تالله لا أعبا بعيش قد مضى
مذ علقَت كَفَيَ بِالْهَادِي الَّذِي
كالبحر لا يفيضُ يوماً وَرَدُهُ
متصلُ البرِّ لمن قد أَمَتْهُ
ولا يَنالُني نَفْسُهُ في ضَيْقَةٍ
إِنْ رَسولَ الله مَعِيباً حُدِّي
كفَّ بِي الجورَ بعليلٍ واضعٍ
كم خفي هوى قد راضه بهديه
قد خالط الحَلَمُ سَجَايا طبعه
أَقْسَمْتُ لا زِلْتُ أُوَالِي مَسْكُهُ
ولا زمانٍ قد تعدَّى وعنا
ساد الورى طفلاً وكهلاً وَفَتَى
لوارِدٍ إذا أَصافَ أو شتا
لا يكره العودَةَ مِمَّنْ قد أتى
أيّ نهارٍ مرَّ هذا ومضى
يُهَنِّئُ به من في دجى الليل مَتَا
كما تكفُّ اليَدُ كَفّاً من فَنَى
فاقتاد كالعبد إذا العبد قَتَا
كثُل ما قد خالط الثوبُ السَتَا
ما اشتدَّ بالناس زمانٌ ورقَا

لولا اشتياقي للديارِ كَرُمْتُ
ومدحُ مَنْ أَرْجو بأمداحي لَهُ
لم أجعلَ الشمرَ لِنَفْسِي خَلَّةً
ليملها يَرْتِي لَنَا من قَدَرَتِي
إِصْلاحَ ما قد عاثَ مِنِّي وعَثَا
ولم يَحْشُ فِكْرِي به ولا غَثَا

١ ق : أَمَلَهُ .

٢ الهميم : الداعية ، الأُرْبَى : الشديدة .

٣ مَتَا في الأعراس مثل مَطَا ، أي مَشَى .

٤ قَتَا العبد : عَذَم ، أو أَسْنَمَ الخنْزيرة .

٥ سَى الثوب يستويه بمعنى سَدَّاه يستويه .

٦ رَتَا - من الأَضْفَاد : شدَّ وأرغى .

٧ غَثَا : أَكثَرَ غَثَاةً .

فما أرى الأيام تبدي متصفاً
يا ضيعة الألباب في دهر غدا
يا ويل أمّ ليس تزجي ضيمها
هل مارست إلا أنا عزم إذا
تسيل من جهد السرى أعطافه
له اختصام بالرسول المجتبي
من ليس للبنياء محل عنده

ولو حكيت المسك من حسن الثنا
فيه فتيت المسك يعلوه الخى^١
مثلي بما تبديه من منع الحنا^٢
ما قعد الناس عن الخطب جثا^٣
كثل ما سال من الدوح التي^٤
أجود من أضفى العطايا وحشا
ولا ينيل المال إلا بالحنا^٥

أنا التقي لا يطعيني طمع
لكن إذا اضطر زمان جائر
لا أسأل التذل ولو أتني به
حسبي ينو عيد مناف بهم
أولئك القوم الألى من أمهم
يلقاه منهم كل وجه مشرق
إتني مذ أمثلهم لم يثنني
إن أنا قد نكثني دهر غدا
يطوي العداذكري وعجلي ناشري
أنا الذي أعملت للمجد السرى

فأبدل الوجه لنيل يزجي
أملت من ليس يرد من رجا
أملك ما حاز التهان والدجي
يتغنى من أستغنى وينجو من نجا
أمن ممن لام يوماً وهجا
كانه البدر إذا الليل سجا
عن طلب المجد زمان قد شجا
فظالما عرفني فضل الحجي
آليت لا زال لهم مني شجا
لا أسام الأين ولا أشكو الوجي

١ اتقى : جمع غي ، وهو روث الثور .

٢ الحنا : التراب المحشو أو المني .

٣ جثا : جلس على ركبتيه المنصوبة أي لمواجهة الخطب ، فهو مستقر .

٤ التي : شيء ينقصه ساق للشجرة أبيض عائر .

٥ يريد بملء الكفين .

كم سررت في الياء لا يثقلني
أرسلها غر اللوا تسري بنا
يطيح مفتوت الحصى من دونها
فكم بذلت الجهد في كسب العلا
أرغم أهداي بحزم يافد
أفود عن عرضي وأحمي حسي
أقسم بالبيت ومن طاف به
وكل من أحمل لله الخطا
ومعشر تجوا وعجوا فلهم
لا زلت أزعجها لإدراك العلا

يا عجباً من حاسد لي قد زها
كأنني لم أعرف العز ولا
وإنما الدهر له تقلب
إن الذي لا يثنى عن جوده
خير الوری طراً من الله به
شره الله وحلى جيله
زينة تواضع على علا
فكم حمى بهديه وكم وعى

بعيشه النفس علي وانتحي
صاحبت دهر في سرور ورخا
إن ارتحى شد وإن شد ارتحى
إن بخل الدهر لنا وإن سخا
أذهب عنا كل غي فامتحنى
بجوهر من كل مجد موتحنى
فما ازدهى بمزة ولا نخا
وكم أفاد آمل وكم نخا

١ طحا : ذهب بعيداً :

٢ الوسى : الصوت .

٣ يقال انحنى من الشيء أي تبرأ منه وتخرج .

٤ موتحنى : متجربى .

٥ نخا : زهى ، وقال الأصمعي ، يقال : نخى وانتخى ولا يقال نخا .

خَتَصَرَ مِنْ أَمْرِ الْخَطَايَا جَاهَهُ فَمَا عَلَى قَلْبِ أَمْرِيءَ مِنْهَا طَلْحًا^١
خَفَّفَ عَنَّا ثَقْلَ مَا نَحْمَلُهُ فَلَمْ نَبْتَئْ مِنْ ثَقْلِهِ نَشْكُو السَّخَا^٢

• • •

إِنْ تَحْسَبِ الرُّسُلَ سَمَاءً قَدْ بَدَتْ فَإِنَّهُ فِي أَفْقِهَا نَجْمٌ هَدَى
وَأِنْ يَكُنْ كُلُّ كَرِيمٍ قَدْ مَضَى طَلْحًا قَدْ أَضْحَى لَنَا غَيْثٌ جَدَا
وَأِنْ يَكُونُوا أَنْجَمًا فِي فَلَكَ فَإِنَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ بَلَدٌ بَدَا
وَاسْطَةُ السَّلَكِ إِذَا مَا تُظْمَرُوا وَمَلَجَأُ الْقَوْمِ إِذَا الْخَطْبُ عَدَا
كَالْبَحْرِ بِلْ كَالْبَدْرِ جُودًا وَسَنَا فَحَيْدًا مِنْ اجْتَدَى أَوْ اقْتَدَى
أَحْسَنَ أَخْلَاقًا مِنَ الرُّوضِ إِذَا مَا اخْتَالَ فِي بُرْدِ الصَّبَا أَوْ ارْتَدَى
وَسَاقَطَةُ الْقَطَرِ عَلَيْهِ دَمَعَهُ فَابْتَلَّ بُرْدُ الزَّهْرِ مِنْهُ وَانْتَدَى
تَفْلِيهِ نَفْسِي مِنْ شَفِيعٍ لِلْوَرَى وَقَلَّتِ النَّفْسُ لَهُ مِنْ فِدَا
هُوَ الَّذِي أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ يَسُ الْفَصْنُ وَأَذْوَاهُ الصَّدَى
وَكُنْتُ فِي لَيْلِ الْهَوَى ذَا حَيْرَةٍ فَنَجَاءَ بِالْحَقِّ وَأُنْجِي وَهَدَى

• • •

فَكَمْ كَسَا مِنْ ثَوْبٍ نَعْمَى قَدْ ضَفَا وَكَمْ هَدَى بِعِلْمِهِ وَكَمْ غَلَا
مَنْ اقْتَدَى بِغَيْرِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّبِعْ سَبِيلَ الْهَدَى وَلَا جَدَا
هَلْ هِيَ إِلَّا سَنَةُ الْحَقِّ الَّتِي أُرْشِدُ مَنْ لَا ذِيهَا أَوْ اجْتَدَى
كَفَّ اللِّسَانَ وَانْبَسَاطَ الْكَفِّ بِالْ خَيْرِ وَطِيبَ الذِّكْرِ هُمْ قَدْ شَدَا^٣

١ الطلح : قطع السحاب .

٢ السخا : ظلع يصيب الهمير حين يشب بالحمل الثقيل .

٣ شدا : آفى ، أي أن هذه الواجبات تثقل من يريد للاحتفاظ بها ، وفي التجارية : حرف قد شدا ، ويكون شدا بمعنى تطلب .

أحسنُ ما نالَ الفقى من كرمٍ
والصمتُ حملاً لا يفيدُ قوله
لا شيءَ كالصمتِ وقاراً للفقى
مَنْ عَيْبُهُ يَشْغَلُهُ عَنْ غَيْرِهِ
ومن يعب عيباً ومن يحسنُ إذن
ومن تكن دنياه أقصى همه

• • •

لا تنفقِ العمرَ سوى في حبٍّ مَنْ
يهديك من رشدٍ ومجدٍ واضحٍ
أجادَ هدياً وأفادَ نالاً
ترى بُني الحاجاتِ نحو بابِهِ
لهم إلى رؤسِهِ تشوقٌ
ذا يبتغي علماً وهذا نالاً
كانهم إذا رأوا حُرَّتَهُ
وجهٌ لديه يُحمَدُ السيرُ ، كذا
هذا إذا ما أخطفَ الناسُ وقى
إذا شددتِ الكفَّ في أمر به

هو الذي في ستنِ الحقِّ جرى
روعين من علمٍ وذكر قد سرى
وجاد حتى عتمَّ الجودَ الورى
قد أعملوا اليس بجزنٍ في البرى
تشوقُ الساري إلى نارِ القيرى
ونائبٌ من قصده ليس يرى
وقد حُجِّجَ عابثوا أم القيرى
عند الصباحِ يحمَدُ القومُ السرى
نائي المدى في مجده سامي اللرا
فليس بالواني ولا الواهي العرى

• • •

أَهْضَمِي بِهِدِيهِ إِلَى التَّقَى بعد قصور العزم والباع الوزى^٢

١ غدا : لأن واسترخى .

٢ ق - الساري ، وقوله : عند الصبح . . . مثل .

٣ الوزى : التصير .

هو الشفيعُ المجتَرى بجاهه
 مذ زوره لم أشكُ من شطح النوى
 وما وجدتُ غربةً ولم يجدُ
 متصلُ البشرِ غضوبٌ للهدى
 أصبح من آياته في مأمنٍ
 تحذتهُ كهفاً فبتُ آمناً
 أدبنا بسنةٍ أفلحَ منْ
 يميز أبا الحسنِ على إحسانه
 لستُ أجازي الشرَّ بالشرِّ ، ولا
 لم ترَ عينُ كرسول الله ذا
 بمثلِ ذاكِ البلاءِ حقاً يُجتَرى
 إذ كان لي فيه غنى ومُجتَرى
 مسَّ اغتراب من إلى الجودِ اعتَرى
 إذا رأى من زاغ عنه أو نرا
 من قد لجا يوماً إليه أو رزى
 جزاه ربُّ العرشِ غير ما جرى
 نعى إليها النفسَ يوماً أو عزا
 شكر امرئٍ راضٍ بالأمورِ وحزاً
 أغزو لناوي السوء مثل ما غزوا
 حزمٌ ، ولا أحلم إن دهرٌ غزوا

• • •

إذا ملأتُ الأمورَ فلكفكتُ
 بخلقه فليقتدِ المسرءُ فما
 كنْ حذراً وإن رأيتَ ثمرةً
 لا تأسنْ. إن تنامى أملٌ
 وإن بدا صبحُ الشيبِ فاطرحْ
 ولا تظنْ الشيبَ يرجي طبعه
 إذا التقى قوسٌ واعتدَّ العصا
 فاذكرْ زمانَ الشيبِ في حالِ الصبا
 ألفتِه كأنه طودٌ رَسا
 أكرمها من مُقتدى ومؤتسى
 فمثلها توقدُ جَمرةَ الأملِ
 وكلما عثا زمانٌ قد حسا
 ما كان إذ ليلُ الشبابِ قد غسا
 يزورُ صبحٌ أو مُدامٌ يُحتسى
 لقوسه عن وترِ أحياءِ الأملِ
 عسى يلينُ للتقى قلبٌ قسا

- ١ رزا : إذا قبل البر ، وأرزي : إل : بلى .
 ٢ حزا : عرف وجرب ، والحازي : الكامن .
 ٣ عسا اليلى ينسو : أنظم .

ما أقيح اللهو على المرء إذا ما اشتعل الرأس مشياً واكتسى

• • •

لا تحسب الراحة راحاً قرقفاً
إذا أداروها وقد جنّ الدجى
قد حُجِبَتْ في دنّها دهرأ إلى
لم يبقَ من جوهرها إلا سنا
كانتها والكأس قد حَقَّتْ بها
يدبرها غُطِفَ الحسن إذا
يحكي القطا والظبي والغصن إذا
وإنما الراحة زُهدُ المرء في
والمجدُ إيقادك نيران القبرى
والجود أن تعطي قباء للندى

للشرب منها قيسٌ ومنتشى
وشى بهم نيرها فيمن وشى
أن برزت كأنها صبحٌ فشا
ينشى أفرّاح الفقى إذا انتشى
متيمٌ أصبح مفروم الحشا
أقبل بدرٌ ، وإذا تاه رشا
ما قد تنى أو تمنى أو مشى
أعراض دنيا تورث العين غشا
يعشوها في الأزمات من عشا
لا لا فتخار أو بلهاء يفتشى

• • •

خاب امرؤ لم ير أرضاً حلتها
أرسله الله هدًى ورحمةً
وخلّص الأنفس من أسر الهوى
فؤ رافة تلقاه يوم العرض قد
صلّى عليك الله يا من جاهه
يا من جرى من كفه الماء ومن
بك اعتصامي يوم يلدن من دنا.

من اصطفتى رب السماء وانتصى
أوصى ووالى الخير فينا ووصى
في يوم هولٍ فاز فيه من قصى
مال بنا عن الجحيم ومنقى
يوم الحساب مكلجاً لمن حصى
حنّ له الجلدع وسبّح الحمى
من رحمة الله ويقتضى من قصا

١ نص الشيء من الشيء : فصله ، ولعله يعني هنا : ميز الخير من الشر .
٢ معنى : لم أجده له معنى ملائماً للسياق هنا .

هل غير إحسانك يرجو مذنبٌ
يا مَنْ سما في يومٍ بدرٍ بلرهُ
أحصاهمُ ربُّ السماء عدداً
طالب به خوفُ الخطايا وانتصى
عزاً ليشقى كلُّ من شقَّ العصا
وإنهم أدنى الفريقين حصي

• • •

يا مجتبي من خير قومٍ حسباً
يا من تدانى قاب قوسين ومن
ومن أتى والناسُ من ظلمهمُ
فكان كالصبحٍ جلا جنح الدجى
رُضيتَ للإرسالِ إذ آدمُ به
اختارك الله رسولاً هادياً
يا أحلّم الناس على من قد جنى
يا مُصغّر الألفِ إذا ما جاد أو
يا ناصحاً أحكم تشييد الهدى
يا مُصغّياً للناس ظِلِّ رحمةٍ
فيما أتى من زمنٍ وما مضى
قيل له سَلْ تُعطَ قد نلت المضا
في ظلمةٍ ليس لها من مرتضى
فأذهب الإظلامَ عتاً وانتضى
نَ الماء والطينِ فكتت المرتضى
أكرمَ بما اختار لنا وما ارتضى
وأعدلَ الخلقِ إذا ما قد قضى
جرّدَ في المهيّجاء سيفاً أو نصبا
عزماً فلما ينتفض ولا انفضى
بات العدا منها حل جمر الغضا

• • •

ادفع الشرَّ بحسنى فإذا
وانفٍ لنفسٍ كرهت أفعالها
إن يدرك الهوى القفى في بيته
وإنَّ خيراً من صديقٍ سيءٍ
ولا ترمُ ما لا تطيقُ ثيله
وبت من الدنيا مبات خائف
وخلها عنك ولا تعباً بما
به أخو صديقٍ وإن كان سطا
كمن يريك قدرها حث الخطا
ليس كمن سعى إليه وخطا
أن يصحب الإنسان في اليد القطا
فخجلة الخيبة شرُّ مُستطى
فلينالي عدواتٍ وسطبا
تبوأ المكر منها وعظا

وجنب الحرص تعش ذَا عِزَّةٍ أفلح مَنْ إن شلله الحِرسِ نطاً^١
ولا تجد للنفس حظاً وأطرح من امتطى الكبر فينس ما امتطى
لا تطرين صاحباً بغير ما فيه فإطرأ الفنى كسر المطأ^٢

• • •

لا يَحْسُنُ المَدْحُ سِوَى مَنْ يَرَى مادحه بمدحه قد احتظى
خَيْرَ عِبَادِ اللَّهِ ذُو الْعِزِّ الَّذِي لظله يأوي الشريفُ والشفى^٣
كَمْ آمَنَ بِبَابِهِ وَقِيلَ أَنْ يلقاه لاقى ما عجا وما عظا^٤
أَصْبَحَ مِنْ حَرَمَتِهِ فِي حَرَمٍ يرفل في ظل هيات وحظا^٥
فِي مَتَرٍ سَيَّانٍ فِيهِ رَبُّهُ وضيئه فيما اقتنى وما حظا^٥
إِنْ رَسُولَ اللَّهِ غَيْثٌ وَكَفَى إذا لبيب الصيف داج والتظى
إِذَا أَعْدَى لِلْمُكْمَلِينَ الْقِرَى لم يدخر عن ضيفه ولا حظا^٦
لَمَّا عَلِمَتْ جُودَهُ الْجُلُولَ وَمَا هناك من علم وحلم وبظا^٧
يَحْمَتُهُ فَوْقَ طَيْرٍ ضَامِرٍ منتظم الأعضاء متكوم الشظا^٨
لَيْسَ بِمِثْلِ الْأَرْضِ مِنْ سُرْعَتِهِ كأنما ينشئ بها مس اللظى

• • •

بِأَمْوَسٍ أَلْفَ بَصَاعٍ شَيْعَا ومن مشى الدُّوحُ إليه وسعى
وَأَخْصَبَ الْفَرْعُ بِلَمْسِ كَفِّهِ ويادر المزنُ له لَمَّا دما

١ نطاً : يمد أو امته .

٢ المطأ : الثغر .

٣ الشفى من الناس : الموالى والأتباع .

٤ يقال لقي الإنسان ما عجا وما عظاء وما أورمه : إذا لقي شدة وبلاء .

٥ كأنه يني : أصاب سظاً .

٦ سظاً : فاضل بين .

٧ البظا : اكتناز العلم ، ويريد هنا وفرة العلم .

وسلّم الظبي عليه كرمًا
 واستشهد الضب فجياً معلناً
 إليك أعلت المطايا في القلا
 مسوِّحاً^١ جاهك عتي في غد
 أركي صلاة وسلام أبداً
 وسبّح الرعدُ بحمد من سقى
 فاشتعلت بالنور كل فلدند
 وباكر اليبداء غيثاً مسبلاً^٢

• • •

ودق سحاب بحسب البرق به
 وانضمرت النوح ومدت قضيبها
 وساقطت لما السحاب حملها
 ترى خريز الماء في قضيه
 فسكن القيط لميب حمره
 غيثاً حمى الرضاء حنا مثلما
 ناه عن الفحشاء داعٍ للهدى

أسنة قد أشرعت يوم وغي
 فيبها حسن التثام وصفاً^٣
 إذ خوف الرعد تساقط الفعا
 كأنه مبيت ذود قد رغا
 وفر لما أن رأى الماء طفي
 حتى رسول الله جور من بني
 لم يتطق بياطل ولا لغا

• • •

هذا إذا استكفيت في أمر به
 فهو به ربح الملا إلى التلى
 عبي الهدى والعدل في زمانه

أجنداك فيما تتحبه وكفى
 كأنه ناعم غصن قد هفا
 من بعد ما ألفاهما على شفا

١ ق : مسوِّحاً .

٢ الصفا : الميل .

٣ الصفا : ليس الفاسد المنبر ، أو ما يخرج من الطعام فيسمى به .

أخفى المدي قوم فأضحى وهو قد
 إن يقض يعدل أومى يسأل يهب
 وإن يحد يُجزل وإن جاد يُعيد
 بحر طما، بدر سماء غضب حمى
 لمجد أو مقتد أو معتد
 ما لي لا أضحى له المدح وقد
 أسس خلقت الجود. ليتنا فاغتدى
 أظهره بعد له فما اخفى
 وإن يقل يصدق وإن يعد وفى
 وإن تسمى يحسن وإن تجمن عفا
 روض، نجا، طب أفاد وشفى
 أو مجدب أو مشتك خطباً جفا
 أضحى به الحق علينا قد ضفا
 به لنا ورد المعالي قد صفا

• • •

الجود يعلى المرء والبخل لقد
 والعز ما أحسنه لكتنه
 والجهل للإنسان عيب قاذ
 والعلم في حال الغنى والفقير لا
 ولا ألوم المال فالمال حمى
 قد جيل الناس على حب الغنى
 وما لذى الفقر لديهم ربة
 إن الغنى طب لعلاى الغنى
 والحزم أخرى ما به المرء اقتدى
 من لم يبت مع الياي حازماً
 يحط عن رتبته من ارتقى
 إن كان هذا مع علم وفى
 ولو حوى مالا ككتبان نجا
 يزال يرتقى بك كل مرتقى
 من جاهل يلقاك شر ملتقى
 فربه فيهم مهاب مضى
 ولو أفاد وأجاد واتقى
 والفقر داء لا تداويه الرقى
 في أمره وما به النفس وفى
 لغزرها غادرته فيها لقى

• • •

أضيت طرفي كي يرى طرفي ما أخبرته من طيب مجد قد زكا

١ ق : أو مجز .

فَصَدَّقَ الْحَاكِمِي مَا أَبْصَرَتْهُ
 فَهَلَّتْ رُؤْيَتْهُ جَهْدَ السَّرَى
 عَجِبْتُ لِلْأَيَّامِ مَنْ عَزَّ بِهَا
 فَكَمْ لَهَا مِنْ كَرَّةٍ عَلَى فَي
 تَجَنَّبُ الْأَسَدُ سَطَاهُ فِي الْوُغَى
 وَكَمْ صَرِيعٌ غَادَرْتُ لَيْسَ لَهُ
 عَدَتْ عَلَى نَفْسٍ عَدِيٍّ وَسَقَتْ
 وَاسْتَلَبَتْ مَلِكُ بَنِي سَاسَانَ لَمْ
 وَفَاقَ مَا عَابَتْهُ مَا قَدْ حَكِي
 وَأَشْكَتِ الْأَيَّامُ مَنْ كَانَ شَكَا
 ذَلَّ، وَمَنْ يَضْحَكُ بِهَا يَوْمًا بَكِي
 جَلَدٌ إِذَا مَا لَبَّ الْحَرْبُ ذَكََا
 فَذَلَّ حَتَّى صَارَ قَصَوَاهُ بُكََا
 مِنْ مَلْعِطٍ يَوْمًا وَلَا مِنْ مَشْكِي
 مِنْهَا ابْنُ حُجْرٍ كَأَسَمَ كَالذَّكََا
 تَرَكَ لَهُ عَلَى اللَّيَالِي مَرْتَكِي

لَمْ يَأْمَنْ الْمَأْمُونُ مِنْ صَوْلَتِهَا
 وَأَتَيْتُ جَعْفَرًا الْفَضْلَ وَكَمْ
 وَغَالَتْ الزِّيَّاءُ فِي مَنَعَتِهَا
 وَأَفْذَلْتُ فِي آلِ بَكْرِ حُكْمَهَا
 وَكَمْ سَبَّتَ مِنْ سِلَ مِنْ نَعْمَةٍ
 وَأَهْلَكْتُ عَادًا وَأَفْتَتُ جَرَهَمًا
 فَرَحُونَ مُوسَى أُولِجْتُ فِي بِلْعَةٍ
 وَأُظْفَرْتُ بِابْنِ زِيَادٍ مِثْلَمَا
 وَسَيْفٌ اسْتَلْتَهُ مِنْ عُثْمَانِهِ
 وَلَا ابْنَ هَنْدٍ مِنْ عَوَادِيهَا خَلَا
 بَاتِ الْطَّلَا يَسْقِيهِمَا صِرْفُ الْطَّلَا
 فَأُظْفَرْتُ عَمْرًا بِهَا فَمَا أَلَا
 وَجَرَّعْتُ مَهْلَهًا كَأَسَ الْبِلَى
 فَمَزَّقُوا فِي كُلِّ قَهْرٍ وَقَلَا
 وَزَوَّدَتْ مِنْهَا تَمِيمًا بِالصَّلَى
 فَمَاتَ قَهْرًا بَعْدَ عَزٍّ وَعُلَا
 أَفْنَتْ يَزِيدَ حَسْرَةً لَمَّا اعْطَى
 مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ خَضَعْتَ لَهُ الطَّلَى

١ الذَّكََا : الجَمْرَةُ الْمُنْتَهِيَةُ .

٢ الْمَرْتَكِي : الْمَوْرَلُ .

٣ الطَّلَا : النَّعْلَامُ ، شِبْهَهُ بَوْلُهُ الْغَلِيَّةِ .

٤ أَلَا يَأْلُو : قَصَرَ .

٥ الْفَاسِلُ : الْوَقُودُ ، يُشِيرُ إِلَى مَا فَعَلَهُ أَحَدُ الْمُنَادِرَةِ بَيْنِي تَمِيمٍ حِينَ سَرَقْتَهُمْ .

٦ الطَّلَلُ : الرِّقَابُ .

ثم أعادته فتحز الجليش عن حوزته حز الثبات المختل^١

• • •

لا خاملًا فيها ولا من قد سما	هي الليالي ليس يرعى صرفها
كهف حمى ^٢ ، فهو لنا نعم الحمى	ولا رسول الله فبنا لم يزل
يُنمى من المجد لأهل متى	فما أكرمه من سيد ^٣
في صدره غش أمرى ولا غمى	سليم صدر ذو وفاء لم يحش
أوى إلى ذلك الجنب وانتمى	أوسعتنا فضلًا فما غاب امرؤ
فاكرم الثوى وأوى وحمى	يا من خدا للخلق كهفًا وحمى
موتشة يسداء أو بحر طما	إننا أثينا من ديار دونها
ذو كبد رصت ودمع قد همى	والتي من قبح ما أسلفت ^٤
شفاعة ترجى وفضل قد نما	فلا تحببني مما لك من
ويذكرك الشاؤ البعيد المرعى	إنك من قوم بهم يشفى العنا

• • •

وحبيه من جهله ما قد حوى	أعرض عن الجاهل مهما قد أسا
إن لفته لم يشد ولا ارحوى	ولا تلم ذا سفته فإنه
فقل لعا ولا تعب بما احتوى	وإن رأيت من كريم حرة
فاصبر لما فالصبر أشفى للجوى	وإن ترعك من زمان فرقة
قد صدقني عن أنه شحط الثوى	لم أشكر البعد على خير حمى
ويا دياراً بين كتابان الثوى	يا متزلزلاً ما بين نجد والحمى

١ المختل : المتطرح .

٢ ق : حياً .

٣ ق : من سله .

٤ غمى : غلى .

هل لي إلى تلك المألي عودة
لا تعجبوا من لعب الدهر بنا
إن عشت لاقيتهم وإن أمت
إن رسول الله مذك أمته
أو جرعة من ذلك الماء الروي
فالدهر قد أضمر نصحي ونوى

إي والذي ما زال يسري جامداً
فقد تم النسل وصل ونصا
ثم نوى مكيباً ثم مضى
ثم أتى باب بني شيعة قد
فقبل الركن وطاف وسعى
ثم أتى الموقف يدعو راحياً
ثم رمى ثم أغاض وانبرى
ثم مضى مرحلاً فيمن مضى
يفني التي شرّفها الله بمن
فلم يكن ممن إذا حج جفا
حتى أتى ميقاته وما وني
أثوابه مستغفراً مما جنى
حتى رأى ذات السناء والسنى
أبصر ما أمل قلعاً مذ دنا
ثم مضى مرحلاً نحو منى
حتى إذا ما قرر القوم انقضى
معتصراً قد نال غايات النبي
ميسماً طيبة لا يشكو العنا
شاد به الدين القويم وابتنى
بل يحتم القبر وزار واعتنى

خلق على لم يحويها إلا امرؤ
فإن يقل: من حازها؟ قل: الذي
معتصم الراجين إن خطب دنا
المرشد الناصح لله فما
من جد في إدراك ما رام يحد
فلا يقصر بك خوف خيبة
واكتسب الحمد بما تليده من
نهاه عن بذل الملا رعي النهي
له تسمى كل مجد وانتهى
وكهفهم إن راع أمر ودعى
قصر في نصر المدى ولا لها
ولم يصب من قد توانى وسها
من خيل الحية في البدء وهي
فتح الله بمستدامات الله

واحرص على المجد ودينك اطرح
والمرء من إن فاته لم يكتب
من لازم الكبير على الناس اغتدى
فأمرها أمرٌ زهيدٌ المشتى
وإن نيلٌ لم يفتخر ولا ازدهى
مُتَضَيِّعٌ القدير ولو نال السها

• • •

أنى تحيب اليوم آمالي ولي
يدني التقى إلى مدى آماله
إن أزل القوم زمانٌ معورٌ
وإن أمات الجذب كلٌ مخصبٌ
أرسل سحبٌ هديه جارية
أوقع في الأنفس من ماو لدى
لم تعني من فعلٍ جميلٍ كفه
بما لي لا أبلغ أقصى غاية
لكل شخص غايةً يبلغها
تعي يد السائل من معروفه
من كفه أكرم من صوب الحيا
ولو غدا من دونها الأرض النيا^١
أنعمهم حتى يرى لهم حيا^٢
بدا لنيران القيرى منه حيا^٣
بالحق حتى حتى الدر حيا^٤
ظلم إذا ما اشتد بالشبس الحيا
ولا له في المكرمات محتيا
في مدح من بالغ جوداً واغنيا
وما له في العلوات مُغتنيا^٥
ولم يقصر كرمًا ولا احتيا

• • •

والآن قد أكملتُها في مدحه
ضممتُها من كل فنٍ درأ
حليتها جيد معاليه وما
مقصورة يقصر عنها من خلا
نظماً فأضحت من نفيسات الحل
أملح حكي المدح في جيد العلا

١ الأرض القيا : التي بعد ماوما واشتد السير فيها .

٢ الحيا : المخصب .

٣ له شيء يقر لهم : حايت النار أي أسجها .

٤ الحيا : المطر .

٥ محتيا : موضع غاية أو نهاية .

جعلتها مني وداعاً فاعتجب لنظمها الحلو الجنى كيف حلا

• • •

مَنْ قارب الرحلة عن ذاك الحمى
أرسلتها من خاطر خامره
وكيف لا آسى على بعدي عن
أنصار دين الله والمادي الذي
فالقلب بين مشرق ومغرب
إذا ذكرت الغرب حنت مهبتي
وإن ذكرت حب من في مشرق
إن يصف من وجه لشخص مورد
فإن ترحلت فقتني عندكم
كيف أجاد النظم يوماً أو درى
وجد جلا عن قلبي طيب الكرى
قوم جرى من جودهم ما قد جرى
لولا وضوح هديته ضل الورى
مقسم اللوعة مجذوب العرى
وبل دمي من جوى الشوق الثرى
أبطأ بي حبهم عن السرى
كدت من أخرى فلا صفو يرى
لم ير محل عن بابكم ولا مرى

• • •

ولا تزال رسل شوقي أبدا
ولن تمر ساعة إلا هفا
فليس عندي للنجاة غلص
بكم ملاذي وحماكم ملجئي
وما ذخرننا عدة سواكم
لا أوحش الله دياراً أنتم
ولا نأت داركم ولا خلا
ترى على مجدكم الجزل التدى
بذكركم مفضيح نظمي وشدا
إن لم يكن منكم نوال أو جد
ليس سوى ذاك السماح المجتدى
مثلكم من يرتجى ويحتدى
فيها ولا أرى بمرعاها الصدى
ربكم ما راح يوم واخذى

ومن محاسنه أيضاً البيعية المشهورة ، وهي المروقة بيديعية العميان ، ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي صلى الله عليه وسلم لكفى ، وهي من غرر القصائد ، وكثير من الناس ينسبها للقاضي

الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض ، وكنت أنا في أول الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة ، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر ، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر ، وهي :

في كل فائحة للقول معتبره حق الثناء على المبعوث باليقره
في آل عمران قديماً شاع مبعته رجالهم والنساء استوضحوا خبره
من مدّ للناس من نعيماء مائدة عمت فليست على الأنعام مقتصره
أعراف نعيماء ما حلّ الرجاء بها إلا وأتفال ذلك الجود مبتدّره
به توسّل إذ نادى بتوبته في البحر يونس والظلماء معتكره
هود ويوسف كم خوف به أمتا ولن يروّع صوت الرعد من ذكره
مضمون دعوة إبراهيم كان ، وفي بيت الإله وفي الحجر التمس أثره
ذو أمة كدويّ التحل ذكرهم في كل قطر ، فنبحان الذي قطره
بكهف رحمة قد لأد الوري ، وبه بشري ابن مريم في الإنجيل مشتهره
سماء طه ، وحض الأنبياء على حج المكان الذي من أجله حمّره
قد أطلع الناس بالنور الذي غمروا من نور فرقانه لما جلا غمّره
أكابر الشعراء اللسن قد عجزوا كالنمل إذ سمعت آذانهم سورة
وحسبه قصص للنكبات أتى إذ حاك نسجاً بياض الغار قد ستره
في الروم قد شاع قديماً أمره وبه لقمان وفقى للدر الذي نثره
كم سجدة في طي الأحزاب قد سجلت سيوفه فأراهم ربه عبره
سباهم فاطر السج الملا كرمأ لمن يباين بين الرسل قد شهره
في الحرب قد صفت الأملاك تنصره فصاد جمع الأعادي هازماً زمّره
لغافر الذنب في تفصيله سورة قد فصلت لعمان غير مختصره
شوراه أن تهجر الدنيا فزخرها مثل الدخان فيعشي عين من نظره

عزّت شريعته البيضاء حين أتى
فجاء بَعْدَ القتالِ الفتحُ متصلاً
بقاف والنارياتِ - اللهُ أقسمُ في
في الطُّورِ أبصر موسى نجم سودده
أسرى غزال من الرحمن واقعةً
أراه أشياء لا يقوى الحديدُ لها
في الحشر يوم امتحانِ الخلق يُقبلُ في
كفٍ يسبحُ لله الحصاةُ بها
قد أبصرتُ عنده الدنيا تغايبها
نحره الحبُّ للدنيا ، ورغبته
في نون قد حَقَّتْ الأملاح فيه بما
بجابه سال نوحٌ في سفينه
وقالت الجنُّ جاء الحقُّ فاتبعوا
مدتُّراً شافعاً يوم القيامة هل
في المرسلاتِ من الكتبِ أنجلِ نبأ
الطافه التازعات الضيم في زمن
إذ كَوَّرَتْ شمسُ ذاك اليوم واقطرت
وللبماء انشقاق والبروج خلت
فسبح اسم الذي في الخلق شتمه
كالقجر في البلد المحروس عثرته
والليلُ مثلُ الضحى إذ لاح فيه ألم
ولو دعا الثين والزيتون لاجتبرا

أحضاف بدر وجند الله قد نصره
وأصبحت حُجُرَاتِ الدين متصهرة
أنَّ الذي قاله حقٌّ كما ذكره
والأفق قد شقَّ إجلالاً له قمره
في القرب ثبَّتَ فيه ربّه بصره
وفي مُجادلة الكفار قد نصره
صفًى من الرُّسل كُلىً تابعٌ أثره
فاقبل إذا جاءك الحق الذي قدَرَه
نالت طلاقاً ولم يصرف لها نظره
عن زهرة الملك حقّاً عندما نظره
أثنى به الله إذ أبدى لنا شيمَه
سفن النجاة وموج البحر قد غمره
مُزَمَّلاً تابِعاً للحقِّ لن يَذَرَه
أتى فيّ له هذا العلا ذعره
عن بعث سائر الأخبار قد سَطَرَه
يوم بعث العاصي لما دَهِرَه
سماؤه ودعت ويل به القجره
من طارق الشهب والأفلاك مُنْتَرَه
وהל أذاك حديث الحوض إذ نهره
والشمس من نوره الوضاح مستره
نشرح لك القول في أخباره العظيمة
إليه في الحين واقراً تستين خبره

في ليلة القدر كم قد حلَّ من شرف
 كم زُلت بالحياد العاديات له
 له تكاثر آيات قد اشتهرت
 ألم تر الشمس تصديقاً له حُبست
 أريت أن إله العرش كرمه
 والكافرون إذا جاء الورى طردوا
 إخلاص أمداحه شغل ، فكم فلق
 أزكى صلاتي على الهادي وعثرته
 صديقهم عمر الفاروق أحزمهم
 سعد سعيد عبيد طلحة وأبو
 وحمة ثم عباس وألهمما
 أولئك الناس آل المصطفى وكفى
 وفي خديجة والزهراء وما ولدت
 عن كل أزواجه أرضى ، وأوثر من
 أقسمت لا زلت أهدبهم شدا مديحي

في الفخر لم يكن الإنسان قد قدره
 أرض بقارة التخويف منتشرة
 في كل عصر فويل للذي كفره
 على قریش ، وجاء الروح إذ أمره
 بكوث مرسل في حوضه نهره
 عن حوضه فلقد تبّت يدا الكفرة
 للصبح أسمعت فيه الناس مفتخره
 وصحبه ، وخصوصاً منهم عثرة
 عثمان ثم علي مهلك الكفرة
 عبدة وابن عوف عاشر العشرة
 وجعفر وعقيل سادة خيرة
 وصحبه المقتنون السادة البررة
 أزكى مدبجي ساهدي دائماً درره
 أضحت برادتها في الذكر منتشرة
 كالروض ينثر من أكمامه زهره

[معارضات القصيدة ابن جابر في تلمين السور]

انتهت القصيدة ، وقد عارض منحاها جماعة فما شكوا لها غباراً ، ومن
 معارضاتها قول بعضهم :

بسم الإله افتاح الحمد واليقره
 على نبي له الرحمن ممتلح
 كذا بمائدة الأتنام فضله
 أنفاله نزلت أيضاً برادة من

مُصلياً بصلاة لم تزل عطره
 في آل عمران أيضاً والنسا ذكره
 ووصفه ألم في الأعراف قد تشره
 يحبه وهو مشغول بما أمره

بِهِ نَجَا يُوْنُسَ مِنْ حُوْتِهِ وَنَجَا
 أَقْسَمَ بِرَعْدِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ لَهُ
 سُبْحَانَ جَاعِلِهِ كَهْفًا لَأَمَّتِهِ
 طَلَبَهُ الْكُتُبَا لِلْحَجِّ قَدْ وَفَدُوا
 آيَاتِ فِرْعَانَ ذَلَّتْ لَهَا الشُّعْرَا
 وَالْعَنْكَبُوتُ عَلَى غَارٍ لَهُ نَسِجَتْ
 لِقَمَانِ حِكْمَتِهِ مِنْ بَعْضِ حِكْمَتِهِ
 كَمْ فِي سَبَا عِبْرَةٌ لِلْقَلْبِ قَدْ فَطَرَتْ
 قَدْ صَفَّتِ الْكُتُبَا وَالرُّسُلُ قَاطِبَةً
 إِنْ صَادَ قَلْبِي الْهَوَى تَنْزِيلَ مَقَلَدِهِ
 كَمْ خَلَعَةٍ فَصَلَّتِ لِلطَّالِعِينَ لَهُ
 لَمْ تَلْهَمْ زِينَتُهُ الدُّنْيَا وَزَعْرَفَهَا
 إِذَا جَا الْخَلْقُ وَالْأَحْفَافُ قَدْ شَرَفَتْ
 مُحَمَّدٌ خُصٌّ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ وَقَدْ
 قَافَ الْوَفَاقُ وَفَرَ الطُّورَ نَجْمٌ هَدَى
 رَحْمَنٌ وَاقِعَةً كُلُّ الْخَدِيدِ بِهَا
 مِنْ يَمْتَحِنُ صَفْتَا فِي يَوْمٍ جَمَعْتَنَا
 مَطْهَرٌ مِنْ نِفَاقٍ لَيْسَ بَيْنَهُمْ
 وَحَرَمُهَا فِي مَلِكٍ هَا زَهْدُوا
 إِنْ تَسْأَلُونِي عَنْ نُوحٍ نَبِيٍّ هَدَى
 مَزْمَلٌ اسْمُهُ مُدَّثِّرٌ وَلَسَهُ
 لِلْمُرْسَلَاتِ تَبَأٌ فِي يَوْمٍ نَازَعَهُ

هُودٌ وَيُوسُفُ مِنْ سَجْنٍ بِهِ عِبْرَةٌ
 فِي حَجَرٍ نَحْلُ تَرَى الْآيَاتِ مُشْتَهَرَةً
 وَمَرْيَمُ زَوْجَةٍ فِي بَيْتَةٍ نَصَرَهُ
 وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى الثُّورِ اقْتَضُوا أَثَرَهُ
 وَسُورَةُ النَّمْلِ قَدْ قَصَّتْ لَنَا سِيرَهُ
 وَالرُّومُ وَلَّتْ بِرُعْبٍ مِنْهُ مِنْكَسِرَهُ
 فَاسْجُدْ لِرَبِّ عَلَى الْأَحْزَابِ قَدْ نَصَرَهُ
 فَكُلُّهُ يَبَاسِينَ تَنْجُو يَا أَمَّا الْبُورَهُ
 خَلَفَ النَّبِيُّ بِأَمْرِ اللَّهِ مُؤَمَّرَهُ
 وَغَافِرَ الذَّنْبِ كَمْ ذَنْبٌ لَهُ خُفِرَهُ
 وَأَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ شُورَى بَلَا نَكَرَهُ
 كَانُوا يَرُوهَا كَلْبَخَانُ لَهُ قَتَرَهُ
 فَذَلِكَ يَوْمٌ عَلَى الْكُفَّارِ قَدْ نَصَرَهُ
 أَنَاهُ فِي الْحِجَرَاتِ الْوَحْيِ بِالْخَيْرَةِ
 وَشَقَّ رَبُّ السَّمَاءِ لِلْمَصْطَفَى قَمَرَهُ
 كَمْ مِنْ مُجَادَلَةٍ فِي الْحَشْرِ عَظَمَتُهُ
 فَلَيْسَ يَلْفِي بِهِ غَشٌّ وَلَا كَلْفُهُ
 تَغَابَرُ طَلَقُوا دُعْيَاهُمْ الْقَلْبَرَهُ
 كَزَهْدِ صَاحِبِ نُونٍ حَقَّقَتْ خَيْرَهُ
 وَالْمَصْطَفَى سَامِعَ الْجَنِّ الَّذِي جَهَرَهُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْإِنْسَانِ مَا ضَمَرَهُ
 عِبُوسُ تَكْوِيرِ شَمْسٍ فِيهِ مَنْظَرُهُ

مطفف الكيل قد باتت خسارته
كم طارقٍ سبَّحَ الأعلى بغاشيةٍ
والليلُ قُمته ولا ترك صلاةً ضحى
بسورةِ التين اقرأ أنها نزلت
ولم يكن مثل خير الرسل أحمدنا
بعاديات لها قرع بهامته
من كان في عصره همّازة أبداً
ويلٌ لمانع ماعون تراه غدا
الكافرون إذا جا نصرُ خالقنا
أخلص لربّ فلق الناس تنج إذا
وصل ربُّ على الهادي وعثرته
في يوم شقّ السّما أبراجها النضرة
والفجر بلدته بالشمس مستره
يشرح لك الصلر والخيرات مدّخوه
في ليلة القدر ، والأنوارُ منتشره
منه تزلزلت الكفّارُ والفجرة
أصمى التكاثر من قلب له بصره
يلقاه قبل قريش قاهرٌ قهره
مباعداً كوثر الهادي الذي أثره
تبّاً لهم لجنوا همّ أمة كفره
يومَ المعاد غدا من شرّة عصره
وآله وعلى أصحابه العشرة

وممن سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندي إذ قال :

عوذت حبّي بوب الناس والقلق
إخلاص وجدي له والعلم يقلفني
يسدي لأمتي والنصر يعضده
هذا له كوثر والدين شرعته
لم ترّ المساء قد سحّت أصابعه
في كل عصر ترى آياته كثرت
وعند قارعة فهو الشفيح لنا
وزلزلت من غرامي كل جاوحة
يا عالي القدر رفقا مسّي ضرر
المصطفى المجتبي المدح بالخلق
تبّت يدا عاذل قد جاء بالخلق
والكافرون وعدّالي على نسق
والمصطفى من قريش دين وتقي
ويل لكل جهول بالنبي وشقي
أضحى تكاثرها في سائر الأفيق
والعاديات من الأجنان في طلق
وكل بينة تحكي لكم علق
فأله قد خلق الإنسان من علق

ولو دعا التين والزيتون جاء له
يبدو كشمس الضحى والليل طوته
إني بغاشية لولاك يا أملي
كم طارق منك بالإحسان يطرفني
وفي انشقاق فؤادي عيرة ، وبه
والانفطار به مما يكابده
والصب في عبس والنازعات به
ومرسلات دم الإنسان جارية
وبالدثر إني ماسك أبداً
فأجلن والإنس في غير يمته
وفي المعارج معراج الرسول عكلا
والله مرسله في نون بشره
وجاء بالحل والتحريم أمته
وفي التفان تجار به رجوا
يا صاحب الجمعة الغراء يا أملي
وأنت في الحشر عوفي في مجادلتي
وعند واقعة إن كان لي رمتي
لم أرع يا قمرى للنجم في سهر
قلبي الكليم غدا للطور مرتقياً
وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم
إننا فتحنا قتالاً للعدول ففي
دخان زخرف ما العدال فيه ميا

والشرح عنه ١ طويل غير مختلج
كالشمس في بلكد والتجر في أقر
أنت الشفيع إلى الأعلى وخير تقي
مثل البروج أي في أحسن الطرق
ويل من الصد ، والأجنان في أرق
والشمس قد كورت في القلب ذي الحرق
وقد أي نبأ من دمه الغدق
إلى القيامة من دمي ومن حرقي
وبالمزمل إن أبعث بالعرق
هذا ونوح به أنهي من الفرق
حقاً ، وفي حاقه كثر لمخرق
والملك بخيره حتى رأى ولقي
وبالطلاق من الدنيا لمنطلق
إذ المنافق في خسر وفي نفق
في الصف عند امتحاني أنج من زلتي
عسى تزيل حديد النار من عتقي
فاشفع إلى ربك الرحمن من رمتي
إلا لعلك من نار الجحيم تنجي
ودر دمي غدا بالداريات سقي
وليس في حجرات اللع من رمتي
أحقاف جائية في الفيظ والحق
شوراي تركه في أنف محرق

وَعَزَّ مَنْ فَصَّلَتْ فِي مَلَحِهِ سَوْرَ
فَغَاغِرِ الذَّنْبِ كَمْ أَهْدَى بِهِ زُمْرًا
وَلَيْسَ غَيْرِكَ فِي الصَّافَاتِ أَفْصَدُهُ
يَا فَاطِرًا قَدْ سَبَا الْأَحْزَابَ طَلْعُهُ
لَقَمَانٍ يَشْهَدُ أَنَّ الرُّومَ تَصْرَفُهُ
هَذَا وَلِي قِصَصٍ بِالنَّمْلِ قَدْ كَتَبْتُ
تَبَارَكَ اللَّهُ مِنَ النُّورِ كَلْعُهُ
يَا أَيُّهَا الْأَنْبِيَا طَهَّ خَتَامُكُمْ
لَا ذُوَا بِكَهْفٍ لَمْ يَسْبَحَانَ خَالِقُهُ
فَالرُّكْنَ وَالْحَجَرَ حَقًّا قَدْ أَضَاءَ لَهُ
وَاللَّهُ رَبِّي بِرَعْبٍ الرَّعْدُ يَنْصَرُهُ
فَيُوسِفُ مَعَ هُودٍ وَالْخَلِيلُ إِذَا
لَتَوَيْتِي أَرْغَمِي الْأَنْفَالَ مِنْهُ غَدَا
أَحْرَافُ أَنْعَامٍ إِنْعَامَ لَهُ اشْتَهَرَتْ
كُلَّ النَّسَاءِ تَلْدُ مِثْلَ الرَّسُولِ إِذَا
أَعْطَيْتِ خَاتَمَةَ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ
فَأَنْتَ فَاتِحَةُ الْأَنْبَا وَخَاتَمُهُمْ
وَالْقَلْقَشْنِي عَجْبٌ قَالَ سَيَرْتَهُ
فَأَقْبَلَ هَدِيَّةً عَجْدٍ أَنْتَ مَالِكُهُ
صَلِّ حَلِيكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا طَلَعْتُ

وهذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهي مما يُتبرك به ،
والأعمال بالنيات .

ووقفت على أخرى من هذا النمط هي بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى

بحمد إله العرش أستفتح القولا
 وفي آل عمران أتى ذكر أحمد
 بأعراف رحماه بأنقال جوده
 له يونس نادى وهود ويوسف
 ودعوة إبراهيم كان محمد
 له أمة كالنحل قد صبح فضلهم
 علا فضله والناس في كهف نيله
 وطه له فضل على الخلق كلهم
 ولولاه ما حُجَّ المقامُ وكعبةُ
 ومن نوره الوهاج كل منور
 ترى الشعرا كالنمل حول محمد
 علا ديننا روما ولقمان عالم
 والاحزاب يسبهم بحكمة فاطمة
 وصناد جميع الكافرين بزمرة
 وشوراه في الدنيا بها كل زلفة
 لقد رأوا اللخان حول بيوتهم
 حمدنا لم يخلق الله مثله
 وقد أنزل الجبار قافاً بذكره
 بطور سما والنجم ما ضوه احمد
 به الله رحمن وفي وقعة ترى

وفي آية الكرسي استمنح الطولا
 نساؤهم بالعقد قد أنعموا القولا
 شرفنا وفضلنا وتبنا إلى المولى
 وذاكره في الرعد لا يسمع المولا
 وفي الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا
 فسبحان من أسرى بأحمدنا ليلا
 ومريم في الأخرى يكون لها بعلا
 ولكن جميع الأنبياء علا فضلا
 فأطلع من قد طاف فيها ومن حلّا
 وفرقانه قد أحمد الكفر والبؤلا
 إذا قصص في العنكبوت لهم تلى
 بأن السيوف أسجدت كل من ضلّا
 وياسين قد صفت له الملائ الأعلی
 له غافر في الحرب قد فصلت فصلا
 وقد زعزعت الكفار في دينهم جهلا
 بجاثية الأحقاف قد تطلوا قتلا
 وفي الحجرات فضله أبداً يتلى
 كما تلى الكفار ربح بها تلى
 كما قمر بل نور خير الورى أجلي
 خليداً به الكفار يعلم جدلا

وقد سمع الغفار دعوة أحمد
صففتنا بجميع للأعادي فمنهم
يرى غيبته في الخير منهم مطلق
لأحمد ملك لا يوازيه سيد
بحق لقد سالت أباطح مكة
صحيح بأن الجن جاءت لأحمد
للدثر فضل القيامة واضح
وهم يحسدوا فلا من منازع
لقد كورت شمس بها انقطر السما
ولكن بروج الجو تزهو بأحمد
وغاشية كالنجر حلت ببلدة
وفاق الضحى حقاً جين محمد
فأقسم بالتين الذي هم نفعه
لم يكن الكفار قد ضل سبيلهم
وقارعة جلت وألهاهم المسوى
ألم تر أن الله فضل أحمداً
أريت بأن الكوثر العذب خصه
لقد نصر الرحمن ربي محمداً
فيا أحد إني بفضلك عائد

بحشر ، ولكن بامتحان به تبلى
مناق إن الكفر في درك سفلى
ولكن من يرم نعيماً فقد ضللاً
ونون لقد قلنا مقالاً به استعمل
بفضل الذي قد كان نوح به استعمل
ومزمل كان الغمام له ظلاً
أناه ، وجمع المرسلات حوت سبلا
فحيث تراه لا صوباً ولا بخلاً
لويل أتى الكفار وأنشئ واستولى
وفي طارق الأفلاك فضله الأعلى
بها حرم أمن كشمس جلت ليلاً
كما بانشرائح الصدر قد خصه المولى
وبالقلم الأعلى لقدّر له أعلى
وقد زلزلوا بالعاديات كما يتلى
ووالصبر إن الويل يقرهم نزلاً
لأمن قريش حيثما سلكوا السبلا
به ، وجميع الكفر لن يردوا أصلاً
فأردى أبا لب ولم يكسب نيلاً
إذا غسق الديبور ناديت يا مولى

ولم أتف على غير هذه الآيات من هذه القصيدة ، وقد سقط منها كما رأيت
سورة الناس ، قلت مكمل على نمطه :

ويا مالكا للناس إني لألذ بعفوك فاغفر عبدك وجهلك والجهلا

ويا رب عاملنا بما أنت أهله . من الجود والرحمى وإن لم نكن أهلاً
وصَلَّ على مسك الختام محمد أتم صلاة تملأ الحزن والسهلا

[خطبة لعياض يورتي فيها بأسماء السور]

وتذكرت بهذا الموضع خطبة القاضي أبي الفضل عياض التي ضمَّتها سور
القرآن على المهيح الماضي آنفاً ، وهي : الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه ،
وبين في سورة البقرة أحكامه ، ومد في آل عمران والنساء مائدة الأتعام ليتم إنعامه ،
وجعل في الأعراف أنفال توبة يوتس وألر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف
الصدِّيق في دار الكرامة ، ونسَّح الرعد بحمده ، وجعل التاز برداً وسلاماً على
إيزاهيم ، ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ
إلا إليه ولا يظلمون قلامه ، وجعل في حروف كهيعص سرّاً مكتوناً قدم بسببه
طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليظهر لإجلاله وإعظامه ، وأوضح الأمر
حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صابروا كالنمل ذلاً وضغاراً لعظمته ،
وظهرت قصص العنكبوت قامن به الروم ، وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم ،
نزل به الروح الأمين على زَيْن مَنْ وافى القيامة ، وأفصح لقمان الحكمة بالأمر
بالسجود لرب الأحراب فسبا فاطر السموات أهل الطاغوت ، وأكسبهم ذلاً
وخزياً وحسرة وندامة ، وأمدَّ ياسين صلى الله عليه وسلم بتأييد الصافات
فصاذاً الزمَّ يوم بده وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم في القلب مكنوس ومكبوب
حين شالت بهم النعام ، وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبشرين رضي الله
عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصَّلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة
العذاب وأيس من السلامة ، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف
الآخرة عن دنخان الدنيا فجثوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد صلى الله عليه
وسلم يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتح وبوتوا حجرات الجنان وحين

تلوا ﴿قاف﴾ والقرآن المجيد ﴿١﴾ وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور لاح لهم نجم الحقيقة وانشق لهم قمر اليقين فنافروا السامة ، ذلك بأنهم آمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة واعترف بالضعف لهم الحديد وهُزم المجادلون وأخرجوا من ديارهم لأوّل الحشر يخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين حين نافروا السلامة .

أحمدته حمدًا من امتجنته صفوف الجموع في فلق الثنائين فطلق الحرّات حين اعتبر الملك وعامه ، وقد سمع صريف القلم وكأنّه بالحاقة والمعارض يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، وفاح نوح الجن فترمل وتلثر فرّكًا من يوم القيامة ، وأنس بمرسلات النيل فترع العبوس من تحت كور العمامة ، وظهر له بالانفطار التطفيف فانشتق بروج الطارق بتسيح الملك الأعلّ وغشيت الشهامة ، فورب القجر والبلد والشمس والليل والضحى لقد انشرفت صدور المتقين ، حين تلوا سورة التين ، وعلق الإيمان بقلوبهم فكل على قدر مقامه يمين ، ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ليله ونهاره وصياحه وقيامه ، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات ليطفئوا نور القارعة ، ولم يلهمم التكاثر حين تلوا سورة العصر والمزة وتمثلوا بأصحاب القيل فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، أرايتهم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكور عمامة ، فالكور مكتوب لهم والكافرون خذلوا وهم نصرّوا وعدل بهم عن لب الطامة ، وبسورة الإخلاص قروا وسعدوا وبرب الفلق والناس استعاذوا فأعينوا من كل حزن وهمّ وغمّ وندامة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله شهادة نال بها منازل الكرامة ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت في الأيلك حمامة ، انتهت .

وممن نسبها للقاضي عياض الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي جمعة الوهراني ، وفي قصي من نسبتها له شيء لأن نفس القاضي في البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم .
وكنّت رأيت بظلمسان المحروسة بخط عصي ومفيدني وليّ الله تعالى العارف

المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المفتي الخطيب سيدي سعيد بن أحمد المفتي -
صَبَّ الله عليه سجال الرضوان - خطبة من هذا النمط نصّها :

[خطبة على ماثلاً لأبي جعفر الطنجاني]

الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفى من آل عمران
رجالاً ونساءً وفضلهم تفضيلاً ، ومدّ مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال
كرمه وحقّه على أهل التوبة وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلاً ، ونجّى هوداً
من كربه وحزنه ، كما خلّص يوسف من سجنه وجبّه ، وسبّح الرعد بحمده
ومعنه ، واتخذ الله إبراهيم خليلًا ، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً .
نوع باختلاف ألوانه ، وأوحى إليه بخفي لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفًا قد
شيد بنيانه ، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لما تمثيلاً ، وفضل طه على جميع
الأنبياء فأثى بالمحج والكتاب المكنون ، حيث دعا إلى الإسلام قد أطلع المؤمنين ،
إذ جعل نور الفرقان دليلاً ، وصدّق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي عجزت
الشعراء عن صديق نفسه ، وشهدت النمل بصدق بعثه ، وبين قصص الأنبياء في
مدة مكنته ، ونسج العنكبوت عليه في الغار سراً مسدولاً ، وملئت قلوب الروم
ربحاً من هيئته ، وتعلم لقمان الحكمة من حكيمته ، وهدى أهل السجدة للإيمان
بدعوته ، وهزم الأحزاب وسباهم وأغلّبهم أخذاً وبيلاً ، فلقبه فاطر السموات
والأرض بإسبين كما نقد حكمه في الصافات ، وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات ،
وفرق زمر المشركين وصبر على أقوالهم وهجرهم هجراً جميلاً ، فغفر له غافر
الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم
شورى بينهم وزخرف منار الإسلام وخفي دخان الشرك وخرت المشركون
جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلاً ، وأذل الذين كفروا بشدة القتال
وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز ، وحجر الحجرات الحريز ، وبقاف القدرة

قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ تَتِيلًا ، كَلَّمَ مُوسَى عَلَى جَبَلِ الطُّورِ ، فَارْتَقَى نَجْمٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَرَبَتْ بِطَاعَتِهِ مِبَادِي السُّرُورِ ، وَأَوْقَعَ الرَّحْمَنُ وَاقِعَةَ الصُّبْحِ
 عَلَى بِسَاطِ النُّورِ ، فَتَجَسَّبَ الْجَلِيدُ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَكَثُرَتْ الْمَجَادِلَةُ فِي أُمْتِهِ ، إِلَى أَنْ
 أُعِيدَ فِي الْخَشْرِ بِأَحْسَنِ مَقِيلًا ، اِمْتَحَنَهُ فِي صِفِّ الْأَنْبِيَاءِ وَصَلَّى بِهِمْ إِمَامًا ،
 وَفِي تِلْكَ الْجُمُعَةِ مَلَتْ قُلُوبُ الْمُنَافِقِينَ مِنَ التَّغَايُنِ خَسْرًا وَإِرْغَامًا ، فَطُلِقَ وَحَرُمَ
 تَبَارُكُ الَّذِي أَعْطَاهُ الْمَلِكُ وَعَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ وَرَتَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، وَعَمِنَ عِلْمُ الْحَاقَّةِ كَمْ
 سَأَلَ سَائِلٌ فَسَالَ الْإِيمَانَ ، وَدَعَا بِهِ نُوحٌ فَتَجَاهَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الطُّوفَانِ ، وَأَتَتْ إِلَيْهِ
 طَائِفَةُ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ،
 فَكَمْ مِنْ مَدْرُثٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيقَةً عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا أُرْسِلَ مَرَسَلَاتِ السَّمْعِ فَمِمَّ
 يَتَسَاءَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَمَا تَقْبَلُ مِنْ نَازِعَاتِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا حَسِبَ عَلَيْهِمُ
 مَالٌ وَتَوَلَّوْهُمْ بِالْعَدَابِ ، وَكَوَّزَتْ الشَّمْسُ وَانْفَطَرَتْ السَّمَاءُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ
 كَتِيبًا مَهِيلًا ، فَوَيْلَ الْمَطْفُوفِينَ إِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ، وَطُوِيَتْ ذَاتُ الْبُرُوجِ
 وَطَرَقَ طَارِقُ الصُّورِ بِالنَّفْخِ لِلْقِيَامِ ، وَعَزَّ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى لِفَاشِيَةِ الْقَجْرِ فَيُؤْمِنُ
 لَا بِلَدٍّ وَلَا شَمْسٍ وَلَا لَيْلٍ طَوِيلًا ، فَطُوِيَتْ الْمَصَالِينُ الضَّحَى عِنْدَ انْشِرَاحِ
 صُدُورِهِمْ إِذَا هَانُوا الثِّينَ وَالزَّيْتُونَ وَأَشْجَارُ الْجَنَّةِ فَسَجَدُوا بِأَقْرَأِ بِاسْمِ رَبِّكَ
 الَّذِي خَلَقَكَ هَذَا النَّعِيمَ الْأَكْبَرَ لِأَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ مَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَتَبَتَّلُوا
 تَتِيلًا ، وَلَمْ يَكُنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ الزَّلْزَلَةِ مِنْ صَدِيقٍ وَلَا
 حَمِيمٍ ، وَتَسَوَّفَهُمْ كَالْعَادِيَاتِ إِلَى سِوَاءِ الْجَحِيمِ ، وَزَلْزَلَتْ بِهِمْ قَارِعَةُ الْعَقَابِ وَقِيلَ
 لَهُمْ : أَلَمْ أَكُنْ أَنْتُمْ التَّكَاثُرُ ، هَذَا عَصْرُ الْعَقَابِ الْأَكِيمِ وَحُشِرَ الْمُسْرَةُ وَأَصْنَابُ
 الْقَبِيلِ إِلَى النَّارِ فَلَا يَظْلَمُونَ قَتِيلًا ، وَقَالَتْ قَرِيشٌ : مَا أَمْنُكُمْ مِنْ هَوْلِ
 الْخَشْرِ ، أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا عَنْ الْكُوفَرِ ، وَسِيقَ الْكَافِرُونَ
 إِلَى النَّارِ وَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ قَتَبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ إِذْ لَا يَجِدُ إِلَى سُورَةِ
 الْإِخْلَاصِ سَبِيلًا ، فَنَعُوذُ بِرَبِّ الْعَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَنَعُوذُ بِرَبِّ
 النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يَفْضُقُ ، وَتَنْتَوِبُ

إليه ، وتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، انتهى :
وهي من إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبي المجد عبد المنعم ابن
الشيخ الفقيه المدل أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي
رحمه الله تعالى ونفعنا به ويسلفه الطاهر .

[عود إلى نظم ابن جابر]

ومن نظم ابن جابر المذكور قوله :

جعلوا لأبناء الرسول علامة^١ إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم يعني الشريف عن الطراز الأخضر
وفي هذا المعنى يقول شمس الدين^٢ التمشقي :

أطراف تيجان أت من سندس^٣ خضر بأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصصهم بها شرفاً لفرقهم من الأشراف

والأشرف المذكور هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون
الصابلي الأتقي ، رحمه الله تعالى .

وقال الرحالة ابن بطوطة في رحلته عند ذكر سلطان ماردین ابن الملك الصالح
ابن الملك المنصور ما نصه^٤ : وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض الشام والعراق

١ ق : وبسلة .

٢ ق : شمس الدين الخزين .

٣ رحلة ابن بطوطة : ٢٣٨ ، وقال ابن بطوطة في الملك المنصور والد الملك الصالح : كان كريماً
شهيراً لصيت ولي الملك بها (أي ماردین) نحو عشرين سنة ولأولك أيام قازان ملك التتر وصاهر
السلطان خدابنده بابته ديار خاتون .

ومصر أكرم منه ، يقصده الشعراء والفقراء فيجزل عطاياهم جرياً على سنن أبيه ،
قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحاً فأعطاه
عشرين ألف درهم ، انتهى .

ومن شعر ابن جابر رحمه الله تعالى :

وفي الخيامِ وَمَنْ لِي بالخيامِ رَشَاءٌ لا أحسبُ البدرَ في حُسْنٍ يقاومُهُ
مثلُ الغزالةِ إن تاهتْ وإن طلعتْ فكيف يصرفُ عنه الصبُّ لآلِمُهُ

وقوله رحمه الله تعالى :

في القلبِ من حُجُومِ بدرٍ أقامَ بهِ فالطرفُ يبصرُ نوراً حين يبصرُهُ
تشابهُ القندُ حسناً فوق لَبَّتِهِ والتغرُّ نظماً إذا ما لآحَ جوهرُهُ

وقوله :

ردفٌ أقامَ لنا بها فنَّ الهوى وإذا أنتَ لتقومَ قالَ لها اقمدي
أبصرتها ما بينَ ذلكَ وبينَ ذا فوقعتُ منها في المقيمِ المقعدِ

وقوله :

سامحَ بالوصلِ على بخلِهِ وقال لي أنتَ بوصلي حقيقُ
فقلتُ ما رأيك في نزهِةٍ ما بينَ كاساتِ وروضِ أنيقِ
فقال يعني خدته واللى : هذا هو الروضُ وهذا الرحيقِ
فبتُّ منْ دمي ومن خدته ما بينَ نعمانٍ وبين العقيقِ
وإذ تلتُّ على حبِّه قال : أما تحشى ، أما تضيقُ ؟
قدي وخدي خفَّهُما يا فتي هذا هو الرمحُ وهذا شقيقِ

وقوله :

وَقَفَّتْ لِلوداعِ زَيْنَبُ لَمَّا رَحَلَ الركبُ والمدايعُ تُسْكَبُ
مَسَحَتْ بِالبنانِ دُمعي ، وحلَوُ سَكْبُ دُمعي على أصابعِ زَيْنَبِ
رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه الله تعالى :

ومن قصيدة موشحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان
الدين ابن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه وبينه ، جواباً عن رسالة خاطب بها
لسان الدين ابن الخطيب أولاده صدر نظم له لم يحضرني ذلك الآن قوله :

ما لي بمحملِ الهوى يَدَانِ مِنْ بَعْدِ ما أَحْوَزَ التَّدَانِي
أَصْبَحْتُ أَشْكُوهُ مِنْ زَمَانٍ ما بَتُّ مِنْهُ على أَمَانٍ
ما بِالْ عَيْنِكَ تَسْجِمَانِ وَاللَّعْمُ يَرْقُصُ كَالْجَحْمَانِ
نَادَاكَ وَالْإِلْفُ عَنْكَ وَإِنِ وَالْبَعْدُ مِنْ بَعْدِهِ كَوَانِي
يَا شَقَّةَ النَّفْسِ مِنْ هَوَانٍ بَلَّحَجٍّ فِي أَبْحَرِ الْهَوَانِ
لَمْ يَشْتِهِ عَنْ هَوَاكَ ثَانٍ يَا بَغِيَّةَ الْقَلْبِ قَدْ كَفَانِي

وقال بعض الحفاظ في ترجمة أبي الحسن علي بن لسان الدين بعد أن ذكر
روايته عن أبيه وابن الجلياب وابن مرزوق : إنّه أخذ عن جماعة غيرهم ،
كالشريف القاضي الفقيه أبي علي الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسيني
السبتي نزيل تلمسان ، والفقيه الإمام العلامة قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء
بالمغرب أبي عبد الله محمد المقرئ التلمساني القرشي ، والشريف العالم أبي القاسم
محمد ابن الفقيه العالم المعلم لكتاب الله تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن
عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن
القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي
الله تعالى عنهم ، وليس لإدريس المذكور هنا بملك المغرب وجدة الإدارة .

قال : وروى أيضاً عن القاضي ابن شبرين الإشبيلي ثم السبتي نزيل غرناطة ، والقاضي أبي البركات البليقي ، والكاتب صاحب القلم الأعلى أبي جعفر ابن صفوان القيسي المالكي ، وابن خاتمة ، والفقهاء الحاج أبي القاسم محمد ابن الفقيه الصالح العالم أبي عمرو يميني ابن الفقيه الصالح أبي القاسم محمد النسائي الرحبي نزيل فاس ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم من الأئمة الأعلام ، نجوم الإسلام ، انتهى .

[خطبة للكعبي في تبيين أسماء السور]

وقد وقتت للكعبي رحمه الله تعالى في شرح بديعته على خطبة وقصيدة من هذا النمط . قال رحمه الله تعالى ما نصه :

ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة ، في منها عزيزة ، وجعلناها في مدح سيد البرية ، وتورياتها في السور القرآنية ، فكأن لسورها قارباً ، ولما رجاها راقياً ، وحلّ واهل من شراها السكري ، وفكه نفسك بتسجيها النميري ، وهي هذه :

الحمد لله الذي شرف النبي العربي بالسيح المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنعام ، وفضل آل عمران على الرجال والنساء بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم بأعراف الأنفال وكتب لهم براءة من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي نجى يونس وهوداً ويوسف من قومهم برّعد الانتقام ، وغلى إبراهيم في الحجر بلعاب النحل ذات الإمراء فضاهى كهف مريم عليها السلام ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي هو طلة الأنبياء وحج المؤمنين ونور فرقان الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضلته تخبر ، ولقصص المنكجوت الروم تذكر ، ولقمان في سجلته يشكر ، والأجزاب كأبيادي سبا تُقهر ، وفاطر يس لصافاته ينصر ، وصاد مقله زمهر تنظر الأعلام ، قال حم يقتال فتحة في حجرات قافه قد ظهرت ، وذاريات طوره ونجمه وقمره قد عظرت ، وبالرحمن واقعة حديد يوم المجادلة قد نصرت ، وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسرت ،

وصفّ جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استمرت ، وله الطلاق والتحريم ومقام الملك والقلم فتاهيك به من مقام ، وفي الحاقة أعلى الله له المعارج على نوح المتطهر ، وخصة من بين الإنس والجن يا أيّها المرّمّل ويا أيّها المدّثر ، وشقّعه في القيامة إذا دمّوع الإنسان مرسلات كالماء المتفجر ، ووجهه عند نبيل النازعات وقد عبس الوجه كالهلال المنتور ، ويوم التكوير والافتطار وهلاك المطففين وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضرر ، وقد حوسّت لمولده السماء بالطارق الأعلى وتمّت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللثام ، فهو البلد الأمين وشمس الليل والضحي المخصوص بانشرّاح الصدر ، والمفضل بالتين والزيتون المستخرج من أمشاج العلق الطاهر العلي القدّر ، شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديّات القارعة تلّوس أهل التكاثر ومشركي العصر ، أهلك الله به الهُمزة وأصحاب القيل إذ مكروا بقريش ولم يتواصوا بالحقّ ولم يتواصوا بالصبر ، المخصوص بالدين الخفي والكوثر السلسال والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تبّت بدا معاديه ، ونعم بالتوحيد مواليه.. وما أفصح فلي الصبح بين الناس وامتد الظلام .

[قصيدة على مثالا للكمعي]

ولنشفع هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن ، في مدح سيد ولد عدنان ، يحسن هنا أن ننضي عن فرائد نقائسها لطلابها ، ما أغدق من خمرها وستورها ، وتُجكّي عن خرائد عرائسها لخطابها ، ما أسدق من غررها في خلدورها ، فانظر إلى سور آياتها وصور تورياتها ، ثم ادعُهن يأتينك سعيًا ، فحفظًا لها ووعيًا ، وهي هذه :

يا مَنْ له السبعُ المثاني تنزلُ وخسواتم البقره عليه تنزلُ
في آل عمران النساء لم تلدُ كنظيره الأجساد ذلكَ تفعلُ

مولى له الأتعام والأعراف والا
 بمثلاه توبة يونس قبلت كذا
 وكذلك إبراهيم في حجر له
 يا كهف ريم أنت طه الأنبيا
 يا نور يا فرقان يا من ملحه
 والتمل في قصص الحديث به دعت
 والروم تلو اسمه ولكم به
 وبهزمه الأحزاب جمعهم سباً
 يس سماء الإله بذكره
 يا ليثني صاد شربت بكأسه
 كم مؤمن قد فصلت أعلامه
 ودخان جاثية على أحقابها
 حجرات قاف ذاريات سمائه
 ودنا له القمر المنير وشقه
 زحف الحديد بحربه أصواتها
 وله لدى الحشر العظيم شفاعته
 عن صف جمعه المناقب ناياً
 يا من به شرع الطلاق ومن له
 يا من به ذو النون لاذ يئمنه
 يا من سأل نوح بظاهر اسمه
 مدثر يوم القيامة شافع
 يا من نزول المرسلات بيته

أنفال والحكم التي لا تجهل
 هود ويوسف رعدهم يتجلجل
 والتحل في الإسراء عليه تعول
 والحج ثم المؤمنون الأفضل
 نطقت به الشعراء وهو المرسل
 وعليه نسج العنكبوت يهدل
 لقمان حقاً في المضاجع يسأل
 وبه الملائكة الكرام تفضل
 وكواكب بسعوده لا تأفل
 وعليه في زمير وردت فأنهل
 من زخرف يجدها يا من يعقل
 بقتاله أطفئ وفتح أدخل
 في طورها نجم منير يكمل
 رحمن واقعة له لا تجهل
 رعد مجادلة لقوم أبسوا
 في أمة بالإمتحان تسربلوا
 يوم التغابن من حديد ينعل
 تحريم والملك العظيم الأكل
 لما أصيب بحاقة لا تعدل
 يا من أته الجن يا مزمل
 ومخلص الإنسان وهو الموئل
 يا أيها النبأ العظيم الأكل

والنازعات نزعن نفسَ عدوّه
وهو الشفيح إذا المنيرة كوّرت
ولدى ذوي التطفيف ويَلِّ السّما
والله قد حرس السماء بطارقٍ
وأزال غاشيةً العذابِ ونوره
بلدٌ أمينٌ ثم شمسُ أشرقت
شمسُ الضحى من وجهه ولصلره
يا من أتى في التّينِ حقّاً ذكره
يا من ليالي القدرِ يَنُتُّ له
بالعادياتِ أزال قارعةَ العدا
ولقد أتى من قبلِ عصرِ نبيّنا
هو صاحبُ الإيلافِ والدينِ الذي
والكافرون لنصره في جيلهم
يا خاتماً فلنقُ الصّباحِ كوجهه^١
آياتها ميقاتُ موسى عدوّه^٢
صلّى عليه الله مع أصحابه^٣

هذا ، وقد عبس الجبين وأذهلوا
والإنقطار من السماء يسجل
في الإنشقاق إذ البروجُ تبدل
لولادةِ الأعلى بهِ يفضّل
كالفجر إذ أنواره تَهْتَلَل
والشعر ضامى الليل بلّ هو أيل
الأنشراحُ ، وقلبه لا يفل
فاقرأ ولا يرتاب فيه ، واسألوا
وعنده بالزّوال منه تزلزلوا
وبقوله الماكُم ما تجهل
ويل لأهل القيل منه وقُتِلُوا
يُسقى غداً من كوثر يسلسل
مَسَدٌ إذا التوحيد منه تعدل
والناس منه مكبر ومهلل
والكنعني بمدحه يتجمل
ما زال طير العنديل يمتدل

[ترجمة الكنعني]

والكنعني هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر
حيما^٣ قرية من قرى أعمال صفد ، كما تقول في النسبة إلى بني عبد الدار :

١ ق : بوجه .

٢ ق : ثم صحابه .

٣ في ق والتجارية: هنا ، والكنعني نسبة إلى كفر حيما إحدى قرى جبل عامل ، كما ذكره صاحبـ

عبدري ، وإلى حصن كيفا : حصصتي ، وشرحه ليدعيته سماه ثور حدقة
البديع وتور حديقة الربيع ^١ وما رأيت مثله في سمة الحفظ والجمع .

ومن نظمته في أسماء الكتب :

يا طريق النجاة بحر فلاح	أنت دفع الموم والأحزان
أنت أنس التوحيد عدة دافع	ثم روح الإحيا وذاك المعاني
نهج حمي وثور دو نبيه	ورياض الآداب ذكرى اليان
فاتق رابع مسرة راض	متهى السؤل جامع للأمان
زهوة عدة ظرائف لطف	روضة مبهج جنان الجنان
زاهر كامل شهاب وكتر	مجتى من ذخيرة الإخوان
فصاح الألفاظ فيه تلقى	وشلور العقود والمرجان
وهو قوت القلوب نهج جنان	وكنوز النجاح والبرهان

فناسب بين أسماء الكتب ، وقصد غير ذلك ، وأكثر هذه الكتب التي
ورى بها غير موجودة بأيدي الناس ، بل ولا معروفة لديهم ، وهذا دليل على
سمة اطلاعه .

ومن بدائع الكفعمي المذكور رسالة كتب بها إلى قاضي القضاة العالم العلامة
أبي العباس ابن الفرغور^٢ في شأن استاذ دار قاضي القضاة المذكور الأمير علاء

= روضات الجنات (٧) نقلا عن بهاء الدين العاملي ، والنسبة للشائبة إليها كلفيماوي . والمترجم به
إمامي المذهب ، وله كتب وأحاديث وتصانيف منها : كتاب جنة الأمان الرواية المشتهر باسم المصباح
وكتاب البلد الأمين والدروع الحصين وكتابه نهاية الأرب في أمثال العرب وغيرها ، وقد توفي سنة
٩٠٥ .

١ ذكره حاجي خليفة (١٩٨٢) وأوله : الحمد لله الذي شيد بليان صرح البيان .
٢ هو شهاب الدين أحمد بن عمود بن عبد الله بن عمود الشهير بابن الفرغور النمشقي الشافعي (٨٥٢-
٩١١) ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق ثم جيع له بيته وبين قضاء مصر سنة ٩١٠ فأناب عنه
بدمشق ولده ولي الدين (الكواكب السائرة ١ : ١٤١) .

الدين ، ويخرج من أثناها قصيدة منها : يقبل الأرض وينهي (سلام) عبد لكم
(عجب) وعلى المقة مكب (لو بدا) للناظرين (عشر) معشار (شوقه)
وغرامه (لطبتق) ذلك (ما بين) آفاق (السموات) السبع (والأرض) : لشدة
هيامه (تراه) حقاً (لكم) حافياً (بالأمن) والسرور (والسعد) والحبور
(داعياً) لا جرم (وهذا) الثناء المتوالي و (الدعا) للمقام العالي (لا شك)
من لازم الفرض) ملكه الله تعالى أزيمة البسط والقبض ، (وأعجاك) ربي من
المعاطب (في) دينك و (دنياك) وأثقلك (من) شر (كل) صغير (شدة)
وكبيرها ، (وأرضاك) ، وجعلك أميناً (في) الأرض ، إلى (يوم القيامة)
والنشور (والعرض) كما أنت (أمن) (لي) من المخاوف و (عون) في كل
شدة (وغوث) وملجأ (وعدة) وأنجحت آمالي (ووفرت) بإحداك (لي)
مالي) وأحسن قرضي (ووفرت) بإجلالك (لي) عرضي ، ويُنهي المملوك
(إلى) سيده (قاضي القضاة) وكافي الكفاة (بأن) المتولي الأمين (ذا) الفخر
المبين (علي ابن) المرحوم (فخر الدين) قوله (في أمركم) العالي (مرضي)
وقطعه مقضي (وملحكم) عليه (فرض) واجب (قراه) أبداً (لسانه) ويذكر
المناقب (وحكمكم) له واختياركم (إياه) دالاً بأنه أمين حلیم (شاهده) حقاً
(بقضي) يجعله على خزائن الأرض إنه حفيظ عليم (حديث) مدح (سواكم)
ليس من مدائحه ، و (لا يمر) أبداً (بقلبه) وجوارحه (وإن مر) في خاطره
(لا يخلو) فعلاً (وحكمكم) عليه شرعاً ، ومرسومكم (بمضي) وأمركم يقضي
(بتيه) سروراً (به) رؤساء أهل الشام ، ومن في (القيبيات) من الأنام ،
(عزة) وعلواً (لحلمته) الشريفة (إياك) ولأنته (يا قاضي) قضاء الدين
و (الأرض) لا يريد سواك ، (فإن يك) الخادم المذكور (في) بعض (أفعاله)
غافلاً (أو) في (مقاله) غير كامل و (عصاكم) في بعض الأمر (فمين)
الغفر) والستر (عن ذنبه) لا جرم (تُفضي) ، وهو بتوجهه إليه يُفضي ،

و (سلام) الله (عليكم) ورحمته لديكم (كلّما) نطق ناطق أو (ذرّ) في
المشارك (شارق) وما دارت الأفلاك ، (وسبحت) بلغاتها (الأملاك ، في)
فسح (الطول و) رجب (العرض) ، دوماً ما بين السماء والأرض .
وهذه أبيات القصيدة المتولدة من هذه الرسالة :

سلام محب لو بدا عَشْرُ شوقه لطبّق ما بينَ السموات والأرضِ
تراه لكم بالأمن والسعد داعياً وهذا الدعا لا شك من لازم القرص
وأنجارك في دنياك من كل شدة وأرضاك في يوم القيامة والعرض
كما أنت لي عون وغوث وعدّة ووفرت لي مالي ووفرت لي عِرضي

هذا ، ويصح أن يقرأ « حونا » بالنصب على الحالّيّة ، وهو الذي رأيته
بخطه ، أعني الكنعني ، ثم قال :

وينهي إلى قاضي القضاة بأنّ ذا عليّ بن فخرالدين في أمركم مرّضي
ومدحكُمُ فرض قراه لسانه وحجكم إيساه شاهده يقضي
حديث سواكم لا يمر بقلبه وإن مرّ لا يحلو وحكمكم يعضي
'يتيه' به أهلُ القبيبات عزّة لخدمته إياك يا قاضي الأرض
فإن يكُ في أفعاله أو مقالهِ عصاكم فعين الغفوع عن ذنبه تنضي
'سلام عليكم كلّما ذرّ شارق وسبحت الأملاك في الطول والعرض

قلت : وهذه طريقة بدیعة ، وقد تبارى فيها البلغاء ، فبعضهم يعتمد إلى
أحاديث أو آيات وينسج على منواله مثلها ، ويفرقها في أبياته أو سجعاته ، ويكتبها
بلون مخالف للأصل ، وقد ذكرت في روضة الورد من « أزهار الرياض » من
كلام ابن عاصم ما لا مزيد وراءه ، فليراجعهُ مَنْ أرادهُ ، وذكرت في غيره
أيضاً نبذة .

رجع إلى نظم ابن جابر - فمن ذلك قوله :

ناديتُ مَنْ أَسْرِي به بحياة من أَسْرِي به
سلّ ملعماً يجرى به بكتّواه في تَجْرِيه

وقوله :

أيتها الماذلُ في حبي لهُ خلّ نَفْسِي في جَوَاهَا مَحْرَقُ
ما الذي ضَرَكَ مِنْهُ بَعْدَما صار قَلْبِي في هَوَاهُ مَحْتَرِقُ

وله :

بَرَدُ الصَّبَاحِ عَلَى بَرَدِ الصَّبَا سَحَرَا ما زالَ يَذْكَرُنِي أَوْقَاتِ نَعْمَانِ
هَفِي لِعَيْشِرِ قَضِينَا فِي مَعَاهِدِهَا ما بَيْنَ حُسْنٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِحْسَانِ

وله رحمه الله تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضاً :

جعلتُ ملاكَ العَيْنِ وَالْقَلْبِ فِي الْهَوَى بِنَاطِقَةِ الْقُرْطَيْنِ صَامِتَةِ الْقُلُوبِ
تَصَحَّفُ لِي أَلْطَافُهَا لَيْنَ قَدِّهَا وَتَقَلَّبُ كَيْمَا تَصِيدُ بِهِ قَلْبِي

قال بعض علماء المشرق : أجاد واقع هذا العالم المغربي المقاتل ، وأراد أن
لفظ لين إذا قلب صار « نيلًا » ، وإذا صحف صار « نبلًا » ، وهذا زيادة
على ما فيه من التحريف ، انتهى .

[من شعر أبي جعفر رقيق ابن جابر]

وقريب منه لرفيق المذكور قوله :

يَفْتَرُ عَنْ بَرَدٍ بِشِيرِ بَرْدِهِ حَرَّ الْغَرَامِ وَلَا سَبِيلَ لِرُشْفِهِ
أَخَذَ الرِّشَا مِنْ حُسْنِهِ طَرَفًا لَدَا تَسَبَّ الْوَرَى مِلْحَ الْجَمَالِ لِطَرَفِهِ

وله :

نَجْرُ فَرَصِيهَا عَلَى لِأَثَرِهَا رَافِلَةٌ فِي حَكْكَرِ الْحَسَنِ
فَتَطْلُعُ الْبَدْرَ لَنَا فِي الْحَبَى وَتُرْسِلُ الْبَدْرَ عَلَى الْفَنَنِ

وله :

قَدْ نَعْمَتَا بِجَزَعِ نَعْمَانَ لَكِنْ عَقَبْنَا الْبَعْدُ ، وَالْعُقُوقُ قَبِيحُ
قُلْ لَأَهْلِي الْخِيَامِ أَمَّا قَوَادِي فَجَرِيحُ لَكِنْ وَدَيَّ صَحِيحُ

وقوله :

مُقَدَّمَاتُ الرِّقَبِ كَيْفَ غَدَتِ عِنْدَ لِقَاءِ الْخَيْبِ مُتَّصِلَةٌ
نَمَعْنَا بِالْجَمْعِ وَانْمَسَلُوا مَعَا وَإِنَّمَا ذَاكَ جُنُكُمُ مُتَّفَصِلَةٌ

وله يمدح سيد الخلق وخاتم المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين :

رَحْمَةً أَرْسَلَهُ اللَّهُ لَنَا وَشَفِيعاً قَدْ غَدَا فِينَا غَدَا
وَهَبَ الْمَالَ لِمَنْ مَالَ لَهُ وَفَدَى مِنْ ذَنْبِهِ مَنْ وَقَدَا
لَيْسَ يَحْصِي فَضْلَهُ إِلَّا الَّذِي هُوَ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَا

وله :

حَسَنُ النِّيَّةِ مَا اسْطَعْتَ وَلَا تَتَّبِعُ فِي النَّاسِ أَسْبَابَ الْهَوَى
إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، مَنْ يَنْوِ شَيْئاً فَسَلَبَ مَا قَدْ نَوَى

وله :

قَالَتْ وَقَدْ حَاوَلْتُ نَيْلَ وَصَالِهَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ لَا تَجُوزُ الْمَسَافَةُ
بِاللَّهِ قُلْ لِي أَيْنَ نَحْوُكَ يَا فُتَى أَرَأَيْتَ مُوَصَّوْلًا يَجِيءُ بِلا صِلَةٍ

وهذا معنى قد تلاعب الشعراء بكُرتِه ، وقضيةُ ابنِ عَنين في ذلك مع
المعظم دالةٌ على توقُّد فكرته ؛ وما ذاك إلاَّ أَنَّهُ مرض فكتب إلى الملك المعظم :

انظرْ إليَّ - بعينِ مولى لم يزلْ يُولي الندى وتكلافَ قبلَ تلافِي
أنا كالنسي ، أحتاجُ ما يحتاجُه فاعظمْ دعائي والثناء الوافي

فعاده المعظم وأعطاه ألفاً ، وقيل : ثلاثمائة ؛ وقال له : هذه الصلة ، وأنا
العائد .

قال بعض المغاربة في هذا : قد تطف ابن عَنين في الصلة والعائد ، وأجاد
وسبق المعظم إلى فهم مقصوده مطابقة الجوار فأتى بما يُستغرب عن سيويه
ونظرائه ، فذلك جمل الشرف ابن عَنين ديوانه معلوماً بجلده وأطرابه ، وتقلته
من حظي وفيه بعض تغيير يبين .

[هود إلى شعر ابن جابر]

وقال ابن جابر المذكور :

يا دارَ ليل لا صَمْتِكَ يدُ البلى وسقاك دَرَّ الفَيْثِ كلُّ سحابِ
أصبر إلى تلك الربوع ، وكيف لا أصبو وهنَّ منازلُ الأحبابِ

وقال من قصيدة :

وأطلبُ تشويقَ الأنامِ بحسبه فأذكرُ من أسمايه كلَّ طيبِ

ومنها :

وإنِّي لم أمدحْهُ إلا تشوقاً وإن كان مشهوراً بشرقٍ ومغربِ

وقال :

أمر الشباب [.....]
أسر الهوى مهج الأنام ليا
فهنّا فقالت : دَمَعِي أَغْلَى
إذ سلّ من أعطافها أسلا

وقال :

ظننوا [واقنود] منهم رماح
جاد دَمَعِي لَمْ وَقَدْ حَادَ صَبْرِي
طعنوا في الحشا بها فأصابوا
حين سارت بالظاعنين الرّكّاب

وقال :

شاه وجهه الرّقيب إذ شاه وصلي
زارني بالنّهار في اللّيل لكنّ
قمرى ، والأناّم هنّا نيام
ليل فرح يحار فيه الظلام

وقال :

يا أيتها الجائر في حكمه
قد لك من أعدل شيء يرى
إني فيما قد جرى حائر
وأنت في أهل الهوى جائر

وقال :

قد زعم العاذل لي أنّه
ما هو هاد لي ولكنه
يُهدي لي الرّشد بما يصنع
هاذ فسمعي قال لا تسمعا

وقال :

شفى فؤادي من شقا هجره
وزارني يحكي غزال النقا
وبت من لقاء في عيد
في الحسن لولا الحلّي في الجيد

وقال :

سلب القلب غزال قدّه قد حكي البان لنا والسلمنا
ساحر العين إذا أبصره كاتب ألقى لديه القلمنا

وقال :

يكفي الأنام بسيفه وبسيه عقد المكاره والمكارم دائما

وقال :

تحلت بما يحكي محاسن ثغرها وحلت عقود الصبر مني عقودها
ثقيلة أرداف فصعب قيامها بما حملت منها وسهل قعودها

وقال :

أبى حسنها إلا افتتان قلوبنا فكم قد أباد الحسن فيها من الناس
وقالت تحمّل طول هجري إن ترد وصال ذوات الحسن قلت على راسي

وقال :

أرى أناساً ، من أراد الرضى منهم وجا ما ليس بالممكن
سيان أن يعطوا وأن يمنوا قد ضاع فيهم كرم المحسن

وقال :

يا جيرة المحي جبا الله وإدبكم فكم سرور به للقلب قد عرّضنا
فلن أنال حياة أسطد بها إذا أنا لم أتل من وصلكم غرضنا

وقال :

شب حرّ القواد ماء رضاب منه قد حار فيه ماء الغمام
زان بالحلي جيدة قلت : ماذا ؟ قال : شيء نظمته من كلامي

وقال :

صادَ قَتْنِيَّ وَصدَّ عَنِي صَلودا
فَرَأَيْتُ الصَّبَاحَ فِي اللَّيْلِ يَلِدو
وَائْتَنِي يَسْحَبُ النُّوَابِ سَوْدا
وَشَهِدْتُ الرِّشَا يَصِيدُ الْأَسودا

وقال :

إِنِّي مَسْتُ مِنَ الزَّمَانِ لَطُولِ مَا
وَمِنَ التَّوَادِي فِي زَمَانِكَ أَنْ تَرَى
قَدْ صَدَّ عَنْ حُسْنِ الْوَفَاءِ رِجَالَهُ
خِيَلًا حَمَلَتْ وَدَادَهُ وَخِيَلَهُ

وقال :

إِنْ قَابِلَ الْفَضْنِ بِأَعْطَافِهِ
قُلْتُ قَدْ اسْتَجَدَّ كُلُّ الْوَرَى
قُلْتُ أَنْ تُبَصِّرَ مِنْ فَرْقِي
قَالَ خَالِكَ الْبَعْضُ مِنْ حَقِّي

وقال :

صَحَّ أَنْ الصَّبَاحَ مِنْ وَجْنَتَيْهَا
قَاتِلَ اللَّهِ عَاذِلِي قُلُومِ
وَعَصُونَ الرِّيَاضِ مِنْ مَعْطِفِهَا
لَيْسَ يَسْمَى بِالْعَذْلِ فِيهِ إِلَهِهَا

وقال :

شَدُّوا مَعَالِمَهُمْ يَوْمَ الرِّحَالِ وَقَدْ
هَزُّوا الْفَضُونَ عَلَى الْكُفَّانِ حِينَ مَقُورَا
مَعَارِسُومَ اصْطِبَارِي فَقَدْ مَنْ رَحَلَا
وَأَسْبَلُوا فَوْقَ أَفْئَامِ الدَّجَى كَيْلَا

وقال :

خَدَّ تَرَى الْوَرْدَ بَعْضًا مِنْ مَحَاسِنِهِ
لِصَارِمِ الْحَفْظِ قَدْ أَرْنَى حَمَائِلَ مَيْنِ
تَبَارَكَ اللَّهُ مَا أَبَى شَمَائِلَهُ
عَذَارِهِ ضَمَى عَنَّا خَمَائِلَهُ

وقال :

قام حادي الركاب ليلاً ففتى
قيل نام الأنام فاهجع قليلاً
فاستقام السرى وثار التسام
قلت دون الحبيب لست أنام

وقال :

ترامى بنا في اليد شوق إلى الحمى
فلما برأينا ربّع من سكن الحشا
ترى عنده الأجفان منهلة الدمع
نزلنا فقبلنا ثرى ذلك الربيع

وقال :

يراودني الواشي على حب غيرها
موفرة الأرداف ، مهضومة الحشا
وإن محالاً أن يرى مثل حسنها
يُريك الصفات الطي فاطر جفنها

وقال :

سلت علينا سيوفاً من لوحظها
أضحيت لسفك دم العشاق هادرة
ومن لنا من سيوف النحز من وافي
فما ترى دية في قتل عشاق

وقال :

في خدّها شبهة للخال أو شبيهة
وتشي من الحسن لم يحتج لصنع يد
بما حوى الحسن من الطاف أسرار
تبارك الله هلي صنعة الباري

وقال :

بين الجوانح لو علمت من الجوى
فدع المدامع في مدى جربانها
نار عليها سكب عيني يهنع
فالدمع بعيد فراقهم لا يهنع

وقال :

قالوا بدارين قد قالوا ، وقد وردوا
ماء العقيق ، وبالزوراء قد باتوا

بانوا عن العين لكن بالقلوب ثووا وفي الهدى عن الأحباب آفاتُ

وقال :

مليحةُ الخلدِ به شامةٌ . كالوردِ قد نُقِطَ بالغاليةِ
قلتُ لها : ما اسمك ؟ قولي لنا قالت : فما تعرفني خاليةِ

وقال :

جاريةٌ جاريةٌ في مدى شبابها من ألمح الخلقِ
ما بينَ فَرَقِ الضحى لما بدا ووجهها للناسِ من فرقِ

وقال :

لصبَّه منه امتدادُ النوى فلا يلامُ النعمُ في صبِّه
في قدِّه لينٌ فهلاًّ قضى بقلبه منه إلى قلبه

يريدُ بالقلبِ الأولِ التحويلَ والنقلَ : أي فهلاًّ قضى بنقلِ اللين الذي في
قدِّه إلى قلبه .

وقال :

يا لابسَ اللامِ والأسيافِ عاريةٌ قد انعطت حل الأعطافِ واللامِ
ويا فصبجَ رماحِ الخطِّ يرسلها في كلِّ هامٍ لها باللحظ في الهامِ

الهام الأول : جمع هامة ، والثاني اسم فاعل من همى يهيم .
قال رقيقه : لو قال « من الهام » لكان أليق بالمعنى وألطف .

وقال :

مَنْ مالَ يبغي كَسْبَ مالٍ له من حريمِهِ إن جاء أو حِلِّهِ

فلا تلقَ يوماً بهِ واحترزْ منه فما يُبقي على خِلتهِ
وقال يتشوق إلى وطنه بالمرية :

لله عيشٌ بالمرية قد ذهبَ أخباره بالحسنِ تكتبُ بالذهبِ
وهبتُ لنا تلكَ الليالي مدةً ثم استردَّ الدهرُ منا ما وهبَ
وقال :

أنَّ من شوقه فصار الضُّرامُ ودري الناسُ أنه مُستهامُ
لا تسَلَّ ما جرى من الدمعِ لنا قيل هذي النقا وهذي الخيامُ
وقال :

صلاةُ إلهِ العالمين على الذي أقلَّ العطايا منه وادٍ من النعمِ
يجودُ على الراجي وإن كان مذنباً وما قوله للساثلين سوى نعمِ
وقال :

قد سبَّ قلبي غزالٌ فإنَّ سَلَ بهِ كيف اعتدى في سلبهِ
أنا لا أعتبُ فيما قد جرى صَفَحَ الله له عَن ذنبهِ
وقال :

صبرتُ له فتماذى بهِ هواهُ ، فكانتْ هي الفاصلةُ
وأنكرَ برِّي ويا طالماً أتاني يوماً فالنَى صلةُ
وقال :

وليلٍ نظرنا بهِ شملنا كما انظُم البيتُ بالقافيةِ
وفرقتنا الدهرُ من بعدِ ذا فلتُ من اليومِ ألقى فيهِ

أي فئة ، ولا يكمل التجنيس فيه إلا بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه ، ولما أنشده
قال :

ومن هذا النوع قول بعض الأندلسيين :

وقائل قال ألا صيف لنا بستاننا ههنا ونارنجنا
قلت لهم بستانكم الجنة ومن جنى النارنج نارا جنى

وقال ابن جابر المذكور :

قل بحق الهوى سمحت بوصلي ربة القلب أم نهاك الرقيب
رمت نيل الوصال منها فقالت لك وصل غدا فقلت : قريب

وقال :

زيت الخلد منه صدغ كتون قد بدا تحته ضلار كلام
قلت هذي عاسن ابن هلال فانشى وهو ضاحك من كلام

وقال :

لما حُسن لها عن كل شيء به قلبي ، فما أنا أستيق
على وجنتها نعمان يلدو لنا وشفاها من العقيق

وقال :

تمر في ذكركم ، والله ، أحباني ولو سرى طيفكم ليلاً لأحياي
لا يعذب العيش لي بعد العذاب ولا نعيم مثل ليالينا بنعمان

وقال :

مدارة هذا الخلق أوليك بينهم صفات هي الأعمار والنظم دارات

وشاراتُ حمدٍ المرء أن لا تُرى له
على الناسِ ممّا لازمَ الحلمِ داراتُ
وقال :

أرى كدأً سعيي إلى خاملٍ ، ولو
أراكَ مدّى في فرقدٍ بلغ السها
وما الخيرُ يوماً من لئيمٍ بممكنٍ
وإن كان منه الخيرُ يوماً فقد سها
وقال :

أرى حَيْدِي عن كلِّ طارئٍ نعمةً
فمن أخذَ المعروفَ من غيرِ أهله
أراحَ يدي من أن يُقَيِّدَها الذلُّ
تروحُ الليالي وهو في عُنُقِهِ غُلُّ
وقال :

شبا لحظيها الماضي وحسنُ شبابها
كثيبُ النقا من ردفها ، وقضيئهِ
هُما حملاً نفسي من الوجدِ ما بها
لمطفها ، والبدرُ تحت نقابها
وقال :

حلَّ عقْدَ الصبرِ مني عِقْدُها
نحسبُ الدُرَّ على لَبَّتِها
إذ نبتَ قلبي بما في قلبيها
أنجماً قد كَلَّلَ البدرُ بها
وقال :

شعرٌ كالليلِ يَبْدُو تحتَه
نَقلُ المسالكِ عن ميسمه
قمرٌ قد حارَ شعري في صفائه
أن ماءَ الوردِ يجري من لثائه
وقال :

منْ منْ تلكَ اللحاظِ فاتَّبعتْ
تقتلُ عشاقها بلا سببٍ
من سُنَّةِ الحبِّ كلَّ متبِعٍ
وذاك في الحبِّ غيرُ متبِعٍ

وقال :

وما شجُوَ صالٍ لوعةَ الهجرِ قد قضى زمانَ وصالٍ لم تُكْدَرْ مشاربه
كشجوٍ عجبٍ لم يُلْقَ لذَّةَ الرضى ولا باتَ والغيدُ الحسانُ تلاعبه

وقال :

سَرَتْ في رحالِ العيسِ منه أهلةٌ فأبسرُ حالٍ أن أزودها قَلْبِي
بعيشك قبلَ لي هل دروا كيف علّتي وفيضَ دموعي بعدَ مُتَصَرِّفِ الركبِ

وقال :

مَنْ جنى باللحاظِ زَهَرَ المعاني من جَنَابِ الحمى إذا الناسُ قاموا
هو قدْ نالَ كلَّ ما يتمنى وسَعَتْ في مُرادِهِ الأيامُ

وقال :

لطائفُ حسنِها يربوعُ قَلْبِي لطائفُ أَلْجائَتِي للفرامِ
تريك تكاسلاً في اللحظِ منها لتحسبه تَنْبَهَ من مَنامِ

وقال :

إذا زُرْتَ حَيًّا بالعقيقِ فحيِّهم وذكرهمُ عهدِي وحقَّ ودادي
حرامُ فراقِ العيسِ حتى تُحلّتي بواديهِ من تلك الوجوهِ بوادي

وقال :

مِنْ فُرطَ ما في الطرفِ من فتنةٍ قدْ غلبَ الحبُّ على النَّاسِ
قالتَ تسبَّتَ العهدَ قلتُ اكفني عني فَمَا عسلِكِ بالنَّاسِ

وقال :

بينَ نعمانٍ وسَلْعٍ مَلَأَ ليسَ منهمْ لمحبةِ أَلَمُ
كَلَفِي منهمْ بِسَلْعٍ حَلَّ في فَلَكَ العِلْيَاءُ فاعْرِفْ مَنْ هُمُ
وقال :

أراقبها وحينَ أرى سَيِّلاً أقاربها فتَنفِرُ كالغزالِ
وقالت أَنتَ مرتَقِبٌ لماذا فقلتُ لها : ارتقابي للهِلالِ

وله من قصيدة مطوّلة في فضائل الصحابة العشرة وأهل البيت ، فمما
يختص منها بأبي بكر رضي الله تعالى عنه قوله :

فمنهم أبو بكر خليفته الذي	له الفضل والتقديم في كل مشهد
وصديق هادي الخلق والمؤثر الذي	لإتفائه للمال في الله قد هُدي
وصهر رسول الله ، وابنته التي	يرثها نص الكتاب المُجدد
وصاحبه في الغار إذ قال لا تخف	فثالثا ذو العرش أوتق منجد
وسد على المختار مخرج حية	هناك برجل منه فازت بأسد
وفيه وفي خير الأنام تسامعوا	بمكة صوت الحاتف المتقصد ^١
« جزى الله رب الناس خير جزاه	رفيقين حلاً خيمتي أم معبد ^٢ »
وحتى بلالٍ حبه ، فهو سيد	تأثّل في الإسلام ، إعناقُ سيد

١ يقال إن أهل مكة سمعوا بحد هجرة الرسول ومعه أبو بكر هاتفاً يقول : جزى الله ... إلخ
البيت الثاني ؛ وقد مر الرسول وصاحبه بخيمتي أم معبد حاتكة بلبت غالة بن خليف الخزاعية فقالا
صندعا ، ويقال إنها ذبحت لها شاة وطبختها (انظر إنتاج الأصاح : ٣ : ٤٣ وحيون الأثر ١ : ١٨٨ -
١٨٩) .

٢ رواية البيت في حيون الأثر (١ : ١٨٨) :
جزى الله خيراً وأجزاء بكفه رفيقين قالاً خيمتي أم معبد
وقد وردت الرواية المثبتة في النفع مع وضع « قالاً » موضع « حلاً » في ص : ١٨٩ من الكتاب
المذكور .

وقال رسولُ الله إنَّ أُمَّتَكُمْ
فصدَّقْ إذْ كُذِّبَتْ ، وأطاعْ إذْ
ولو أنْتِ من أُمَّتِي كُنْتَ أَخِي
لكان أبو بكر ، ولكن أُخُوَّةٌ
فلما أراد الله قَبْضَ نَبِيِّهِ
تقدم في نيلِ الخلافةِ بَعْدَهُ
وقد فارقتْ يومَ السقيفةِ فرقةٌ
وقام عليٌّ بَعْدَ ذَلِكَ مَبَايَعاً
وأظهرَ علناً في تَأْيِيدِهِ صَادِقاً
فَأَبى بِمَحْمَدٍ مِنْهُمْ غَيْرَ قَاصِرٍ
وما أشبه الصديقَ في الفضلِ مشبهٌ
عليٌّ أبو بكرٍ وأوفى بِمَوْعِدٍ^١
عَصِيمٌ ، ووَافاني موافاةً مُسْعِدٍ
خَلِيلاً تَوَلَّى خَطْبِي وتودَّعِي
في الإسلامِ مَهْمَا تَنْقُصُ النَّاسُ تُزِدُنِي^٢
وصار إلى دارِ النعيمِ المخلَّدِ
بِرِجْمَاعِهِمْ لا بِالْحِسَامِ المَهْنَدِ
فلما رآته الحقُّ لم تَرُدِّ
فَأَنْتِ ثَنَاءَ المخلصِ المتودِّدِ
وبابِ طَوْعاً لا لِفَقْدَانِ مسندِ
ومن يتبعِ الإنصافَ والحقَّ يُحْمَدُ
ولا أَحصيتُ أوصافُهُ بَعْدَ دِ

وبما يخصُّ بعمرِ رَضِي اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَوْلُهُ من هذه القصيدة :

ويُتِمُّهُ في فضله عُمُرُ الذي
رمى عن قسيِّ الصديقِ قوسَ مُسَدِّدٍ
وما كلُّ مَنْ رَامَ السَّعَادَةَ نَالَهَا
ولكنَّهُ مَنْ يُسَبِّحُ اللهَ يُسَمِّدُ
هو المرءُ لم يتركْ له الحقُّ صاحباً
ولا تعدِ الشيطانُ مِنْهُ بِمَقْعَدِ
ولأَسْلَكِ الشيطانُ فجأً قد اغتدى
لَهُ سَالِكاً من خوفِهِ المتريِّدِ
ومنْ ظَلَّهُ قد كان يَنْفُرُ هَيْبَةً
لَهُ حَيْثَمَا أَضْحَى بِرُوحٍ وَيَنْفَتِدِي^٣

- ١ يشير إلى الحديث : « ما من أحدٍ أعظمَ عندي يداً من أبي بكرٍ وأساني بنفسه وماله » رواه الطبراني ، وفيه أخطاء أبو حاتم وهو ضعيف (جمع الزوائد ٩ : ٤٦) .
٢ هو تعبير عن الحديث : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكرٍ ولكن إخواناً ومودةً إلى يومِ القيامة » رواه الطبراني ، وفيه تهليل بن سعيد وهو متروك (المصدر السابق ٩ : ٤٥) .
٣ في الأحاديث : « إن الشيطانَ لم يلقَ عمرَ منذ أسلمَ إلا غرَّ لوجهه » (جمع الزوائد ٩ : ٧٠) وهناك أحاديث أخرى في خوفِ الشيطانِ منه ؛ وفي صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) : « واللي نفسي بيده ما تليقُ الشيطانُ قط سالكاً فجأً إلا سلكَ فجأً غيرَ فجئك » .

وقد جاء عنهم : ما برحنا أمةً
ومن قولهم : إسلامه كان غرة
وامرته كانت على الناس رحمة
ومن فضله رهي النبي بشيرة
وقد قيل للفاروق : هذا ، ومن به
فأقبل يبكي قائلاً كيف غيرتي
ورؤيا رسول الله للقدح الذي
واناوله الفاروق من بعد ما ارتووا
فأولهُ العلم الذي منه ناله
فصارت له غرباً فأروى بها الورى
ورؤياه أيضاً في قميص يجره
فأولَ خير الخلق طول قميصه
وتفريقه ما بين حق وباطل
وسمي بالفاروق من أجل هذه
وحسبك أن الله وافق رأيه
كذا في أذان الحجاب وجعلهم

بإسلامه فانكف من كان يعتدي
وهجرته فتحاً شجاً كل ملحد
فأبوا إلى فتح وجزء مسهد
له فأنشئ عن قصره التشيد
فأنباه عن ذا النعم المؤيد
عليك ، ولولا أنت ما كنت أعتدي
تناول من در به غاية الصدي
إلى أن غدا من ظفره الري يبتدي
وأول رؤيا الدلو حسن التأيد
فكان افتتاح الأرض فتح مسهد
ولناس قمص بعضها يبلغ الشدي
بما حاز في إيمانه من تأيد
بيوم سقى الكفار أظف مود
وما زال في نص الهدى ذا مجلد
لدى يوم بدر إذ رأى قتل من فدي
مصلتي مقاماً للخليل بمسجد

- ١ يشير إلى الحديث : دخلت الجنة فرأيت فيها داراً أو قصرأ فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمري بن الخطاب ، فأردت أن أدخل فذكرت غيرتك ؛ فيكي حمر وقال : أي رسول الله ، أولئك ينفار ؟ (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٣) ورد في الحديث بصورة أخرى وانظر مجمع الزوائد ٩ : ٧٤ .
- ٢ عن ابن عمر عن النبي (ص) أنه قال : بينا أنا نائم إذ رأيت قمصاً أثبت فيه يمين فشربت حتى لأرى الري يجرني فأظفيري ثم أصطبت فضلت عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .
- ٣ عن أبي سبيح عن النبي (ص) قال : بينا أنا نائم رأيت الناس يمرضون علي ولهم قمص منها ما يبلغ الثدي ومنها ما هو أسفل من ذلك ، وعرس علي حمر وعليه قميص يجره . فقال من حوله : ما أولت يا لبي الله ذلك ؟ قال : الدين . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .
- ٤ عن عمر أنه قال : وافقت ربي في ثلاث : مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر (وانظر =

شديدٌ على أهلِ الهوى رحمةٌ لمن
عن الحقِّ لمْ يَمْنَحْ ولم يَتَحِدَّ
ومِمَّا رَوَوْا أَنَّ كَانَ فِي أُمَّةٍ فِي
يُحَدِّثُ فَالْفَارُوقُ مِنْ ذَلِكَ فَاعْدُوا
ولدين الهدى ذو ملهٍ لم يسدِّدْ
ومِمَّا يَخْتَصُّ بِعِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَوْلُهُ :

وحسبي عثمانُ بنُ عفانٍ أَنَّهُ
إمامٌ صبورٌ للأذى وهو قادرٌ
هو الجامعُ القرآنَ والقائتُ الذي
ويقطعُ بالصومِ النهارَ وينتهي
وقال رسولُ الله في بئرِ رومةٍ
لَهُ ابْنَةُ الْعَلِيَّا بِذَلِكَ فَاشْتَرَى
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ إِذْ بَجَاءَهُ بِمَا
هِنِيئًا لِعِثْمَانَ بْنِ عِفَّانٍ فَصَلُّهُ
وقولُ "أَلَا أُبَدِي حَيَاءً لِمَنْ لَهُ
وَبَلَّغَ بَشَرِي الْمَاشِئِي" بِأَنَّهُ
ولكن على بلوى ، وقال سَأَرْتَضِي

عليه اعتمادي وهو سؤلي ومقصدي
حليمٌ عن الجاني جميلُ التعودِ
إِذَا جَنَّ لَيْلٌ لَيْسَ بِأَوْيَ لَمْ يَرْقَدْ
مدى ليله في خشيةٍ وتبجّدِ
أما مشيرٌ يبغي بها الأجرَ في غدِ
وتجهيزُ جيشِ العسرةِ اذْكَرْ وَعَدُّ
قد احتاج من مالٍ وفلتهز وأعبُدْ
وما ضرَّهُ ما بعدُ مع هذه اليدِ
قد استحييتِ الأُمْلَاكُ أَشْرَفُ عَهْدِ
من ابنةِ العليَّا بأكرمٍ مَقْعَدِ
وأصبرٌ صبرِ الطالعِ المتجلدِ

١ - تفصيل ذلك في الرياض النضرة ١ : ٢٦١ وما بعدها وانظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤ .
٢ في صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد
فإن صر من الخطاب منهم ؛ قال ابن وهب في تفسيره محدثون : ملهون . وانظر الرياض النضرة
١ : ٢٦٠ .

٢ من فضائل عثمان أنه جهز جيش العسرة بقسمائة وخمسين بغير أتم ألفي بضمين فرساً (وقيل
أكثر من ذلك) وقال فيه الرسول « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » - وهو حديث حسن غريب -
وأنه اشترى بئر رومة بمشرين ألف درهم (انظر الرياض النضرة ٢ : ١٢٠ - ١٢٢) .
٣ يشير إلى الحديث الذي ينص على أن الرسول (ص) كان مضطجاً في بيته كاشفاً عن فخذه أو
ساقه ، فاستأذن أبو بكر ثم عمر ، وهو على تلك الحال ، فلما استأذن عثمان جلس وسوى ثيابه ، فلما
سئل في ذلك قال : « ألا استحيي من رجل تمسحي منه الملاكة ؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤ - ٢٣٥) .

فأظهر يوم الدار صبر أولي الشئ
ولم يرض ، صونا للقاء ، بحرهم
فمات شهيداً صابراً فهو خير من
على بنى المختار أرعى مستوره
ولم يدع ذا النورين إلا لأخته
وإن لعثمان بن عفان رتبة
ومما يختص بعلي رضي الله تعالى عنه قوله :

وإن علياً كان سيف رسول
وصهر النبي المجتبى وابن عمه
وزوجه رب السما من سمائه
بخير نساء الجنة الغر سودداً
فباتا وحكي الزهد خير حلاهما
فأثرت الجنة من حلال ومن
وما ضر من قد بات والصوف ليسه
وقال رسول الله إني مدينة
ومن كنت مولاه علي وليه
وإنك مني خالياً من نبوة
وقال غداً أعط اللواء محياً
فباتوا وكل يشتهي أن ينالها
فنادى علياً ثم أبرأ عنه
فأعطاه إياها وقال له اذهبهم

أخبار في هذا البيت وما سبقه إلى أحاديث في فضائل علي منها : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » و « من
كنت مولاه فعلي مولاه » ومنها « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .

فجذل منهم من جنى عندما دعا
وقاتل طول اليوم والباب ترسه
فأعجزهن الباب من بعد عشرة
وكان من الصبيان أول سابق
وجاء رسول الله مرتضياً له
فمسح عنه التراب إذ مس جلده
وقال له قول التلطف « قم أبا
وفي ابنه قال المصطفى ذان سيدي
وأرسله عنه الرسول مبلغاً
وقال هل التبليغ عني ينبغي
وقد قال عبد الله للسائل الذي
وأما علي فالتفت أين يته
بأمرين من حرّ وبرد فلم يجد
وما زال صواماً منياً لربه
فتنوعاً من الدنيا بما نال ، معرضاً
لقد طلق الدنيا ثلاثاً ، وكلنا
وأقربهم للحق فيها وكلهم

إلى الحرب دعوى الفاتك المتمرد
يجرّ به للقوم في كل مرصد
فما الظن في هذا القوي المؤيد
إلى الدين لم يسبق بطائع مرشد
وكان عن الزهراء بالمشرد
وقد قام منه ألفاً للتضرد
تراب « كلام المخلص المتودد
شبابكم في دار عز وسودد
وخص بهذا الأمر تخصيص مفرد
لمن ليس من بقي بالقوم فاقتد
أتى سائلاً عنهم سؤال منده
وبيت رسول الله فاعرفه وأشهد
أذى بردها أو حرّها المتوقد
على الحق قواماً كثير التعبد
عن المال ، مهما جاءه المال يزهد
وأما وقد جاءت يقول لها ابعدني
أولو الحق لكن كان أقرب مهتد

ومنها في ذكر السبطين رضي الله تعالى عنهما :

- ١ قص في هذه الأبيات إعطاء الراية لعل يوم محير : « لأصلين الراية غداً رجلاً يفتح الله حل يديه »
ثم سأل من حل فقيل : إنه يشتكي حيله ، فأرسلوا إليه ، فلما جاء يصرق في عينيه ودعا له فبرىء
سقى كان لم يكن به وجع ، وفي الهجوم حل الحصن طرح ترسه وتناول باباً عند الحصن فترس به
نفسه . . . إلخ . (الرياض النضرة ١ : ٧٤٢ - ٧٤٧) .
٢ في سبب تلقيب علي بابي تراب انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣٨ .

وبالحسينين السيدين توسلي
 هما قرنا عين الرسول وسيدا
 وقال : هما ريحانتي ، أحب من
 هما اقتسما شبه الرسول تعادلا
 فمن صدره شبه الحسين أجله
 وللحسن السامي مزايا كقوله
 سيصلح رب العالمين به الوري
 وإن تطلبوا ابنا للتي فلن تروا
 بدا سيداً ظهر الرسول قد ارتقى
 فقالوا له طال السجود فقال لا
 وكان الحسين الصارم الحازم الذي
 شبه رسول الله في لباسه والندى
 لمصرعه تبكي العيون وحشها
 فبعداً وسحقاً لليزيد وشيمه
 يجدهما في الحشر عند تفردي
 شباب الوري في جنة ومخلد
 أحبهما ، فاصلةهما الحب تعد
 وماذا عسى يحصيه منهم تعددي
 وللحسن الأعلى وحسبك فاعدد
 هو ابني هذا سيد وابن سيد
 على فرقة منهم وعظم قبلد
 سواي : مقال منه غير مفند
 فقرر ولم يعجبه وهو بمسجد
 ولكنما ابني خفت إن قمت يشردا
 متى يقصر الأبطال في الحرب يشدد
 وخير شهيد ذاق طعم المهند
 فله من جرم وعظم تمرد
 ومن سار مسرى ذلك المقصد الردي

ومنها في ذكر حمزة رضي الله تعالى عنه :

ومن مثل ليث الله حمزة ذي الندى
 فكم حز أعناق العدا بسيفه
 فقال رسول الله : هذا أمرته
 وقال أبو جهل : أصبت محمداً
 مبيد العدا مأوى الغريب المطرد
 وذبح عن المختار كل مشدد
 ولي أسد صار لدى كل مشهد
 بما ساءه فاهتر هزة سيد

١ إشارة إلى الحديث : إن ابني هذا سيد وليس من الله به بين اثنين من المسلمين عظيمين . (مجمع

الزوائد ٩ : ١٧٨) .

٢ انظر الخبر عن الحسن كيف جاء وهو قتل قصد على ظهر النبي وهو ساجد . (المصدر السابق

جس : ١٧٥) .

وأمرى له بالقوس ما بين قومه ، وقال له : إني على دينه فإن فذل أبو جهل وأبدى تطفلاً فعاد وقد نال السعادة . واهتدى وفي يوم بدر حث عند سؤالهم لمن كان لإسلام بزيش نعمة فذاك الذي والله قد فعلت بنا وفي أحد نال الشهادة بعدما ففاز وأضحى سيد الشهداء في وصلى رسول الله سبعين مرة وقال : مصاب لن نصاب بمثله وأسمعهم لكن حمزة ما له نوالحه وزاد إلى فضل العمومة أنه وما زال ذا عرض مصون عن الأذى كريم متى ما أوقد النار للقرى

وقال : وأخرى بالحسام المهتد أطلقت فرج عن طريقي واردد ومن يصبر الحق المئين يؤدأ وأضحى لدين الله أكرم مسعد لما شهلوا من بأسه المتوقد يشرذنا مثل النعام المشرذ أفاعيله في الحرب ما لم نعود أذاق سباعاً للردى شر مورد ملائكة الرحمن يسمى ويقتدي عليه إلى ثنتين عند التعدد وإن كان لي يوم ساجزي بأزيد وبشر بالنار النوايح ما عدي وقلن يا أمين اسعدي أخوه رضاعاً هكذا المجد فاشهد ومال مهان في العطايا مهدد وتجدد خير نار عندها خير موقد ٢

ومنها في ذكر العباس رضي الله تعالى عنه :

- ١ يتحدث عن إسلام حمزة بعد أن سمع أن أبا جهل أساء إلى النبي فجهاد إلى أبي جهل بفناء الكعبة ، وجع يديه بالقوس وضربه بها فيقال إن أبا جهل قال له : « ما كنت يا أبا صبرة فاحشاً » وحل أثر هذه الحادثة أعلن إسلامه . (مجمع الزوائد ٩ : ٢٦٧) .
- ٢ تتحدث كتيب البيرة بإسهاب عن استشهاد حمزة يوم أحد حل يد وحشي ، وحزن النبي عليه ، وصلاته عليه كلما صل حل شهيد من أمته ، وقوله « لكن حمزة لا يواكي له . . . » وقوله « إن أصاب يظك أبداً » .
- ٣ شطر بيت لعلية (ديوانه : ٥١) وصدره : متى تأته تمشوا إلى ضوء ناره .

وقد بلغ العباس في المجد رتبة
 ألا إنه فضل السقاية قد حوى
 وكان طويل الباع في الباس والتدنى
 ويوم حنين ليس ينسى ثباته
 وقال رسول الله فيه علي ما
 ألا إن هم المرء صنو أبيه كي
 وبشره أن الخلافة في الوري
 بشيئه استسقوا إذ المحل شامل
 ففجاءهم غيث سقى كل فلد
 تقول لبلد التم : قصرت فابعد
 فكان لوفد الله أكرم مورد
 كريماً متى يسترد القوم يرفد
 ودعوه مستجداً كل منجد
 عليه وأيضاً مثله في التزيد
 يزيدهم في بره المتأيد
 لأولاده من سيد ومسود
 فجاءهم غيث سقى كل فلد

انتهى ما وقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة ، وليس بيدي الآن ديوان
 شعره حتى أكتبها بكمالها فإنها مناسبة لهذا الباب الذي جعلناه ختماً للكتاب
 كما لا يخفى .

ومن مقطعات ابن جابر :

شفقت بها حيناً من الدهر لم يكن
 وما أصل هلسا كله غير نظرة
 سوى سكب دمي في محبتها كسبي
 إلى مقلة منها أضعت لها قلبي

وقال :

قد بان حلري في ملبح له
 لاني على المنجر مطيع له
 خطا رشاً يلحظ من دُعر
 ممثل في السر والجهر

وقال :

هذا الرشا يقتص ليث الشرى
 لو عارض الماذل يوماً له
 بنظرة منه فلا مختص
 لكان من أول ما يقتص

وقال :

ظبية في ثفرها لتعس^١ يُجتنى من رشفه حسل^٢
سبكك التيه^٣ بمقلتها مسلكا قد زاته كسل^٤

وقال :

رغم الحال خدّها فرأينا قمر الأفق فيه نقطة ليل^١
قلت: أين الكيب والنصن^٢؟ قالت : كل^٣ ما قد ذكرته تحت ذيل^٤

وقال :

إن خفت من فتك المهند والقنا - فإذا ركت وإذا مشيت لا تقرب^١
في قلب برقعها محاسن^٢ أنزلت قمر السماء لنا بقلب القرب^٣

وقال :

رأى علوي حُسنتها بعدما حَقَّق كوفي للهوى جانحا^١
فقال إن كنت محبا لها فقد حمدنا وأيك الناجحا^٢

وقال :

ذكر الله بالمريّة عيشا^١ لست عن ذكره الجميل أحول^٢
طال عهدي بها وما دمت حيا^٣ لا يزيد الرجاء بل قد يطول^٤

وقال :

مرت ليال بالمريّة طالما قضيت من ليل بين^١ ما ربا^٢
لم أسأل عن تلك الديار وإنما جعل القضاء لكل نفس غالبا^٣

وقال :

لا تَحْقُقِي عَنِ الْعَقِيْقِ فِلَاتِي بَيْنَ أَكْثَانِهِ تَرَكْتُ قَوَادِي
وَعَلَى تَرْبِهِ وَقَفْتُ دُمُوعِي وَلِسُكَّانِهِ وَهَبْتُ وَدَادِي

وقال :

عَرَفَ الْمَنْزَلَ الَّذِي دَارَ فِيهِ زَمَنُ الْأَنْسِ وَالشَّابِّ النَّصِيرِ
فَسَجَاهُ قَلْبُ التَّلَاقِي فَرَاغًا وَانْثَى عَنْهُ ذَا قَوَادِرٍ كَسِيرِ

وقال :

جَمَالُ هَذَا الْغَزَالِ سَحَرٌ يَا حَبْلًا ذَلِكَ الْجَمَالُ
هَلَالُ خَدَّيْهِ لَمْ يُغَيِّبْ عَنِّي وَإِنْ غُيِّبَ الْمَلَالُ
غَزَالُ أَنْسٍ يَصِيدُ أَسَدًا فَاصْجُبْ لِمَا يَصْنَعُ الْغَزَالُ
دَلَالُهُ دَلٌّ كُلُّ شَوْقٍ عَلَيَّ إِذْ زَانَتْهُ الدَّلَالُ
كَأَنَّهُ لَا يَخَافُ قَصَا دَامَ لَهُ الْحَسَنُ وَالْكَمَالُ
نِبَالُهُ قَدْ رَمَتْ قَوَادِي يَا حَبْلًا تَلْكُمُ النَّبَالُ
حَلَالٌ وَصَلِي لَهُ حَرَامٌ وَحَكَمَ قَتْلِي لَهُ حَلَالُ
زُلَالُ ذَاكَ الْحَبِي حَيَاتِي وَأَيْنَ لِي ذَلِكَ الزُّلَالُ
قَتَالُهُ لَا يَطْلُقُ لَكِنْ يَعْجِبُنِي ذَلِكَ التَّنَالُ

وقال :

بَيْنَ تِلْكَ الْخِيَامِ أَكْرَمَ حَيٍّ طَرَبْتُ لِلنَّدَى عَلَيْهِمْ نِيَامُ
قَدْ أَقَامُوا بَيْنَ الْعَقِيْقِ وَسَلَمٍ فَجَاءَهُ الثُّغُورُ حَيْثُ أَقَامُوا

وقال :

إِذَا جِئْتَ نَجْدًا كَرَّمَ اللَّهُ عَهْدَهُ فَلَسَّمْ عَلَى أَهْلِ الْمَنَازِلِ مِنْ نَجْدِ

لئن حال بُعدُ النارِ بيني وبينهم فلا تبي لأرعاهمُ على ذلك البعدِ

وقال :

خَجَلْتُ عندما نظرتُ إليها وانثتَ وَهْيَ بينَ نَيْسِهْ ومنعِ
إنما وَرَدُ عَهدُها زرعُ طرفي حينَ مروا فكيفَ أحرَمَ زرعِي

وقال :

لكَ نفسِي إذا بَدَتْ لَكَ نَجْدُ فَلَقَدَ سَرَّني الزَّمانُ بِنَجْدِ
فلتلكَ الخيامِ عِنْدِي عهدُ وأبى الله أنْ أَضَيِّحَ عهدِي

وقال :

سَلِّ عن القومِ إنْ بَدَتْ لَكَ سَلَمُ فَمَقْرُودِي عِنْدَ الدِّينِ بِسَلَمِ
لي على تَلَكُمُ المَعاذِ دَمْعُ كادَ يُغَيِّ بِها عَنَ التَّ دَمْعِي

وقال :

صَفَحُوا عَنَ عَجبِهِم وأقالوا من عَثارِ النوى وَمَتَّوا بِوَصْلِ
لستُ أَسْتَوِجِبُ الوِصالَ وَلَكِن أَهلُ تلكَ الخيامِ أَكْرَمُ أَهْلِ

وقال :

مالَ الزَّمانُ بِهِمْ عَنِّي وَقَدَ بَعَدُوا لِمَ يَلْهِي عَنْهُمْ أَهْلُ ولا مالُ
إِنِّي لأَحْشَى وما الأَيامُ طَوْعُ يَدِي أَنِّي أَمُوتُ وَلِي في القَلْبِ آمالُ

وقال :

بَيْنَ وادِي النِّقا وَبِانِ المُصَلَّى مَلَأَ أَلْبَسُوا الوجودَ جَمالاً
إِنْ يَكُنْ قَدَ نَوَى لِي الدَّهْرُ قَرَباً مِنْهُمْ فَهُوَ قَدَ كَفَّانِي نَوالاً

وقال :

زرتُ الديارَ عن الأحبةِ سائلاً ورجعتُ إذلالاً بلسنٍ سائلاً
ونزلتُ في ظلِّ الأراكَةِ قاتلاً والربيعُ أخرسُ عن جوابِ القاتلِ

وقال :

لا أوحشُ اللهَ المنازلَ منهمُ منهمُ غدت تلكَ الديارُ حسانا
فاشكرْ لدهركَ أن أراكَ بحاجرٍ بأن الحمى وأراكهُ قد بانا

وقال :

لكَ يا واديَ العقيقِ حلتينا كلُّ ما شئتَ من خمامٍ وثيقٍ
فمن السرِّ أنني أنبري من عقوقٍ لمتلٍ بالعقيقِ

وقال :

يا أهلَ ذي سَلَمٍ بشرى مستلمٍ ذاكَ الثرى مُقَدَّمٍ في السيرِ لم ينمِ
يؤمُّ داراً بها خيرُ الورى حسباً الخاتمُ الرسولِ من عُرْبٍ ومن عجمِ

ولنتقتصر من كلام ابن جابر في هذا الموضع على هذا المقدار ، وإنما أطنبت فيه لما تقدم من الاعتراض على لسان الدين في عدم توفيقه بحق المذكور وحق رفيقه ، مع أنه أطال فيمن دونهما من أهل عصره ، وأيضاً فإن كليهما غريب عندنا بالمغرب ، لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهرا كل الاشتهار ، وكان خبرهما في الشرق أشهر .

[من شعر رقيق ابن جابر]

وأما رفيقه شارح بديعته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع بعض حاله وكلامه ، ولننْزِدْ هنا ما تيسر ، فنقول : من نظمه :

لما حذا في الناس عقربٌ صُدغها كَفَتْ أَذَاهُ مِنَ الْوَرَى بِالْبَرْقِعِ
وَالصَّبْحُ نَحْتَ خِمَارِهَا مُتَسَرِّ عَنَّا مَنَى شَامَتْ قَوْلُ لَهْ أَطْلَعِ

وقال :

تَجَنَّتْ فُجْنٌ فِي الْمَوَى كُلُّ عَاقِلٍ رَأَاهَا وَأَحْوَالُ الْمَحَبِّ جُنُونُ
وَمَا وَعَدَتْ إِلَّا عَدَّتْ فِي مِطَالِهَا كَلِّكَ وَعَدُّ الْغَانِيَاتِ يَكُونُ

وقال :

لَا تَجِدُوا فِي الْمَوَى حِلَّ كَلَفٍ نَظِيرُهُ فِي الْغَرَامِ لَنْ يَجْعَلُوا
لَهْفَانُ مَا يَشْتَكِي إِلَى أَحَدٍ ظَمَانُ غَيْرِ الدَّمْعِ لَا يَرُدُّ

وقال :

رَبِّ لَيْلٍ قَطَعَتْهُ بِالْخَزِيرَةِ فَتَذَكَّرْتُ أَهْلَنَا بِالْخَزِيرَةِ
قَصَّرَ الْأَنْسُ مَا تَطَاوَلَ مِنْهُ وَكَلَدًا أَزْمَنُ السَّرُورِ يَسِيرِهِ

قال : والخزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمى بالعاصي ،
والثانية جزيرة الأندلس .

وله أيضاً :

وَمَا لِي وَالتَّرِينَ يَوْمَ عِيدٍ وَجِيدُ صِبَايَ بِالدَّمْعِ حَالِي
وَقَدْ أُرْسَلْتُ أَشْهَبَهَا بِرَيْدًا وَبَعْدَ كَيْتِهَا بَيْنِي بِجَالِي

والمراد بالأشهب الدمع الذي لا يشوبه شيء ، وبالكميّ الدمع المشوب
بالدم ، قال رحمه الله في شرح البديعة وقد ذكر العقيق بعد كلام ما نصّه :
قلت : وكان هذا الوادي المبارك زمن عثمان رضي الله تعالى عنه ذا قصور محضّة ،
وحدات ملصقة ، وبنيان مشيد ، ونخل طلعه نضيد ، وجنات توفّي أكلها كل حين ،

وسواقٍ تجري بهِ بماءٍ مَعِينٍ ، ثم لعبت بهِ أيدي السنين ، وغيرت معالِه
فصار عبرةً للناظرين ، فلم يبقَ من مَعاهدِه إلا آثارٌ تشهد بحسنه ، ونفْرةٌ نعيم
تدلُّ على ما سلف من نضارةٍ غصنه ، وقد خرجنا إلى هذا الوادي أيام مجاورتنا
بالمدينة الشريفة ، وهو يتدفق بمائه ، ويعارضُ بجوهر حَبابه أنْجَم سماه ، وقد
سالتُ شعباه ، وفاض حَبابه ، والناسُ تفرقوا في جهاته ، وافرشوا غُصنُ نباته ،
والشَّيخُ قد توشَّحَ بالندى ، والأُنسُ قد راحَ بهِ وغدا ، والأصيلُ ملحَبُ الرداء ،
والبيداءُ مخضرةُ الأنداء ، وبما فته آثارُ قصور ، ليس لها في الحُسنِ قصور ، قد
بكيتُ وحسنها جليل ، وغربت وربَّها بالأنسِ مَشِيد ، انتهى .

ومن بليغ نظمهِ قوله :

مهلاً فما شِئِمُ الوفا مضادةً لَمَنْ ابْتغى من نيلها أوطاراً
وَكُتِبَ المعالي لا تُنالُ بحيلةٍ يوماً ولو جهد القى أو طاراً

وقوله رحمه الله تعالى :

على وادي العقيق سكبتُ دمي بلا عينٍ فيبدو كالعقيقِ
فكم غُصْنٍ وريقٍ منه يُحكى قوامَ رشا شهي فمٍ وريقِ

وقال :

سألتك بالله يا مَنْ غدا يصرفُ بالقلبِ أفعاله
تداركُ حباً بدرياقٍ وصل فإنَّ بعاهك أُنمى له

وقال :

لا تأمننَّهُ على القلو بِفِتْنَةٍ أصلُ غرامها
فلحافظه من القى رَمَتْ الوري بهلها

ومن فوائده رحمه الله تعالى في شرح البديعة ما نصّه : ومن غريب ما في

« لَدَيَّ » أن أبا علي حكى في تذكرته عن المفضل أنها أتت بمعنى « هل » وأنشد :

لَدَيَّ مِنْ شَبَابٍ يَشْتَرِي بِمَشِيبٍ وكيفَ شَبَابُ الْمَرْءِ بَعْدَ ذَهَابِ ١٢

رجع - وقال رحمه الله تعالى يتشوق إلى حمراء غرناطة :

ذَابَتْ عَلَى الْحَمْرَاءِ حُمْرُ مَدَامِي وَالْقَلْبُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ ذَائِبُ
طَالَ الْمَدَى بِي عَنْهُمْ وَلَرَبَّمَا قَدْ عَادَ مِنْ بَعْدِ الْإِطَالَةِ غَائِبُ

وقال :

مَا هَبَّ مِنْ نَحْوِ السَّيِّكَةِ بَارِقُ إِلَّا غَدَا شَوْقِي لِقَلْبِي شَابِكَا
وَاللَّهِ مَا اخْتَرْتُ الْقِرَاقَ لَرَبْعَهَا لَكِنْ قَضَاءُ اللَّهِ أَوْجَبَ ذَلِكَ

وقال :

مَنَازِلُ سَلَمَى إِنْ خَلَّتْ فَلَطَالُمَا بِهَا عَمَرْتُ فِي الْقَلْبِ مَنِي مَنَازِلُ
رَسَائِلُ شَوْقِي كُلُّ يَوْمٍ تَرَوُّرَهَا وَمَا ضُيِّعَتْ عِنْدَ الْكَرَامِ الرِّسَالُ ١٣

وقال :

يَجُوزُ الْوَدَاعَ لَنَا مَوْقِفُ أَذَابَ الْقَوَادِ لِأَجْسَلِ الْوَدَاعِ
فَمَا أَنَا أَنَسَى غَدَاةَ النَّوَى وَحَادِي الرِّكَابِ لِلْبَيْنِ دَاعِي

قال : وجوز الوداع موضع بظاهر غرناطة ، عادة من سافر أن يودّع هناك .

وقال :

نَاولَتْهُ وَرْدَةً فَاحْمَرُّ مِنْ خَجَلٍ وَقَالَ : وَجْهِي يُنْفِنِي عَنِ الزَّهْرِ

١ ق : ذميب .

٢ ق : الوصال .

الخلد وردة ، وعيني نرجس ، وعلى خدتي عinar كرماني على نهر
وقال رحمه الله تعالى في التشريع :

يا راحلاً يعني زيارة طيبة نلتَ المشي بزيارة الأخيار
حيّ العقيق إذا وصلت وصف لنا وادي مني بأطياب الأخبار
وإذا وقفت لدى المعروف داعياً زالَ العنا وظفرت بالأوطار
وقال :

يا أولاً في المرسلين وآخرأ الله خصك بالكمال ليرضيك
من قبل آدم قد جملت نبيّه قداماً فقد ملك الإلهُ ليملك
أوحى إليك لكي تكون حبيباً وبم نعمته عليك ويهدبك
وقال :

صيرني في هواك اليوم مشتهراً لا قيس ليلى ولا غيلان في الأول
زعمت أن غرامي فيك مكتسب لا والذي خلق الإنسان من عجل
وقال :

لا تُعادِ الناس في أوطانهم قلما يُرعى غريبُ الوطن
وإذا ما شئتَ عيشاً بينهم «خالقِ الناسَ بخلقِ حسن»
وقال :

نسختي اليوم في المحبة أصل فليها اعتماد كلّ حميد
نقلوا مرسل اللامع منها وصحيح السوى بغير مزيد
قد رواها قبلي جميل وقيس حينَ هاما بكلّ لحظٍ وجيد

ومن فوائده : أنه لما أنشد في « طراز الحلة » قول سعد الدين محمد بن عربي
في ابن مالك :

إنَّ الإمامَ جمالَ الدينَ فضَّله

« إلى آخره » قال ما ملخصه : ولما أورده الصفدي في « فض الختم » قال :
هذا في غاية الحسن لو كان الكتاب المذكور يسمى « الفوائد » وإنما هو « تسهيل
الفوائد » فذكر المضاف إليه دون المضاف ، وهي تورية ناقصة ، قلت : ابن مالك
له كتابان : أحدهما « الفوائد » صنعه أولاً ثم صنع « تسهيل الفوائد » بعده ،
وكأنه سهَّلَ فيه كتابَ الفوائد ، وكنت وقفت على هذا الكتاب المسمى بالفوائد
يلدنا غرناطة ، فلما وصلنا إلى هذه البلاد بحثنا عنه فلم نجده ، وتمادى الأمر
على ذلك إلى سنة ٧٦٠ ، فوجدناه في حلب ، وهو الآن عندنا ، وهو عزيزُ
الوجود ، ولذلك خفي على القاضي صلاح الدين ، انتهى وبعضه بالمضى .
وقال أبو جعفر أحمد المترجم به : كتبت إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين
خليل الناسخ :

مَدَدْتَ النوى وقَصَرْتَ اللقا أَرْضَى بهذا وأَنْتَ الخليل
وتَرَكْ أَحْمَدَ ذا وَحْشَةٍ لَدَيْكَ وَأَنْتَ لَهُ ابْنُ جَلِيلٍ
وقال :

قد كان لي أنسٌ بطيب حديثكم والآن صار حديثكم برسولٍ
ولقد مددتُ من النوى مقصوده إنَّ الخليلَ يراه غيرَ جميلٍ
وله رحمه الله تعالى :

ما للنوى مُدَّتْ وَأَنْتَ خَلِيلُنَا ولَقَبْتُ قَدْ قَصَرْتَ بِرْغَمِ الكاشِعِ
أَتَيْتُ فِي ذَا مَنَعٍ لَا يَرْتَقِي أَبَدًا وَلَيْسَ الرَّأْيُ فِيهِ بِصَالِحِ

وله :

ولما رأى الحساد منك الضاعة إلى جانب الهم الذي كان مرفوضا
أضافوا إلى عنيك كل قبيصة حقيق لدينا بالإضافة مخفوضا

وله :

حسنتك ما بين الوري شائع قد عرفت الآن بلام الطغر
فجاء منه مبتدأ الهوى - - - - - خبيرة الأس مع الجلتار

ولتقتصر على هذا المقدار إلى هنا .

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم الله تعالى :

وقد قلنا أن علي بن إسان الدين كان نديم السلطان وخاصته ، كما ذكرنا
في غميطته لابن مرزوق في الباب الخامس قوله : فالسلطان يرحاه الله تعالى يوجب
ما فوق مزية التعظيم ، والولد هداهم الله تعالى قد أدخلوا بحظ قل أن يتألوه
بغير هذا الإقليم ، والخاصة العامة تعامل بحسب ما يكتفه من نصيح سليم
وترك لما بالأيدي وتسليم ، وتبديل عاد على عنوها بالعذاب الأليم ، إلا من
أبدى السلامة وهو من إيطان الحسد بحال السليم ، انتهى .
ولقد صدق رحمه الله تعالى فيما ذكره من النصيح وغيره .

ومن نصائحه رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان السلطان ، ونصه : من
عبد الله أمير المسلمين محمد وصل الله تعالى عليه ، وبلغه من فضله العظيم
قصده ، إلى أوليائنا المخلصين منا ومن سكنتنا بديمام الجوار القريب ،
والمساكنة التي لا يطرُق إلى حقها الذي بني استراة المستريب ، المعتدين إذا
عدت الرعايا ، وذكرت ألزايا ، بمزيد الاحتناء والتقريب ، من الأشياخ
الجلّة الشرفاء والعلماء ، والصلّور الفقهاء ، والمعلول الأذكياء ، والأعيان

الوزراء ، والحُماة المدافعين عن الأرجاء ، والأمناء الثقات الأتقياء ، والكافة الذين نصب للإهم عوائد الاعتناء ، ونسير فيهم بإعانة الله تعالى على السبيل السواء ، من أهل حضرتنا غرناطة المحروسة بفضل الله تعالى وربّتها ، شرّح الله تعالى لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صدورهم ، وكثف بتأثير الاستقامة سرورهم ، وأصلح بعنايته أمورهم ، واستعمل فيما يرضيهم أميرهم وأمورهم : سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة الله تعالى وبركاته .

«أما بعد حمد الله الذي إذا رضي عن قوم جعل لهم التقوى لباساً ، والدكرى لبناء الكتاب أساساً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي هدانا إلى الفوز العظيم ابتغاء لرحمته والثماسة ، والرضى عن آل الذين اختارهم له ناساً ، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداءً واقتباساً ، فإننا كتبناه إليكم — كتب الله تعالى لإعزازكم وحرس أحوالكم ، وجعل للعمل الصالح اهتزازكم ، وبقبول النصائح امتيازكم — من مستقرنا بمحروسة الحمراء ، حماها الله سبحانه ، ولا متعرف بفضل الله تعالى إلا هداية تظهر على الأكوال والأعمال ، وعناية تحف من اليمين والشمال ، وتوكل على الله يتكفل لنا ببلوغ الآمال ، وأنتم أولياؤنا الذين لا تدّخر عنهم نصيحاً ، ولا نهمل في تدبيرهم ما يثمر نجباً ، وبحسب هذا الاعتقاد لا نفل عن نصيحة ترشدكم إذا غفلتم ، وموعظة تقصّبها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله واختلقتم ، وذبح عنكم تارة بسلم تعقّدوها ، ومطاولّة تُسدّدوها ، وتارة بسيف في سبيل الله تعالى تحدّوها ، وعمارّة للشهادة نردّها ، ونفوس بوعده الله تبعدها ، ونرضى بالسهر لتمام أجهانكم ، وبالكد لتتدبّع صبيانكم وولداؤكم ، وباقتحام المخاوف ليتصل أمانكم ، ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد بلعلنا ، أو أمكننا أن لا تفضلكم رعيةً بصلاح دينٍ أو دنيا لعلنا ، هذا شغل زماننا منذ عرفناه ، ومرّمي همنا مهما استهدفناه ، وقد استرعانا الله تعالى جماعتكم ، ومكلاًنا طاعتكم ، وحرّم علينا إضاعتكم ،

والراعي إذا لم يقصد بساكنته المراعي الطيبة ، ويتتبع مساقط الغنائم الصبيبة ، ويوردها الماء النмир ، ويبتغ لها النماء والشمير ، ويصُلح خللها ، ويداوِ عللها ، قلَّ عَدَدُهَا ، وعلمت غَلَّتْهَا وولدها ، فندم على ما ضيعه في أمْسِهِ ، وجنى عليها وعلى نَفْسِهِ .

«وَأَلْفَيْنَاكُمْ فِي أَمَانَتِ هَذِهِ الْمِيَامِنِ عَلَيْكُمْ قَدْ غَمَرْتُمْ آلَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَنِعْمَهُ ، وَمَلَأْتِ أَيْدِيَكُمْ مَوَاهِبُهُ وَقَسَمَهُ ، وَشَغَلْ عُلُوكُمْ بِفِتْنَةٍ قَوْمَهُ فَنَمَّ لِلْعَافِيَةِ هَوَى مِيهَادٍ ، وَتَعَدَّ عَهْدَكُمْ بِمَا تَقْدُمُ مِنْ جَهْدٍ وَجِهَادٍ ، وَخُمَصَةِ وَسْهَادٍ ، فَأَشْفَقْنَا أَنْ يَحْرِمَكُمْ تَوَالِي الرِّخَاءِ إِلَى الْبَيْطَرِ ، أَوْ تَحْمِلَكُمْ الْعَافِيَةُ عَلَى الْغَفْلَةِ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ أَوْخَعُ الْخَطَرِ ، أَوْ تَجْهَلُوا مَوَاقِعَ فَضْلِهِ تَعَالَى وَكِرَمِهِ ، أَوْ تَسْتَعِينُوا عَلَى مَعْصِيَتِهِ بِنِعْمِهِ ، فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ تَعَالَى فِي الرِّخَاءِ وَجَدَهُ فِي الشَّدَّةِ ، وَمَنْ اسْتَعَدَّ فِي الْمَهَلِ وَجَدَ مُنْقِذَ الْعِدَّةِ ، وَالْعَاقِلُ مَنْ لَا يَغْتَرُّ فِي الْحَرْبِ أَوْ السَّلْمِ بِطُولِ الْمُدَّةِ ، فَالْدَهْرُ مُبْهِي الْجِدَّةِ ، وَمُسْتَوْعِبُ الْعِدَّةِ ، وَالْمُسْلِمُونَ إِخْوَانُكُمْ الْيَوْمَ قَدْ شَغَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ جَبْرِكُمْ ، وَسَلَمُوا اللَّهَ فِي نَصْرِكُمْ ، وَنَشَبَ الْأَيْدِي وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ بِشَقَرِكُمْ ، وَأَهْمَتَهُمْ فَنَنْتَرِكُ رِسْمَ الْجِهَادِ خَالِيَةً خَالِيَةً ، وَرِيَاضَ الْكِتَابِ الْخَضِرِ ذَابِلَةً ذَاوِيَةً ، فَإِنْ لَمْ تَشْمُرُوا لِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِي هَذِهِ الْبَرَّةِ فَمَاذَا تَنْتَظِرُونَ ؟ وَإِذَا لَمْ تَسْتَنْصِرُوا بِاللَّهِ مَوْلَاكُمْ فِمَنْ تَسْتَنْصِرُونَ ؟ وَإِذَا لَمْ تَسْتَعِدُّوا فِي الْمَهَلِ فَمَنْ تَسْتَعِدُّونَ ؟ لَقَدْ خَسِرَ مِنْ رِضَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِاللُّبُونِ ، فَلَا تَأْمَنُوا مَكَرَ اللَّهِ ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الاحزاب : ٩١) .

«وَمِنَ الْمَثُورِ عَنِ الْمَلِكِ ، وَالْمَشْهُورِ فِي الْأَوَاخِرِ وَالْأَوَّلِ ، أَنَّ الْمَعْصِيَةَ إِذَا فَشَتْ فِي قَوْمٍ أَحَاطَ بِهِمْ سُوءُ كَسْبِهِمْ ، وَأَظْلَمَ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَانْقَطَعَتْ عَنْهُمْ الرَّحِمَاتُ ، وَوَقَعَتْ فِيهِمُ الْمَثَلَاتُ وَالنَّقِمَاتُ ، وَشَحَّتِ السَّمَاءُ ، وَغِيضَ الْمَاءُ ، وَاسْتَوْلَتِ الْأَعْدَاءُ ، وَانْتَشَرَ الدَّاءُ ، وَجَعَّتِ الضُّرُوعُ ، وَأَخْلَفَتِ الرُّضُوعُ .

« فرجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة ، والذكرى التي توفى من السنة ،
وتقرع آذانكم بقوارع الألسنة ، فأفرعوا الشيطان بوعيتها ، وتقربوا إلى الله
تعالى برعيتها ، الصلاة الصلاة فلا تهملوها ، ووظائفها المعروفة فأكملوها ،
فهى الركن الوثيق ، والعلم المائل على جادة الطريق ، والخاصة التي يتميز بها هذا
الفريق ، وبادروا صفوفها المائلة ، وأتبعوا فريضتها النافلة ، وأشرعوا إلى تاركها
أسنة الإنكار ، واغتصموا بها نواشيء الليل وبوادي الأسحار ، والزكاة أختها
المنسوبة ، ولدتها المكتوبة المحسوبة ، فمن منعهما فقد بخل على مولاه ، باليسير
مما أولاه ، وما أحقّه بنهاب هبة الوهاب وأولاه ، فاشترى من الله تعالى كرام
أموالكم بالصدقات ، وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعاف الثقات ، وواسوا سؤالكم
كلما نصبت الموالد ، وأعيدت للترفه العوائد ، وارفعوا حق الجوار ، وخلوا
على أيدي الدعة والفجار ، وأخرجوا الشنآن من الصدور ، واجعلوا
صلة الأرحام من عزم الأمور ، وصونوا عن الاغتيال أفواهكم ، ولا تمردوا
السفاهة شفاهكم ، وأقرضوا القرض الحسن الحكم ، وعلّموا القرآن صبيانكم ،
فهو أس المنى ، وازرعوه في تراب تراثهم فعسى أن يجنى ، ولا تركوا
النصيحة لمن استنصح ، وردوا السلام على من يتحية الإسلام أفصح ، وجاهدوا
أهواءكم فهي أولى ما جاهدتم ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، وثابروا على خلق
العلم والتعلم ، وحفوا بمراقي التكلم ، وتعلموا من دينكم ما لا يسعكم
عند الله تعالى جهله ، وبتبين أنكم أهله ، فمن القبيح أن يقوم أحدكم على
وقاية برّه وشعبه ، ورعاية شايه وبعبه ، ولا يقوم على شيء يخلص به
قاعدة اعتقاده ، ويعدّه منجاة ليوم معاده ، والله عز وجل يقول ولقوله يرحل
المتجمعون ﴿ أَلَمْ نَحْشَرِكُمْ أَلَمْ نَخْلُقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ﴾
(المؤمنون : ١١٥) .

« واتسقوا من الحوادث الشنيعة ، والبذع التي نضت في عقد الشريعة ، فقد
شن علينا الملبسة بأهل التصوف المغار ، ونال حملتها بل جعلتها بإغماضهم

الصغار ، وتؤوك المماد والجنّة والنار ، وإذا لم يتخرّ الرجل على دينه ودين أبيه
فعل من يتخرّ ، فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء ، هم أئمة الاقتداء ،
والكواكب التي عينها الحق للاقتداء ، فاحذروا معاطب هذا الداء ، ودسائس
هذه الأعداء .

«وأهم ما صرفتم إليه الوجوه ، واستدفعتم به المكروه ، العمل بأمره جل
وعلا في الآية المثلثة-، والحكمة السافرة المجلوة ، من ارتباط الخيل وإعداد
القوة ، فمن كان ذا سعة في رزقه ، فليقم لله بما استطاع من حقه ، وليتخذ
فرساً يعمر محنته بصهيله ، ويقتنه من أجل الله وفي سبيله ، فكم يتحمل من
عيال يلتمس مرضاتهن بالتحاذير الزينة ، والتنافس في ترف المدينة ، ومؤونة
الارتباط أقل ، وعلى الهمة والدين أدل ، إلى ما فيه من حماية الحوزة ، وإظهار
العزة ، ومن لم يحسن الرمي فليتلرب ، وباتخاذ السلاح إلى الله فليقترب ، وقبل
الرمي تراكش السهام ، وعلى العباد الاجتهاد وعلى الله التمام .

«والسكة البخارية في حوادث نواديك ، وأثمان العروض التي بأيديكم ،
من تحيف حروفها ، ونكر معروفها ، أو سامح في قبول زيف ، أو مبغوس
حيف ، فقد اتبع هواه ، وخان نفسه وسواه ، قال الله عز وجل ﴿أوفوا الكفيلَ
ولا تكونوا من المخسرين ، وزرّوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا
الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ (الشعراء : ١٨١) ولتعلموا أن
نبيكم صلوات الله عليه إنما بعثه الله مجاهداً وبالحق قاضياً ، وعن المفوات
حليماً متفاضياً ، فتمسكوا بحبله ، ولا تعدلوا عن سبيله ، يروكم الله تعالى
من سجله ، ويرواكم من أجله ، مراعاة الرجل لبتجله ، فهو الذي يقول
﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾
(الأنفال : ٢٣) وإن كان في وطنكم اليوم سعة ، وقد ألطفكم أمن من الله تعالى
ودعة ، فاحسبوا أنكم في بلد معصور ، وبين لحبي أسدٍ مصور ، اكتفكم

بحرٌ يعبُّ عبابه ، ودار بكم سورٌ يبدِّ علوكم بابه ، ولا يدرى متى ينتهي السُّلم ، وينشعب الكلثم ، فإن لم تكونوا بناءً مَرصُوصاً ، وتتشعروا الصبر عموماً وخصوصاً ، أصبح الجناح مقصُوصاً ، والرأي قد سلبته الحيرة ، والمال والحريم قد سلبت فيه الضنائة والغيرة ، وإن شاء الله تَهَبُّ ريح الحمية ، ونصرة النفوس على الخيالات الوهمية ، فإن العِزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله مُتِمُّ نوره على رغم الجاحدين وكره الكافرين ﴿ وَكَمْ مِّنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

« واعتقلوا أن الله تعالى لم يجعل الظهور مقروناً بعدد كثير ، ولو مثل جراد مزرعة آثارها مثير ، بل بإخلاص لا يقي لغير الله افتقاراً ، ونفوس توسع ما سوي الحقي اقتداراً ، ووعد يصدق ، وبصائر أبصارها إلى مثابة الجزاء تمدق ، وهذا الدين ظهر مع العُرْبَةِ ، وشَتَّطَ التربة ، فلم ترُعْهُ الأكاسرة وفيولها ، والقياصرة وخيولها ، دين حنيف ، وعلم مُنِيف ، من وُجُوهُ شطر المسجد الحرام تولى ، وآيات على سبعة أحرف تلى ، وزكاة من الصميم تنتقى ، ومعارج ترتقى ، وحج وجهاد ، ومَوَاسِمَ وأعياد ، ليس إلا تكبير شهير ، وأذان جَهِير ، وقوة تعد ، وثغور تسد ، وفيء يقسم ، وفخر يرسم ، ونصيحة تهدي ، وأمانة تؤدى ، وصدقة تحفى وتبدي ، وصلور تشرح وتشفى ، وخلق على خلق القرآن تحلّى وتقفى ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا العقد قد سُجِّلَ ، والوعدُ به قد عُجِّلَ ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ، وأتممتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) ولا ينقطع لهذا الفرع عادةٌ وَصْلِهِ ، ما دام شيئاً بأصله ، وإنما هو حَكَبٌ لكم زبدته المخروضة ، وخلاصته المحروضة ، والعاقبة للمتقين ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص : ٨٨) .

« وحضر تكم اليوم قاعدة الدين ، وغاب المجاهدين ، وقد اخترعت بنا أيماننا هذه وأيام والدنا المقدس الآثار الكبار ، والحسنات التي تنوعلت بها الأخبار ،

وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المنخورة ، والمنقبة المبرورة ، وهي يمارستان يقيم منكم المرضى المطرحين ، والضعفاء المغترين منهم والمعترضين في كل حين ، فأنتم تطوونهم بالأقدام ، على مرّ الأيام ، ينظرون إليكم بالعيون الككييلة ، ويعربون عن الأحوال الدلييلة ، وضرورتهم غير خافية ، وما أنتم بأولى منهم بالعافية ، والمجانين تكثر منهم الوقائع ، وتقشو منهم إمانة العهد الذائع ، عار تحظره الشرائع ، وفي مثله تُسدّ الدرائع .

«وقد فضلتُ أهل مصر وبغداد ، بالرباط الدائم والجهد ، فلا أقل من المساواة في معنى ، والمنافسة في مَبْتَى ، يلهب عنكم لؤم الجوار ، ويزيل عن وجوهكم سيمات العار ، ويدل على همتكم ، وفضل شيمتكم ، أهل الأقطار ، وكم نفقة هانت على الرجل في مشروع ، وحرص اعتراه على ممنوع ، فأسرعوا فالنظر في هذا المهم خير مشروع ، ولولا اهتمامنا بمرتقة ديوانكم ، وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم ، لسبقناكم إلى هذه الزلفة ، وقمنا في هذا العمل الصالح بتحمل الكلفة ، ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنة بيناه ، وأسهمناكم في فريضة أجره وثناؤه ، فنحن إن شاء الله تعالى نعين له الأوقاف التي تجري عنها المرفقة ، وتتصل عليه بها الصدقة ، تأصيلاً لفخركم ، وإطابة في البلاد لذكركم ، فليشاور أحدكم هيمته ودينه ، ويستخدم يساره في طاعة القصد الكريم ويمبته ، ونسأل الله تعالى أن يوفق كلاً لهذا القصد ويضعه ، ومن وراء هذه النصائح عزم ينهيا إلى غايتها ، ويجبر الكافة على اتباع رأيها ورأيها ، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من القصول ، وتلقوا داعي الله تعالى فيها بالقبول ، والدنيا مزرعة الآخرة ، وكم معتبر للنفوس الساخرة ، بالعظام الناخرة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّوكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرُّوكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (فاطر: ٥) وأنتم اليوم أحق الناس بقبول الموعظة نفوساً زكية ، وقهوماً لا قاصرة ولا بطيئة ، وموطن جهاد ، ومستقى غمام

من رحمة الله تعالى وعياده ، وبقايا السلف بالأرض التي فتحوا فيها هذا الوطن ،
وألغوا فيها العطن ، فإلى أين يذهب حسن الظن بأديانكم ، وصحة إيمانكم ،
وتساوي إسراركم وإعلانكم ؟

« اللهم ! إننا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحملة ، وبلغناهم نصيحتك
المكملة ، ووعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤملة ، فبسرنا وإياهم اليسرى ،
وعرفنا لطافتك التي خفي فيها السرى ، ولا تجعلنا ممن صم عن النداء ،
وأصبح شماعة الأعداء ، فما ذك من استتصر بجنابك ، ولا ضل من استبصر
بسنتك وكتابك ، ولا انقطع من توصل بأسياك ، والله سبحانه يصل لكم
عوائد الصنع الجميل ، ويعملكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل ، ويصل
سعدكم ، ويحرم مجدكم ، والسلام الكريم يخصصكم ورحمة الله تعالى وبركاته . »
انتهى .

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان السلطان بعد كلام :

« الله الله في المم قد خمدت ربحها ، والله الله في المقائد فقد خفيت
مصاييحها ، والله الله في الرجولية فقد قل حدّها ، والله الله في النيرة فقد
تمسّر جدّها ، والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله ، والله الله في الحرم
فقد مدّ إلى استرقاقه يد تأميلة ، والله الله في الملة التي يريد إطفاء سناها ، وقد
كل فضلها وتناهى ، والله الله في الحرم ، والله الله في الدين الكريم ، والله الله
في القرآن ، والله الله في الجيران ، والله الله في الطارف والتالد ، والله الله في الوطن
الذي توارثه الولد عن الوالد ، اليوم تستأمد النفوس المهينة ، اليوم يستنصر
الصبر والسكينة ، اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذمم ، اليوم يسلك سبيل
العزم والحزم والشدة والشتم^١ ، اليوم يرجع إلى الله المصرون ، اليوم يفيق من
نوم الفتلة المغترون ، قبل أن يتفاقم المول ، ويمحق القول ، ويُسد الباب ، ويمحق

١ اليوم ... والشتم : سقطت من ق .

العذاب ، ويسترق الكفر الرقاب ، فالنساء تقي بأنفسهن أولادهن الصغار ، والطيور ترعرع لحمي الأوكار ، إذا أحست الميت^١ بأفرائحها والإضرار ، تمر الأيام عليكم مرّ السحاب ، وذعابُ الآلي لكم ذهاب ، فلا خير يفضي إلى العين ، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كد إلا لزينة تحلّي بها نحرٌ وجيد ، ولا سعي إلا لمناخ لا يغني في الشدائد ولا يفيد ، وبالأمس تُدبثُم إلى التماس رُحْمى مسخّر السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال مرسل الديمة ، وعجبي البشر والبهيمة ، وقد أمسكت عليكم رحمة السماء ، وأغبرت جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى بلالة الماء ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (الذاريات : ٢٢) وإليها الأكف تمدون ، وأبوابها بالدعاء تفتلن ، فلم يصحّر منكم عدد معتبر ، ولا ظهر للإنابة ولا الصدقة خبر ، وتثقل عن إعادة الرغبة إلى الولي الحميد ، والغني الذي ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد ﴾ (إبراهيم : ١٩) وإيم الله لو كان لهرجاء لارتفعت الساعات ، وضاعت المتسعات ، وتراحت على أنديته الجماعات .

وأتمزأ على الله وهو القوي العزيز ؟ أتليسا على الله وهو الذي يميز الخبيث من الطيب والشبه من الإبريز ؟ أمعاندة والنواصي في يديه ؟ أغروراً بالأمل والرجوع بعدُ إليه ؟ مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من ينزل الرزق ويفيده ؟ مَنْ يُرجعُ إليه في الملمات ؟ مَنْ يُرجى في الشدائد والأزمات ؟ من يوجد في المحيا والملمات ؟ أي الله شك يخلج القلوب ؟ أتمّ غير الله يدفع المكروه ويستر المطلوب ؟ تفضلون على الحج إليه ؟ عوائد الفضل ، ونزه الجهل ، وطائفة منكم قد برزت إلى استمقاء رحمته تمد إليه الأيدي والرقاب ، وتستكشف بالفضوع لمظلمته المقاب ، وتستجبل إلى مواعيد إجابته الارتقاب ، وكأنكم عن كرمه

١ ق : الميت..

٢ ق : الجالية .

قد استغفيم ، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيت .
 « أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله عليه من التبليغ^١ باليسير ، والاستعداد
 للرحيل إلى دار الحق والمسير ، ومداومة الجوع ، وهجر الهجوع ، والعمل
 على الإياب إلى الله تعالى والرجوع : دخلت فاطمة رضي الله تعالى عنها ويدها كسرة
 شعير فقال : ما هذا يا فاطمة ؟ فقالت : يا رسول الله خبزت قرصة وأحببت
 أن تأكل منها ، فقال : يا فاطمة أما إنّه أول طعام دخل جوف أهلك منذ ثلاث .
 وكان صلى الله عليه وسلم يستغفر في اليوم سبعين مرة يلتمس رحمة ، ويقوم
 وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى ورمت قدماء ، وكان شأنه الجهاد ،
 ودأبه الجهد والاجتهاد ، ومواقف صبره تعرفها الربى والوهاد ، ومقامات رفقه
 تحوم على مراتبها الزهاد ، فإذا لم تقتلوا به فبمن تقتلون ؟ وإذا لم تهتدوا به
 فبمن تهتدون ؟ وإذا لم ترضوه باتباعكم فكيف تعتزّون^٢ إليه وتنتسبون ؟ وإذا
 لم ترغبوا في الاتصاف بصفاته غضباً لله تعالى وجهاداً ، وتقللاً من العرّض
 الأدنى وسهاداً ، فقيم ترضون ؟
 « فابتروا حبال الآمال فكل آت قريب ، واعتبروا بمشكلات من تقدّم من
 أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب ، وتفكروا في منابرها التي يعلو عليها
 واعظ وخطيب ، ومطيل ومطيب ، ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعة ،
 المعمورة بأنواع الطاعة ، وكيف أخذ الله تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم ،
 وعاقب الجمهور بما أغضبوا عنه حيونهم ، وسامت بالغفلة عن الله تعالى عصى
 جميعهم ، وذهبت النعمات بعاصيهم ومن داهن في أمره من مطيعهم ، وأصبحت
 مساجدهم مناصب للصلبان ، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان ، هذا
 والناس ناس والزمان زمان .

« فما هذه الغفلة عن إله الرجعى وإليه المصير ؟ وإلى متى التساهل في حقوقه

١ ق : التبليغ .

وهو السميع البصير ؟ وحتى متى مد الأمل في الزمن القصير ؟ وإلى متى نسيان اللجأ إلى الولي النصير ؟ قد تداعت الصلبان مجلبة^١ عليكم ، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم ، أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم ؟ وألسنة الآيات تنادىكم ، لم تمتح سطورها ، ولا احتجب نورها ، وأنتم بقايا من فصحها من عدد قليل ، وصابر فيها كل خطب جليل ، فوالله لو تمحض الإيمان ، ورضي الرحمن ، ما ظهر التثليث في هذه الجزيرة على التوحيد ، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأيد ، لكن شمل الداء ، وصم النداء ، وعميت الأبصار فكيف الاهتداء ؟ والباب مفتوح ، والفضل ممنوح ، فتعالوا نستغفر الله جميعاً فهو الغفور الرحيم ، ونستقل مقيل العثار فهو الرؤوف الحليم ، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم ، سُدَّتْ الأبواب ، وضغفت الأسباب ، وانقطعت الآمال إلا منك يا فتاح يا وهَّاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم ﴾ (عهد : ٧) ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجيدوا فيكم غيلةً واعلموا أن الله مع المتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران : ١٣٩) ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحوا ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) أعلوا الخيل وارتبطوها ، وروضوا النفوس على الشهادة وغبطوها ، فمن خاف الموت رضي بالدنية ، ولا بد على كل حال من النية ، والحياة مع الدلّ ليست من شيم النفوس السنية ، واقتنوا السلاح والعدة ، وتعرفوا إلى الله تعالى في الرخاء يعرفكم في الشدة ، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم ، واستميتوا من دون أبنائكم ، وكونوا كالبناء المروص لحملات هذا العدو النازل بفنائكم ، وحوطوا بالتعويل على الله تعالى وحده بلادكم ، واشتروا من الله جل جلاله أولادكم . ذكروا أن امرأة

١ ق : مجابة ، التجارية : متراكة .

احتمل السبع ولدها وشكت إلى بعض الصالحين ، فأشار عليها بالصدقة ، فتصدقت برغيف ، فأطلق السبع ولدها ، وسمعت النداء : يا هذه لقمة بلقمة ، وإنما استؤدجناه لحافظون .

« واهجروا الشهوات ، واستذكروا البقية من بعد الفوات ، وأفضلوا المساكينكم من الأوقات ، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات ، وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات ، والمواساة في المهمات ، وأيقظوا جفونكم من السّنات ، واعلموا أنكم رضاء لديّ كلمة التوحيد ، وخير إن البلد الغريب والدين الوحيد ، وحزب التمحيص ، ونقر المرام العويص ، فتفقدوا معاملتكم مع الله تعالى ، ومهما رأيتم الصدق غالباً ، والقلب للمولى الكريم مراقباً ، وشهاب اليقين ثاقباً ، فتقوا بعناية الله التي لا يَنْبَغُكم معها غالب ، ولا ينالكم لأجلها عدو مطالب ، فإنكم في السر الكئيف ، وكنتف^١ الخبير اللطيف ، ومهما رأيتم الخواطر متبدّدة ، والظنون في الله مترددة ، والجهات التي تخاف وترجى متعددة ، والغفلة عن الله ملامسها متجددة ، وعادة دواعي الخذلان دائمة ، وأسواق الشهوات قائمة ، فاعلموا أن الله تعالى منفذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين ، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عدوّان إلا على الظالمين ، والثوبة ترد^٢ الشارد^٣ إلى الله تعالى والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وهو القاتل ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّائِرِينَ ﴾ (هود : ١١٤) .

« وما أقرب صلاح الأحوال مع الله تعالى إذا صحّت المزائم ، وتوالت على حزب الشيطان المزائم ، وخملت الدنيا الغريبة في العيون ، وصدقت فيها عند الله الظنون ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فلا تفرّثكم الحياة الدنيا ولا يفرّثكم بالله الغرور ﴿ قل: هـ ﴾ وثوبوا سراحاً إلى طهارة الثوب ، وإزالة

١ ق : وعطف .

٢ ق : السارح .

الشُّوبَ ، واقصموا أبواب غافر الذنب وقابل التوب ، واعلموا أن سوء الأدب مع الله تعالى يفتح أبواب الشداك ، ويسد طرق العوائد ، فلا تعطلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأمنوا مكر الله فتشعروا إعانكم ، ولا تعطلوا متابكم بالصرائر ، فهو علام السرائر ، وإنما علينا أن ننصحكم وإن كنّا أولى بالنصيحة ، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة ، الصادرة - علم الله تعالى - عن صدق القرينة ، وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار ، وإنما ليكم لدينا نفس مبلولة في جهاد الكفار ، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار ، واجتهاد فيما يعود بالحسن وعقبى الدار ، والاختيار لله ولي الاختيار ، ومصرف الأقدار ، وما نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو وقدي بفسونا البلاد والعباد ، والحريم المستضعف والأولاد ، ونصلّى من دونهم نار الجلال ، ونستوهب منكم الدعاء لمن وعدّ بإيجابته ، فإنه يقبل من صرف إليه وجهه إجابته ، اللهم كن لنا في هذا الاهتمام نصيراً ، وعلى أعدائك ظهيراً ، ومن انتقام عبدة الأوثان كفيلاً ، اللهم قوّ من ضعفت جلته فأنت القوي المعين ، وانصر من لا نصير له إلا أنت فليأتك نعيدي وإيالك تستعين ، اللهم ثبت أقدامنا وانصرنا عند تزلزل الأقدام ، ولا تسلمنا عند لقاء عدو الإسلام ، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام ، اللهم دافع بملأكتك المؤمنين ، اللهم اجعلنا على يقظ وتذكر من قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشبوهم فزداهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بينعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴿ (الاحسان: ١٧٢) .

«وقد وردت علينا المَخاطبات من إخوتائنا المسلمين الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهدهم ، وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم ، بني مَرَيْنِ أولي الامتناع لله تعالى والحمية ، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه الزمة ، بزمهم على الامتناع لحق الجوار ، والمصارخة التي تليق بالأحرار ، والفترة

لانهتك ذِمَار نبيهم المختار ، وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار ، ومدافعة
أحزاب الشيطان وأهل النار ، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم
الآثار ، والسعي الضمين للعزّ والأجر والقصار ، والسلام الكريم يخصكم أيها
الأولياء ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

ومعاً كتبه ابنُ لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان سلطاناه الغني بالله تعالى
والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورته :

« هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله تعالى شارحاً للصدور ، مصلحاً
بإعانة الله تعالى للأُمور ، مُلحفاً العدل^١ والإحسان الخاصة والجمهور ، يعلم
من يسمعه أو يقف عليه ، ومن يقرؤه ويتدبر^٢ ما لديه ، ما عاهدنا الله تعالى
عليه من تأمين النفوس وحَقْن الدماء ، والسير في التجافي عنها على السنن السواء ،
ورفع الثناب عن البعيد منها والقريب ، والمساواة^٣ في العفو والغفران بين
البريء منها والمريب ، وحمل من ينظر بعين العداوة في باطن الأمر محملاً
الحبيب ، وترك ما يتوجّه بأمر المطالبات ، ورفض التبعات ، ممّا لا يمارض
حكماً شريعياً ، ولا يناقض سنناً في الدين مرعيّاً ، فمن كان رهن تبعه أو طريد
تُهمته ، أو منبوزاً^٤ في الطاعة برية توجب أن نريق دمه* ، فقد سحبتنا عليه
ظلال الأمان والخفاه أثواب العفو والغفران ، ووعدناه من نفسنا مواعد الرفق
والإحسان ، حكماً عامّاً ، وعفوّاً تامّاً ، فاشياً في جميع الطبقات ، منسجماً على
الأصناف المختلفة ، عاملنا في ذلك من يتقبل الأعمال ، ولا يضع السؤل ،
واستغفرنا عن نفسنا وعن أخطأ علينا من رعيتنا ممن يدرأ الشرع غلظته ،

١ ق : ملحقاً جناح الله العدل .

٢ ق : ويحيي .

٣ ق : والمساواة منها .

٤ ق : منبوزاً .

ه توجب ... دمه سقطت من ق .

وَيَقْبَلُ الْحَقُّ قِيَّاتَهُ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء : ١١٠) لما رأينا من وجوب اتفاق الأهواء والضمائر ، وخلوص القلوب والسرائر ، في هذا الوطن الذي أحاط به العدو والبحر ، ومسه بتقديم الفتنة الضر ، وصلة لما أجراه الله تعالى على أبلدينا ، وهياه بنا في نادينا ، فلم يخف ما سكن بنا من نار الفتنة ، ورفع من بأس وإحنة ، وكشف من ظلمة ، وسدك من نعمة ، وأصفى من مورد عافية ، وأولى من عصمة كافية ، بعدما تحربت الثغور ، وفسدت الأمور ، واهتضم الدين ، واشتد على العباد ككذب الكافرين المعتدين ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ (يوسف : ٢٨) فله الحمد دائماً ، والشكر واجباً ، ومن الله نسال أن يتم نعمته علينا كما أتمها على أبونا من قبل إن ربك حكيم عليم .

« ونحن قد شرعنا في تعيين مَن ينوب عنا من أهل العلم والعلماء ، والدين والجلالة ، للتطوف في البلاد الأندلسية ، ومباشرة الأمور بالبلاد النصرية ، يُشْهِونَ إلينا ما يستطلعون ، ويبلغون من المصالح ما يعرفونه ، ويقبلون ما تحتاج إليه الثغور ، وتستوجه المصلحة الجهادية من الأمور ، ونحن نستعين بفضلاء رعيتنا وخيارهم ، والمراقبين الله تعالى منهم في إيرادهم وإصدارهم ، على إنهاء ما يخفي عنا من ظلامة تقع ، أو حادث يبتدع ، ومن اتخذت بحواره خمر فاشية ، أو نشأت في جهته للمنكر ناشية ، فنحن نقلده العهد ، ونطوقه القلادة ، ووراء تنبيهنا على ما خفي من الشكر لمن أهده ، وإحماد سعي من أبلغه وأداه ، ما نرجو ثواب الله تعالى عليه ، والتقرب به إليه ، فمن أهدي لنا شيئاً من ذلك فهو شريك في أجره ، ومقام في مثويته يوم ربح تجره ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » انتهى .

[وصية لسان الدين لابنه]

وإذ أجرنا طرف القلم ملء عنانه فيما لسان الدين رحمه الله تعالى من

النصائح والمواعظ والوصايا ، وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا ، كلٌّ دون شأوه ، وقصر عن أمده مديدُ خطّوه ، وقد تقدم في هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة ، فلتراجع في محاملا المتكاثرة ، وقد آن أن نسردي في هذا المحل الوصية التي أوصى لسانُ الدين رحمه الله تعالى بها أولاده ، وهي وصية جامعة نافعة ، يحصل بها انتعاش ، لاشتمالها على ما لا بد منه في المعاد والمعاش ، ونصّها^١ :

- الحمد لله الذي لا يروعه الحِمَامُ المرقوب ، إذا شيمَ نجمةُ المُنقُوب ، ولا يفتنه الأجلُ المكتوب ، ولا يفجؤه القراقُ المعتوب ، مُلْهمُ الهدى الذي تطمئن به القلوب ، ومَوْضِعُ السبيل المطلوب ، وجاعلُ النصيحة الصريحة في قسم الوجوب ، لا سيما الولي المحبوب ، والولد المنسوب ، القاتل في الكتاب المعجز الأسلوب ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ﴾ (البقرة : ١٣٣) ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ (البقرة : ١٣٢) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسولهِ أَكْرَمَ مَنْ زُرْتُ على نُورِهِ نَجِيبُ الْغُيُوب ، وأشرف مَنْ خُلِمْتُ عليه حللُ المهابة والعصنة فلا تقتحمه الغيرون ولا تصبِّه العيوب ، والرضى عن آلِهِ وأصحابهِ الثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المخلوب ، والأمل المسلوب ، والافتداء الموصل للمرغوب ، والمز والإمن من اللغوب .

وبعد ، فإني لما علاني المشيب بقمته ، وقادني الكبر في رمته^٢ ، وادكرت الشباب بعد أمته^٣ ، أسفت لما أضعت ، وندمت بعد القطام على ما رضعت ، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه ، وتعلقت بعيني^٤ سعيه ، وأملت أن

١ قارن نص هذه الوصية بما ورد في أزهار الرياض : ١ : ٣٢٠ .

٢ ق : برمه ، والتصويب عن الأزهار .

٣ ق : جمته .

٤ الأزهار : يسبي .

تعدى إليّ^١ ثمرة استقامته وأنا وهين قوّات ، وفي برزخ أموات ، وبأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري ، إن سلك - وعسى أن لا يكون ذلك - على آثارى ، فقلت أحاطب الثلاثة الولد ، وثمرات الخلد ، بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم ، وإيضاح طريقهم ، وجَمْعَ تفريقهم ، وأن يمن عليّ^٢ منهم بحسن الخلف ، والتلافي من قبل التلف ، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف ، فهو ولي ذلك ، والهادي إلى خير المسالك .:

اعلموا هذاكم الله تعالى الذي بأنواره تهدي الضالّ ، وبرضاه تُرفع الأغلال ، وبالتماس قربه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأخلفت الآمال ، وتبرأت من يمينها الشمال - أني مُودعكم وإن سألني الردى ، ومفارقكم وإن طال المدى ، وما عدا ممّا بدا ، فيكيف وأدوات السفر تجمع ، ومناهي الرحيل يسمع ، ولا أقلّ للحبيب المودع من وصية محضّر ، وعجالة مقتصر ، ورتيمة^٣ تُعقد في خنصر ، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر ، تتكفل لكم بحسن المواعيد من بعدي ، وتوضح لكم من الشفقة والحنن قصدي ، حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدي ، فهي أربكم الذي لا يتغير وقفه ، ولا ينالكم المكروه ما رفّ عليكم سقفه ، وكأنّي بشبابكم قد شاخ ، وبراحلكم قد أناخ ، وبناشطكم قد كسل ، واستبدل الصاب من العسل ، ونفصول الشيب تروع بأسل ، لا بل السام^٤ من كل حذب قد تسَل ، والمعاذ للحد ولا تسل ، فبالأمس كنتم فراخ حجر ، واليوم أبناء^٤ عسكر مجرّ ، وغداً شيوخ مضبغة وهجر ، والقبور فاغرة ، والنفوس عن المآلوفات صاغرة ، والدنيا بأهلها ساخرة ، والأولى تعقبها

١ الأزمار : ثمرات .

٢ الرتيمة : الخيط الذي يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة .

٣ السام - يتخيف المم - : الموت .

٤ الأزمار : آباء .

الآخرة ، والحازم من لم يُتَعَطَّ به في أمر ، وقال : يدي لا بيد عمرو ، فاقترنوا من وصية ، ومَرَّام في النصيح قصية ، وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحسي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملاً ، ولكن ليلوهم أيهم أحسن عملاً ، ولا رضي الدنيا منزلاً ، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منزلاً .

ولتلقوا تلقياً ، وتعلموا علماً يقيناً ، أنكم لن تجلدوا بعد أن أفرد بلدي ، ويفترش الترابَ جنبي ، ويسح انسكابي ، وتهول عن المصلى ركابي ، أحرص مني على سعادة إليكم تُجَلِّب ، أو غاية كمال سببكم تُرْتَاد وتُطَلِّب ، حتى لا يكون في الدين والدنيا أَوْزَف منكم ظلاً ، ولا أشرف عملاً ، ولا أغبط قهلاً وعلاً ، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان ، وتستلمحوا صُبْح نصحي فقد بان ، وسأعيد عليكم وصية لقمان : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُعْصِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ واقصِدْ فِي مَشْيِكَ ، واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان : ١٣ - ١٩) وأعيد وصية خليل الله وإسرائيل ، حكم ما تضمنه حكم تنزيله ﴿ يَا بَنِي إِدَّاءِ اللَّهُ اصْطَلَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَعُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) والدين الذي ارتضاه واصطفاه ، وأكله ووفاه ، وقرره ومصطفاه ، من قيل أن يتوفاه ، إذا عمل فيه انتقاد ، فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مقرر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ، والعقل مقدم ، وبناءؤه مع رفض أخيه متهدم ، فالله واحد أحد ، فردٌ صمد ، ليس له والد ولا ولد ،

١ قوله قالتها الزباء حين انتحرت وأبت أن تستلم لعمرو بن حنبل .

تتره عن الزمان والمكان ، وسبق وجوده وجود الأكوان ، خالق الخلق وما يعملون ، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون ، الحلي العظيم المديّر القدير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) أرسل الرسل رحمة لتلصق الناس^١ إلى النجاة من الشقاء ، وتوجه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على نواترها دعوى الانقضاء ، ثم ختم ديوانهم ببني ملتنا المرعية العمل^٢ ، الشاهدة على الملل ، فتلخصت الطاعة ، وتعينت^٣ الإمرة المطاعة ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة ، ثم إن الله تعالى قبضه إذ كان بشراً ، وترك دينه يضم من الأمة نشرأ ، فمن تبعه لحق به ، ومن تركه تورط^٤ عنه في متشبه ، وكانت نجاته على قدر سببه ، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدي : كتاب الله ، وسنتي ، فعضوا عليهما بالنواجذ»^٥.

فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد ، ومشفق شفقة والد ، واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه ، وعوا مرآشد هديه فيا فوز واعي ، وصلوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به بمجمل^٦ أو مفصل^٧ على حسبه ، وأوجبوا التجارة لصحبته الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم لإياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أولي الفضل الشهير ، وتبرأوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع ، ولا تع التشاجر بينهم أذن^٨ واع ، فهو عنوان

١ الأذهار : المهاد . .

٢ الأذهار : المرعية للعمل .

٣ الأذهار : وتبينت .

٤ ق والتجارية : نوط .

٥ هو من حديث العرياض بن سارية السلمي الصحابي عن الرسول ؛ وعضوا عليهما بالنواجذ أي تمسكوا بهما كما يتمسك العاص بجميع أفراسه ، وروي الحديث «فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين عضوا عليهما بالنواجذ» (أسد الغابة ٣ : ٣٩٩) .

٦ أو مفصلاً : سقطت من ق والأذهار .

السداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اسحبوا فضل تمظيمهم على فقهاء الأمة ، وأتمتها الجليّة ، فهم صكّة نصولهم ، وفروع ناشئة من أصولهم ، وورثتهم وورثة ونصولهم .

واعلموا أنّي قطعت في البحث زماني ، وجعلت النظر شائي ، منذ برآني الله تعالى وأنشائي ، مع نبل يعرف به الشائي ، وإدراك يسلمه العقل الإنساني ، فلم أجد خابط ورق ، ولا مصيب عرق ، ولا نازع خطام ، ولا متكلف فطام ، ولا مقتحم بحر طام ، إلاّ وغايته التي يقصدها قد فصلتها^١ الشريعة وسبقها ، وقرّعت ثبوتها وارقتها ، فعليكم بالترام جادّتها السابلة ، ومصاحبة رفقتها الكاملة^٢ ، والاهتداء بأقمارها غير الأظلة ، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) وقد حلت شرائعه ، وراع الشكوك رائعه ، فلا تستزلكم الدنيا عن الدين ، وابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين ، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الأبدن ، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدليا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلغت فأنت خير الشاهدين .

فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شوه الوجوه ونضج الجلود ، واستعملوا برضى الله من سطحه ، واربتأوا بنفوسكم عن غمطه ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة المرض الزائل اتلافكم ، واقتنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسوا على ما فات وتعلم ، فإنما هي دجّة يسخها الصباح ، وصفقة يتعاقبها^٣ الخسار والرياح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشلوا بالنواجذ عليها ، وكفّفوا الشبه أن تدنوا إليها .

١ الأضرار و : فصلتها ؛ وفصلتها ؛ سبقها وبلتها في الرمي .

٢ الأضرار : الكافّة .

٣ الأضرار : يتعاقبها .

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرقوه^١ عمل ، وكل ما سوى
 الراعي همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت^٢ أمل ، وتمسكوا بكتاب
 الله تعالى حفظاً وتلاوة ، واجعلوا حملة على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في
 آياته ومعانيه ، وامتلوا أوامره ونواهيه ، ولا تتأولوه ولا تغفلوا فيه ، وأشربوا
 قلوبكم حب من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواحي حبه ، وصنوا شعائر
 الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التي يبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم .
 الله في الصلاة ذريعة التجارة ، وخاصة الملة ، وحاقنة الدم ، وغنى المستاجر
 المستخدم ، وأم العباد ، وجافضة اسم المراقبة لعلم الغيب والشهادة ، والناحية عن
 الفحشاء والمنكر وإن^٣ عرض الشيطان عرضهما ، ووطئاً للنفس الأمارة سماءهما
 وأرضهما ، والوسيلة إلى بل الجوانح يبرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى مريض
 الفكر ، وضامنة^٤ حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسألة من الفجار ، والواهمة
 بسمه السلامة ، والشاهدة للعبد^٥ برفع الملامة ، وغاسول الطبع إذا شانه طبع ،
 والخير الذي كل ما سواه له تبع^٦ ، فاصبروا النفس على وظائفها بين يده وإعادة ،
 فالحير عادة . ، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية ، وتؤثروا على العلية الدنية^٧ ،
 فإن أوقاتها^٨ المعينة بالانفلات تنبس^٩ ، والفلك بها من أجلكم لا يحبس ، وإذا
 قورنت^٩ بالشواغل فلها اتجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيره الغلو ولا الأصيل .

١ الميت : سقطت من الأزهار .

٢ الأزهار : مها .

٣ الأزهار : وضائقة .

٤ الأزهار : القصد .

٥ الأزهار : كل غير له تبع .

٦ وتؤثروا . . : الدنية : سقطت من ق وأسل الأزهار .

٧ ق : فأوقاتها .

٨ تنبس : تشرح .

٩ الأزهار : قرنت .

والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت ، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها ، وأتبعوها التواضع ما أطقتموها ، فبالإيمان تفاضلت الأعمال ، وبالمراعاة استحققت الكمال ، ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال ^٢ ، وذلك أخرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطها محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف برئاسه . واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ، فلا يفسد عليها إلا من ضبط نفسه بعقال ، وكان في درج الرجولية ذا انفعال ، واستقاض صداه بصيقل ، وإن تراخى قهقر الباع ، وسرقت الطباع ، وكان لما سواها أضيق فشمّل الضياع .

والزكاة أختها الحبيبة ، وليلتها القرينة ، مفتاح السماحة بالعرض الزائل ، وشكران المستول على الضد من درجة السائل ، وحق الله تعالى في مال من أغناه ، لمن أجهده في المعاش وعنته ، من غير استحقاق مأل يده وأخل يد أخيه ، ولا علة إلا القدر الذي يخفيه ، وما لم ينله حفظ الله تعالى فلا خير فيه . فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها ، في اختيار عرضها ونتائجها ، واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلما عدل ، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرن أين تسلكون ، فوهب وأقدر ، وأورد بفضله وأصلب ، ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحسب والدلائل ،

١ الأزار : استحق .

٢ زاد في الأزار : وثابروا عليها في الجماعات ، وبيوت الطاعات ، فهو أرفع السلام ، وأظهر لشرائع الإسلام وأبر بإقامة . . إلخ .

فابتغوا إليه الوسيلة بحاله ، واغتنموا رضاه ببعض ثوابه .
وصيام رمضان عبادة السر المقرية إلى الله زُلْفَى ، المحموضة لمن يعلم السر
وأخفى ، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ، والاجتهاد ،
ولإثارة التهجيد^١ على المهاد ، وإن وسع الاعتكاف فهو من سنته المرعية ، ولواحقه
الشرعية ، فبذلك تحسن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب
قسوة الطباع ، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع .

والحج - مع الاستطاعة - الركن الواجب ، والفرض على العين لا يحجبه
الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما قرّض عن ربّه
وسنتّه ، وقال ليس لهُ جزء عند الله إلاّ الجُنة .

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى
لديه ، فكونوا ممن يسمع فقيره ويطعمه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .

هذه عمد الإسلام وفروضة ، وتقود مهره وعروضه ، فحافظوا عليها تعيشوا
مبرورين ، وعلى من يناويكم ظاهرين ، وتلقوا الله لا مُبتدئين ولا مُغْتيرين ،
ولا تضيّعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلّى محاسنها من بعد
الانتقاب ، فعليكم بالعلم النافع ، دليلاً بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا
الباب ، والموصل إلى اللّباب ، والله عزّ وجلّ يقول ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ١)
والعلم وسيلة النفوس الشريفة ، إلى المطالب المتينة ، وشرطه الخشية لله تعالى
والخيفة ، وخاصة الملأ الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تُثلى ، والسبيل في
الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة ، والذخر الذي قليله ينفق ،

١ الأثرار : المهاد .

وكثيره يشفع^١ ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزّه الدهر إذا مال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله ، وقليل وإن جم ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، ونغضى حسابكم ، فالتسوه لبنيكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودرّسه ، واجعلوا طباعهم ثرى^٢ لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه ، وسهر يهجر له الجفن كترّاه ، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تُعزل ، وتُحلّوهم مثابة رقة لا يُحطّ فارعاها ولا يُستترل ، واختاروا من العلوم التي ينفعها الوقت ، ما لا يناله في غيره المقت .

وغير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنهجها المريعة ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ، ولا يضائق ثمرات المعاد حصونها ، فإنما هي آلات لغير ، وأسباب إلى خيّر منها وبخير ، فمن كان قابلاً لازدياد ، وألقى فهمه ذا انقياد ، فليخص بتجويد القرآن بتقدمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحة من سميته ، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة ، الملهدي كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملة ، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى ، وتقاعد عن التي هي أسى ، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل التفهية على مذهب إمامه ، وإياكم والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة النسيمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً ركيكاً ، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ، وتطويق الاحترار ، وسميّة الصغار ، وخمول الأقدار ، والحسّف من بعد الإبدار ، وجادة الشريعة أحرقت في الاعتدال ، وأوقى^٣ من قطع العمر في الجيدال ، هذا ابن رشد قاضي المصر

١ الأزار : والدعير الذي قلبه يشفع وينفع وكثيره يحمل ويرفع .

٢ ق : ندى .

٣ ق : وأشفق .

ومُتَّعِيهِ ، وملتَمِس الرشد ومُؤَلِّيهِ^١ ، عادت عليه بالسيخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط في ازدحامها ، ولا تخطؤها سامكم بِحامها ، إلا ما كان من حساب ومساحة ، وما يعود بِمُهلوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم بِراحة ، وما سوى ذلك فمحجور ، وضَرَمٌ مسجور ، وممقوت مهجور .

وأمرُوا بالمعروف أمرأً رُفِيقاً ، وانهاوا عن المنكر نهياً حريماً بالاعتدال حقيقةً ، واغبطوا من كان من سِنَةِ الغفلة مُفِيقاً ، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه حتى لا تسلكوا منه طريقاً .

وأطيعوا أمر من ولاءُ الله تعالى من أموركم أمرأً ، ولا تقربوا من الفتنة جَمَراً ، ولا تُدْأَخِلُوا في الخلاف زَيْداً ولا عَمَراً .

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباءُ السنةَ البين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومنْ أَكْثَرَ من شيء عُرِفَ به . وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُؤَارَى ، والسوأةُ التي لا يُرتاب في عارها ولا يُتمارى ، وأقلُّ عقوبات الكذاب ، بين يدي ما أهد الله له من العذاب ، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق ، ولا يعول عليه إن كان بالحق نَطَقَ .

وعليكم بالأمانة فالخيانة ثُوم ، وفي وجه الديانة كُلُّوْم ، ومن الشريعة التي لا يعلو بِمُهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الحشمة والصيانة ، ولا تجزوا من أقرضكم دِينَ الخيانة ، ولا توجلوا للغر قَبُولاً ، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (الإسراء : ٣٤) ولا تستأثروا بِكُتْر ولا حَزَن ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حَزَن ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن ، والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بِالْإِشَارَةِ أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان في

١ الأزار : ومُؤْتِيهِ .

فُسحة ممتدة ، وسبل الله تعالى غير مُتسدة ، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه ،
ويغمس في الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سَنَنًا قَوِيماً ،
وجلى من الجهل والضلال ليلاً بيماً ﴿ وَمَنْ يَتَّقِلْ مُؤْمِناً مُتَحَمِّداً فَجَزَاؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ (النساء :
٩٣) واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرم طباعه ، وامتد في سبيل
السعادة باعه ، لو لم تلتق نور الله الذي لم يهد شعاعه ، فالخلال لم تضق عن الشهوات
أنواعه ، ولا علم إقناعه ، ومن غلبت عليه غرائر جهله ، فلينظر هل يجب أن
يُزنى بأهله ، والله قد أعدَّ للزاني عذاباً ويلاً ، وقال ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ
كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (النساء : ٢٢) .

واخمر أم الكبائر ، ومفتاح الجرائم والجرائر ، والله لم يجعله الله في الحياة
شرطاً ، والمحرّم قد أفضى عنه بالخلال الذي سرّغ وأعطى ، وقد تركها في الجاهلية
أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد ، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد ،
والله تعالى قد جعلها رجساً محرماً على العباد ، وقرّنها بالأنصاب والأزلام في
مباينة السداد .

ولا تقرّبوا الربا فإنه من مناهي الدين ، والله تعالى يقول ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ
الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٢٧٨) وقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة : ٢٧٩) في الكتاب المبين ، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق
يبيح ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه ، والتمسوا الحلال يسعى فيه
أحدكم على قمحه ، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خلمه ، ولا تلجأوا إلى المشابهة
إلا عند علمه ، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع ، والمحافظة عليه
مغبوط ، وإياكم والظلم فالظلم معقوت بكل لسان ، مجاهر الله تعالى بصريح
العصيان ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان . والنيمة فساد
وشتات ، لا يبقى عليه متات ، وفي الحديث « لا يخلخلة الجنة قَتَات »^١ .

١ القَتَات : المنام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسع حل القوم وهم لا يملكون (النهاية ٣ : ٢٧٧) .

واطرحوا الحسد فما ساد حسود ، وإياكم والغية فباب الخير معها مسدود ،
والبخل فما رثي البخل وهو مودود . وإياكم وما يُحتلر منه فمواقع الخزي
لا تستقال عثراتها ، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها ، وتفقدوا أنفسكم
مع الساعات ، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات ، ووقوا على ذوي الزمانات
والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات . وعولوا عليه وحده
في الشدائد ، واذكروا المساكين إذا نصّبتم الموالد ، وتقربوا إليه باليسير من
ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله ، وارعوا
حقوق الجار ، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار ، وتعاهدوا أولي الأرحام ،
والوشائج البادية الالتحام ، واحلروا شهادة الزور فإنّها تقطع الظهر ، وتفسد
السرّ والجهر ، والرّشا فإنّها تمحط الأقدار ، وتستدحي المذلّة والصغار ، ولا
تساعوا في لعبة قمر ، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر . وصونوا المواهيد من
الإخلاف ، والأيمان من حيث الأوغاد والأجلاف ، وحقوق الله تعالى من
الإزراء والاعتصاف ، ولا تلهجوا بالأمال العجاف ، ولا تكلفوا بالكهانة
والإرجاف . واجعلوا العمر بين معاش ومعاد ، وخصوصية وابتعاد . واعلموا أن
الله سبحانه بالميرصاد ، وأن الخلق زرع وحصاد ، وأقلوا بغير الحالة الباقية
الموم ، واحذروا القواطع عن السعادة كما تمحّلر السموم . واعلموا أن الخير أو
الشر في الدنيا محال أن يدوم ، وقابلوا بالصبر أذى المؤذين ، ولا تقارضوا مقالات
الظالمين ، فإله لمن بُغي عليه خير الناصرين ، ولا تستعظموا حوادث الأيام
كلّما زلت ، ولا تفسجوا للأمراض إذا أعضلت ، فكل منقرض حقير ،
وكل مُنقّص وإن طال قصير ، وانتظروا الفرج ، وانتشوا من جناب الله تعالى
الآرج ، وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى
لعبد إليه جانح] ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجاؤا إليه في البأساء والضراء ،

١ واجنحوا ... جانح : سقطت من ق وأصل الأزهار .

وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، وَيَعْدُوبُ الوارد ، وأسهموا منها للمساكين وافضلوا عليهم ، وصيروا الحظوظ منها لديهم ، فمن الآثار « يا عائشة ، أحسن جوار نعم الله ، فإنها قلما زالت عن قوم فعدت إليهم » . ولا تطفوا في النعم فتقصروا عن شكرها ، وتلفسكم الجهالة بسكرها ، وتتوهموا أن معيكم جلبها ، وجدكم حكتها ، فإله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين ، والله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تذهبوا بنهايه زينكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواضعه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة في حلانية وسر ، وللإنسان مزية لا يُفهم ، وحق لا يُهمل . وأظهروا التواضع والتناصر ، وصلوا الصاهد والتراور ، تُرغيموا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة ، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الحيفة ، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان ، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحصروه :

واقه الله لا تنسوا مقارضة سجنلي . وبروا أهل مودتي من أجلي ، ومن رزق منكم مالا بهلما الوطن القلبي المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العار ، فيصيح عريضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام الثوب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها ، ونقمها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى حاضدة ، ومن بلي بها منكم فليستظهر بسمة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحتر معادة الرجال ، ومزلات الإدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، وليصن الديانة ، ويؤثر الصمت ويلتزم الأمانة ، ويسر من رضى

١ زاد في التجارية : غله دأب الفر ، والمهارة ساقطة من ق والأزهار .

الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير التضامن ، والزحازح تسلم اللذن اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الحظوظ^١ ، وغلاباً ، فلذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، داع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليها إكراهاً وإلثاراً ، فليتلق^٢ وظافها بسمة صدره ، ويذل من الخير فيها ما يشهد أن قلرها دون قدره ، فالولايات فتنة ومحنة ، وأسر وإحنة ، وهي بين إخطاء وسعادة . وإخلال بعبادة ، وتوقع عزل ، وإدالة يلزاه بيع جد من الدنيا بزل ، ومزلة قدّم ، واستباع ندم ، ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابصاد ، جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، ومن لا يتقطع بسية عمل أياه .

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها ، وتجاراتي التي لربحكم أدرتها ، فتلقوها بالقبول لنصحها ، والاعتناء بضوء صباحها ، وبغير ما أمضيت من فروعها ، واستنشيت من دموعها ، التبت من المتأقبات القاصرة ، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة ، وبقدر ما أضمت لآلها النفيسة القيسم ، استكثرت من بواعث الندم . ومهما ستمت إطاعتها ، واستنزرت مقاتلتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلك الحساب ، وضابط هذا الباب ، كان الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدينا متاخ أرحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ، فالموعد للالتقاء ، دار اليقاء ، جعلها الله من وراء خطة النجاة^٣ ، ونفق بضائمتها للرجاة ، بلطافه المرحمة ، والبلاد عليكم من حبيبتكم المودع ، والله سبحانه يلمه حيث شاء من شمل متصدع ، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ، ورحمة الله وبركاته .

انتهت الوصية القريفة في خستها ، الثرية في فنها ، المبالغة نفوس الناظرين

١ التجارية : الخلوب .

٢ في التجارية : جل . . . خطته النجاة .

فيها فوق ظنتها ، ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضي القضاة العلامة سيدي الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التآليف العديدة كـ « المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب » - وهو في ست مجلدات [ولولم يكن له غيره] لكان كافياً ، وله مصنوعات كثيرة غيره أكثرها في مذهب مالك ، ولم يؤلف في المذهب مثلها - [كثيراً ما يخلل منها في خطبه]^١ .

[وصية لابن الجنان على لسان ابن هود]

رجع إلى ما كنا فيه :

أقول : لم تزل عادة الأكابر من العلماء والملوك الوصية لأولادهم وعلمهم باقتضاء النهج الذي يرون فيه السلوك ، وقد وقفت للفقيه الكاتب أبي عبد الله محمد ابن الجنان المرصي الأندلسي رحمه الله تعالى على وصية ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على ما لا بد منه ، فرأيت أن أذكرها هنا تذكيراً للقائلة ، ونصها بعد الصلوة :

من مجاهد الدين ، وسيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود ، أيده الله تعالى بنصره ، وأمدّه بتمكينه ، وأعانته على ما ينويه من إحياء معالم دينه ، إلى صينونا المبارك ، وقسيمنا وأخينا المخصوص بتجليلنا وتكرميننا ، وحُسامنا المنتضى المرتضى لإمضاء عزتنا وتصميمنا ، الأمير الأعلى ، الموقر الأسمى ، الميمون النقيبة المحمود السجّية ، الأحب النية ، الأغزر علينا ، المتمسح بمساعيه الصالحة كل ما نَوَيْنَا ، أدام الله تعالى تظفيره وإسعاده ، وأمضى في الحق قَوَاضِيهِ وصياعده ، ووالى معونته وإنجاده ، وتولى توفيقه

١ قد سقط ما بين مقفين من في والتجارية ، وزدناه حسب المتن من أزهار الرياض .

وإرشاده ، سلام طيب كريم زالك يخلصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد — فالحمد لله الذي أوضح الحق سبيلاً ، ومد ظل رحمته على الخلق ظليلاً ، وجعل العدل يحفظ نظام الإسلام كفيلاً ، وزك الأحكام على قدر المصالح تنزيلاً ، ونصّب معلم الهدى علماً لمن اقتدى ودليلاً ، وألهم إلى ما يرضاه عملاً ومعتقداً وقيلاً ، وصلواته الطيبة ، وبركاته الصبيّة ، على سيد العالمين ، وخاتم النبيين ، محمد رسوله الذي فضله بخلته واصطفاه تفضيلاً ، وبعثه بالحنيفية السمحة فيبينها تبييناً وفصلها تفصيلاً ، ورتبها كما أمره ربّه بإباحة وتدبّاراً ونحرماً وتحليلاً ، حتى ثبتت سنة الله ﴿ فَكُنْ نَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر : ٤٣) وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم به عليه الصلاة والسلام نصّاً وتأويلاً ، وأبقوا من سيرتهم الفاضلة ، وأحكامهم العادلة ، أساساً للمعتقين جليلاً ، ومآثر للمقتضين تسبّح الأفهام والأقلام في بحارها مسبحاً طويلاً ، وأمضوا عزائمهم تنسخ بالحق باطلاً وبالهدى تضليلًا ، ورضوان الله تعالى يتوالى على خليفته ، وحامل أمانته إلى خليفته ، الذي كل الله تعالى له موجبات الإمامة تكميلاً ، وأناله من هدي النبوة أفضل ما كان للهداة منيلاً ، سيدنا ومولانا الإمام المنتصر بالله تعالى أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين المتبوّء من ساحة الشرف والجلالة محلاً شريفاً جليلاً ، والمنتخب من بمبوحة بيت الرسالة الذي وجد الوحي عنده مُعَرَّساً ومقيلاً ، والدعاء له من لدن العزيز القوي بنصر باقي لإمداده بمدد الملائكة قبيلاً ، وفتح يؤتي الإيمان من الظهور بشفية وتأميلاً — .

فلنّا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم عزماً لا يزال عصّبه صقيلاً ، وعزّاً يروق بإظهار الحق غرةً ونجّيلاً ، ورأيّاً لقداح السداد والنجاح مُجَيلاً ، وسعداً يوصل إلى الإسعاد يرضاه توصيلاً ، من حضرنا بمرسية حرسها الله تعالى ، ونحن نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو على فضله الذي أناله جسيماً جزيلاً ، وتوكل عليه ، توكل من يلجأ في كل أحواله إليه ، وكفى بالله وكيلاً ، ونستعينه على أمور

المسلمين التي حملنا منها أمانة كبيرة وعيننا ثقيلًا ، ونقف بالضراعة بين يديه ،
 طلبًا لما يخلصنا لديه ، عساه أن يجعل لرغبتنا قبُولًا وتوسيلًا ، ونعوذ به من
 كل عمل لا يكون حاصله إلا مآلًا وبيلًا ، وعرضًا من الدنيا قريبًا ومتاعًا قليلًا .
 إنا - والله المرشد - لنعلم أن هذا الأمر الذي قللنا الله تعالى منه ما قللته ،
 وأسندته إلينا من أمور خلقه فيما أسندته ، قد ألزمتنا من حقوقه الواجبة ، وفروضه
 الراتبية ، ما لا استطاع إلا بمعونه أداؤه ، ولا يستب إلا بتوفيق الله تعالى انتهائه
 واجتهاده ، فهو المشكور عز وجهه على نعمته ، والمستعان على ما يذني من رضاه
 ويقرب من رحمته ، وأن كل امرئ بشأنه مشغول ، وعن خويصة نفسه مسؤول ،
 ونحن بما استرعانا الله تعالى مشغولون ، وعن الكبير والصغير مسؤولون ، وعلينا
 النصيحة في عبادته وبلاده ، والنظر لهم بمتنتهى جد المجتهد واجتهاده ، ولا
 قوة إلا بالله عليه توكلنا ، وبه إليه توصلنا ، فعيننا تسهر لتنام للرحمة عيونهم ،
 ونحركنا يتصل ليحصل لهم سكونهم ، وأملنا أن لا نقر فيهم بحول الله تعالى ظلمًا
 ولا هضمًا ، ولا نخرم لهم في إقامة حقوق الله ما استعملنا نظمًا ، وأتني ينصرف عن
 هذا القصد بعمله ونيته ، من يعرف أن الله جل جلاله لا يجوز ظلم ظلم في بريته ،
 ولعل الله الذي حملنا ما حملنا ، واستعملنا بمشيئته فيما استعملنا ، أن يهب لنا
 توفيقه ، ويسلك بنا إلى هداه طريقه .

ألا وإن من ولّيناه أمرًا من أمور المسلمين فهو مطلوب به ، وموقوف عليه
 عند ربه ، فليتظر أمرًا في جزئية ما نيط به وكييته ، وليراقب فيما لديه علم خفيته
 وجليته ، ألا وكلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته ، فمن حفظ الله حفظه
 الله في نفسه وآله ، وقضى له بالسعادة في حاله ومآله ، وأتجاه يوم عرضه وسؤاله ،
 والخلق عيال الله فأمسبهم إليه أحبهم لخاله . العدل العدل فيه قامت السموات
 والأرض ، وإقامته أقيمت السنة والقرص ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾
 (المائدة : ٨) وأقوى ما تشد به أركان الدين وتقوى ، أما إن الحق في أن لا تتسدى

أساليب الشرع وقوانينه ، وأن لا يتجاوز في قضية من القضايا إقصاها وتيسره ، وأن يجازى بحكمه الميسون والمحسون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .
 ألا وإننا قد عرفنا بعض قواد الجهات وحكامها على أمور أنكرنا معرفتها ، واستبقنا مستوصفاتنا ، وبرتنا إلى الله تعالى من متغيراتها وعمراتها ، وعلمنا أن منهم أقواماً لا يتورعون عن الأموال والدماء ، ولا يحذرون فيما يأتون ويكدرون جبار الأرض والسماء ، فأزلنا بحمد الله ذلك ونحوه ، وعجلنا ابتغاء رضاه محقة ومحورة ، وأنبعثنا لنظر جديد ، واستئناف لإصلاح أحوال وتسديد ، وتغليظ في المحرمات وتشديد ، واستبقنا ما يوسع الأمور ربطاً وضبطاً ، ويفيض على الأمة بعون الله تعالى عدلاً وقسطاً ، وتعين علينا فيما رأيناه إنفاذ الخطاب إلى كل من استكفينا بالبلاد ، ووليناها النظر عنا في مصالح العباد ، بما يكون إن شاء الله تعالى الاعتماد على فصوله ، والاستناد إلى محصوله ، والاجتهاد بحسب فروعه وأصوله :

فأول ما نوصيكم به وأفضنا تقوى الله في كل حال ، ومراقبة أوامره وتواحيه عند كل اتحاد واتصال ، والوقوف عند حدود الله التي حدها ، وأرصدنا بإزاء موجباته وعدلها ، فإنه لا يتعداها إلا من رام تحقير رسمها وطمسه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (البقرة : ١) والمحافظة على ما به تحفظ الشريعة ، والملاحظة لما يضم الرعايا من حوزة أولى الحياطة المنية ، والمثابرة على ما تكف به أكف الاعتناء ، والمبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح والاعتناء ، والطريقة المثل ، وآيات الله التي تُشلى ، وهداياته التي لأبصار البصائر تجلى ، وغموض الجناح ، والأخذ بالرفق والإنجراح ، وتوضي الحق الذي هو أوضح انبلاجاً من فلق الإصباح ، والحلم والأناة ، والمبابه المستحبات ، والأمور اليتيمات .

والله الله في الدماء فإنها أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها ، ولا سبيل لاستحلالها إلا بعد ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل المسلم

لأخيه ، وقد قال مالك الأمر والخلق ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام: ١٥١) فثبتوا فيها فأمرها جليل ، وتحريمها لا يدخله تحليل ، وإياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاية الجهاد حكماً أو نظراً ، أو تَكِيلُوا إليهم منها مستكثراً أو مستزراً ، فإنه إذا استبدت بالقضاء فيها كل وال ذهب هدرأ ، واستباحها الجاهل والجاهل أشرأ وبطراً ، وربما كان فيهم من في طباعه سبعية فيقتل بها الناس قتلاً ذريعاً ، ويسهل بملك من جوره صعباً ويرتكب بجهله شيئاً ، ويدخل عن قول الله تعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢) فأنتي تحمل المساحة في هذا الشأن ، أو يحكم به كل إنسان في نفوس أهل الإيمان ؟ معاذ الله أن يكون هذا ونحن نعرفه ، أو ينصرف إليه نظرنا فلا نزله ولا نصره ، فسدوا هذا الباب سداً ، وصلوا عنه مَنْ أمه صدأ ، وكفوا كل ما كان من الأيدي للدماء ممتداً ، وَمَنْ وجب عليه القتل شرعاً^١ وتعين ، وانضح موجب القصاص فيه وتبين ، فليس لكم إلا القاعدة الكبرى ، تُشَحَّرَى فيها الأحكام عليه بمحضر القاضي والشهود كما يجب أن يتحرى ، بعد أن يتثبت في نازله لديكم ويستجلى ويُسْتَبْرَأ ، فلا تحمل القضية إلا على بصيرة ، وحقيقة مستنيرة ، فقد يلوح في اليوم ما خفي بالأمس ، ويتعلم بعد الإقادة إعادة النفس .

..... وملاك الأمر في انتقاء من يتصرف ، وتولية من لا يضيع ولا يتحيف ، فخيروا للأفكار والجهات ، مَنْ تُرْتَضَى سيرته من الولاية ، ولا تستعملوا أهل القفاظة والجهالة ، والمصرين على الراحة والبطالة ، فإنهم إذا استرعوا أضعافاً ، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا ، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا ، وميلوا باختياركم إلى المتسمين بالصلاح ، المرتسمين في ديوان الكفاة النصاح ،

١ شرعاً : سقطت من ق .

وأطيلوا مع ذلك التقير عنهم والتقيب ، ولا تغفلوا عن التمهيد بالبحث البعيد منهم والقريب ، ومن عثرتم له على منكر من استباحة دم أو مال ، وإضاعة للحقوق وإهمال ، فخلوا على يده ، وجازوه بفاسد مقصيده ، وأنزلوه بالمتزل الأقصى ، وعاملوه معاملة من أوصي بقوى الله فما استوصى .

واصرفوا نظركم إلى القضاة فإن مدار الشريعة إنما هو على ما يستند إليهم ، ويقصر من الأحكام عليهم ، فإذا كانوا من أهل العلم والديانة ، وذوي التزاه والصيانة ، أمسكهم الورع بزماته ، وبلغ العهد بهم غاية تمامه ، وإذا كانوا بضدّ هذا قبلوا الرشوة ، وأوطأوا العشوة ، وأطالوا النشوة ، وأحلّوا من الدماء والقروج محرّمها ، وطمسوا من السنّة بالليل والمين معلمها ، وحكموا بالمهادة والموى ، وطووا من الحق ما انتشر ونشروا من الباطل ما انطوى ، فانتقوهم فهم أولى بالانتقاء ، وشرّ جاسيرهم وجاهلهم أحق بالانتقاء ، ولا تقدموهم ولا غيرهم بالشفاعات والوسائل ، ولكن قدموهم بتورعهم في القضايا وعلمهم بالمسائل .

وممّا نؤكد عليهم فيه أمر الشهود ؛ فإن شهادة الزور هي الداء المضال ، والظلمة التي يتسرّ بها الظلمة والضلّال ، والحجة الداحضة التي بها يحلّل الحرام ويحرم الحلال ، وقد كثر في هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة ، ونفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة ، فقدموا إلى القضاة وفقهم الله تعالى أن لا يقبلوا إلا مشهوراً بذكاء وعدل ، موفوراً حفظه من رجاحة وعقل ، ومن كان مغموماً عليه في أحواله ، منبوزاً بالامترابة في شهادته وأقواله ، فلتردّ شهادته على أدراجها ، وليبطل ما يكون من حجاجها . وأكلوا عليهم عند تعارض العقود في الرجيع ، والنظر في التعديل والتجريح ، لتجري أمور المسلمين على مستوى الحقّ المستبين ، وتبدو المحمّلة مشرقة الغرّة مؤثقة الجبين .

وممّا نأمركم به أن تبحثوا عن العمال ، ولا تولّوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضي الأعمال ، ومن لم يكن منهم جارياً على القوانين المرعية ، ناصحاً لبيت المال

رفيقاً بالرعية ، وكان في أمانته حائداً عن الجادة السوية ، قائلاً كما قال قبله ابن التتية^١ ، فليُعرَّض منه غيره ، وليُرفع عن الجانبين ضيره ، فإنه ما كانت الحياة قط في شيء إلا أهلكته ، ولا وضعت في إنسان طيمة سوء إلا ملكته .

وإنما هو مال الله تعالى الذي يرزق منه الحياة ، وبه تُسد الثغور المهمات ، فينبغي أن يختار له محتاط في اقتضائه وقبضه ، حافظ لدينه ومروءته في كلِّه وبعضه ، فخلوا في انتقاء هذه الأصناف المسمين ، واطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين والمولين ، واجمعوا من الاجتهاد الحميد والتقصد والاعتناء الأثر والعين ، وأنصفوا منهم إن ظلم من أحدهم منظم ، واشفوا شكوى كل متشكك وألم كل متألم ، واعلموا أن حرمة الأموال بحرمة النماء لاحقة ، وأن إحدى التقضيتين للأخرى مساوية ولاحقة ، ومن أكبر ما ورد في ذلك وأعظمه ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » .

وليكن الناس في الحق سواء لا محاباة ولا مفاضلة ، ولا مجاوزة في تغليب قوي على ضعيف ولا محاولة ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وإن دلائل الشرع بمراد الله سبحانه وتعالى لشاهدة ، ولا يؤخذن أحد بجريرة أحد ، ولا يعني ولد على والد ولا والد على ولد ، فكتاب الله تعالى أوثى بالاتباع وأحرى ، لقول الله عز وجل ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الأنعام : ١٦٤)^٢ اللهم إلا من أوى محدثاً فإنه مأخوذ بما أجرم ، وملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فارضعوا — أعاننا الله تعالى وإياكم — للعذل بكل علم مناراً ، واتخلوا الرفق بالإمامة شعاراً ، فقد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرفق لا يكون

١ يسمى عبد الله بن التتية بن ثعلبة الأزدي ، قال ابن حجر في الإصابة (٤ : ١٢٣) : مذكور في حديث أبي حميد الساعدي في الصحيحين أن التتية (م) بعث رجلاً على الصفقات يدعى ابن التتية وذكره الفيروزآبادي في تحفة الأيية (م : ١٠٧) باسم صر بن التتية وقيل الأتية الأول قول ابن دريد والثاني قول ابن الكلبي .

٢ وردت الآية أيضاً في سورة الإسراء : ١٥ وفاطر : ١٨ والزمزم : ٧ .

في شيء إلا زانه ، ولا يُترع من شيء إلا شانه » وقد نصّ الكتاب والسنة على مواضع اللين والاشتداد ، ونبها على منازع المقاربة والشداد ، فلا غضب لأمر إلا بما غضب له الله عز وجل ، ولا رضى به إلا إذا استقر فيه رضى الله تعالى وجل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الذي يجلد فوق ما أمر الله تعالى به يقول له الله عز وجل : عبي ، لمّ جلدت فوق ما أُمّرتك به ؟ فيقول : رب غضبت لغضبك ، فيقول : أكان ينبغي لغضبك أن يكون أشد من غضبي ؟ ثم يؤتى بالمقصر فيقول : عبي ، لمّ قصرت عما أُمّرتك به ؟ فيقول : رب رحمتي ، فيقول : أكان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي ؟ قال : فيأمر فيها بشيء قد ذكره لم يحفظه الراوي ، إلا أنه قال : صيروهما إلى النار ، أعاذنا الله تعالى منها بفضلته ورحمته ! فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع ، ويحفظ الأصل من هذه الوصايا والقرع ، واحتاطوا في الرعية فإنه رأس المال ، والأمانة التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الإهمال ، ومع توفيقكم لما سطرناه ، في هذا الكتاب وشرحاته ، من أبواب الخير المسعد في المال ، فاستوفوا ضروب الصالحات وابستقصوها ، واصلوا أعمال البر وخصوها ، واذكروا آلاء الله وقصوها ، ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) واشتغلوا في تغيير المنكرات كلها ، واحسموا أدواءها من أصلها ، ورغبوا الناس في الطاعات واندبواهم إليها ، ووضحوا لهم أعمالهم وحرّضوهم عليها ، وانتهوا في كل سعي ناجح ، ورأي راجح ، إلى أفضل ما ينتهي إليه المتصحبون ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

وخفوا بعمارة مساجد الله التي هي بيوت الأتقياء ، وحلّ مناجاة ذي العظمة والكبرياء ، إنما يمرر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .
ومرّوهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى فإن تعليمه للصغار بطلّى غضب

الرب ، ونعم الشفيع يوم القيامة ، والمتوسل فيما يتوج القاريء وأباه تاج الكرامة ، وأرشدوا للخير ما استطعتم ، واتبعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم ، والله ولي التوفيق والإرشاد ، والملقى بالهداية إلى طريق الفوز والسداد .

وهذه أوامرنإ إليكم امثلنا أمر الله تعالى فامثلوها ، وأحضروها في خواطركم مع كل لحظة ومثلوها ، وإننا لما يكون منكم فيها لمستمعون ، ولأثارتكم فيما يوفيهام لتطلعون ، وقد خرجنا لكم عن عهدة لزمنا في التذكير ، ونهجنالكم منها التقديم والتأخير ، والله تعالى يعلم أننا إنما قصبنا ما نرجو الخلاص به يوم الحساب ، وأردنا رضاه فيما أوردناه من هذا الحظر والإيجاب ، لنعرضحقه سبحانه فيمن استرحانا ، ونسعى في صلاح الأمة عسى الله تعالى أن ينجح فيه مسامانا .

اللهم حَبِّدْكَ يضرع إليك ، ويخضع بين يديك ، في أن تلهمه إلى ما يحمل قصداً ومعتدلاً ، ونهب له من لئلك رحمة وتيسر له من أمره رشداً ، اللهم منك المعونة على ما وليت ، ولك الشكر على ما أوليت ، فاللهدي من هديت ، والخير كله فيما قضيت . اللهم من أعاننا على مرضاتك فكن له مُعيناً ، وأورده من توفيقك عذباً مَعِيناً ، إنك الولي النصير ، العلي الكبير .

وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصوه^١ على الناس مفصلاً ومجملًا ، وأظهروا مضمونه لهم قولاً وعملاً ، واسلكوا بهم من مرادنه مستناً مستجملًا ، إن شاء الله تعالى ، والله سبحانه يديم علاكم ، ويصل إعادتكم في كل محمّد وإبداكم ، ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباكم ، بمنه وكرمه لا ربّ سواه . والسلام الأكرم الأزكى يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة ؛ انتهى .

١ ق : فنصوه .

[ترجمة ابن الجثنان]

وهذا ابن الجثنان^١ له الباع المديد في النظم والنثر ، ومن شعره رحمه الله تعالى في مرضه الذي توفي فيه ، وهو آخر كلامه :

جهل الطبيبُ شكائِي ، وشكائِي أنَّ الطيبَ هوَ الذي هو ممرضي
فإن ارتضى برِّي تداركَ فضلَهُ وإن ارتضى سَكَمِي رضىتُ بما رضى
ما لي اعتراضٌ في الذي يقضي به لكنَّ لرحمته جعلتُ تعرضي
ومن نظمه رحمه الله تعالى ملفزاً في بطيخة :

وحبلى بأبناء لها قد تمخضوا بأحشائها من بعد ما ولدوها
كسوها غداة الطلق بُرداً معصراً على يفتي أزرارها عقدوها
ولما رأوها قد تكاملَ حسنها وأبدَرَ منها طالعٌ حسدوها
فقد واقميص الكبد بالبرق واجتلوا أمليتها من بعد ما فقلوها
ولو أنصفوا ما أنصفوا بدر تمها ولا أعلموا الحسناء إذ وجدها
وقال أيضاً ملفزاً في الميل ، وهو المِرْوَد :

مسترخص السوم غال عال له أي خطوه
ما جاوز الشبر قلراً لكنَّه ألفُ خطوه

وهذا استخدام ما به باس ، لأنه اكتسى من الحسن خير لباس ، وكم لهذا

١ كتب حينما ورد في ق والتجارية « ابن الجثنان » - بالياء - وهو خطأ ؛ فقد ذكره ابن عبد الملك في مواضع من الذيل والتكملة (٤ : ١٠٨ و ٥ : ٣٢٧ . . .) بالنون ؛ ولسفة الجزء الخامس من الذيل والتكملة مضبوطة مصححة . وكذلك ثبت اسمه في المصادر التي ترجمت له (انظر الإحاطة ٢ : ٢٥٦ - ٢٦٤ وعنوان الدراية : ٢١٣) . وله في الذيل والتكملة (٥ : ٣٢٧) رسالة إلى أبي عبد الله ابن حديد ، وفي (٤ : ١٠٨) تمزية في استأذنه سهل بن مالك ، والجزء الذي ترجم له فيه ابن عبد الملك لا يزال مفقوداً ، وعنه ينقل لسان الدين .

الكاتب من محاسن ، مأوها غير آسن .
وقد عرف لسان الدين في الإحاطة بابن الجثنان ، وأطال في ترجمته ، ونشر
إلى بعض ذلك باختصار .
وهو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري من أهل مرسية ، أبو عبد الله ابن
الجثنان .

كان محدثاً راوية ضابطاً ، كاتباً بليغاً شاعراً بارعاً ، رائق الخط ، ديناً
فاضلاً ، خيراً ذكياً ، استكتبه بعض أمراء الأندلس فكان يتم من ذلك ويقتل^١
منه ، ثم خلصه الله تعالى منه ، وكان من أحجيب الزمان في إفراط القسامة ،
حتى يظن رائيه الذي استدبره أنه طفل ابن ثمانية أهوام أو نحوها ، متناسب
الخلفة ، لطيف الشمايل وقوراً ، خرج من بلده حين تمكن العدو من قبضته سنة
٦٤٠ ، فاستقر بأريولة إلى أن دعاه إلى سبته الرئيس أبو علي ابن خلاص^٢ ،
فوفد عليه ، فأجل وفادته ، وأجزل إفادته ، وحظلي عنده حظوة تامة ، ثم
توجه إلى إفريقية ، فاستقر بيجابة ، وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات
ظهرت فيها براعته ، وروى يبلده وغيره عن أبي بكر ابن خطاب وأبي الحسن
سهل بن مالك وابن قطرال وأبي الربيع ابن سالم وأبي عيسى ابن أبي السداد وأبي
علي الشلوين وغيرهم ، وكان له في الزهد ومدح النبي صلى الله عليه وسلم
بدائع ، ونظم في المواظ للمذكورين كثيراً ، انتهى مختصراً ، وإلا فترجمته في
الإحاطة متسعة ، رحمه الله تعالى .

ولما كتب له أبو المطرف ابن عميرة برسالة الشهيرة التي أولها ونحيك
الأقلام نحية كسرى ، وتقف دون مذكرك حسرى ، وهي طويلة ، أجابه بما

١ الإحاطة : وضيئ .

٢ هو الحسن بن خلاص تولى سبته سنة ٦٣٧ ثم ثار فيها في زمن السيد أبي الحسن ابن المتضد باق من
خلفاء الموحدين سنة ٦٤١ وباع للأير أبي زكريا الحفصي صاحب تونس . وكانت وفاته سنة ٦٤٦
(ابن عذاري ٣ : ٣٥٩ ط . تطوان) .

نصفه : « ما هذه التحية الكسروية ؟ وما هذا الرأي وهذه الروية ؟ أتتكتبت من الأقلام ؟ أو تكتب من الأعلام ؟ أو كلا الأمرين توجهت القصد إليه ، وهو الحق مصداقاً لما بين يديه ؟ وإلا فمهدي بالقلم يتسامى عن عكسه ^١ ، ويترامى لل غاية البعيدة بنفسه ، فمتى لانت أنانيته للعاجم ، ودانت أعاريه للأعاجم ؟ واعتجبا لقد استنوق الجمل ، واختلف القول والعمل ، لأمر ما جدع أنفه قصير ^٢ ، وارتد على عقبه الأعمى أبو بصير ، أمس استسقي من سحابه فلا يسقيني ، وأستشفى بأسمائه فلا يشفيني ، واليوم يحلتي محل أنوشروان ، ويشكروني شكوى الزيدية من بني مروان ^٣ ، ويزعم أنني أبطلت سحره بيثر ذروان ^٤ ، وعظي في نفسه ما الله مبدية ^٥ ، ويستجدي بالآثر ^٦ ما عند مستجديه ، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة ، والشرعة المبتدعة ؟ أظن أن معناه لا ينفك ، وأنه لا ينجلي هذا الشك ؟ هل ذلك منه إلا إعاض الشيء ، وإحماض تكتسيه ، ونشوة من خمر الخزل ، ونخوة من ذي ولاية آمن من العزل ؟ تالله لولا محله من القسم ، وفضله في تعليم التسم ، لأسمعت ما ينقطع به صككه ، وأودعته ما ينصدع به صدقه ، وأشرت بطرف المشرقي وحده ، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجدته ، ولكن هو القلم الأول ، فقوله على أحسن الوجوه يتأول ، ومعدود في تهليله ، كل ما لسانه يهذي به ، وما أنساني إلا الشيطان أياديه أن أذكرها ^٧ ، وإنما أقول :

١ أي من الملك .

٢ هذا مثل يرد في قصة الزباء وجذبة .

٣ الزيدية : أتباع زيد بن علي ، وقد قتلته الأمويون في زمن هشام بن عبد الملك .

٤ بثر ذروان : بناسية المدينة ، وفي حديث هشام بن حروة أن لبيد بن الأصم سحر فرسول وغياً السحر في تلك البثر .

٥ إشارة إلى الآية : « وتنفني في نفسك ما الله مبدية وتنفني الناس » .

٦ ق : بالأسد ؛ التجارية : بالآثر .

٧ من الآية : « وما أنساني إلا الشيطان أن أذكره » .

ليت التحية كانت لي فأشكرها^١

ولا عجب إلا على الحياء ، المبرحة بالبرحاء ، فهي التي أقامت قيامتي في الأندلس ، وقامت عليّ قيام المتعلية ، يتظلم وهو عين الظالم ، ويكلى القول ونحته سم الأراقيم ، ولعمر اليراعة وما رضعت ، والبراعة وما صنعت ، ما خامرني هواها^٢ ، ولا كلفت بها دون سواها ، ولقد عرّضت نفسها عليّ مراراً ، فأعرضت عنها ازوراراً ، ودفعتها عني بكل وجه ، نارة بلطف وأخرى بتجّه^٣ ، وخفت منها السامة ، وقلت : انكحي أسامة ، فرضيت مني بأبي جهم^٤ وسوء ملكه ، وابن أبي سفيان وصعلكته^٥ ، وكانت أسرع من أم خارجة للخطبة ، وأسمح من سجاح^٦ في استباح تلك الخطبة .

« ولقد كنت أخاف من انتقال الطليع في عشرينها ، واستقبال الاجتماع من عشرينها ، وأرى من الثخن والسفاه ، أخطأها وترك بنات الأفواه والشفا^٧ ، إذ هي أيسر مؤونة ، وأكثر موعة ، فظلمني فيها أن كانت بمثل تنواري صنواً عن الشمس ، ومن نسوة خفريات لا يتلقن إلا بالهمس ، ووجدتها أطوع من البنات للكف ، والمان للكف^٨ ، والمعنى للامم ، والمعنى للرسم ، والظل للشخص ، والمستدل للنص ، فما عرفت منها إلا خيراً أرضاه ، وحسبتها من الحافظات

١ من شعر كبير حزة ؟ وتماه : مكان يا جميل حيث يا رجل .

٢ الضمير حالة إلى « الحاء » ولعله يعني قصيدة أو رسالة بنيت على تكرير الحاء في كل كلمة .

٣ النجى : الرد القبيح .

٤ في ق والتجارية : أبو جهل ، وهو خطأ ، انظر التلخيص التالي .

٥ يشير إلى قصة فاطمة بنت قيس أخت الضحاك حين خطبها معاوية وأبو جهم : أما معاوية فوصف بأنه مملوك لا مال له ، وأما أبو جهم فإنه لا يضع عصاه عن عاتقه (أي يضرب النساء) ، وتزوجت فاطمة بعد ذلك أسامة بن زيد .

٦ قصة زواج سجاح من سليلة مشهورة ؛ وقد شرب بها الخمر في الإسماع .

٧ بنات الأفواه والشفا من الحروف مثل الباء والميم . . . إلخ .

٨ الكف : الكبح والنتع .

للغيب بما حفظ الله ، فعبجت لها الآن كيف زلت نعلها ، ونشزت فنشرت ما استكنمها بعلمها ، واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن أبي عبيد^١ ، وضربت في الأرض تسمى علي^٢ بكل مكر وكيد ، وزعمت أن الجليم خلعها ، وألان أخذ عها ، وأخبرها أن سيبلغ بخبرها الخابور^٣ ، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور^٤ :

« فقد جاءت إفكاً وزوراً ، وكثرت من أمرها متزوراً ، وكانت كالقوس ارتت^٥ وقد أصمت القنيص ، والمراودة قالت ﴿ مَا جَزَاء ﴾ وهي التي قدت القنيص^٦ ، وربما يظن بها الصديق وظن الغيب ترجيم ، ويقال : لقد خففت الحياء بالحوار لهذا الجليم ، وتنتصر لها التي خيمت بين الترجسة والريحانة ، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم نبي على الله سبحانه ، فإن امتعضت هذه الكلمة ، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة الكلمة ، فأنا ألوذ بعلمها ، وأعوذ بفضيلها ، وأسأله أن تقضي قضاء مثلها ، وتعمل بمقتضى ﴿ فابْتَغُوا حَكَمًا مِنْ أَمْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَمْلِهَا ﴾ (النساء : ٢٥) .

« على أن هذه التي قد أبدت ميتها ، ونسيت الفضل بيني وبينها ، إن قال الحكماء : منها كان الشوز ، عادت حرورية^٧ المجوز ، وقالت : التحكيم في دين الله تعالى لا يجوز ، فعند ذلك يحصص الحق ، ويعلم من الأولى بالحكم والأحق ، ويصيبها ما أصاب أروى ، من دعوة معلية حين الدعوى ، ويا ويحها أرادت أن تجني علي^٨ فجنت لي ، وأناخت لي مركب السعادة وما ابتغت إلا اختلي ، فأني شرها بالخير ، وجاء النزع من طريق ذلك الضير ، أترأها علمت

١ المختار بن أبي عبيد التتفي الناصر الطالعية بدم الحسين ؛ حوالي ٦٥ هـ . لم يكن ثابت الرأي بخاصة النية .

٢ أي سيبلغ خبرها إلى مكان ناء ، والخابور من ورائه الفرات .

٣ يعني سابور ذا الأكتاف ويقال إنه تنكر ودخل بلاد الروم فوقع في يد قيصر .

٤ إشارة إلى قصة امرأة العزيز « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » وعندما انفسح الأمر قالت « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ... الآية » .

٥ أي ترفض التحكيم وتقول : لا حكم إلا لله .

بما يثيره اعوجاجها ، وينجلي عنه عجاجها ، فقد أفادت عظيم القوائد ، ونظيم القرائد ، ونفس الفخر ، ونفيس الدر ، وهي لا تشكر أن كانت من الأسباب ، ولا تذكر إلا يوم الملاحاة والسياب .

« وإنما يستوجب الشكر جسيماً ، والثناء الذي يتضوع نسيماً ، الذي شرف إذ أهدى أشرف السحائم ، وعرف بما كان من انتحاء تلك الحاء الملمومة في الحمامات ، فإنه وإن ألمّ بالفكاهة ، بما أملّ من البداة ، وسمي باسم السابق السكّيت ، وكان من أمر مداحيته كيت وكيت ، وتلاعب في الصفات تلاعب الصفايح الصبّا بالبانة ، والصبّا بالعاشق ذي اللبّانة ، فقد أغرب بفنونه ، وأغرى القلوب بفنونه ، ونفت بحفّة الأطراف ، وعبث من الكلام المشقّق بالأطراف ، وعلم كيف يحضّ البيان ، ويخلص إلقاءه ، فمن الحق شكره على أيّاديه البيض ، وإن أعذ لفظه من معناه في طرف التقيض .

« أتالله أيها الإمام الأكبر ، والنعّام المستطر ، والحبر الذي يشقى سائله ، والبحر الذي لا يرى ساحله ، ما أنا المراد بهذا المسلك ، ومن أين حصل ذلك . النور لهذا الملك ، وصح أن يقاس بين الحداد والملك ؟ إنه لتواضع الأعزّة ، وما يكون عند الكرام من الهزّة ، ونحرير الشيخ للتلميذ ، وترخيص في إجازة الوضوء بالنيّد ، لو حضر الذي غُضّي له بجانب الغربيّ أمرُ البلاغة ، وارتضى ما له في هذه الصناعة ، من حسن السبك لحليها والصياغة ، وأطاعته فيما أطلّته طاعة القوافي الحسان ، واتبته فيما جمعته لكن بغير إحسان ، لأذن كما أذعنت ، وظن عن محل الإجابة كما ظننت ، وأنتى بضاهي الفرات بالنبة ، ويباهي بالفلوس من أوتي من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة ، وأي حظ للكلاّلة بالنشب ، وقد اتصل للورثة عمود النسب ، هيهات والله المطلب ، وشتان الدر والمخشبكّ ، وقد سيم الطلب ، ورجع إلى قياده السلب .

« وإن كنتما ممن تقدّم لشدة الظلم إلى المنهل ، كن أقدم إلى عين تبوك بعد النهي للعلل والمنهل ، فقد ظهرت بعد ذلك المعجزة حيّناً ، وملاً ما هنالك جناناً ،

وما تعرضنا لإساءة الأدب واللوم ، ولكن علمنا أن آخر الشرِّب ساقى القوم ، وإن أسهبنا فما فلنا رتبة ذلك الإيجاز ، وإن أعرقنا فهوانا في الحجاز ، فلكم قصيرات الحجال ، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال ، وإكثارنا في قلّة ، وجارنا من الفقر في فقر وذلة ، ومنّ لنا بواحدة يشرق ضياؤها ، ويخفي النجوم خجلها منها وخبياؤها ؟ إن لم تطل فلائتها للفروع كالأصل ، وفي الجموع ككيلة الوصل ، فلو سطع نورها الزاهر ، ونورها الذي تطيب منه الأنوار الأزاهر ، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال ، ووجدت قنحات ربّاه في أعطاف الجنوب والشمال ، وأسرعت نحوها النفوس لإسراع الحبيج يوم التفرّ ، وسار غيرها وسرى فصار حديث المقيمين والسفر ، وما ضرّ تلك السخرة في تجليها ، الساحرة بتجنّنها ، أن كانت بمنزلة ربيبتها بل ربيبتها ، هذه التي سبقني لما سبقني بسيتتها ، ووجدت ربيها لما فصلت من مصر غيرها ، وحين وصلت لم يدلي على ساريا إلا عيبرها ، وكم رامت أن تستر عني لبيل حبرها في هذه المغاني^١ ، فأغراني بهاؤها^٢ وكل مغرم مغرى بياض صبح الألفاظ والماني ، وهل كان يغمها ، تلفحها بمرطها وتلفعها ؟ إذ نادتها المودة ، قد عرفناك يا سودّة ، فأقبلت على شم نشرها وعرفها ، ولثّم سطرها وحرّفها ، وقرنتها الثناء الحافل ، وقرأتها فزيت بها المحافل ، ورمت أمر الجواب ، فعزني في الخطاب ، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزي واشية ، وإليكم مني على استحياء ماشية ، وإن رقّ وجهها فما رقت لها حاشية ، فمنا بقبولها على حلها ، وانقعوا بماء سماحتكم حرّ غلّكها ، فإنّها وافدة من استقر قلبه عندكم وثوى ، وأقرّ بأنّه يلقط في هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من الثوى ، بقيتم سيدي للفضل والإغضاء ، ودمت غرة في جبين السمحة البيضاء ، واقتضيت السعادة

١ السجّة : الذين قبل نزول النيرة .

٢ ق : أن يسترني الليل غيرها في هذه المغاني .

٣ ق : بها .

المتصلة مدة الاقتضاء ، يُبْعِنُ الله سبحانه » انتهى .

ومن نثر ابن الجنان رحمه الله تعالى في شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم :
« لمحمد خير الأنام ، ولبيّنة التمام ، عليه أفضل الصلّاة والسلام ، خيرة المفاخر ،
يتضائل لعظمتها المفاخر ، والمعالى ، يتصاغر لعزّها المعالى ، والمكّارم ، يعجز
عن مساجلتها المكّارم ، والمناقب ، لا تضاهي سناها النجوم الثواقب ، والمحامد ، لا
يبلغ مداها الخامد ، والمجاد ، لا يتعاطى رتبهنّ المُجاد ، والمناسب ، سمت
بجلالهنّ المناصب ، والعناصر ، طيّبها الشرف المتناصر ، والفضائل ، تفجرت
في أرجائها الفواضل ، والشمال ، تأرّجتْ بعرفهنّ الجنائب والشمال ، فلا
مُجاري لسيد البشر ، الآتي بالندارات والبشّر ، فيما حياه الله تعالى به وخصّه ،
وقصّه علينا من خلقه العظيم ونصّه ، عند رسم مداحه يوجد الموقّ ، وفي الثناء
عليه يُستقصّر الكلام المطوّل ، هو الآخر في ديوان الرسالة والأوّل ، وله
في الفضيلة ، وقبول الوسيلة ، النص الذي لا يؤوّل ، نوره صدى الظلّم ، وظهوره
رفع لدين الله تعالى العلكم ، بدأه الوحي وهو بحراء ، وأسرّ إليه سرّ تقدم الإسماء ،
حتى إذا نصب له المعراج ، وتوقد في منارة السماء ذاك السراج ، ناجى الحبيب
حييه ، وجلا عن وجه الجلاء جلاييه ، فطلق ما تلقى ، لما علا وترقى ، ثم صدر
عن حضرة القدس ، وجبين هدايته يَبْهَرُ سنا الشمس ، فشق لمعزاته القمر ،
ونهى بأمر ربه وأمر ، وأزال الجهالة ، وأزاح الضلالة ، وكسر منصوب الأوثان ،
ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان ، وبني الملة على قواعد
الحسن ، وأحيا دين إبراهيم وكان رُفَاتاً بالرمس ، فرفلت الخنيفة البيضاء في
بردة الجلدة ، وبيضت بيضاء غرتها أوجه الأيام المسودة ، وانتشرت الرحمة
بنيها ، ومطرت الرحمة من سحب حيا ، واقتنت الآيات الباقيات البينات في
مساقها واتساقها ، وإشراقها في آفاقها واتلاقها .

« وشهد الحجر والشجر ، والماء من بين البنان يتفجر ، والظبية والغضب ،
والبلذخ المشتاق الصب ، والشاة والبحير ، والليث إذا هدأ أو سمع منه الزئير ،

والحي والجماد ، والقَصَصَة والزاد ، بأن محمداً رسول الملك الحق ، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق ، وصاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورد ، والقول المسموع ، والذكر الرفوع ، والصدر المشروح ، والفخر الباهر الوضوح ، والأنوار المتناقلة ، والآثار المتداولة ، والنبوة التي عهدُها تقدم ، من قبل خلق آدم ، والمزية المعروفة قدرها الجليل ، المقبول فيها ما دعا به الخليل ، والرتبة التي استشرف إليها الكليم ، حتى قال له ﴿ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الاعراف: ١٤٤) ربُّه الكريم ، والبشارة التي كان بها يصبح حسين يسيع ، روح الله تعالى وكلمته عيسى المسيح ، والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم ، ويقرع بها الباب المرتجع المهيم ، فما لبينا المختار ، من علو المقدار ، واصطفاه الجبار ، والاختصاص بالأثرة ، والاستخلاص للحضرة ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليم .

«وحسب هذا الوجود من الفضل الرباني والحدود الذي لم يزل عظيماً ، أن بعث الله تعالى فيه رسولاً رؤوفاً بالمؤمنين رحيماً ، عزيزاً على ربِّه الكريم كريماً ، بمرته سجدت الملائكة لآدم تعظيماً ، وبذكره ينظم سلك المادح لحضرته العلية تنظيماً ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً ، صلاة تتصل ما دار كأس محبته على أحبته . فكان مزاجه تَسْنِئاً ، وسلاماً يتزل دار دارين فيرسل يبضائعها إلى روضة الرضى نسيماً » .

ومن خطبه المرتجلة قوله ساعده الله تعالى :

«الحمد لله الذي حمّدُه من نعمائه ، وشكره على آلائه من آلائه ، أحمده حمداً عارف بحق سنائه ، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه ، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به في كل آثائه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بعظمته وكبريائه ، المتقدس عما يقوله الملحدون في أسمائه . وأصلي على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه ، محمد المفضل على العالمين بلجنتائه

واصفاته ، المستقى من صميم الصميم وصریح الصريح بجملة آياته ، المرتضى
الإمامة والمكانة بإبلاغ أمر الله وأدائه ، أرسله الله للناس كافة عموماً لا يتخصص
بأستثنائه ، وقضله بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين
ونظرائه ، ورقاه إلى الدرجات العلا وأنهاه إلى سِدْرَةِ المنتهى ليلة إسرائه ،
وحبّاه بالخصائص التي لا يضاهي بها بهاء كماله وكمال بهائه ، وردّاه رِداء العصمة
فكانت عناية الله تكفيه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه^٢ ، وفواه من حظوظ البأس
والندى ما شهد بجزيلته على الليث والنيث في إياه وانهمائه ، صلى الله عليه وعلى
آله مصابيح الهدى ونجوم سماءه ، صلاة تتصل ما سمح البدر بالتلاق أنواره
والقطر ياندلق أنواره ، وسلم تسليماً .

ومن نوره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين
صلى الله عليه وسلم ، وهي :

« السلام العميم الكريم ، والرحمة التي لا تريح ولا تريم ، والبركة التي أوّلتها
الصلاة وأخرها التسليم ، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة ، المؤيدة
بالعصمة والأيد والقوة ، ومثابة البر والتقوى فهي لقلوب الطيبين صفّاً ومروّة ،
مقام سيد العالمين طوّراً ، وهاديبهم عبداً وحرّاً ، ومتقدمهم من أشراك الهلاك وقد
طلما ألفوا العيش ضنكاً والدرهم مرّاً ، ومقر الأنوار المحمدية ، والبركات
السرمدية ، أمتع الله تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها ، وكلامه ظلّها
العلية وأفيائها ، وأقر عين عبدها بلثم ثراها ، والانخراط في سلك من يراها .

« السلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا أبا القاسم ،
سلام من يمدّ إليك يد الفريق ، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المصّيق ،
ويتقطع أسفاً ويتنفس صعداً كلما ازدلف إليك فريق ، وعمرت نحوك طريق ،

١ ح : حجة .

٢ ورداه ... ورائه : سقطت من ق .

ولا يقر صلاة عليك له لسان ولا يحف ريق .

« كُتِبَ يا رسول الله وقد رحل المجنون وأُقيمت ، واستقام المستعملون وما استقامت ، وبني وبين ثم ثراك النبوي ، ولح سنالك المحمدي ، متجاوز لا يفوز بقطمها إلا من طهر دنس ثوبه ، بماء تَوْبِهِ ، وسر وَصَمَ صِيهِ ، بظهر غِيَبِهِ ، فكلما رُمْتُ المِتاب رُدِدَتْ ، وكلما يَمُت الباب صُدِدَتْ ، وقد أمرنا الله تعالى بالمجيء إليك ، والوفادة عليك ، ومن لي بذلك يا رسول الله والآثام تُنْشَى وتُبْعَدُ ، والأيام لا تُدْثِي ولا تُسْعِد ، وبين جنبي أشواق لا يزال يَزْفِي منها المُكَيِّم المُبْعِث ، ولئن كنت مَمَّنْ خَلَقْتَهُ عِيوبِهِ ، وأَوْبَقْتَهُ ذُنُوبِهِ ، ولم يَرْض للوفادة وهو مذنس ، على ذلك المقام وهو المطهر المقّمس ، فعندي من صدق محبتك ، وحبّ صحبتك ، والاعتلاق بلمتك ، ما يَهْتَمُّني وإن كنت مبطلاً ، ويقرّني وإن كنت غلطاً .

« فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المي ، وتوسل لي إلى مَوَلَّيْ بَيْنَ فَضيلتك ، وقَبْلِ وسيلتك ، في القلة من هناك إلى هنا ، واقبلي وإن كنت زائغاً ، واقبلي عليّ وإن أصبحت إلى الإثم متجانفاً ، فأنت عماد أمّتك جميعاً وأشتاتاً ، وشفيهم أحياء وأمواتاً . ومن نأت به الدار ، وقعدت بعزمه الأقدار ، ثم زار خطّه ولفظّه ، فقد عظم نصيبه من الخير وحظّه ، وإن لم أكن سابقاً فمضى أن أكون مُصَلِّياً ، وإن لم أعد مُقْبِلاً فاعلمي أعد مَوْلِياً ، ووحقك وهو الحق الأكيد ، والقسم الذي يبلغ به المُكَيِّم ما يريد ، ما وتحدت إليك ركاب ، إلا والقلب إثرها التهاب ، وللدمع بعدها سَحْ وانسكاب ، ويا ليتني ممن يزورك معها ولو على الوجنتين ، ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين ، وما الغنى دونك إلا يؤس وإقلال ، ولا الدنيا وإن طالبت إلا سجون وأغلال ، والله تعالى يمن على كتابي بالوصول والقبول ، وعلى بلحاقي ببركتك ولو بعد طول .

« ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك يا سيد الخلق ، وأقرهم من الحق ، ولولاه بإحراز قَصَبِ السَّبْق ، ومن طهر الله تعالى مشواه وقدّسه ، وبناه على

التقوى والرضوان وأسمه ، وآتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناؤه وأنفسه ، وعلى ضجيعيك السابقين لمهاجرينك وأنصارك ، الفائزين بصحبتك العلية وجوارك ، وعلى أهل بيتك المطهرين أوائل وأواخر ، الشهيدين مناقب ومفاخر ، وصحابتك الذين عزروك ووقروك ، وآووك ونصروك ، وقدموك على الأنفس والأموال والأهل وأثروك ، وأقرتكم سلاماً تنال بركته مَنْ مضى من أمتك وغبر ، ويخص بفضل الله تعالى وجاهك من كتب وسطر ، إن شاء الله تعالى .

« كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى ، اللائد بحرمك الأيمن الأوفى ، المتأخر جسماً المتقدم نطقاً ، فلان ، والسلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا ورحمة الله تعالى وبركاته . »

وله من خطبة طويلة : « ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الصفوة المجتبي ، الكريم أمّاً طاهرة وأباً ، المختار من الطيبين مباركاً طيباً ، المصطفى نبياً إذ كان آدم بين الماء والطين متقرباً ، المتقدم بمقام تأخر عنه مقام الملائكة المقربين ، انتخبه الله وانتجبه ، وأظهره على غيب عن غيره حجبته ، وشرفه في الملأ الأعلى وأعلى رتبته ، وخط اسمه على العرش سطرًا وكتبه ، فهو وسيلة النبيين ، والمرشع أولاً لإمامة المرسلين ، بعثه زيه لحتم الرسالة ، ونعته بنعت الشرف والجلالة ، وأيده بالحجة البالغة والدلالة ، وجعله نوراً صادعاً لظلام الضلالة ، وأثنى في ذكره الحكيم ، على خلقه العظيم ، فما عسى أن يبلغ بعد ثناء المؤمنين ، بفضله التصريح وإليه الإشارة ، وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى البشارة ، وعليه راقت من صفة الرؤوف الرحيم الحلية والشارة ، وهو المخير بين الملئك والعبودية فاختار العبودية بعد الاستخارة والاستشارة ، فبفراضه حل بمكان عند ذي العرش مكين أسرى به ربه إليه ، ووفد أكرم وفادة عليه ، وأدناه قاب قوسين لديه ، ووضع لإمامة الرسالة العظمى في يديه ، وقال له ﴿ اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (الحج : ٩٤) فصعد بأمر الله

صَدْعًا ، وَأُوتِيَ مِنَ الْمِثْنِ سَبْعًا ، وَمِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ آلَافًا وَإِنْ كَانَ أُوتِيَ
مُوسَى تَسْمَعًا .

«فما مثيُ الشجرِ إليه يمر عروقهُ إلا كرجوع العصا حية تسعى ، وما تفجرُ
الحجر بالماء بأصعب من بنائه نبعث بالقلب الفرات نبعًا ، فارثوى منه خمسمائة
وقد كان يكفي آلفًا فكيف المئين ، وكَم لَهُ عليه الصلاة والسلام من معجزة
تبهر ، وآية هي من أختها أكبر ، رجعت لَهُ الشمس وانشق القمر ، وكلمته
الضرب وأخبر به الذئب وسلّم عليه الشجر والحجر ، وَكَانَ لِلْجُلُوعِ عِنْدَ فِرَاقِهِ
إِعْلَانًا يُوْجِدُهُ وَاشْتِيَاقَهُ أَنَّهُ وَحِينَ ، أُعْطِيَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ،
وَكَانَتْ لَهُ فِي الْفَارِ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ خُفِيَ بِهَا عَلَى الْقَوْمِ الْأَكْثَرُ ، وَارْتَجَّ لَوْلَاهُ لِإِيْوَانِ
كَسْرَى وَخَمَدَتْ نَارُ فَارَسٍ وَكَانَ ضَرْمُهَا يَتَسَعَرُ ، وَأَتَتْهُ أَنْجَارُ السَّمَاءِ فَمَا عَمِيَ
فِي الْأَرْضِ الْخَبَرُ ، فَحَدَّثَ عَنِ الْغُيُوبِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ، وَجَعَلَ لَهُ
الْقُرْآنَ مُعْجَزَةً تُعَلِّي ، يَبْتَلَى الزَّمَانُ وَهِيَ لَا تَبْتَلَى ، وَتَعْلُو كَلِمَاتُهَا عَلَى الْكَلِمِ
وَلَا تُعَلِّي ، وَتَجْمَلُ آيَاتُهَا فِي عَيْنِ آيَاتِ الشَّمْسِ حِينَ تُجَلُّ ، فَيَتَوَارَى مِنْهَا
بِالْحِجَابِ حَاجِبٌ وَجِينٌ ، يَهْرُ لِصَجَازِ التَّزْيِيلِ الْعَلِيِّ ، وَظَهَرَ بِهِ صَدَقُ النَّبِيِّ
الْعَرَبِيِّ ، فَكَيْفَ نَادَى لِسَانُ عِزِّهِ فِي النَّدَى ، بِأَهْلِ الْبَلَدِيَّةِ مِنَ الْقَصَصَاءِ وَالرُّوِيِّ :
قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فَلَمْ يَكُونُوا لَهَا مُسْتَطِيعِينَ .

«لقد خصص نبينا عليه السلام بالآيات الكبر ، والدلالات الواضحة الفُزْرَ ،
والمقامات السامية المظهر ، والكرامات المخلّدة للمفخر ، فهو سيد الملأ النبوي
والمعشر ، وحامل لواء الحمد في المحشر ، وصاحب المقام المحمود والكوثر ،
والشفيع المشفّع يوم يقوم الناس لرب العالمين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ،
وذريته المباركين . وصحابه الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، صلاة
موصولة تتردد إلى يوم الدين ، وتصعد إلى السموات العلا فتكون كتابًا في
عِلْيَيْنٍ ، وسلّم تسليمًا .

ومن ثره في خطبة قوله : «أيتها الناس ، رحمكم الله تعالى ، أضيخوا

أسماعكم لمواظب الأيام ، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولي النهى والأحلام ،
وأخضروا نفهم موادها أوعى القلوب وأصح الأفهام ، وانظروا آثارها بأعين
المستيقظين ولا تنظروا بأعين النائم ، ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل
الآباطيل وأصغاث الأحلام ، ولا تنسينكم خدعها الموهبة وخيالاتها الممثلة
ما خلا من مقالاتها في الأنام ، فهي دار اتياب التواب ، ومصاب المصائب ،
وحلوث الحوادث والنام الآلام ، دار صفوها أكدر ، وسلمها حرب تدار ،
وأمنها خوف وحذر ، ونظمها تفرق وانتشار ، واتصالها انقطاع وانصرام ،
ووجودها فناء وانعدام ، وبنائها تَضْمَنْضُجٌ وانهدام ، يتأدي كل يوم بناديبها
منادي الحميم ، فلا قرار بهذه الفراة^١ ولا مقام ، ولا بقاء لساكنيها ولا دوام .
« فبست الدار داراً لا تدارى ، ولا تُكْمِلُ لعائريها عثارا ، ولا تقبل لمعتلر
اعتذارا ، ولا تقي من جورها حليفاً ولا جارا ، وليس لها من عهد ولا ذمام ،
كم فتكت بقوم غافلين عنها نيام ، كم نازلت بنوازها من قباب ونخيام ، كم
بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسقام ، كم رمت أغراض القلوب بمصميات^٢
السهم ، كم جردت في البرايا للمنايا من حسام ، كم بددت بأكف النائيات
الناهيات من عطايا جسام ، كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ وكهل وغلाम .
لا تبقي على أحد ، ولا ترثي لوالد ولا ولد ، ولا تخلد سروراً في خلد ، ولا
يمتد فيها لأمل أمد ، بينا يقال قد وجد ، إذ قيل قد فقد . بُعْدُ لها قد طُبِعَتْ
على نكد وكد ، فالفرح فيها تَرَحُّ ، والخبرة عبرة ، والضحك والابتسام ،
بكاء وأدمع سجام . تفرق الأحبة بعد اجتماعهم ، وتسكن الوحشة مؤنس
رباعهم ، وتبيح بالحميم حمى الأعزّة فلا سبيل إلى امتناعهم ، وتستحث ركائب
الخلاتق على اختلاف أنواعهم ، إلى مصيرهم إلى الله عز وجل وارتجاعهم ،

١ ق : القراة .

٢ ق : جزاهاها بمصميات .

فيسرون طوع الزمام ، ويلقون مقادة التلأل والاستسلام ، حتى يلجأوا بالرغام ،
ويتزلوا بطون الرجام ، ويحلّوا الوهد بعد المقام السام ، فلا ناج من خطبها العظيم
ولا سليم ، يتساوى في حكم المنة الأغر والبهيم ، والأعز والمضميم .

«ولو أنه ينجو من ذلك مجد صميم ، وجدّ كريم ، وحظ عظيم ، ومضاه
وعزيم ، ومزية وتقديم ، وحديث في الفضل وقديم ، وشرف لسمك السموات
مُسام ، وعُلَى على ساق العرش المجيد ذو ارتسام ، لنجا حبيبُ الملك العلام ،
وسيد السادات الأعلام ، وصفوة الصفوة الكرام ، ونخاتم الأنبياء وتبينة التمام ،
وصباح الهدى ومصباح الظلام ، والأبيض المستسقى به غيثُ الغمام ، ثمال
الأرامل وعصمة الأيتام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، لكن مع قدره الجليل
وفضله الجلي ، أقدم الموت على جانبه العلي ، وتقدم ملك الموت لقبض روحه
التقديمي وتغيّب في الثرى جمال ذلك الوجه البهي ، وتفيض ماء السماء والندى ، للملك
الساحبة النبوية والندى ، وأصيب المسلمون وأعظم بها مصيبة بنيهم العربي ،
الهاشمي القرشي ، فإله للإسلام ، من مصاب أسلمنا للحزن أيّ إسلام ،
وأسأل مياه اللعوم عن احتراق للصلوع واضطرام ، وأرانا أن الأمى في رزية
لخير البرية واجب وأن التأمي حرام .

«وهل يسوغ الصبر الجميل ، في تقيد بكته الملائكة وجبريل ، وكثر له في
السموات السبع النحيب والويل ؟ انقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل ،
وعظمت الرزية به أن يؤدي حقيقتها الوصف^١ والتمثيل ، غداة أفقر منه الربيع
الحُجَيل ، وأوحش من أنه البقع والتخيل ، وكان من تلك الروح الطاهرة
الوداع والرحيل ، وقامت البَتُولُ تنذب أباهما بقلب قريح وجفن دام ، وتنادت
الأمّة مات الرسول فني كل بيت بكاه وانتحاب ونوح والترام ، وحارت الألباب
والعقول فلا صبر هنالك لقد زلّت من الصبر الأقدام . ولما نُعيت إليه صلى الله عليه

١ الوصف : سقطت من ق .

وسلم نفسه ، وآن أن تأفل من تلك المطالع شمس ، آذن أمته بالفراق وأعلمهم ،
وناشدهم في أخذ القصاص وكتهم ، مخافة أن يمضي إلى الملك الحق ، وعليه
تباة لأحد من الخلق ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام ، من صفات جائر للأمة
ظلام ، ولكنه تعريف من نبي الرحمة بما يجب وإعلام ، ثم استمر به صلوات
الله وسلامه عليه وتمادى ، وزاد به السقم المتأب وتهادى ، حتى واره ملكه ،
وبخل منه ربه ومسجده ، فعم الحزن والاكتئاب ، وتوارى النور فأظلم
الجناب ، وعاد الأصحاب ، وكأنما دموعهم السحاب ، فقالت فاطمة وقد رابها
من دفن أبيها الكريم ما راب : أطابت نفوسكم أن تحشوا على رسول الله صلى الله
عليه وسلم التراب ؟ فكان كلامها للقلوب المفجعة كلام ، وللعيون المفجرة
بالدموع انفاس وانسجام .

وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع ، المشيد بذكر الأشجان المذيع ، كانت وفاة
هذا النبي الهادي الشفيح ، وانتقاله إلى الملا الأعلى والرفيق الرفيع ، حين ناداه ربه
إلى قربه ، فلبى بشوق قلبه تلبية المطعم المطيع ، وحن إلى حضرة القدس فانظم
حين حل بها ما كان من شمله الصديق ، وانتظر من صنع الرب جميل الصنيع ،
وإنجاز وعد الشفيح في الجميع ، إذ أعطي لواء الحمد وقام محمود المقام ، ووقف
على الخوض ينادي : هلموا إليّ أروكم من العطش والأوام .

«اللهم اسقنا من حوضه المورود ، وشرّفنا بلوائه المعقود ، وشفّعه فينا في
اليوم المشهود ، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللّحد ، اللهم اجعله لنا
تزية من كل مفقود ، وأوجد لنا من بركاته أشرف موجود ، وجازه عنا بما
أنت أهله من فضل وإحسان وجود ، وانفعنا بمحبته وعبه آله وصحابته الرّكّع
السّجود ، واجعلنا معهم في الجنة دار الخلود ودار السلام . واخصصهم عنا
بأكرم تحية وأفضل سلام ، وصلّ عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أيّ
استلام ، وتنظم له كرامات إحسانك أيّ انتظام .

«فصلوات الله عليه ، وأطيب تحياته ورحمته تتوالى لديه ، وأجزل بركاته ،

ما نجد في ربيع ذكر وفاته ، ونشهد كهف القبول لطالبي فضله وعلماته ، ونعزي به كل مصاب في مصيباته ، وترجى شفاعته كل محب فيه متبع لهداياته ، وتوفرت للمصلين عليه والمسلمين على جنابه ، حظوظ من بَرَّ الله تعالى وأقسام ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦) اللهم صلِّ عليه من نبي لم يزل بالمؤمنين رؤوفاً زحيماً ، اللهم صلِّ عليه من نبي أوجبت حبه وعظمته تعظيماً ، اللهم صلِّ عليه من نبي صليت عليه تجلّة وتكرماً ، وأمرتنا بالصلاة عليه لإرشاداً وتعليماً ، فلنا بأمرك اقتداء واتِّمام ، وبمحمّدك على ما هديتنا افتتاح واختتام ، وكلامك يا ربنا أشرف الكلام ، ولوجّهك وحده البقاء والدوام ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن : ٢٧) ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (غافر : ٦٥) انتهى .

وترجمة ابن الجنان واسعة جداً ، وكلامه في النبويات نظماً ونثراً جليل ، رحمه الله تعالى .

وقال لسان الدين في « الإحاطة » بعد أن عرف به وأورد له الرسالة ما صورته : ومحاسنه عديدة ، وآماده بعيدة ، ثم قال : إنّه انتقل إلى بياضة فتوفّي بها في عشر الخمسين وستمائة ، انتهى .

وقال صاحب « عنوان الدراية » في حق ابن الجنان المذكور ما ملخصه^١ :
 الفقيه الخطيب ، الكاتب البارع الأديب ، أبو عبد الله ابن الجنان ، من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان ، وجودة الخط وحسن الضبط ، وهو في الكتابة من نظراء الفاضل أبي المطرف ابن عميرة المخزومي ، وكثيراً ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء ، ولا يصل إليه إلا القليل من البلغاء ، ونثره ونظمه

١ عنوان الدراية : ٢١٣ .

كأنه حسن ، ونظمه غزير ، وأدبه كثير ، ومن ذلك قصيدته الدالية التي مطلعها :

يا حاديَ الركبِ قفْ بالله يا حادي وارحمْ صبايةَ ذي نأي وإبعادِ
وله أيضاً :

تركُ التزاهةَ عندنا أدى إلى وصفِ التزاهةِ
ما ذاكَ إلا أنهَا تدعو الوقورَ إلى الفكاهةِ
وإذا امرؤُ نهلَ الوفا رَقَّ قد تلبسَ بالسفاهةِ

[قصائد من الملاح النبوية]

ومن بديع نظم ابن الجنان رحمه الله تعالى هذا التخميس في مدح سيد
الوجود ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم^١ :

اللهُ زاد محمداً تكريماً
وحبَّاهُ فضلاً من لدنه عَظيماً
واختصَّهُ في المرسلين كريماً

ذا رَأْفَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

جَلَّتْ معاني الماشي المرسر
وتَجَلَّتْ الأتوارُ منهُ لِحْجَتِي
وسَمَا بِهِ قُلُوبُ التَّخْلِيفِ المَعْتَلِي

فاحتلَّ في أفقِ السَّماءِ مَقِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

١ وشرف وكرم : سقطت من ق .

حاز المحامدَ والمادحَ أحمدُ
وزكتَ مناسِبُهُ وطابَ المحتدُ
وثأثَلَتْ علياؤه والسودُ

مجداً صميماً حادثاً وقديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

شمسُ الهداية ، بدرُها الملتاحُ
قطبُ الجلالة ، نورها الوضّاحُ
حيثُ الساحة للندي يرتاحُ

· يروي بكوثره الظماء الهيما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

تاجُ النبوة ، غاتمُ الأنبياء
صفو الصريح ، خلاصةُ العلياء
نجلُ الذبيح ، سلاةُ العلماء

بُشرى المسيح ، دعاء إبراهيم صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فخرُ لآدم قد تقدّم عصره
من قبل أن يدري ويمجى ذكره
سرّ طوّاه الطينُ فهمَ نشره

محقى السجودِ لآدم تفهيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لله فضلُ المصطفى المختارِ
ما إن له في المكرمات مُجاري
ولا مبارٍ باختصاص الباري

بالحقّ قدّم مجده تقدّماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أوصافُ سيّدنا النبيّ المادي
ما نالنا أحدٌ من الأجمادِ
فالرُّسل في هدي وفي إرشادِ

قد سلّموا لنبيّنا تسليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

آياته بهرّت سنا وسناء
وأفادت الثّمرين منه ضياء
وعلت بأعلام الظهور لواء

فهدي به الله الصراط قريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ذلت النجوم الزّهر يوم ولادته
ورأت حليلة آية لسيادته
وتحدّثت سعد بذكر سعادته

فتفّساءلوا نعم اليّيم يتيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لما تزعزع جاءه الملائكانِ
بالطست فيها حكمة الرحمن
فاستخرجوا القلب العظيم الشانِ

منه وطهر ثم عاد سليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

كومت مثافي أسد غير الزّورى
وجرى له القلم العلي بما جرى
ما كان ذلكم حديثاً يُقرى

لكنّه الحقّ الجلي رسوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ما زالَ برهانُ النبيِّ يُلوحُ
يُقدِّمُ بهِ الإعجازُ ثمَّ يروحُ
حتى أتاهُ بعدَ ذاكَ الروحُ

يُوحِي لهُ وحيَ الإلهِ حكيماً صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليماً

شهدتُ لهِ بِمِزْيَةِ التَّضْفِيلِ
سُورَ وَأَيَّاتٍ مِنَ التَّنْزِيلِ
وَصَلَاةُ خَالِقِهِ أَدْلُ دَلِيلِ

فأفهمتهُ واسمعَ قولهُ تعظيماً صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليماً

إنَّ الرُّسُولَ المَعْتَلِي المَقْدَارِ
لَمُؤَيَّدٌ مِنْ رَبِّهِ القَهَّارِ
بِالْمُعْجَزَاتِ جَلَّتْ عَمَى الْأَبْصَارِ

وَشَفَّتْ مِنْ آدَوَاهِ الضَّلَالِ سَقِيماً صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليماً

كَمْ شَاهِدٍ لِمُحَمَّدٍ بِنُبُوَّتِهِ
فِي أَيْدٍ تَأْيِيدِ الْإِلَهِ وَقُوَّتِهِ
فَبِذَاكَ أَعْلَى اللَّهِ دَعْوَةَ حَاجَّتِهِ

فَمَضَتْ حَسَاماً صَارِماً وَعِزِيماً صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليماً

الْبَدْرُ شَقِيٌّ لَهُ لِيُظْهَرَ صِدْقُهُ
وَالشَّمْسُ قَدْ وَقَفَتْ تَمْطِطُ حَقَّهُ
وَالْمِزْنَ أُرْسِلَ إِذْ تَوَسَّلَ وَدَقُّهُ

فَأَخْضَرَ مَا قَدْ كَانَ قَبْلُ هَشِيماً صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليماً

والماء بينَ بَنَانِهِ قد سالا
عذباً مَتِيناً سائِلاً سلالاً
كنداهُ يَمْنَحُ رَفْدَهُ من سالا

وَيُنِيلُ رَاجِيهِ النَوَالِ جَسِيماً صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

بِرَكَاتِهِ أَرَبَّتْ عَلَى التَّعْدَادِ
كَمْ أَطْعَمَتْ من حَاضِرِينَ وَبَادِي
مِنْ قَصْعَةٍ أَوْ حِثْيَةٍ من زَادِ

رِزْقاً كَرِيماً لِلْجِيوشِ عَمِيماً صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

سَجَدَ الْبَعِيرُ لَهُ سَجْدَةً تَذَلُّلِ
وَشَكَكَ إِلَيْهِ بِحَرَقَةٍ وَتَعَلُّلِ
وَالشَّاةُ قَالَ ذِرَاعَهَا : لَا تَأْكُلِي

مَنْيَ فُلَانِي قَدْ مَلَكْتُ سُمُوماً صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

وَالْفَخْرُ جَاءَ إِلَيْهِ يَمْشِي مُسْرِعاً
وَالصَّخْرُ أَفْصَحَ بِالتَّحِيَّةِ مَسْمُوماً
وَالظُّلْمَةُ الْعِجْمَاءُ فِيهَا شُفْمَا

وَالضَّبُّ كَلَّمَ أَحْمَدًا تَكْلِيماً صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

وَالْجُلُوعُ حَنَّ لَهُ حَنِينَ الْوَالِدِ
يَبْدِي الَّذِي يَتَّقِيهِ من بِلَالِهِ
أَفْكَلاً يَحْنُ مَتِيماً بِجِمَالِهِ

يَشْتَاقُ وَجْهَهُ لِلنَّبِيِّ وَسَيْمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

ما بالنا نسلو وحبُّ حبينا
يقضي بيتَ غرامنا ونحينا
لو صح في الإخلاص عقد قلوبنا

لم ننسَ عهداً للرسولِ كريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أين الدموعُ تُبَيضُها هتافنا
أين الضلوعُ نُقِضُها أشجاننا
حتى بقيمٍ على الأُمى برهاننا

لنحمِّدَ إرشادنا تَتَمِّمنا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أوليس هادينا إلى سُبُلِ الهدى
أوليس مثقِّدنا مِن أشرارِ الردى
أوليس أكرمَ من تعمّمَ وارثدى

أو لم يكنْ أذكى البريةِ خيمنا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ذاك الشفيعُ مقامه محمودُ
ولواؤه بيدِ العلا معقودُ
فلذا توافقتْ للحصابِ وفودُ

قالوا : تقدّمْ بالأناجِمِ زعيمنا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فيقومُ بالبابِ العليِّ ويسجدُ
ويقولُ : يا مولاي آنَّ الموعدُ
فيجيبُ : قلْ يُسَمِّحْ إليك عهدُ

ونُريكَ مِنّا تَضَرَّةً ونعيمنا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أَعْظِمُ بِرَّ عَمَدٍ وَيَاجِهِ
أَكْرَمُ بِهِ مَتَوَسِّلًا لِإِلَهِهِ
شَرِيتُ كِرَامَ الرُّسُلِ فَضْلَ مَيَاهِهِ

فَقَدِيتُ تَعْظِيمُ حَقِّهِ تَعْظِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يَا سَامِعِي أَنْخَبَارِهِ وَمُفَاجِرَتِهِ
وَمُطَالَعِي آثَارِهِ وَمَائِثَتِهِ
وَمُؤْمِلِي وَاقِي الثَّوَابِ وَوَافِرَتِهِ

إِنْ شِئْتُمْ فَوْزًا بِذَاكَ عَظِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

قلت : وكثيراً ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس ،
وأضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح
النبوية مَقِيلٌ وتَحْرِيسٌ ، وهي قصيدة ميلادية كأنما لم ينظمها مؤلفها إلا مقدّمة
لهذه القصيدة القريفة ، وهي :

اسْمَعْ حَدِيثًا قَدْ تَضَمَّنَ شَرْحُهُ رَوْضًا مِنَ الْإِنْسَانِ أَيْبَغَ دَوْحُهُ
فِيهِ الشِّفَاءُ لِمَنْ تَكَاثَرَ بِرَّحُهُ وَافِي رَيْبٍ قَدْ تَمَطَّرَ نَفْحُهُ
أَذْكَى مِنَ الْمَسكِ الْقَتِيقِ نَسِيمًا

شَهْرٌ حَوَى بِوُجُودِ أَحْمَدَ أَسْعَدَا بِالْمُصْطَفَى بَيْنَ الشُّهُورِ تَفَرَّدَا
يَا مَا أَجَلَ سَنَا عُلَاهُ وَأَجَدَا لَوْلَادَةِ الْمُخْتَارِ أَحْمَدَ قَدْ غَدَا
يَزْهَوُ بِهِ فَخْرًا تَرَاهُ عَظِيمًا

يَا مَنْ بِأَدْمَعِ مَقَلَّتَيْهِ يَغْتَلِّي كَمْذَا تَنَادَى حَسْرَةً : مَنْ مُقَلَّدِي
وَقَوْلِ الزُّفْرَاتِ : هَلْ مِنْ مَنْفَذٍ بُشِّرِي بِشَهْرٍ فِيهِ مَوْلَدُهُ الَّذِي
سَرَّ الزَّمَانَ عُلُوَّهُ تَعْظِيمًا

١ ق : بز .

يا ليلةً رُفعت بأحمدٍ حُجُبُها لَمَّا دنا بعد التباعدِ قربها
وتطلعت للسعدِ فينا شُبهها ضامت لها شرقُ البلادِ وغربها
وتأثَّقت أرجاؤها تنميما

أسدى إليك الدهرُ حُسْنَ صنيعه وحياك من غصنِ الحنّى بيديه
وافى هلال محمدٍ بريعه فاعتزَّ أمر الله عند طلوعه
وغدا به دين الإلهِ قويمًا

نظم الزمانُ بجيدِ عمركِ درةً فاشكرْ مآثره وواصلِ برةً
وافاك بالسِّرِّ المصونِ فسره وأعرف لهذا الشهرِ حقَّ قدره
فلقد غدا بين الشهورِ كريمًا

يا صاحِ جاءت بالأمانِ أسعدُ وأطلَّ بالبشرى الكريمِ مولدُ
هذا ربيعٍ فيه أنجز موعِدُ شهرٍ كريمٍ جاء فيه محمدُ
صلوا عليه وسلموا تسليما

ثم قلت أنا عند ختمِ درّسٍ و الشفا ، موطئاً لقصيدة ابن الجنان المذكور
ولعذب براعتها مرتشفا ، ما غصه والأعمال بالنيات :

انشقَّ أزهَرُ عن فنونِ رياضِ العلمِ واكترَغ من عذابِ عياضِ
واسقِ الرياضِ بذكره القياضِ واحفظْ كلاماً للإمامِ عياضِ
قد تمت أقسامه تنميما

للهِ روضٌ منه أبتغِ دوحهً يعني به من الكريمِ ومنحهً
فهو الشفاء لمن تكاثر برحهً مسك الختام به تطر فحهً
فضله في الأرجاء صار شميما

فاضت علينا من هذه عوارف زهر وأنوار وظل وأرف
ونمارق مصفوفة ومطارف يا حسن ما أبداه قد عارف
دُرّاً بأسلاك الحديث نظيما

لم لا وبالملك الشفيع تشرفا خير البرية ركن أرباب الصفا
من أسعد الراعي وقصدا أسفا طه النبي الهاشمي المصطفى
صلوا عليه وسلموا تسليما

وقد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة
ابن الجنان المذكور في روي تلك القصيدة غير خمسة مستقلة بنفسها ، وهي قوله
رحمه تعالى :

صلوا على خير البرية خيما
صلوا على من شرفت بوجوده
صلوا على أهل قرين متزلا
صلوا على نور تجلّى صبحه
صلوا على هاد أرواحه هديه
صلوا على هذا النبي فإنه
صلوا على الزاكي الكريم عمده
ذاك الذي حاز المكارم فاخذت
من كان أشجع من أسامة في الوعى
طلق الحيا ذو حياء زانه
حكمت له بالفضل كل حكمة
وبدت شواهد صدقه قد قسمت
والشمس قد وقفت له لنا رأت
كم آية نطقت تصدق أحدا

وأجل من حاز الفخار صميما
أرجاء مكة زمما وحطيمما
بذراه خيمت العلا تخيما
فجلا ظلما للضلال بيما
نهجا من الدين الحنيف قوما
من لم يزل بالمؤمنين رحيمما
ما مثله في المرسلين كريمما
قد نظمت في سلكه تنظيما
ولدى الندى يحكي الحيا تحسيما
وسط التلوي وزاده تعظيما
في الوحي جاء بها الكتاب حكيمما
بدر الدجى لقسيمه تقسيما
وجها وسيم للتي وسيمما
حتى الجماد أجابه تكليما

والجلدُ حنَّ سَخِينِ صَبَّ مَغْرَمٍ أُنْصَحِي لَوَعَاتِ الْفِرَاقِ غَرِيماً
جَلَّتْ مَنَاقِبُ عَاتِمِ الرُّسُلِ الَّذِي بِالتَّوَرِ خَتَمَ وَالْهَدَى تَحْتِمَا
وَسَمَتْ بِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ مَرَاتِبُ بِمَقَامِ صَدَقِ عَزَّ فِيهِ مَقِيمَا
فَلَهُ لَوَاهِ الْحَمْدِ غَيْرَ مَدَافِعِ وَلَهُ الشَّفَاعَةُ إِذْ يَكُونُ كَلِيمَا
نَرْجُوهُ فِي يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَإِنَّمَا نَرْجُو لِمَوْقِفِهِ الْعَظِيمِ عَظِيمَا
مَا إِنَّ لَنَا إِلَّا وَسِيلَهُ حَبِّهِ وَنَحْيَةَ تَذَكُّرِ شَدَّاءِ وَشَمِيمَا
وَلِغَيْرِ مَا أَهْدَى أَمْرُهُ لَنِيِّهِ أَرْجُ الصَّلَاةَ مَعَ السَّلَامِ جَسِيمَا
يَا أَيُّهَا الرَّاجُونَ مِنْهُ شَفَاعَةُ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

وهذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبي العلاء إدريس بن موسى القرطبي^١ في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقف عليها أبو عبد الله ابن الجنان المذكور وقرَّطها بما سنذكره بعدها قريباً ، وهي :

أَهْلًا بِكُمْ يَا أَهْلَ هَذَا النَّادِي أَهْلَ اعْتِقَادِ الْوَعْدِ وَالْمِيعَادِ
أَهْدُوا الصَّلَاةَ إِلَى التَّيِّبِ الْهَادِي وَصِلُوا السَّلَامَ لَهُ مَعَ الْآبَادِ
يَنْدَى نَسِيماً مَذْكُوراً تَسْنِيماً

هُوَ أَوَّلُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْمُحْشَرِ وَسِوَاهُ بَيْنَ تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرِ
بِهِتِ الْحُضُورُ لَمَوْلِ ذَاكَ الْمُحْضَرِ وَالْكَلُّ فِي الْخُطْبِ الْعَمِيمِ الْأَكْبَرِ
قَدْ هَيَّئَتْ أَلْبَابَهُمْ تَسْنِيماً

ذَاكَ الْمَقَامُ الْأَشْهُرُ لِلْحَمُودِ هُوَ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ مَوْعُودِ
فِيهِ الشَّفَاعَةُ ذَخَرُهَا مَوْجُودِ ذِكْرُ الْمَرَادِ وَحَوْضُهُ الْمَوْرُودِ
فَضْلُ الْكَلِيمِ بِهِ وَإِبْرَاهِيمَا

١ هو إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأتصاري القرطبي ، مال إلى العربية والآداب وأقرأ ذلك بقرطبة إلى أن تملكها الفروم ففرج إلى سبته وأقرأ هناك ؛ وكانت له مشاركة في النظم والنثر مع غلبة الانقياس عليه والصلاح ؛ توفي آخر سنة ٦٤٧ (التكملة : ١٩٧) .

عيسى وموسى والخليل مروع من هول مطلع هنالك ينقطع
فيقال أحمد قل فإنك تسع فيقوم بحمد ربه فيشفع
فضلاً من الرب العظيم عظيماً

يا أمة المختار أنتم آتة والمول قد عم البسيطة يمه
والأنبياء سواء كل همته تخليص مهجته وليس يهمة
من كان في الدنيا عليه كرمها

صلى الإله على الذي صلى عليه عشرًا بواحدة يزكيتها لديه
وأراه في الدارين قرّة ناظره يا قاصدين إلى وصولكم إليه
راجين من أرج القبول نسيمًا

لولا وصية صاحب التزويل أن لا يقال له علو القبل
قول الغلاة لصاحب الإنجيل لفلوت في التعظيم والتبجيل
عظم المكافة يوجب التعظيم

طوبى لقلب قد تلا إذ صفا بالسر منه قد ثبت إذ هفا
خطت به آيات حب المصطفى ففدا لصاحبه بذلك مصحفا
يهدى إلى نهج النجاة قويمًا

فاقت علا ذكره إذ رافت حل ملأ النبوة أهم حين اعتل
في ليلة الإسراء أعلى معتل كتب الإله له التقدم في العلا
وعليهم التوفيق والتسليما

وكذلك يسلم في الشفاعة كلهم وعلمهم عند الإله معلم
ظل النبي محمد هو ظلهم يمشون تحت لوائه فيعلم
يشدى عليهم بهجة ونميمة

أوصافه من كل حسن أبهج العرف يفتح والسنا يتلج
فتأرج الأرجاء منه وتبهج فاق الزواهر نورها يتوهج
والزهر قفاح النسيم وسيما

طلق الحيا مهل للتائل أنهى على الدنيا يزهد كامل
هو مثل الدنيا بظل زائل لم تر فيه حال النعيم الحائل
ما حاول الترفيه والتنعيم

ما ورث المختار مال مؤمل إلا جواهر في الكتاب المتزل
أشهى لقلب الناظر التامل وأقر إعجاباً لمن المجتلي
من كل قيمة مقتصر قوما

وقفت يا من لم يخالف نصه حزن الكمال وليس تحظى نصه
نجم الهدى قول النبي اقتصه بالوحي شرفه الإله وعصمه
شرفاً على شرف الساء صميما

سبحان مؤخر لا يحد له الكلام من قال ذات كلام خلاق الأنام
خلقت فذلك آثم كل الأنام ذاك الذي في الدين ليس له ذمام
إلا ذمام لا يزال ذميما

ضل الذي يبني الهدى مما سواه وهوى به في كل مهواة هواء
من فارق القاروق قد تبث يدها حيران لم يهتد السبيل إلى هداه
لا يعرف التحليل والتحرما

بالمدح مجد المصطفى بمسته من حكي أوصاف له نظمته
لم أبلغ المشار إذ أحكمته بعضاً نسيت وبعضه ألهمته
قلده جيد الزمان نظيما

لو قوتُ بالإحسانِ من حَسَنٍ . وسجبتُ أذيلي على سَجَبانِ
أو أبدتني لِسُنُّ كُلِّ زَمَانٍ . من كُلِّ ذي زعمٍ عظيمِ الشَّانِ
ما كنتُ بالمشارِ منه زعيمًا

إدريسُ حَقَّتْكَ الحقوقُ خُفُوفًا . هَلَا خَفَّتْ إلى الرسولِ خُفُوفًا
وقريتُ بالعزمِ الممومِ ضيُوفًا . وشذوت أن هال الزمانِ صرُوفًا
مَهْلًا كَفَاكَ مَعْلَمِي التَّحْلِيمَا

ثقةٌ بفضلِ الواحدِ القَهَّارِ . ملكُ الملوكِ مصرفُ الأعْصَارِ
جَمَلُ النبيِّ مكرمِ الأَثَارِ . وأَمَدُهُ بالتَّصَرِّ والأَنْصَارِ
وَأَمُّ نَعْمَتِهِ لَهُ تَسْمِيَا

هَلْ أَجْلُونَ بصري بِكحلِّ سَنَاه . يا سَعْدُ من كَحَلَّتْ به عَيْنَاه
ظفرتُ يَدَاه ، وساعدته مَنَاه . لَه ذَاكَ الْاَلَقُ مَا أَسْنَاه
كَرَمُ الْمَحَلِّ فيَقْتَضِي التَّكْرِيمَا

ونصُّ تقرُّظِ ابنِ الجنانِ على هذه القصيدة هو قوله :

ما زالَ كُلُّ حَلِيفٍ . لَه أَضْحَى وَلِيَا
وَالْعَلَسُومِ خَلِيلًا . وَعَمَّنْ سِوَاهَا خَلِيَا
يَصُوغُ عَقِيَانِ مَدَحٍ . لِلهَاشِمِيِّ حَلِيَا
وَيُوجِبُ الْحَقُّ فِيهِ . إِيجَابَهُ الْأُولِيَا
وَيَقْتَضِي فِي رِضَاه . نَهْجًا جَلِيلًا جَلِيَا
وَالْكَلُّ أَحْظَاهُ حَظًّا . فَالْقَوُزُ يُلْفَى مَلِيَا
لَكِنْ إَدْرِيسَ مِنْهُمْ . حَازَ الْمَسْكَانَ الْعَلِيَا

ولا يخفَاكَ أَنَّهُ التَّزَمَ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ مَا لَا يَلْزَمُ مِنَ اللَّامِ قَبْلَ الْيَاءِ ، رَحِمَهُ
اللهُ تَعَالَى .

ولا بأس أن نورد هنا ما حضر من التخمينات الموافقة لتخمين ابن الجحنان المذكور السابق أولاً^١ في البحر والروى والمنحى الذي لا يفضل قاصده ، وكيف لا وهو مدح^٢ الجنتاب الرفيع العظيم النبوي .
فمن ذلك قول أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي ، فإن بعضاً ذكر أنها من قوله لما أظهر الإسلام ، وهي لا تقتضي رفع الريبة فيه والالتهم^٣ :

جعل المهين^٤ حبة أحمد شيمة^٥
وأتى به في المرسلين كريمة^٦
فقدأ هواه على القلوب تيمة^٧

وغدا هداه لهديم تميما صلوا عليه وسلموا تسليما

أبلى جين^٨ أيه شاهد^٩ نوره
سجعت^{١٠} به الكهتان قبل ظهوره
كالطير غرد^{١١} عرباً بصفيره

عن وجه^{١٢} إصباح يطل^{١٣} نسيما صلوا عليه وسلموا تسليما

أنس^{١٤} الرسالة بعد^{١٥} شدة فقرة^{١٦}
منجى البرية وهي في يد غمرة^{١٧}
عبي النبوة والمهدى عن فقرة^{١٨}

فكأنما كفل^{١٩} الرشاد يتيما صلوا عليه وسلموا تسليما

١ ملح : سقطت من ق .

٢ لم أجد هذه الخمسة مفسرة لابن سهل الإسرائيلي إلا في النسخ ، ولم ترد في ديوانه (ط . صادر

١٩٦٧) .

اللهُ أَوْضَحَ فَفَضَّلَهُ فَرَضَتْهَا
وَاللهُ يَبَيِّنُ حُجَّتَهُ فِي (وَالضَّحَى)
وَالْجَذْعُ حَنْ لَهْ هَوَى فَرَضَتْهَا

وَالْمَاءُ فَاضَ بِكَفِّهِ تَسْنِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

رَبِّنا الرُّوَايَةُ عَنْ عَلَاءِ زَكِيَّةٍ
بِحِسْوَاهُ رَبَّاتِيَّةٍ مُلْكِيَّةٍ
أَوْصَافُهُ عُلُوبِيَّةٌ فَلَكِيَّةٌ

فَلِإِخَالٍ شَعْرِي عِنْدَهَا تَنْجِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

أَحْتَتْ فِي السَّبْعِ الطَّبَاقَ بُرَاقَهُ
وَالْأَرْضُ وَاجِمَةً تُخَافُ فِرَاقَهُ
سَبَّحَانَ مَنْ أَدْنَى سُرَّاهِ فَسَاقَهُ

شَخْصاً عَلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ كَرِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

فَاشْتَمَ رِيحَانَ الْقُلُوبِ الطَّيِّبَا
وَدَنَا فَاَسْمَعَ يَا مُحَمَّدُ مَرْحَبَا
إِنِّي جَعَلْتُكَ جَارَ عَرْشِي الْأَقْرَبَا

إِنْ كُنْتُ قَبْلَكَ قَدْ جَعَلْتُكَ كَلِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

يَا لَيْلَةً يَمْرِي الزَّمَانُ فَتَسْبِقُ
الْحُجْبُ فِيهَا وَالْأَرَائِجُ تُفْتَقِ
مَا كَانَ مَسْكُ اللَّيْلِ قَبْلَكَ يَعْنُ

١ ق : تَحْمِيماً ، وَمَا أَثْبَتَهُ أَنْسَبُ .

بُشِّرِي مُحَمَّدَ اسْتِغَادَ نَسِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

حَتَّى إِذَا انْقَضَتِ الْهَرَاقُ لَيْتَلَا
نَادَتْهُ أَسْرَارُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا
يَا زَانِبَلًا وَدَعَتْهُ لَا عَنْ قَلِيلٍ

مَا كَانَ عَهْدُكَ بِالْغُيُوبِ ذَمِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَمَدَ النُّجُودِ وَسَارِي فِي الْأَغْوَارِ
سَمَكَ السَّمَاءِ طَوْرًا وَيَطْلُقُ الْغَارِ
مُتَّصِمًا فِي طَاعَةِ الْجَبَّارِ

مَا أَشْرَفَ الْمُتَّقِيسُ وَالْمُقْسِمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

الشَّافِعُ الْمُتَوَسِّلُ الْمُتَقَبِّلُ
الْقَائِمُ الْمَدْتُّرُ الْمُرْتَمِّلُ
وَأَمَّا وَظَنَّهُ الْأَرْضِ دَاجٍ مَحَلُّ

فَجَلَا الْبَهِيمَ بِهِ وَأَرَوَى الْهَيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

دَفَعَتْ كَرَامَتُهُ الزُّنُوجَ عَنْ الْحَرَمِ
وَدَعَاهُ جَبْرِيلُ الْمُتَرَهِّمِ فِي الْحَرَمِ
وَعَزَّتْ لَهُ آيَاتُ نُونٍ وَالْقَلَمِ

خُلِقَ بِهِ شَهِيدَ الْإِلَهِ عَظِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

طَائِرُ يُقْبِضُ الزَّادَ فِي أَصْحَابِهِ
غَيْثٌ وَلَكِنْ كَانَ يُسْتَنْصَحَى بِهِ
طَابَتْ ضَمَائِرُ قُلُوبِهِ وَتَرَابِهِ

منهُ بَسْرٌ لَمْ يَكُنْ مَكْتُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يا شوقي الحامي الى ذاك الحمى
فمضى أقضيه خراماً مُغمرًا
ومضى أعانقه صعيداً مكرماً

بِضَمِيرٍ كُلِّ مُوحَّدٍ مَلْثُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ومن ذلك قول بعض الوعاظ ، وأظنه من أهل المشرق :

جلُّ الذي بَعَثَ الرسولَ رحيمًا
ليردَّ عَنَّا فِي الْمَعَادِ جِجِيمًا
وَبِهِ نُرْجِي جَنَّةً وَنَعِيمًا

أضحى على الباري الكريم كريمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ما ضلُّ عن وحي الإله وما غوى .
حاشا رسول الله ينطق عن هوى
الصادقُ الثقةُ الأمينُ بما روى

قَدْ نَالَ مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ عِلْمُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

وَأَفَى لَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ مِيشَرًا
نَادَى بِهِ يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى
أَجِيبِ الْمُهَيَّمْنَ يَا مُحَمَّدُ كَيْ تَرَى

مَلَكًا كَرِيمًا فِي السَّمَاءِ عَظِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

فَأَجَابَهُ الْمُخْتَارُ حِينَ دَعَا بِهِ

رَبُّ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا لِحَطَابِهِ
رَكِبَ الْبَرَقَ وَقَدْ أَتَى الْجَنَابَ

أَمْسَى لَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ نَدِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

فَمَنْ أَرَى الْخَادِي يَبْشُرُ بِاللِّقَا
وَيَضْمُهُ بَانُ الْمُحَصَّبِ وَالنَّقَا
وَأَرَى ضَرْيَحَ الْمُصْطَفَى قَدْ أَشْرَقَا

مَوْلَى حَلِيمًا لَنْ يَزَالَ رَحِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا
وَأَقُولُ لِلزَّوَارِ قَدْ نَلْتُ الْمُنَى
يَهْنِكُمْ طَيْبُ الْمَسْرَةِ وَالْمُنَا
فَاستَبْشِرُوا مِنْ بَعْدِ لَقَرٍ بِالْفَنَى

فَاللهُ زَادَكُمْ بِهِ تَكْرِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا
ثُمَّ الرِّضَى عَنْ آلِهِ الْكَرَمَاءِ
وَكُنَّاكَ عَنْ أَصْحَابِهِ الْخُلَفَاءِ
فَهَوَاهُمْ دِينِي وَعَقْدُ وَلَايِي

قَوْمًا تَرَاهُمْ فِي الْمَعَادِ نَجْمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

وَمِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ فَضَلَاءِ الْمَغَارِبَةِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

يَا أُمَّةَ الْخَادِي الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ
يَهْنِكُمْ نَيْلُ الْأَمَانِي فِي غَدِ
بِمُحَمَّدٍ فَرْتَمَ وَمَنْ كَحَمْدِ

إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَذَرَكُوا التَّسْلِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صلّوا على البدر المنير الزاهر
صلّوا على المسك الفتيق العاطر
صلّوا على النضر البهي الناضر

وتنعموا بصلواتكم تنعما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على منّ بالنبوة زينا
صلّوا على من بالكمال تمكنا
بمحمد فرنا بإدراك المنى

فضلا منحا حادثا وقديما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير اللاح
صلّوا على الهادي الحبيب الناصح
صلّوا على المسك الفتيق الفالح

لرشد قهّم والهدى تفهّما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على منّ مجده قد أسا
والماء بين بنائه قد بجمّا
وأنت إليه سرحة حتى اكتمى

بفروعها إذ خيمت تخيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من كان يبصر من قفا
وعليه سلّمت الجنادل والصفا
والذنب قال صدقت أنت المصطفى

وشكا إليه بازل قد ضيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من قد شفى بالريقِ
عينَ الضرير ولدغةَ الصديقِ
وأعاد طعمَ الماءِ مثلَ رحيقِ

إذ مجَّ فيهِ العنبر المختوما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا على منْ بالملأى جيثا
وغدتْ تظله الغمامُ إذا مشى
حرّستْ سماء الله لما أن نشأ

ليكونَ سرُّ حبيبهِ مكتوما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا عليهِ كلَّ حينٍ ترمحوا
ويهديه مها اهتديتم تفلحوا
والأجر يشملكم فجداؤا تتجحوا

وإذا أردتم أن يكون عظيمًا صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا بجمعكمُ على شمس الهدى
صلّوا على بدرٍ يزينُ المشهدا
صلّوا عليهِ بهِ الرشادُ تمهدا

والذكرُ بينَ فضلهُ تفخيمًا صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلّوا بإخلاصٍ على خير البشرِ
صلّوا على من فاق حسنا واشتهرُ
ونعتُ فضائلهُ وشقَّ له القمرُ

ولتكمّ دليل في علاه أقيما صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ رَأَى الرَّحْمَانُ
بِالْقَلْبِ أَوْ بِالْبَيْنِ مِنْهُ حَيَاتَا
عَنْ قَابِ أَوْ أَدْنَى مَقَامِ كَانَا

فَخَذِرِ الْقَوَالِدَ كَيْ تَفَادَ عُلُومَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَيْهِ كُلُّكُمْ لَا تَسْأَمُوا
وَتَبَرَّكُوا بِصَلَاتِهِ وَتَعَمَّمُوا
فَعَلَيْهِ صَلَّى الْأَنْبِيَاءُ وَسَلَّمُوا

شَرْفًا لَهُمْ إِذْ أَمَّهُمْ تَقْدِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

يَا حَاضِرِينَ بَلَّغْتُمْ كُلَّ الْمَنَى
عَنْ جَمْعِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ذَهَبَ الْمَنَا
وَإِلَيْكُمْ وَاللَّهِ قَدْ وَجَبَ الْمَنَا

بِمُحَمَّدٍ كَرَّمْتُمْ تَكْرِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

قُولُوا بِرِغَمِ مَعَالِدِينَ وَحُسْدِ
كَيْ تَرْضَعُوا أَلْفًا لِكُلِّ مَفْتَدِ
صَلِّ الْإِلَٰهَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

أَبَدًا وَزَادَ لِقُدْرِهِ تَعْظِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

يَا رَبُّ يَا ذَا الْمَنِّ وَالْإِحْسَانِ
جَدُّ بِالرَّضَى وَالْعَفْرِ وَالْفُفْرَانِ
لِلْوَالِدِينَ وَمُنْتَشِدِ الْأَوْزَانِ

وَالسَّامِعِينَ أَلْهَمُوا تَعِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صلى عليه الله ما اجتمع الملا
صلى عليه الله ما قطع الفتلا
صلى عليه الله ما اتتج الكلا

أبدأ وما رعت البؤام هشيما صلوا عليه وسلموا تسليما

ومن ذلك قول الإمام العالم الشهير الأديب مالك بن المرحل الملقب ثم السبي ،
وهي من غرر القصائد ، وفيها لزوم ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم
يجعلها بدأ وروياً على اصطلاح المغرب :

ألف : أجل الأنبياء نبي
بضيا له شمس النهار نضي
وبه يؤمل عمن ومسي

فضلاً من الله العظيم عظيما صلوا عليه وسلموا تسليما

باء : بدا في أفق مكة كوكبا
ثم اطل فجلا سناه الفجبا
حتى أثار الدهر منه وأخصبا

إذ كان فيض الخير منه عيما صلوا عليه وسلموا تسليما

تاء : تبينت الهدى لما أتى
ففى الشريك عن القديم وأثنا
أحدية من حاد عنها قد حتا

وتلا كلاماً للكرم كريما صلوا عليه وسلموا تسليما

ثاء : ثوى في الأرض منه حديث

في كلِّ أفقٍ طيبُهُ مبعوثُ
داعٍ بأنواعِ الهدى مبعوثُ

يُتلُو نجوماً أو يهزُّ نجوماً صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليماً

جيم : جلا بسراجِه الوهاجِ
ما جنَّ من ليلِ الظلامِ الداجي
وسقى القلوبِ بمائه الشَّجاعِ

فأصارها بعدَ الفومِ غميماً صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليماً

حاء : حمى دينِ الهدى بصفائحِ
وسمًا يثُمُّ كالجلالِ أراجِعِ
من كلِّ أزهرٍ هاشميٍّ واضحِ

لولا نداءُ غدا النباتِ هشياً صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليماً

خاء : خبَّتْ نيرانُ جهلِ شامخِ
آياتِ علمِ للرسالةِ راسخِ
مينٌ مُبْتِ ماحٍ ومنسٍ ناسخِ

قد خصَّ بالذكرِ الحكيمِ حكيماً صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليماً

دال : دها فأجاب كلُّ سَميدِ
وأنهى بوعدٍ صادقٍ ووعيدِ
حتى أقرَّ الناسُ بالتوحيدِ

وتجنَّبوا الإِشراكَ والتَّجسيماً صلُّوا عليه وسلِّمُوا تسليماً

ذال : ذُبابُ حمامه مشحودُ

للتاكثين ، وعهدهم منبؤدُ

أما السعدُ فبالتي يلودُ

فيدال من ذُلِّ الشقاء نيمًا صلوا عليه وسلموا تسليما

راه : رويتا عن ذوي الأخبار

أنّ الندى والبأس مع لئثار

بعض صفات المصطفى المختار

كمّ قد تقدم بالأنام زعيما صلوا عليه وسلموا تسليما

زاي : زعيمٌ بالتزال عزيزُ

وبليغُ معنى في المقال وجيزُ

فلقوله من فعله تعزيزُ

ولربما عادَ الكلام كلُّوما صلوا عليه وسلموا تسليما

طاء : طويلُ السيفِ متعُ الخطا

رحبُ الدراع ومن يعد لهم سطا

يردي العدا وإذا ارتدى متخططا

ييري عذابا إذ ألام أليما صلوا عليه وسلموا تسليما

ظاء : ظهورُ الجباد خفيظُ

حظٌ لدى ربِّ العبادِ حفيظُ

حقّ له التأبينُ والتعريضُ

ميتا وجبا ظاعنا وميتما صلوا عليه وسلموا تسليما

كأنف : كرم المنصرين مبارك
مضرد بالجهاء ليس يشارك
فهو الذي بمقامه يتشارك

والهول يقدو مقعداً ومقيماً صلوا عليه وسلموا تسليماً

لام : له عقد اللواء الأحفل
وليه الشفاعة في غد إذ تسأل
وإذا دعا فدعاؤه مقبل

حق الرحيم بأن يرى مرحوما صلوا عليه وسلموا تسليماً

ميم : ملائكة الإله تسلم
فتوجاً عليه إذ بدا وتعظم
ويعر جبريل بها يتقدم

فيضايف التعظيم والتكرima صلوا عليه وسلموا تسليماً

نون : نبي جاءنا ببيان
وعمجرات أبرزت ليمان
ويصبه أن جاء بالقرآن

يشفي قلوباً تشتكي وجسوما صلوا عليه وسلموا تسليماً

صاد : صفي للإله وخلص
ومقرب ومفضل ومختص
ذهب سيك وزنه لا يتقص

قد طاب خيماً في الوري وأروما صلوا عليه وسلموا تسليماً

ضاد : ضميرٌ نصحه محوَّضُ
ضافي القراءة بالعلوم يفيضُ
إن غاض ماء البحر ليس بفيضُ

لما استمرَّ زلالهُ تسليماً صلوا عليه وسلموا تسليماً

عين : عزيزٌ ذكره مرفوعُ
في الأنبياء وقوله مسوعُ
مشروح صلر حبه مشروعُ

من لا يدينُ بذاك كانَ ذميماً صلوا عليه وسلموا تسليماً

غين : غزا من فلبغهنه ومن طغى
وغدا يشبُّ لمن طغى نار الوغى
حتى أقامت من عصى بعد الصفا

وتقومُ النارُ العصا تقوماً صلوا عليه وسلموا تسليماً

فاء : فوائحُ سورة الأعرافِ
ويراة والرعدِ والأحقافِ
أحظتُه بالأقسامِ والأوصافِ

فحقى توفي حقه منظوماً صلوا عليه وسلموا تسليماً

قاف : قوافي النظم عنه تفصيلُ
أطبقه الإنسانُ ليس يطيقُ
فالخلقُ في التصدير عنه خليقُ

ولتوأتهم ملأوا القضاء رقوماً صلوا عليه وسلموا تسليماً

سين : سلام كالنفيس تنفساً
وقد اجتنى ورداً وصافح ترجماً
أهدى إليه في الصباح وفي المساء

بقصائد كادت تكون نسيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

شين : شمائله الكريمة تعطش
من كان من سكر المحبة يرعش
لكن أضع العمر فيما يوحش

فقدت ندامته عليه نديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

هاء : هو المادي الذي اقتدح النهى
فضكرت في ملك من رفع السها
وقضى بمسدة للأمر ومتهى

فأفادها النظر السديد عموماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

واو : وهى ركن التجلد، بل هوى
لما ثوى في التراب من بعد الثوى
لحوى الضريح الرحب نجماً ما غوى

أجرى من الدمع السجوم سجوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لام : لأجلك فاض دمي جلولا
فاخضرت أس أساك إذ ييس الكلا
يا خير من كلاً المكارم والعللا

وحى الحمى ورمى فأعصى الروما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا : يَجِيهِ وَيَسْقِيهِ الْحَيَا
رَبُّ الْعِبَادِ مَجَازِيًا وَمَوْفَا
وَمُشْرِفًا وَمُسْلِمًا وَمَصْلِيَا

يا مُسْلِمِينَ وَرَثَتُمُ التَّسْلِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد بن محمد بن العباس المغربي
حسبما نقلته من المجلد الخامس والعشرين من كتاب « منتهى السؤل في مدح
الرسول »^١ للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن حلرة المغربي الأتصاري
رحمه الله تعالى ورضي عنه وقفنا بقصده ، وهي أيضاً مرتبة على حروف المعجم
ما عدا الابتداء ويوت الانتهاء ، غير أن ترتيب حروف المعجم في آخر الأشرطة
ولم يلتزم صاحبها الابتداء كما فعل مالك بن المرحل ، رحمه الله تعالى :

الله زَادَ المصطفى تعظيماً
وقضى لَهُ التفضيلَ والتقدima
وأَنَالَهُ شَرْفًا لِدِينِهِ جَسِيمَا

فَهَوُ الْمُتَّخِمُ فَخْرُهُ تَعْبِيَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ خُصَّ بِالْأَنْبَاءِ
وَأَبُوهُ مَا بَيْنَ الثَّرَى وَالْمَاءِ
ثُمَّ اسْتَمَرَ النَّوْرُ فِي الْآبَاءِ

فَتَوَارَكُوهُ كَرِيمَا وَكَرِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

١ قد ذكرت في المقدمة نقلا من رحلة البياضي قول هذا الرحالة إن المغربي لم يطلع على كتاب « منتهى
السؤل » وهذا هو المؤلف يذكر اطلاعه على الجزء الخامس والعشرين منه ؛ وبما أن الكتاب كثير
الأجزاء فكلام البياضي يظل يعني أن المغربي لم ير الجزء الذي ذكر فيه مدح النمل النبوية .

صلّوا على يدري بلدا من يثرب
بأضواء بالأوتار أخصى المغرب
وجلا عن الدنيا دياجي الغيب

فبدا لنا نهج الرشاد قوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالشرائع قد أتى
وأباد أحزاب الطغاة وشنتنا
وأبان أسباب النجاة ووقتنا

للأمة التحليل والتحررما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالغيوب يحدث
وبروحه الروح المقدس ينفث
عبرونا وشقيمتنا إذ نُبعث

في يوم لا يدري الحميم حميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على صبح المدي المتبكج
صلّوا على بحر الندى المتزوج
صلّوا على روض الجمال المبهج

كيما تتالوا القوز والتنميما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على غيث الأنام السافح
صلّوا على المسك الذكي النافح
أزرت روائحه بكل روائع

فالأرض طبّقها شذاه نسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صَلُّوا عَلَى مَنْ عَهْدُهُ لَا يُسْخَرُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ شَرْعُهُ لَا يُنْكَرُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ حِزْبُهُ لَا يُسْخَرُ

نَبَأَ بِقُرْبِهِمْ فَفَضَّلَهُ تَقِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ فَخْرُهُ لَا يُنْقَدُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ فَضْلُهُ لَا يُجْحَدُ
أَنْتَى وَكُتِبَ الرُّسُلُ طُرًّا تَشْهَدُ

تَتَّبَعِي الْيَهُودَ بِفَضْلِهِ وَالرُّومَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ حَمَى عَنْهُ الْأَذَى
وَمَنْ الْغَوَايَةَ وَالضَّلَالَةَ أَنْقَذَا
صَلُّوا عَلَى مَنْ ذَكَرَهُ نَعَمُ الْغَدَا

وَبِمَدْحِهِ نُرْوِي الْقُلُوبَ أَفِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا بِإِخْلَاصٍ عَلَى خَيْرِ الْبَشَرِ
مَنْ قَبْلَ نَشْأَتِهِ الْمُبَارَكَةِ اشْتَهَرَ
كَمْ كَاهِنٌ عَنْهُ أَبَانَ وَكَمْ غِيْرُ

وَلَكَمْ دَلِيلٌ فِي عِلَالِهِ أَفِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ جَلَّ مَوْلَاهُ وَحَزْرُ
ضَامَتِ قُصُورُ الشَّامِ لَمَّا أَنْ بَرَزَ
وَتَدَانَتْ الشُّهُبُ التَّرَاقِبُ كَالْحَرَزِ

أَوْ كَالْكَالِي نَظَّمْتَ تَنْظِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ يَوْمَ مَوْلَاهُ سَطَا
يَجْمِيعُ أَلَمَةَ الضَّلَالَةِ وَالْخَطَا
وَهُوَ لَهُ عَرْشُ اللَّامِينَ وَأَسْقَطَا

وَالْقُرْسُ هَدَمَ صَرْحَهُمْ تَهْدِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

صَلُّوا عَلَى مَنْ لَيْسَ فَظاً غَالِظَا
لَأَخِيهِ فِي الْإِرْضَاعِ كَانَ حَافِظَا
فَاعْجَبْ لِلذَّكَاءِ كَيْفَ كَانَ مَلَاظِظَا

لِلْعَدْلِ فِينَا مَرْضَعاً وَفَطِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

صَلُّوا عَلَى مَنْ شَاوَهُ لَا يَدْرِكُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ شَاوَهُ لَا يَشْرِكُ
مُوسَى وَهَارُونَ وَالْحَلِيلُ تَبَرَّكُوا

بِلِقَائِهِ وَعَتَوْا لَهُ تَسْلِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

صَلُّوا عَلَى مَنْ خَلَقَهُ صَلَّى الرُّسُلُ
شَرَفَ عَلَى تَمَكِّينِ عِزَّتِهِ يَدُلُ
فَإِذَنْ قُلُّ هُوَ سَيِّدٌ لَكُمْ وَدُلُّ

لَا تَمُشْ تَوَيْحاً وَلَا تَحْشِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ سَرَى نَحْوَ السَّمَاءِ
لَيْلاً وَعَادَ وَمَا يَرْحَتَا نَوَامَا
بِالرُّوحِ وَالْجَسَمِ الْمُطَهَّرِ قَدْ سَمَا

قُلُّهُ وَرَاغِمٌ مِنْ أَيْ تَرْغِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

صلوا على مَنْ قد رأى الرحمانا
بالقلب أو بالعين منه حيانا
من قاب أو أدنى مكان كانا

فخذ القوائد واحذر التجيما صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ بالمحبة خُصصا
والقلب منه شق حتى خُلصا
من حظ إبليس اللعين وعصا

وأعيد ما إن يشتكي تليما صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من بالسيادة قد حضي
وانشق إكراماً له البدر المضي
ولكم دليل كالصباح الأيضر

فاسمع وكن بالمعجزات عليا صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ كلمته ذراعُ
وبفضله كفت المئين الصاعُ
والجلدُ حن له وما الأجنادُ

بأرق منا أنفساً وفهُوما صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من منحه لا يفرغُ
ماذا حصى مدّاحه أن يبلغوا
فلنا ينّي عليه ويبلغُ

فاقرأ بحمده حكماً تحكيما صلوا عليه وسلموا تسليما

صلّوا على مَنْ كان يمرض باللقفا
وعليه سلّمت الجنادل والصمّا
والذئب قال صدقت أنت المصطفى

وشكا إليه بازلٌ قد ضيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من قد شفى بالريقِ
عين الضريب ولدغة الصديقِ
وأعاد طعم الماء مثلَ رحيقِ

إذ معّ فيه المنبر المختوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من مجده قد أسا
والماء بينَ بنائه قد يحسا
وأنتَ إليه سرحةٌ حتى اكتفى

بفروعها إذ غبت نخيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ بالملالك جيّشا
وغدت تظّلّه الغمام إذا مشى
حرست سماء الله لك أن تشا

ليكون سرّ حبيبه مكتوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ قد حبّاه لله
بالكوثر البروي لنا أمواهه
في يوم حشر الخلق يظهر جاهه

إذ يقدم الرّسل الكرام زعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلوا على من خُصَّ بالخوض الرّوى
وكذلك خُصَّصَ بالمقام وباللوا
نوحاً وآدم والكليم قد احتوى

وابن البتول حوى وإبراهيم صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صل عليه الله ما قُطِعَ الفلا
صل عليه الله ما اجتمع الملا
صل عليه الله ما انتُججَ الكلا

أبدأ ، وما رعت السوام هشيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صل عليه الله ما مغلّ الحيا
صل عليه الله ما التمع الضميا
فلقد شفى الدنيا من الداء العيا

ولقد حمى حنّاً لظى وجحيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

• • •

الله سيدنا النبي الأكل
الله برق جبينه المتهلل
الله جود يمينه المتهلل

أحياً وأغنى بالنوال عديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

١ قد انتهت الملاحظة النبوية بحسب الترتيب المجالي ولا أدري هل هذه البقية منها أو من قصيدة جديدة .

لله منه ذاته وحقيقته
لله منه خلقه وخلقته
لله منه شرعه وطريقته

فلقد جلت بشموسها التغيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا أمة الهادي النبي المصطفى
بالله لو كنّا نعامل بالوفا
متنا عليه حصرة وتلهفا

حتى نؤدي حقه المحترما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ما كان أولانا بطول نحينا
ما كان أوجبنا بفرط وجينا
أفستطيع الصبر عن محبونا

ما الصبر عن لقياء إلا لوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لم لا تُفيض على اللوام دموعنا
لم لا تقص من الغرام ضلوعنا
لم لا نخلي أهلنا وربوعنا

حتى نعين من ذرّاه رسوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أو لم يكن يحنو علينا مشفقا
أو لم يكن متعظا مترقبا
أو لم يعالجنا بأنواع الرقي

حتى اغتدى منا العليل سليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

من مثله ما إن يضر^١ وينفع
من مثله يد^٢ر العذاب وينفع
من^٣ مثله للوي الكبائر يشفع

من^٤ مثله^٥ بالمؤمنين رحيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا ويح نفسي كم أرى ذا صبوة
وسامعي عن واعظي في نبوة
فسمى الرسول يُقِيلني من كبوة

فلكم^٦ رجاء عائر^٧ فأقيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا رب بالمهادي الربيع المحتد
اغفر لعبك أحمد بن محمد
فلقد توسل إذ رجلك بسيد

ما رُد^٨ معتلق به^٩ عروما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ناشدتكم يا سامعي هلنا الثنا
قولوا متى أسمعتموه تديننا
اغفر لقاتله المقصر ما جنى

بمدح خير الورى المعصوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

قلت : وإني لأسأل الله تعالى بلسان لم أعص به وهو لسان هذا المادح ،
إذ قال « يا رب بالمهادي » فإني أحمد بن محمد بكّته الله أمّله من غفرانه بمته
وكرمه آمين .

رجع - ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب الأديب أبي العباس أحمد بن القاسم

الإشيلي الشهير بابن القصير ، وطريقه هذه مخالفة للطريق المتقدمة من بعض
الوجوه ، رحم الله تعالى الجميع :

اللهُ أَكْرَمُ أَحْمَدًا تَكْرِيماً
فَتَعَدَا رَسُولًا لِلْعِبَادِ كَرِيماً
فَأَشْكُرُ غُفُوراً لِلذُّنُوبِ رَحِيماً

أَرْضَى النَّبِيَّ بِقَوْلِهِ تَعْلِيماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

للهِ مِنْهُ هَدَى نَبِيٍّ مَرْتَضَى
بِالْبَيْتِ مِنْهُ لَنَا قَضَى لَطْفَ الْقَضَا
مَلَأَتْ فَضَائِلُهُ الْمَهَارِقَ وَالْقَضَا

وَدَجَا الْوُجُودُ فَعِنْدَ مَبْعَثِهِ أَضْيَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

عَجِبْتَ لَنَا مِنْهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ
أَنْ كَانَ بِالْإِسْرَاءِ لَيْلًا قَدْ سَمَا
وَرَقَى الْبَرَقَ بِهِ وَجِبْرِيلُ لَمَّا

قَدْ سَرَّهَ سِرًّا وَجَهراً سَلَاماً صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

أَعْظَمَ بِهِ مِنْ مَرْسَلٍ قَدْ بَشَّرَا
بِوُجُودِهِ الْبَشَرَ السَّعِيدَ وَيَسَّرَا
لِلْيَسْرِ فَهُوَ أَجَلٌ مَبْعُوثٌ يُرَى

يَهْدَاهُ أُمَّتُهُ زَهَتْ بَيْنَ الْوَرَى صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ مَعْجِزَةً لَهُ
أَعْيَا الْوَرَى مِنْ بَعْدِهِ أَوْ قَبْلَهُ
اللَّهُ كَرَّمَهُ وَفَضَّلَ فَضْلَهُ

وَأَجَلَ مِنْهُ فَرَعَهُ وَأَصْلَهُ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

مَنْ سَبَّحَتْ صُمُّ الْحصى فِي كَفِّهِ
وَالْبدر شَقَّقَ نَصْفَهُ عَنْ نَصْفِهِ
لِيرى بِهِ إِعْجَازَ مَنْ لَمْ يُصِفْهُ

حزنا بمعجز ذكره أو وصفه صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يَكْفِيهِ أَنْ يَتَلَّ أَسْمَهُ وَيَكْرُرْ
مَعَ إِمَامٍ خَالَقَهُ إِذَا مَا يُذَكَّرُ
هَذَا الَّذِي بِمَقَالِهِ لَا يَفْجُرُ

أَبَدًا وَلَا لَخْلَافِهِ يَتَصَوَّرُ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

الْعَبْدُ أُسْرَفَ بِمَا نَبِي اللَّهِ
فِي الذَّنْبِ سَاهٍ عَنْ ثِقَاةِ لَاهِي
فَلَشَقَّعَ لَهُ مِنْ مِلْدَنِ أَوَاهِي

يَرْجُو كَرِيمًا مِنْكَ جَمَّ الْجَاهِ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

أُنْأَى الزَّمَانِ وَصَوْلَةُ أَوْ نَوْلِهِ
فَاسْتَصْحَبَ الْآيَاتِ مِنْهُ رَسُولِهِ
فَأُنِيلُ بِفَضْلِكَ لِلْعَرَادِ حَصُولِهِ

حَسْبِيَ ثَنًا وَازِنْتَ مِنْهُ فَصُولِهِ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ابْنَ الْقَصِيرِ أَطَالَ فَيْكَ نِظَامِهِ
لِيرى لَذَاكَ مَسْلَمًا إِسْلَامِهِ
وَتَرى مَطَاوِعَ أَمْرِهِ وَكِلَامِهِ

لا زال يُقرِّكَ الإلهُ سلامه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وما أحسن قولَ جمال الدين بن جلال الدين الجوزي رحمه الله تعالى :

فَقَضَلَ النَّبِيِّنَ الرَّسُولَ مُحَمَّدَ	شرفاً يزيد ، وزادهم تعظيماً
درُ بَيْتِمْ فِي الْفَخَّارِ ، وَلِئِمَّا	خَيْرُ اللَّائِي مَا يَكُونُ بَيْتِمْ
سَادَ النَّبِيِّنَ الْكَرَامَ وَكُلُّهُمْ	صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
وَاللهُ قَدْ صَلَّى عَلَيْهِ كَرَامَةً	صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

[مسلميات في مدح الرسول]

ومن ذلك هذا التسديس البديع الذي هو من نظم الإمام العارف بالله تعالى علاه
الدين محمد بن حنيف الدين الأيمى الحسنى الصفوي الزينبي - رحمه الله تعالى -
مما رتبّه على حروف المعجم والتزم الحرف أول الأَشْطَار الأربعة وآخرها :

اللهُ أحمدُ أحمداً إذ يبرأ	أَوْضَى وَضِيءُ نوره يَبْلُغُ
أنواره كلَّ العوالم تملأ	أكوانه لولاه لم تكُ تنشأ
إن كنتمُ اتقدتم له تسليماً	صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
بلدٌ بدأ من نوره يطلبُ	بحر يحوّرُ الجود منه تركبُ
برٌّ وبرهان جلا يتقلبُ	بالمصطفى متن صفا أقربُ
بادر بما يجدي لكم تنجيماً	صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
تالله مثلُ محمد لا يثبت	تم الكمال انتهى ونبوة
تاج الملأ بالمصطفى يثبت	تاهت عقول للذي هو ينبت
تحف الصلاة به عليه أدباً	صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثبت بالذي يوماً يقومُ ويُسَمِّتُ	ثمة البرية بالنبي نفوُثُ
ثبت الشفاعة للورى يتحدث	ثرة الطوائف للذي يتثبت
ثبت لزوم الباب فيه مقيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
جاء النبي عولماً يتبلغ	جاء له مَنْ جاءه يتبهج
جاء ينجلي من لظى توهج	جاءت له الأشجار أرضاً تفرج
جاور نبي الله نلت نعيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
حقاً هو الحق المئين الأوضح	حب حباه حبه يرتفع
حسناته حشياته ^١ تُسرجع	حتى القلوب بحبه ترجع
حوت المعلوم لذاته تكريما	صلوا عليه وسلموا تسليما
خير البرايا دينه هو ناسخ	خير له خير الخيور رواسخ
خر الذي عن دينه هو بازخ ^٢	خال خلي عن تقاص بازخ
خذ باتباع - فعاله ترسيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
دل الأنام على الإله محمد	دامت سعادة من بأحمد يسعد
دار له مأوى المحامد محمد	دان الوجود به ومن هو أحمد
داوم على باب له تخيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
ذكر الحبيب الحق ما يتأخذ	ذخراً ليوم النواصي يؤخذ
ذاك الشفيع لمن به يعوذ	ذاك الذي بجناحه يستنقذ
ذلوا له وبأسابه تغنيما	صلوا عليه وسلموا تسليما

١ ق : الحقيق .

٢ ق : حسناته .

٣ البازخ : المتقاص .

رب النبي محمد هو يذكر	رتب الحبيب كتابه متذكر
رائي محيا أحمد هو ينظر	روح القلوب ولاؤه هو ينصر
روح بذكره المريح نديما	صلوا عليه وسلموا تسليما
زين البرايا بالوجود معزز	زان العالم حسنه يتفوز
زن فضله عن كلهم يتميز	زد ذكره عن زلة يتحرز
زلفى الله بالسنى تميما	صلوا عليه وسلموا تسليما
سبق الأنام بفضله هو أنفس	ساد الجميع بسودد يترأس
سبحان من أمرى به يتأنس	سر الحبيب بسرّه يتقدم
سمع الكلام من الإله كليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
شمس الهدى بدر الدجى يتبشش	شرف الحبيب من الوجوه يفتش
شكراً لولانا عليه وأبهش	شوقى إليه وافر أنعطش
شغل للبك بالحبيب أديما	صلوا عليه وسلموا تسليما
صفة الكلام لذاته هو أخلص	صفة الكتاب كماله بتلخص
صفة القلوب بحبه تتخلص	صفه صبا صبه وأنى يخلص
صل بالصلاة جنبه تكليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
ضفت الفيوض من الحبيب تفيض	ضعني إليه آملاً يتعوض ^٢
ضري وضيري كله يتقوض	ضل الذي في بابه لا ينهض
ضمن الحبيب للذكره زعيما	صلوا عليه وسلموا تسليما

١ ق : لسانك .

٢ ق : يتقوض .

طوبى لمن يجيئه ينتشط	طوبى لمن يجيئه ينتشط
طال اشتياقي طيبة أنيسط	طال اشتياقي طيبة أنيسط
طوبى بملحته يطيب نسيمًا	طوبى بملحته يطيب نسيمًا
ظلّ الهدى بهداه قد يتحفظ ^١	ظلّ الهدى بهداه قد يتحفظ ^١
ظلي لظلّ وداده يتحفظ	ظلي لظلّ وداده يتحفظ
ظفي به يغفو العقاب عديمًا	ظفي به يغفو العقاب عديمًا
علت المعالي بالنسي وترفع	علت المعالي بالنسي وترفع
عمت عطاياه لكل ينفع	عمت عطاياه لكل ينفع
عرج الإله به إليه عليمًا	عرج الإله به إليه عليمًا
غوث الورى ذا المصطفى هوسايف	غوث الورى ذا المصطفى هوسايف
غمر الندى أقصى النهاية بالغ	غمر الندى أقصى النهاية بالغ
غنمًا نما بالمؤمنين رحيمًا	غنمًا نما بالمؤمنين رحيمًا
فخر وذخر بالمفائير يشرف	فخر وذخر بالمفائير يشرف
فتح الوجود وكل كون مردف	فتح الوجود وكل كون مردف
فاح النسيم من الحبيب جسيمًا	فاح النسيم من الحبيب جسيمًا
قسم الإله بصمره فيفوق	قسم الإله بصمره فيفوق
قمر وشمس نوره متائق	قمر وشمس نوره متائق
قطب للدائرة الوجود كريمًا	قطب للدائرة الوجود كريمًا

١ ق : يتحفظ .

٢ تتدلف : تشرح في مرورها .

٣ ق : أنحفظ .

كَبَّ الْإِلَهُ ثَنَاءَهُ مَا يَدْرُكُ
كُلُّ الْكَمَالِ لَهُ بِهِ يَسْتَدْرِكُ
كَيْفَ كَفَى دَرَّ الثَّنَاءِ يَتِيمَا
كَتَبَ اسْمَهُ قُرْبَ اسْمِهِ يَتْرُكُ
كُنْهُ الْكَمَالَاتِ الَّتِي لَا تَدْرُكُ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

لَمَعَاتِ نَوْرِ مُحَمَّدٍ هِيَ تَخْجَلُ
لِلذَاتِ ذِكْرَ عَمَدٍ هِيَ أَكْلُ
لِذِخْرِ عِجْدٍ مِنْكَ تُكَلِّفُ حَكِيمَا
لِلشَّمْسِ وَالْبَدْرِ الْمُنِيرِ فَتُخْجَلُ
لِللَّوِيِّ الْخَوَافِجِ لَا تُدْ كُفْلُ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

مَنْ مِثْلُهُ فِي الْعَالَمِينَ مُعْظَمُ
مَنْ لِلْإِلَهِ لَدَى الْإِقْدَاءِ يَكْلَمُ
مَنْ الْإِلَهِ لَدَيْهِ صَارَ حَمِيمَا
مَنْ مِثْلُهُ فِي الْعَالَمِينَ مُكْرَمُ
مَنْحًا حَيَّاهُ مِنْهُ قَدْ يَتَعَلَّمُ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

نُورَ لَهُ فِي آدَمَ يَتَبَيَّنُ
نَأْيُ الْعَوَالِمِ إِذْ أَتَى مُتَعَيَّنُ
نِعْمَاهُ جَمْتًا إِذْ تَعَمَّ كَرِيمَا
نَقْلًا إِلَى آبَائِهِ يَتَمَيَّنُ
نَارُ الْمَجُوسِ تُخْمَدُ تَتَهَوَّنُ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

وَجْهَ بِهِ كُلُّ الْوُجُوهِ إِلَيْهِ هُوَ
وُجَاهُهُ وَجْهُ الْمَرَامِ فَوُجِّهُوا
وَجْهَهُ إِلَيْنَا نَظْرَةً تَكْرِيمَا
وَجْهَ الْوُجُوهِ إِلَيْهِ هُوَ
وَجْهَهُ إِلَيْنَا نَظْرَةً تَكْرِيمَا
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

هُوَ مُصْطَفَى عِنْدَ الْإِلَهِ الْأَوْجَهُ
هَذَا إِنَّهُ وَجْهِي لِهَذَا أَوْجَهُ
هَامَ الْقَوَادِدُ بِجَبِّهِ تَتِيمَا
هَادِ لَنَا وَبُوجْهِهِ مِنْ أَوْجِهِ
هَيْهَ هَتَيْتًا وَجْهَهُ بِالْأَوْجِهِ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

١ ق : جلت .

٢ ق : بوجهه قد أوجهوا .

لا مثل للمختار أعلى من حلا
لاذ الصفيُّ به يتوب فأقبلا
لازم عبداً للحبيب نديماً
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا أكرم الخلق الذي هو ملجئي
ياقي محمد العفيفي الذي
يده يمدُّ إليك مرجئاً وفي
يقن بصفوته الصفي ويكتفي

بمنا للذكرك يبتلني تخيماً
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وله أيضاً رضي الله تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه ، وقد نظمها
بعدها نفع الله تعالى بنيته ، وبلغه غاية قصده وأمنيته ، وهي هذه :

أحسن بطلعة أحمد هي أضواء
أعلن بلمعته العوالم عملاً
أزين به لنا أتمّ يسلاً
أبين بآيات له فتنماً

الله قدّمته بها قديماً
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

بدأ الإله بنوره فيعقب
بده الذي بالمصطفى يقطب
فيه للذي الحاجات إذ يطلب
بده بذكره به يستوهب

بل هو إلى الأرب انضع تعميماً
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثلث العلامات التي هي تثبت
تنبّ العدا تنبأ وعنه تثبت
تمت له الآيات فيك تبكت
توراة موسى ناطقاً هي تمت

توقع حاجات صفوا تسليماً
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثبت الكمال له ومنه يورث
ثبت الورى لولم تكن لا تحدث
ثبت بذكرى المصطفى يتحنث
ثبت الذي بمنابه يتشبث

ثبت بذكر قد تراه قديماً
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

جاء العوالم نورهُ يتلجج
جاز السموات العلأ يتعرج
جار لهُ جارى لهُ تنعما
جاد العوالم بحره يتموج
جاب الجميع يسامه يتفرج
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

حار العقول لدحه إذ يمدح
حي لهُ ففعل به يسترجح
حي الحمى الحامي تصير سليما
حيا الحياء بريّة يستروح^١
حي لهُ حامى حمى ففروح
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

خلق لهُ كلُّ به يتشمخ
خلق لهُ أحسن به هو أبلخ
خلق لهُ إلهي بذاك تسميا
خلق لهُ بالتقصّر لا يطلخ
خلق يحق لهُ الثناء الأرسخ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

دار الحبيب أحق ما يعتمد
دانت أhalها بما هو يرشد
دارك سكوناً بالسكون مقينا
دارت بها كل السعادة تسعد
دار بحسنى طيبة لا تبعد
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذكر الحبيب محمد هو ينقد
ذكر الإله ثناؤه ويلذ
ذيل النبي خلد اعتمد تعظيما
ذكر لما ينسي رسولا ينقد
ذكراه تنفع سامعا ينلذ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ربّ الورى سبحانه هو أكبر
ربّ الرؤوف حبيب فليدبر
ربّ الرجااء للمنى تلويحا
ربّ النبي محمد فيكبر
ربّي اصطفاه من الورى فأكبر
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

زاد الإلهُ عُرُوجه فيرُزُ	زانُ العوالمِ إذ أنامها يبرُزُ
زاد لأخرى حُبّه يتحرّزُ	زادت معاليه عروجاً ينشُرُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً	زعمَ الشفاعةَ ذاكره زعيماً
سارَ السّمواتِ العلّا يستأنسُ	سادَ الجميع إذا أتى هو أنفسُ
سامي ذواهُ المُحبِّ تؤنسُ	سألَ الإلهَ وزاد ما يتنافسُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً	سارعُ إلى ذاك الدّرا تحيماً
شرق لأشرق شرقه يفرشُ	شرف لأمتّه به يتفايشُ
شوقاً إليه قد إليه أجشُ	شرقاً وغرباً فيه عقل يدهشُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً	شكراً على النعمى تزيد نعيماً
صفة عن الشيء الذي يتقصُ	صفة له ذات له هو أخلصُ
صفة شريسته التفائسُ تخلفُ	صفة له حارت عقول تقصُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً	صفة له وبره لتسدّما
ضاع الذي عن ذكره هو يعرضُ	ضاعَ المديح لأحمد يروّضُ
ضاف بذكراهُ المُنى يترصُ	ضاف حباه كفه ليفضفضُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً	ضاعف له الآمال صلّه مدبما
طابت مدائحهُ قطاب المقيطُ	طالَ العوالم إذا أتى هو يقسطُ
طام له بهر الألى ينتشطُ	طالت به النعمى وطاب المنشطُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً	طالب مطالب كلّها تميمُ
ظهر لأمتّه ظهير ملحظُ	ظهر النبي وربّ [أحمد يلحظُ]
ظلّ له ظلوا به يتحفظوا	ظهروا حل الأمم افتخار ملحظُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً	ظلت الظلال إذا ذكرت ندبما

عدّ المحاسن لنبي يستج	عدّ له آياته تتنوع
عدّاه مولاه إليه فيطالع	عدّ لذكراه غداة يشفع
عدّ باب منّ بالمؤمنين رحيمًا	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
غزرت له الآيات هنّ نوايع	غزر الحيا عزّ الورى هو سائع
غمر الرّدا بحر الندى يترفع	غمر البلاد بذكره يستفرغ
غمر بذكراه الفسّاد وسيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
فاض الجمال وفاض منه يوسف	فازّ المحبّ بذكره لا يومف
فاضت عليه فيوضه يتلف	فاض له الآيات لا يتكلف
فاد له كلّ بهم تقدما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
قمر بدا من ألقه هو فائق	قمرّ يحاب بذكره ويعلق
فمقام كلّ الأنبياء وسائق	فمقام جود عمّ كلّا يرفق
قم بابه مستنجا ومقيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
كلّاه به فتح الوجود ويدرك	كلّ الكمالات احتوى لا يشرك
كلّ اللسان عن البيان وعسك	كلّ شيء الذي بينابه يتمسك
كيل مرّجاءك إليه تقى تكريما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
لمحمد هو مصطفى ومؤمل	لمحمد بن محمد ما يأمل
لمحت عليه بروقه يتحمّل	لمعان نور وداده يستكمل
لم لا أصيب من الحبيب شميما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
من مثل ذاك المصطفى يتمعظ	من كلّ وجه للكمال ليُعظم
منّ علينا من إله أعظم	منه العروج إليه وهو عظم
من كان الربّ العظيم كليما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما

نور الإله حييه يتمكن	نادى الإله حييه يتمكن
نال نوالاً شرحه لا يمكن	ناد له طوبى لمن يتمكن
نادى الحبيب بذكره تكليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
والله مثل محمد لا يشبه	والله مولاهُ العوالم كيف هو
وجه الوجود بذاته وبه له	وجه علا وبوجهه فتوجهوا
وجدوا ووجد من النجاة مقيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
هو أكل من كل وجه أوجه	هو ذا الحبيب القلب منه أوجه
[...] فأولى طيبه وأوجه	هول من الأرض المكثر أوجه
هانا بنار الشوق صرت سقيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
لا ريب لا مثل له والله لا	لاحت له الآيات عرشاً قد علا
لاقي ارتقاء ربّه فتوصلا	لاجر به نال المتى إلى الألا
لازم لباب جنابه تقسيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
يا أكرماً كل إليه يكنجي	يأتي محمدك العفيفي الذي
يقنا توسل بالصفي ويمتلي	يده إليك [بمد] قرأ ترجي
يمن افتتاح باسمه تخفيما	صلوا عليه وسلموا تسليما

قلت : وإنما أثبت هاتين القصيدتين في جملة ما سردته ، وإن كان فيهما من التكلف ما لا يخفى لأوجه ، أحدها : أن صاحبهما من الصالحين يسلم له ويترك بكلامه ، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسليد السهام للملامه ، الثاني : أنهما مدح للنبي صلى الله عليه وسلم وعليه من الله أذكى صلاته وآتم سلامه ، الثالث : أن المراد جمع ما وقفت عليه في البحر والروى والمعنى ،

١ لفظة التكلف هنا قاصرة ، إذ هذا النمط من السداسيات خارج عن طبيعة اللغة ودلالات القبط .

لأن بعضاً من العلماء ذكر لي أنه لم يطلع في ذلك إلا على قصيدة ابن الجثنان ،
فأجبت أن أتعرض لتمريره بهذا العدد وإعلامه ، على أن القصد الأعظم ما هو إلا
التلذذ بذكر أمداح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، خصوصاً المقتبس فيها قوله
تعالى ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

وقد كنت نويت أن أولف في ذلك بالخصوص كتاباً أسميته « روضة
التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعانة والتكليم »
والله تعالى المسؤول في التيسير ، فلتزد عليه سير .

ومن ذلك هذا التسديس الذي وجدته في كتاب « جرد الدرر »^١ للشيخ
الإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد^٢ بن أحمد بن أبي
بكر العطار الجزائري من جزائر بني مزغنة ، وهي المشهورة الآن بالجزائر :

أنوار أحمد حُسنها يتلألُ المصطفى يحل الكمال يحلأ
الشمس تحجل وهو منها أضوأ النور منه مقسمٌ ومجزأ
قد زان ذلك النور إبراهيماً صلوا عليه وسلّموا تسليماً

صلوا على المسك الفتيق الأطيب صلوا على الورد المعين الأحذب
صلوا على نور ثوى في يثرب صلوا عليه بمشرق وبمغرب
ما زال في الرسل الكرام كريماً صلوا عليه وسلّموا تسليماً

صلوا على زهر الكمال الثابت صلوا على طود البهاء الثابت
صلوا على من فاق نعم الناعت خير الورى من ناطق أو صامت
وأحزهم نفساً وأطهر خيماً صلوا عليه وسلّموا تسليماً

١ سرورده باسم « نظم الدرر » بهد قليل .

٢ بن عبد ... محمد : سقطت من ق .

صلّوا على طيب يفوح ويمكث	صلّوا على من بالمهدى يتحدث
عنه المعارف والحقائق تورث	أضحى بعلما الهدى تعلّما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	
صلّوا على من نورهُ يُبْلِج	للحضرة العلياء ليلاً يَرج
صلّوا على من حازَ مجداً يبهج	وبها على العرش المجيد مُقيما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	
صلّوا على البدر المنير اللامع	صلّوا على المسك الذكي الفائح
صلّوا على الهادي النبي الناصح	الرشدَ فهُمَ والهدى تفهّما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	
صلّوا على من شرعه لا يُنسخ	صلّوا على مَنْ بالثناهُ يضمخ
عليّاه عليا الكمال تُورخ	نالَ المفازَ والكمال قديما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	
صلّوا على غير الأنام الأواحد	صلّوا على الهادي لأعذب مورد
بمحمد فُزنا ، ومن كحمد	صلّوا على بدر التمام الأسعد
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	الله عَظَمَ قُدره تَعظيما
صلّوا عليه فله السعادة يجيد	صلّوا على مَنْ بالتبوة ينفذ
أبصارنا طرّاً بأحمد لوذ	صلّوا على من حبه لا يُنيد
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	في موقف يُنمي الحميم حسيما
صلّوا على الروض البهي الناضر	صلّوا على البدر المنير الزاهر
صلّوا على المسك الفتيق العاطر	صلّوا على بحر العلوم الزاخر
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وتتعلّموا بصلاتكم تنميما

صلّوا على منكم يفوح ويحمرز	صلّوا على نور يكلج ويرز
ولجده درر السيّادة تُفمرز	بمحمد حلل الكمال تُظمرز
صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا	قد نُظّمت لكماله تنظيما
صلّوا على وردٍ بمسك يخلط	صلوا على منّ بالبهاء يخلط
ولهُ يواقيت السناء تقسط	للمصطفى بسطُ الكرامة تُبسط
صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا	وبنوره أضحي الزمان وسيما
صلّوا على من بالنبوة يلحظ ^١	صلّوا على من بالمهاجرة يلحظ
لعضائمه نار الجحيم تغيط	صلّوا على من بالمهاجرة يلفظ
صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا	ورضاه مَبَّ لنا وطلاب نسيما
صلّوا على من باسمه يُبرك	صلّوا على من قدره لا يُدرّك
صلّوا على من للهدى يتحرّك	صلّوا على من حبه لا يُترك
صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا	وبه تحسلى ظاعنا ومقيما
صلّوا على الروض البهيّ الأجل	صلّوا على البدر المثير الأكمل
المصطفى الأرقى لأثره محفل	صلّوا على المهديّ النبيّ الأحفل
صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا	فيه تقدّم وحدهُ تقدّما
صلّوا على عَرَفٍ ذكيّ ناسم ^٢	صلّوا على زهرٍ أنيقٍ باسم
من جوده فلنا بخير مقام ^٣	صلّوا عليه فهو بدرٌ مواسم
صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا	أنوارهُ قدّ تمت تتميما

١ ن : يحفظ .

٢ ن : صلوا على من المقام قاسم .

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْكَمَالِ نَمَكْنَا	صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالنَّبَوَةِ زَيْنَا
بِمُحَمَّدٍ قَرْنَا بِإِدْرَاكِ الْمُسْنَى	صَلُّوا عَلَى هَادٍ أَبَانَةٍ وَبَيْتِنَا
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا	لِلخَلْقِ أَرْسَلَ رَحْمَةً وَرَحِيمًا
صَلُّوا عَلَى مَنْ نُورُهُ لَا يَقْصُ	صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْكَمَالِ يَخْصُصُ
ظِلُّهُ ضِفَا بِالْأَمْنِ لَا يَقْلُصُ	صَلُّوا عَلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ وَأَخْطُصُوا
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا	شَمْلَ الْوَرَى طَرًّا وَطَابَ عَمِيمًا
وَقَضَى عَلَى لَيْلِ الضَّلَالَةِ فَانْقَضَى	صَلُّوا عَلَى صَبِيحٍ تَبْلُجُ بِالرُّضَى
صَبِيحُ تَلَهَّبَ نُورُهُ وَتَفَضَّضَا	صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالنَّجَاةِ تَعَرَّضَا
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا	وَعَصَا وَخَيَّمَ ضَوْؤُهُ نَجِيمًا
صَلُّوا عَلَى الْروِضِ الْأَيْقِ الْيَانِعِ	صَلُّوا عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ السَّاطِعِ
صَلُّوا عَلَى الْمَسْكِ الْفَتِيحِ الدَّائِعِ	صَلُّوا عَلَى الصَّبِيحِ الْمُنِيرِ اللَّامِعِ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا	وَوَقَاهُ فِي وَهْجِ الْمَجِيرِ مَغِيمًا
صَلُّوا عَلَى الْبَدْرِ الْأَمِّ الْبَازِغِ	صَلُّوا عَلَى النُّورِ الْأَمِّ السَّابِغِ
صَلُّوا عَلَى الْوَرْدِ الْمَعِينِ السَّائِعِ	صَلُّوا عَلَى الْمَسْكِ الذَّكِيِّ الْبَالِغِ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا	لِلوَارِدِينَ بِهِ خُصْلًا تَسِيمًا
صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْمَحَبَّةِ يُعْرِفُ	صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالتَّقَرُّبِ يُوصِفُ
صَلُّوا عَلَيْهِ بِهَ الْكَمَالِ يُزْخَرِفُ	صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْعُلَا يُتَشَرِّفُ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا	الْمَجْدِ فَخْمٌ ذَكَرَهُ تَفْخِيمًا
صَلُّوا عَلَى الْروِضِ الْأَيْقِ الرَّائِقِ	صَلُّوا عَلَى مَسْكٍ يَطِيبُ لِنَاشِقِ
صَلُّوا عَلَى الْبَدْرِ الْأَمِّ الْفَائِقِ	إِشْرَاقِهِ بِمُفَارِقِ وَمُشَارِقِ
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا	بَادٍ تَنْمَمُ حُسْنُهُ تَسِيمًا

١ ق : الطالع .

صلوا على النور^١ النفيس الأنفسِ
صلوا عليه فهو زين المجلسِ
راق النفوس شذاً وطاب شميما

صلوا على المختار أفضل من مثنى
بمحمد عَرَفُ القُرْنفل قد فشا
يُبْرِئ الضنى أبداً ويروي الهياما

صلوا على الهادي النبي^٢ الأئزّه
في فضله كلّ الشهادة تنتهي
في حبه أضحى الغرام غريما

صلوا على نور بطيئة قد ثوى
صلوا عليه فليس ينطق عن هوى
في موقفٍ يلزُ السليم سليما

صلوا على نور تلالاً واعتلى
صلوا على مسك يخالط متندلا
وبه المعالي خيمت تخميما^٣

صلوا على من^٤ نال مجداً عاليا
صلوا على نور تيدى^٥ حاليا
وإذا سما المخنوم زان خديما

وقد توارد في بعض هذا التسليس مع بعض بيوت القصيدة السابقة التي أولها :

١ ق : خمت تخميما .

يا أمة الهادي المبارك أحمد

حسبما يعرفه المتأمل ، والذي في ظني أن صاحب « يا أمة الهادي » متأخر عن
ابن العطار فهو الذي أخذ منه ، والله سبحانه أعلم .
وتوارد أيضاً في عدة آيات مع تخميس الكاتب أبي العباس ابن جمال الدين
المتقدم ذكره وأوله :

الله زاد محمداً تعظيماً

وهما على منوال واحد ، غير أن ذلك تخميس وهذا تسديس ، وابن جمال
الدين أقدم من ابن العطار تاريخاً ، فيحتمل أن يكون ألم بكلام ابن جمال الدين ،
أو ذلك من توارد الخاطر .
ورأيت في هذا الكتاب تسديساً آخر لم يرتبه على حروف المعجم ، ونجمل
روي الشطرن الأخيرين حرف اللام ، فأحييت ذكره هنا زيادة في التبرك بمدح
المصطفى عليه أجل الصلاة والسلام ، وهو :

نور النبي المصطفى المختار	أريت محاسنه على الأنوار
مرآه يُخجل بهجة الأعمار	نور يُنجي من عذاب النار
قد زان ذلك النور إسماعيل	صلّوا عليه بكرة وأصيلا
صلّوا على البدر المنير المشرق	صلّوا عليه بمغرب وبمشرق
صلّوا على غصن الكمال المورق	بالمصطفى المختار برق الأبرق
يهدي خراماً للظومر دغيل	صلّوا عليه بكرة وأصيلا
صلّوا على من قد تنامى فخره	صلّوا على من قد تعاظم قدره
صلّوا على من قد تآرج نشره	صلّوا على من قد تناسق دره
عقد السناء لجده إكليل	صلّوا عليه بكرة وأصيلا

صلّوا على خير الأنام المرسل	صلّوا على خير الأنام المرسل
صلّوا على أسقى سنّا المتوسل	صلّوا على أسقى سنّا المتوسل
ظلّ علتنا لا يزال ظليلا	ظلّ علتنا لا يزال ظليلا
صلّوا على التور الأمم الأكبر	صلّوا على التور الأمم الأكبر
صلّوا عليه فهو أصدق خير	صلّوا عليه فهو أصدق خير
وأراح من داء الضلال عيلا	وأراح من داء الضلال عيلا
صلّوا على التور الأمم الأنور	صلّوا على التور الأمم الأنور
صلّوا عليه هديتم من معشر	صلّوا عليه هديتم من معشر
حازّ الجمال فلا يزال جميلا	حازّ الجمال فلا يزال جميلا
صلّوا على التور البهي المغرب	صلّوا على التور البهي المغرب
صلّوا على الورد الشهي المشرب	صلّوا على الورد الشهي المشرب
منه وينقع بالورود غليلا	منه وينقع بالورود غليلا
صلّوا على من فخره لا ينكر	صلّوا على من فخره لا ينكر
صلّوا على من بالنبوة يُذكر	صلّوا على من بالنبوة يُذكر
شكراً على مرّ الزمان حفيلا	شكراً على مرّ الزمان حفيلا
صلّوا على من بالسيادة قد سما	صلّوا على من بالسيادة قد سما
صلّوا على صبح بدا متيسما	صلّوا على صبح بدا متيسما
وغدا وراح معطراً وبليلا	وغدا وراح معطراً وبليلا
صلّوا على مسك يخالط عنبرا	صلّوا على مسك يخالط عنبرا
صلّوا عليه حوى الكمال الأكبر	صلّوا عليه حوى الكمال الأكبر
وبذاك قد خصّ الجليل جليلا	وبذاك قد خصّ الجليل جليلا

صلّوا على من بالنبوة تُوجّا	صلّوا على صبح بدا وتبلجا
صلّوا عليه لقد أضاء وأبهجا	وعا يرونق نوره ظلّم البجي
نور يعود الطرف منه كليلّا	صلّوا عليه بكّرةً وأصيلّا
صلّوا على نورٍ تبلّج لالحا	صلّوا على نورٍ تهرّج واضحّا
صلّوا على مسك تألّج فالحا	ويطيه ملأ الوجود روائحا
وبجته يستوجب التّججلا	صلّوا عليه بكّرةً وأصيلّا
صلّوا على من نوره ملأ الفضا	صلّوا عليه لقد أضاء وما اقضى
صلّوا على من خصّ حقّاً بالرضى	لنجاننا خير الأنام تمرّضا
وهدى إلى نيل الرشاد سبيلا	صلّوا عليه بكّرةً وأصيلّا
صلّوا على بدرٍ يلموم كاله	باقٍ على مرّ الزمان جماله
صلّوا على من قد تعاظم حاله	ودنا إلى ورد الرضى ترّحاله
وإلى الورود به أجدّ رحلا	صلّوا عليه بكّرةً وأصيلّا
صلّوا بأجمعكم على شمس الهدى	صلّوا على بدرٍ يزين المشهدا
صلّوا عليه فمن رآه تشهدا	صلّوا عليه به الرشاد تمهدا
أرضى التّزيل ويّسن التّريلا	صلّوا عليه بكّرةً وأصيلّا
صلّوا على من قد تأثّل مجدّه	فصما به غور الحجاز ونجدّه
ما زهره لولاه أو ما وردّه	بالمصطفى المختار يعلب وردّه
في توبه ما أعلب التّقيلا	صلّوا عليه بكّرةً وأصيلّا
صلّوا على عبودنا مطلوبنا	صلّوا عليه فهو روض قلوبنا
صلّوا عليه فهو عطر جيوبنا	صلّوا على مطلوبنا محبوبنا
لا نرضي عن حبه تبديلا	صلّوا عليه بكّرةً وأصيلّا

صلّوا على خير الأنام الأطهر	صلّوا على النور الأتم الأزهـر
صلّوا على الصبح المنير الأشهر	صلّوا عليه باتصال الأشهر
الله فضّلنا به تفضيلاً	صلّوا عليه بكرة وأصيلاً
صلّوا على من قد تنهى في العلا	صلّوا على من كان أكل أجلاً ^١
صلّوا على درّ تران به الحل	المجدد البسه الكمال مكملاً
والله كلّ مجده تكبلاً	صلّوا عليه بكرة وأصيلاً

وأظن أنّي رأيت بعض هذه القصيدة في كتاب العروسي المغربي ، وهو متأخر .

[قصائد ومقطعات في مدح الرسول]

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرح فيها بآبن المغربي : وهي :

أهدت لنا طيبَ الروائح يثرّب	فهويّتها عند التنسم يطرب
رقت فرقاً من الصباية والأسى	قلب بنيران البعـاد يعدّب
شوقاً إلى أسنى نبيّ حبه	يحلو على مرّ الزمان ويعذب
المصطفى أهل البرية منصّباً	قد جلّ في العلياء ذاك المنصب
فزّنا به بين الأنام بديعة	أبدأ علينا بالأمانى تسكب
حاز السيادة والكمال عمدة	قلوبه أشتات المحامد تُنسب
عجوبنا وتبيّنا وشقيعنا	يُدني إلى ورد الرضى ويقرب
بضياه الملتاح أشرق مشرق	وينوره الوضاح أغرب مغرب
وبه وردنا الأمن علباً صافياً	وبه ترقى في المعالي يشجب

١ ق : من نبي أنور .

٢ ق : صلّوا عليه فما أتم وأجلاً .

صبح المدي أنواره بيننا
 إن طابت الأنفاس من زهر الربى
 صيرت أمداح النبي المصطفى
 فعل من أمداح أحمد خلعة
 وبمدح شمس الرضى طلعت على
 أتري ييسرفي البشير بقربه
 ويقال لي بشارك قد نلت المتى
 هذا مقر الوحي هذا المصطفى
 رد ورد طيبة واشف من ألم النوى
 كم ذا التواني عن زيارة مورد
 منّا السلام على النبي محمد

صبحاً تروق الناظرين وتمجّب
 رياه أذكى في النفوس وأطيب
 لي ملهبا يا حيداك المذهب
 موشية ولها طراز مذهب
 أفتي تضيء ونورها لا يغرب
 وأبث أشواق الفؤاد وأندب
 يا مغربي إلى متى تغرب
 هذا الذي أنواره لا تحجب
 قلباً على جبر الأمى يتقلب
 عذب المقام به ولد المشرّب
 ما أسفرت شمس وأشرق كوكب

وقد سمي هذا الكتاب « نظم الدور في مدح سيد البشر » و « الورد العذب
 المعين في مولد سيد الخلق أجمعين » وليس هو بآين العطار المشرقي الذي كان
 معاصراً لابن حجة الحموي ، فإن ذلك متأخر عن هذا ، وهذا مغربي وذلك
 مشرقي ، فلم يبق لا في زمان ولا في مكان ، سوى اشتراكهما في الشهرة بآين
 العطار .

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته : ممّا أنشأه
 الشيخ الفقيه القاضي العدل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد
 ابن أبي بكر بن يوسف العطار ، رواية العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد
 ابن الأمين الأشعري ، قرأت هذا الكتاب وقصائده على حروف المعجم
 وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضي المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة

١ يعني بآين العطار المشرقي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الدليصري ، وله في المدائح النبوية
 « عنوان السعادة » (الدور الكاسية ١ : ٢٨٧) .

بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر من أقصى إفريقية - حُرِسَتْ - في دُولٍ متفرقة ، وآخرها يوم الثلاثاء ليلة بقيت من ذي القعدة أو آخر عام سبعة وسبعمائة ، ونصّ ما كُتِبَ على نص قراءتي عليه : صحيحٌ ذلك ، وكتبه محمد بن عبد الله ابن محمد بن محمد بن العطار ، والحمد لله رب العالمين ؛ انتهى .

ورأيت أثر ما تقدم بخط الأشعري ما صورته : سمع من لفظي جميع نظم الدرر في نسب سيد البشر ، لحامه ، القاضي المذكور أعلاه القاضي شمس الدين محمد ابن المرحوم عبد المنعم الشبيبي وولده أبو محمد عبد الدائم وابن أخيه أبو محمد عبد الباقي بن تاج الدين بن حفص^١ بن أبي بكر البوري وغيرهم ، نحو سماعي قراءة مني على مؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر العطار سنة سبع وسبعمائة ، قاله راسمه الأشعري ؛ انتهى .

ومن قصائد هذا الكتاب قوله :

أبدأ تشوقك أو تروقك يثربُ	فللى متى يقصبك عنها المغربُ
هي جنة في النفس يعلبُ ذكرها	والقربُ منها والتداني أذهبُ
المسك معترفٌ بأن نسيمها	أسى وأسرى في النفوسِ وأطيبُ
والعنبر الورديُّ دان لطيفها	منهُ التططر والتأرج يطلبُ
جيش الصباية شن غارات الأسمى	من بعدها فالصبرُ منها ينهبُ
والشوقُ يثينا إليها كلما	وقف الحمام على الأراكة يخطبُ
حتى النسيمُ إذا سرى من ريعها	يثني من الروض الغصون ويضطربُ
حيًا فأحيا المستهامَ بطييه	فنفوسنا بهبويه تتطيبُ
يا حيدًا في ريع طيبة وقفة	بين الركائب والمدام تُسكبُ

١ ق : أبي حفص .

حتى يرقّ للوعتي وصباي
شوقاً لمن زان الوجود ، وجهه
سادّ الأنام المصطفى بكماله
بالنور زان حلّى علا آياته
الشمس يقرب نورها وضياؤها
الله أرسله إلينا رحمة
بمحمد فرنا بإدراك المني
خير الورى محبوبنا ونبيتنا
روضُ النفوس محمد ونعيمها
شرف تقادم قبل آدم عهده
منّا عليه مدى الزمان نحية

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

طلعت ، وقارنها البهاء ، بُنور
من نور أحمد يستمد ضياؤها
ويزيد ذلك النور حسناً فاقها
محبوبنا أسمى البرية منصباً
فرنا بخير العالمين محمد
لاحث لنا أنواره فرماننا
بالمصطفى المختار قابلنا الرضى
الله فضله على كل الورى
القرب خصّصه وعظّم قدره
خير النبيين الكرام نبينا

أبدأ على قطب السعود تلور
وبهاؤها ، يا حيداك النور
يوم القيامة والأنام حضور
يوم النشور لواؤه منشور
وجرى بوفق مرادنا المقذور
نور ، وأنس دائم وسرور
بين الأنام فسينا مشكور
فهو الحبيب ، وفضله مشهور
فسما يهجه نوره ناحور
بالنور في العرش اسمه مسطور

يا صاحبي نداء صبٍّ مغرمٍ
عوجاً عليّ بوقعة وبمطفةٍ
إن لم أزرْ بالجسم قبرَ المصطفى
نيرانُ قلبي بالبعدِ توقدت
فمن القراقِ الحتم نيران لها
فمضى أفوز بوقعة في طيبةٍ
ويقال لي إنزلْ بأكرم منزلٍ
إن جاد دهرى بالوصول لطيفةٍ
هي جنةٌ منْ حكاها قال المني
حتى التسيم إذا سرى من نحوها

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

أما التسيم فقد خيأك خاطره
خاطرٌ يزوحك في نيل الوصالِ فكم
زهر الربى باسمٍ تشدّي كالمه
ما حلّ روض المني الغض الخني دنفٌ
والنهرُ أبرز قلبدر الأتم حلى
والقطن تلعب أنفاسُ الرياح به
والليلُ قد رقمت بالشهب حلته
والنور غمضُ جنى فوق الندى درر
وملبس الروض قد زاتته خضرته
والصبح سلّ على جيش الظلام طيبي

قلبي بحب المصطفى معمور
إني على ألم القراق صبور
فالقلب من بعد الزار يزود
ومدامي خدّي بها معطور
لحبي ومن فيض الدموع بحور
والقلب مني فارح مسرور
وأبشر فأنت على النوى منصور
بعد المطال قلنبي مغفور
وسما وسلا وصافحته الحور
يصبو إليه المسك والكافور

وبارق المنحني أحياك ماطره
من نازح قال طيب الوصل خاطره
رق التسيم بها إذ راق ناظره
فاستضحكت فيه من عجب أزهرة
والبدر طرز ماء النهر زاهره
والطلُّ قد نثرت منه جواهره
والبرق يسم في الظلماء ساهره
وعقدها زين الأغصان دائره
والليل بالفجر قد شابته غدائره
وعندما سلّ لها ولّت حساكره

والمسكُ إن قُضِيَ لا تُنقِى سرائره
 فتربها أبداً مسكٌ يخامره
 سمّت وراقت بمن فاقت مفاخره
 حازّ المكارمَ واعتزت عشائره
 يزيدُ حسناً على الأعمار باهره
 أريت على الرمل أضغاثاً مآثره
 نظماً فقد زان عقدَ الرُّسل آخِره
 بحرٌ من العلمِ عذبٌ فاض زاخره
 لى مقامٍ حبيب أنت زائره
 رامَ الدنوّ فأقصتهُ جرائره
 غربٌ فما غائبٌ من أنت ذاكره
 لى محمّلٍ رسولٍ الله عامره

للزهر مرٌ وحرفٌ الروض فاضحه
 هل زار طيبة ذلك العرف حين سرى
 طابت بطيب رسول الله فهي به
 به معدّ تسامى للعلا ، وبه
 أسنى النبيّين قدراً نوره أبداً
 وأفضلُ الخلق من عرب ومن عجم
 إن كان للرُّسل عقدٌ وهو آخرهم
 روضٌ من الحلم غرضٌ راق منظره
 إن جاد صاحٍ ببقاء الزمان فمِلْ
 وصِفْ له حال صبٍّ مغرم ذنِفْ
 واذكر هناك بيدَ الدار حُرْبَه
 أهدى السلام بلا حدٍ ولا أمدٍ

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

ولا فجادته الدموعُ السواكبُ
 وحكى محلاً حلّ فيه الحجاب
 فما عاب ذلك الأتسَ بالجزع عائب
 ويا أنسا بالجزع هل أنت آيب
 وقد شيت سودَ الشعورِ الشوايب
 كما كان غصناً مورقاً وهو ذاهب
 وأودى به والدهر للأتس سالب
 وأي بخيلٍ للتفاس واهب
 وقد عزّ مطلوبٌ له أنا طالب
 وإلا فما أنت الصديقُ المصاحب

أمتزلنا جادت تراك السحابُ
 ووشاك وسمي النمام بدره
 وحيا نسيمُ الريح بالجزع أنسا
 فيا عهدنا بالخيف هل أنت عائد
 وهل راجع عصرُ الشباب الذي اقضى
 وهيات أن يقضى لنا برجوعه
 وقد سلب الدهرُ المفرق أنسا
 فما وهبَ الإنسان إلا مغالطاً
 أطلبُ أيامَ العقيق بعودة
 فيا صاحبي كن مستعدي في صبايبي

إذا ما بدا برقُ الحجازِ فأدعني
أُعَاتِبُ أَيَّامَ الْعِبَادِ ، وَقَلَمَا
وَأَجْمِلُ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ ، وَإِنَّهُ
وَلَمَّا بَدَتْ أَعْلَامُ طَيِّبَةِ قَصْرَتِ
وَقَفْنَا وَسَلَمْنَا وَفَاضَتْ جَمْعَنَا
نَزَلْنَا وَقَبَّلْنَا مِنَ الشَّوْقِ تَرْبَهَا
فَلَمَعَيْنِ مِنْ تِلْكَ الْمَعَادِ نَوْهَةٌ
حَوَّتْ سَيِّدَ الرِّسْلِ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ
بِهِ غَالِبٌ حَازَ الْمَفَاخِرَ سَالِفًا
بِهَادِي الْوَرَى طَرَأَ مَنَاصِبُهُ سَمَتٌ
مُحَمَّدٌ الْمَهَادِي بِإِشْرَاقِ نَوْرِهِ
تَرَقَّى إِلَى السَّعْيِ الطَّبَاقِ وَمَا بَدَا
وَنَاطِبُهُ فِي حَضْرَةِ الْقُلُوسِ رَبُّهُ
نَبِيٌّ بَدَتْ أُنْوَارُهُ وَتَلَالُاتُ
لَقَدْ أَشْرَقَتْ شَمْسُ النَّهَارِ بِنَوْرِهِ
أَعْلَلُ قَلْبِي بِالْوَصُولِ لِقَابِهِ
وَأَنْتِي أَنَادِيهِ وَإِنْ كُنْتَ نَازِحًا
إِذَا كُنْتُ لِي يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ شَافِعًا
يَمْلِكُكَ بِأَمِنْ جَلَّ قَدْرًا وَحِفْظُهُ
فِيَا مَعْتَرِ الْأَحْبَابِ إِنَّ نِيَّتَنَا
أَلَا فَادْكُرُوهُ كُلَّ حِينٍ وَسَلِّمُوا
وَقُومُوا عَلَى أَقْدَامِكُمْ عِنْدَ ذِكْرِهِ

تضيض إلى الوراد منها المشارب
يبرّد حرّ الشوق بالعتب عاتب
لينبهه من وارد البين ناهب
من الشوق ما قد طولته السباب
وحثّت إلى ذاك الجنب الركائب
وطابت بذلك الرب منّا الترائب
وللقلب في تلك الرسوم مآرب
له في مقام القرب تضيض المطالب
ولا شرف إلا الذي حاز غالب
ورأقت بخير الرسل تلك المناصب
تمزق من ليل الضلال غياهب
له في ترقيه من الحجب حاجب
وأدناه في حال الخطاب المعاطب
فمنها تضيض النيرات الثواقب
وبدر الدجى لما بدا والكواكب
وإن خبت ما قلبي وحطك غائب
نداء غريب غربته المغارب
فما أنا من نيل السعادة خائب
وجاهاً وتمكيناً ثأل المواهب
إلى فوزنا طاع وساع وخاطب
عليه ، بذلك الذكر تسم المراتب
فلنك في شرع المحبة واجب

ومنها قوله رحمه الله تعالى .:

شمسُ الهدى وضحت بأشرف مرسل
من وجه عبد الله كانَ ظهورها
خلعتُ على الآفاق أشرفَ ملابس
فالتيران المشرقان كلاهما
فالشمسُ لما أنْ بدتْ أنواره
والبدْرُ قابله بحسنٍ كاملٍ
وليلة الإسراء أجمل منظر
ففضلتُ على الأيام منْ شرفٍ لما
وبدا بها نور النبي المصطفى
إذ جاءه الروح الأمين مسلماً
فسرى إلى أسنى محلٍ وارتمى
رفعتُ له حجبُ الجلال بأسرها
حتى انتهى الروحُ الأمينُ لحده
ناداه لما أن ترقى وحده :
ارقا إلى الأفق المبين مشاهداً
واسعد بزورة من تعظم ملكه
فسما فشاهد حضرة القدس التي
وبدا الكمالُ له ونودى مقبلاً :
أنت المرادُ لسرنا ولوحينا
والجِسْ بحضرة قلنا خلع الرضى
ولك الوسيلة يا محمد عندنا
فاحكم بما يوحى إليك من الهدى

ودحت دُجى ليل الضلال المسيل
للخلق طرّاً في ربيع الأول
وبدتْ فأبى دُجْنَةٌ لم تنجل
المصطفى اعترفا بمنجز مجمل
أومتْ إليه بالسلام الأحفل
فانشقّ لليلِ الأتمّ الأكل
بجمال إسراء الحبيب الأجل
حازته من شرف النبي الأفضّل
وبدتْ لنا ناز الكليم المصطفى
ومبشراً بورود أصلب منهل
والخضنُ منه بنومه لم يكحل
فرأى جلالاً لم يكن بممثل
ويحيى يذهلُ عقلُ من لم يذهل
لك يا محمدُ ذا التقربُ ليس لي
واترك حظوظك بالحضيض الأسفل
واصعدْ إلى عرش الحبيب الأول
سُبْحاتها تنفى حجبى المتأمل
أهلاً وسهلاً بالحبيب المُقبل
أقبلُ إلينا يا محمد تقبل
منّا وجرّ الليل منها وارفل
وبها نجيب وسيلة المتوصل
وانزلْ بأنوار الكتاب المتزل

فيه شفاء للصلور فبروها
 يا نفس هل تشفيك زورة طيبة
 وكى زمانك في التصابي والمنى
 يا قلب ، روعات الجوى هل تنقضي
 وأزور قبر الماشي محمد
 إني وإن بخل الزمان بقربه
 أسقي الثرى تسكابها ، فمعيها
 لمني حل بعد المزار مقى أرى
 ومتى أبشر بالنى ، ويقال لي :
 ونهب تلقائي نواسم طيبة
 فلقد بليت بلوعة ويلمعة
 خيلت قربك برة داء صباي
 شوقاً إلى غير الأنام بأسرهم
 فيه أنا متوسل في مقصدي
 ويجاهد عند الأنام مآربي
 وبه الأمانى قد حللن بساحي
 بشراك ففعي فالأمانى أعجلت
 بمديحه أضحي الزمان مسالي
 فيه إلهي قد رجوتك راضياً
 وإليك ربي رغبتي وتوسلي

بفصل منه وغير مفصل
 فرسومها برة لكل مقبل
 فدعي التصابي والأمانى وارحلي
 ضي ؟ ولوعات الجوى هل تنجلي ؟
 قبل الرحيل وقبل عدل العدل
 فبلوعي ويلمعي لم أبخل
 يهي ، وثار صباي ما تأتلي
 يقضي الزمان بقرب ذاك المنزل ؟
 هذا مقر الوحي دونك فانزل ؟
 إني أجود بها إليك وحق لي
 وهوبك الأذى شفاء المبتلي
 ضمن البعاد به فطال تحيلى
 سولي وأسنى مقصدي ومؤمل
 أسنى التوسل بالرسول المرسل
 ووسائل تغنى وإن لم أسأل
 وحوادث الخلدان صرن بمزل
 نحوي تيشرنى بخير معجل
 تندى أسرة وجهه المتهلل
 دون الأنام فباب جودك موثلي
 وعليك في كل الأمور توكللي

وثبت في آخر هذا الكتاب ما صورته : قال محمد بن عبد الله بن محمد بن
 محمد بن أبي بكر بن يوسف بن العطار نفعه الله تعالى بالعلم : كان الفراغ من
 إكمال هذا الفصل وإتمامه ، حسب نثره ونظامه ، ضحوة يوم الجمعة الثاني من

شعبان المكرم سنة ست وتسعين ومستمائة ، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها ،
فلأنها تقدمت على إنشائه ، أودعتها فيه ، والله سبحانه المستعان ، وذلك بمدينة
الجزائر — جزائر بني مزغنة — من أقصى إفريقية من أرض متيجة ، صانها الله
تعالى ، انتهى .

ونبت في آخره بخط بعض الأكابر ما نصه : تأليف الفقيه العالم الأديب
البارع أبي عبد الله محمد بن المطار الجزائري ، انتهى .
وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم والنثر ، فالفه تعالى يجازي صاحبه
أفضل الجزاء ، بمنه وكرمه .

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة
على ما ذكر هنا فنقول : قال العارف بالله تعالى ابن العريف في كتاب « مطالع
الأنوار ومتابع الأسرار » :

وَحَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَلْبِي	يَجِبُكَ قَرَبَةً لِحَوْ الْإِلَهِ
جَرَتْ أَمْوَاهُ جَبِكَ فِي فَوَادِي	فَهَامَ الْقَلْبُ فِي طِيبِ الْمِيَاهِ
فَصُرْتُ أَرَى الْأُمُورَ بَعِينَ حَقٍّ	وَكُنْتُ أَرَى الْأُمُورَ بَعِينَ سَاهِي
إِذْ شَغَفَ الْفَوَادُ بِهِ وَدَادَا	فَهَلْ يَنْهَاهُ عَنْ ذِكْرِهِ نَاهِي؟
يَهِيمُ بِذِكْرِهِ وَيَحْنُ شَوْقًا	حَنِينَ الْمُسْتَهَامِ إِلَى الْمَلَامِي
يُضَامِرُهُ ارْتِيَاخٌ مِنْهُ حَتَّى	يَقُولُ أُولُو الْجَهَالَةِ : ذَاكَ لَاهِي
وَمَا هُوَ حَقٌّ فَضْلٌ قَدْ رَأَاهُ	فَصَارَ يَحْدُ فِي طَلَبِ الْمَلَامِي
فَسَوْفَ يَنَالُ فِي الدُّنْيَا سُرُورًا	وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كُلُّ جَاهٍ
وَيُعْطَى مَا تَمْنَى مِنْ أَمَانٍ	كَمَا قَدْ حَبَّ حُبَّ مَحْبُوبِ الْإِلَهِ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

يَا عَاذِلِي فِي طَلَابِي	دَعْنِي مِنَ الْعِلَلِ دَعْنِي
سَاعِمْ لِي الْعَيْسَ شَوْقًا	بِالْعَزَمِ دُونَ الثَّانِي

إلى ضريح رسول
أشدو على كل فج
يا أظهر الخلق إنني
فأعني اليوم رقي
فأنت أنت ملاذي
إن غبت عن عين جسمي
لولاك كنا أناساً
فإذ بُعثت رسولاً
لله خالص شكري
فلئنني عبدٌ سوء

مصدق حسن ظني
حين الحمام يغني
بدلتي عبد قين
وانظر بعطفك مني
إياك إياك أعني
ما غبت عن عين ذهني
أشرف من كل جن
فخير فضل ومن
عساه بصفح عني
قلبت ظهرك المجن

وقال في خاتمة ذلك الكتاب :

صلّى الإله على النبي المادي
صلّى عليه الله ما اسودّ الدجى
صلّى عليه الله ما انبلج السنا
صلّى عليه الله ما جمع الحيا
صلّى عليه الله ما هكت الصبا
صلّى عليه الله ما ألفت الكرى
صلّى على المختار أجدد ربه
صلّى على خير الأنام محمد
صلّى الإله على رسول حاشي
صلّى الإله على رسول عاقب

ما لا ذن الأرواح بالأجساد
فكسا حياء الأقي برود حديد
فابيض وجه الأرض بعد سواد
فستى البلاد برائح أو غادي
وشدا على فنن الأراكة شادي
جفن فخامره لليلد رقاد
ما استمسكت نار بطي زناد
من خصه بالنور والإرشاد
حشير الأنام لليه في الميعاد
في الدهر وهو بفضله كالمادي

١ ق : وقوله رحمه الله تعالى . . . الباب .

صلى الله على رسول خاتم
 صلى الله على المقصي ما اقضى
 صلى على ماحي الضلال له
 لى الله على رسول فاتح
 صلى الله على نبي راحم
 صلى الله على نبي طالع
 صلى الله على نبي طالع
 صلى عليه الله فهو نبي
 صلى عليه الله فهو رسول
 صلى عليه الله فهو خليل
 صلى عليه الله فهو صفي
 صلى عليه الله فهو ولي
 صلى عليه الله فهو المصطفى
 صلى عليه الله فهو المجتبي
 صلى عليه الله فهو المتقى
 صلى عليه من براه مطهراً
 صلى عليه من براه بفضله
 صلى عليه من أراه جلالة
 صلى عليه من أحل فزاده
 صلى عليه من غكده بنعمة
 صلى عليه من كساه عوارفاً
 ختم النبوة بالكتاب الهادي
 بشر نبوته بغير عناد
 ما غردت طير على الأعواد
 فتح الظلام بنوره الوقاد
 باللمة القراء بعد فساد
 رحم الله به من الإبعاد
 بملاحم قصصت فؤاد العادي
 ناداه بالإرشاد خير مناد
 أعطاه راية عزيمة ورشاد
 أسدى إليه منه كل مداد
 صمى سريره من الأحقاد
 والاه في الإصدار والإيراد
 من كل حضار العباد وبادي
 يجني إليه الخير دون نقاد
 نور الزمان وواحد الأحاد
 واختاره طوداً من الأطواد
 وأعاده حياً لغير معاد
 وأناله من ذاك كل مراد
 في ظل عرش ثابت الأوتاد
 فتضاعفت كتضاعف الأعداد
 واختصه منه بغير أياد

وقال الشيخ أبو عبد الله ابن عمران مادحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم

مرتباً على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب ، كما تقدم :

ألف : أيا خيرَ البريةِ هذي	مِدْحِي ، وما أنا في مقالِي هاذي
باء : بها أظهرتُ صدقَ محبي	وبذلكَ الجاهِ الكريمِ ليَازي
تاء : تخذلتُ وسيلةً ما حكتهُ	وجعلتهُ يومَ المعادِ عيَازي
ثاء : ثنائي ليس بمصرُ فضلكَ إلا	زاهي ولا يحويه باستحواذِ
جيم : جلالك جلٌّ طورُ فخاره	عن شبهِ مثلٍ أو لحاقِ مُحَازي
حاء : حُيتَ بمجيزاتٍ ذكرها	يولي ذوي الإيمانِ كلٌّ لَذاذِ
خاء : خصصتُ بها بفضلِ عنايَةٍ	منها بلاتٍ إلى أجلٍّ مَلاذِ
دال : دحضتُ بحقها مستغرياً	لِإبطالِ زورِ مشعُورٍ مَلاذِ
ذال : ذراعُ الشاةِ أفصحُ خبراً	عصاً يحاذرُ ضره بضَازِ
راء : رميتُ عصائباً قد ألجوا	فَعَمُوا ولما يُنصروا بلِواذِ
زاي : زعيمُ بالوجهةِ أنتَ إذْ	كلٌّ بِجاهكَ عاذِ كلٌّ عيَازِ
طاء : طلائيمُ لَدَيْكَ شفاعَةٌ	فيها بذتَ الجَمعِ أيْ بَذاذِ
ظاء : ظمأؤهم بِموضعك سَوَّغُوا	رِيتُ كانَ بهِ مذاقَةٌ مَذاذِ
كاف : كفلتُ بما تلته (والضحي)	بِجماعةِ الجارينِ باستفَازِ
لام : لدعوتك المجابة أسبلت	ثرواتُ هَتانِ الحيا بِهمَازِ
ميم : معينُ يَدَيْكَ إذْ غلبَ الظُّما	أروى الورى من تَوأمٍ وفَذاذِ
نون : نِجَارَكُ أصلُهُ متخَيَّرٌ	من بطنِ ذاتِ علاٍ وأَظْهَرَ حَذاذِ
صاد : صعدت ذرا لموقف زلفه	تركَ السُودَ مَقطَعِ الأَفْلاذِ
ضاد : ضويتُ إلى جلالِ كافِلٍ	لَكَ بِالرُضى دَرٌّ الجِلالَةِ غَازِ
عين : علاذَكَ افتخاركَ وارْتَقَى	عن غَمَزٍ مَتَّابٍ وزورِ البَازي
غين : غمامُ قد علاكَ مَظَلَلًا	يَمشي بِمَشْيِكَ دائِماً ويحاذي

فاء : فصاحتك البليغة أعجزت
 قاف : قواعده صرح كسرى زلزلت
 سين : سقت بكل فضل يقتدي
 شين : شأوت مفاخر أكل الوري
 هاء : هتفت على ثنائي شُئني
 واو : ولو أني استطعت لسابقت
 لا : لا أكيف قدر شوق باعث
 ياء : يميناً لو قدرتُ إذن لما
 دامت عليك صلاة ربك ما همت
 للقوم من قربي ومن شدائد
 لولادة أوهت قوى ابن قباذ
 جفنُ المعالي منه ليس بقاذ
 وتركهم غرقى بلجة آذي
 بعلاك هذي ، ما نحتك هذي
 قلبي خطا قلبي بالإغذاذ
 لعزائي مستنهض شحاذ
 أنعرتُ سمي مبادر حلاذ
 ديم بوبل هساطر ورذاذ

رجع إلى الكاتب أبي عهد الله ابن الجنان الأندلسي :

قال : - تقبل الله تعالى منه - يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

يا مَنْ تقدّس عن أن يحيط وصف بذاته
 ومنّ تعالى جلالاً عن مُشبه في صفاته
 ومنّ قبولُ ثنائي إليه أسنى هباته
 صلى على مَنْ تبدّى نور الهدى من سماته
 ومنّ علا الفخر لما نعى إلى معلّواته
 محمدٌ خيرُ هادٍ بحلمه وأثابته
 محمدٌ خيرُ داعٍ بالصلق من كلماته
 محمدٌ خيرُ مُبدٍ لنا سناً معجزاته
 أكرم به من نبي همت سما مكرماته
 أعزّز به من رسول سمّت علّا درجاته
 وخصّه الله منه بالفضل من تكرماته

لما جاء بأوفى صلاته في صلاته

وقال :

يا ربِّ بَلِّغْ سَلامِي
لخاتمِ الرُّسُلِ أعني
لأجبرِ الخلقِ مجداً
لمنْ صفاتُ علاهُ
لَسَيِّدِ لَسَنَاهُ
لمرشدِ يَهْدَاهُ
شمسُ النُّبُوَّةِ مُحِيطُ
وفاظِمِ الحَسَنِ نَظْمُ
وسرِّ سرِّكَ يا مَنْ
ومَنْ حَبَاهُ بِدَكَاهُ
ومدِّ في كُلِّ فَضْلٍ
فَزِدْهُ يا رَبِّ فَخْراً
لأحمدِ ذِي الشِّفَاعَةِ
إمامِ تِلْكَ الجَمَاعَةِ
يَحْكِي الصَّبَاحَ نِصَاعَهُ
تُعْجِزُ أَهْلَ البِرَاعَةِ
يُزْهِى السَّنا والبِرَاعَةِ
قد فَازَ عِبْدُ أَطَاعَةِ
شمسِ السَّمَاءِ شِعَاعَةِ
قد ضَمَّ مِنْهُ شِعَاعَةِ
أَرَى العِيونَ اِطِّلاعَهُ
خِلالَهُ وطِبَاعَهُ
لِصفوَةِ الرُّسُلِ باعِهِ
وَزِدْهُ مَحَبَّةً طَاعَهُ

وقال أيضاً غيره :

لقد رَفَعَ الإلهُ عَنِ البرايا
أَنِي والنَّاسُ في الآفاقِ نَهْبُ
فَأَقْذِمُهُمْ ، وَلَوْلَاهُ لَكَانُوا
نَبِيٌّ لا يَغْلُ عَلَيْهِ إِلَّا
كَأَغْمَارِ اليَهُودِ أو النَّصَارَى
فَبُغِضَ لِلتَّجَاهِلِ والتَّعَامِي
زَعَانِفُ لا يَهْلِكُ لَهَا رُوءَا
يَبِثُّ مُحَمَّدٌ مِجَنَّ الصُّرُوفِ
لَسُمْرِ الخَطِّ أو يَبِثُّ السُّيُوفِ
لَقَى بَيْنَ الضَّلَالَةِ والخُوفِ
سَخِيفُ العَقْلِ ذُو رَأْيٍ مَوْفٍ
أو الفَلَكِيِّ أو كَالْفِيلَسُوفِ
وبِغَضٍ لِلتَّحْيِيرِ والوَقُوفِ
فَإِنَّ الجَهْلَ مَاتِحَةُ الظُّرُوفِ

إذا جرى بمخلٍّ ضعيف
فبرهانُ النبوةِ مستفيضٌ
شفوفُ الرُّسلِ متضجٌّ ولكن
حروفُ الخطِّ أصلٌ للمعاني
فإنَّ صحاحنا فوقَ الألوفِ
نذلُّ بهِ على رغمِ الأنوفِ
لأحمدِ الشفوفُ على الشفوفِ
وللألفِ التقدُّمُ للحروفِ

وما أحسن قول القائل رحمه الله تعالى :

لولا النبيُّ محمدُ
أهلُ الورى قدراً وأكـ
ختمَ الإله بهِ النبي
واختصَّه دونَ السبـ
بدرُ الرسالة والصفا
قدَّفَ الحصى في أعين الـ
وتلوعوا ثوبه الكـ
فأضخ إلى أنبيائه
وإذا ابتغيت وسيلة
فاقطع بآنك آمن
هلك الورى في سوء حالة
رمهم وأظهرهم دلالة
وّة والطهارة والرسالة
يّة بالمكانة . والجلالة
بهِ حول ذلك البدر هاله
كفّار فاعتقوا الجذالة
يّة بعد إظهار الجزالة
تعلم بأنّ المنتهى له
وملحت وملحت آله
يوم القيامة لا محالة

وقال أبو القاسم سعد بن محمد رحمه الله تعالى :

أطلقن لسانك بالصلاة على الـ
ولجعل شعلوك ذلك تنجُ به غداً
نبيُّ الأبطحي الهاشمي محمد
إنَّ النجاةَ بذكرِ يومٍ للند

ولأبي اليمن ابن صاكر رحمه الله تعالى :

يا ربِّ صلِّ على النبي وآله
واخصصي ختمَ سلامنا بجنابه
واحرس شريعته وأوضح سبلها
وأدرم كرامته وأعل مناره
وارفع له الدرجات في رتب العلا
وأقم بين يديك زلفى موقف
وأئل شفاعة وأورد حوضه
يشاققه ويعوقه علق به
فيه إليه غلّة ما تشفي
وله عليه في الأصائل والضحى
وبه إلى تقيل موطن تحليه
وله أيضاً رحمه الله تعالى :

ألا إن الصلاة على الرسول
فصل عليه ؛ إن الله صلتى
وصل عليه قد صلت عليه
ألا إن الصلاة عليه نور
وتقيل لميزان خفيف
إذا صليت صلتى الله عشراً
وتحظى بالشفاعة يوم تضحى
فاكثر أو أقل فانت تجزى
فصل عليه تجزء ضمف
وأولى الناس أكثرهم صلاة
شفاء للقلوب من الغليل
عليه ولا تكونن بالبخيل
ملائكة السماء يجبرئيل
لدى الظلمات في اليوم المهيول
وتخفيف من الوزر الثقيل
بواحدة عليك على الرسول
وما لك من مقيل أو منيل
بذلك من كثير أو قليل
وتجز مضاعف الأجر الجزيل
عليه به وأحرى بالقبول

وأنجاهم من الأحوال عبدٌ
 فكان لهجاً بذكره حفيّاً
 وصل صلاة مشتاقٍ إليه
 وصل مدى الزمان على رسول
 وصل على حبيبٍ فاق فضلاً
 فصلّى الله أفضل من يصلي
 وآتاه الوسيلة مستجيباً
 وأزلفه شفقه ليأوي
 وأطد شرعه وحى حماه
 وشرّفه ولم يبرح شريفاً
 وزاد عبّه شرفاً وفخراً
 وزاد علاه منه بطول عمر
 وأوردنا عليه الخوض وفداً
 بها لهجٌ بذكر^١ قال وقيل
 بلفياه ومنصبه الجليل
 ودأب يذكره سقم العليل
 كريم مصطفى برّ وصول
 مدى شأو الكليم مع الخليل
 عليه في الصباح مع الأصيل
 وبلغه نهاية كلّ سؤل
 إليه الناس في ظلّ ظليل
 وأبدّه بوضحة الدليل
 فيجمع جملة المجد الأثيل
 بتفضيل وتحويل جزيل
 قصي من مواهب طويل
 لروى بالروى من سلسيل

وله رحمه الله تعالى :

آدم الصلاة على النبي المصطفى
 وتولّ لإقبالها عليها كلّما
 فالفخر أجمعه له فتلقه
 تخلص بذلك من الجحيم ونارها
 هتف المؤذن مشعراً بشعارها
 من نوبة الأسحار فوق منارها

فهذه عذّة قصائد في مدحه صلى الله عليه وسلّم ، أرجو من الله سبحانه أن
 تكون مكفرة لما ارتكبته على وجه الفخر والشهرة من الهزل واللغو ، فإن ذلك والله
 قول لا فعل له ، وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر

١ كذا بالتسكين ، وفي هذه القصائد تسامح أسياًناً في اللغة والإعراب لم نشر إليه .

وغير واحد ممن ألف في الأدب وجمعه .

ولا بأس أن نزرها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة ، وحق لمن توسل
بسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن لا تضيغ وسائله ، وكيف وهو صاحب
المقام المحمود والشفاعة والسيادة ، فمنها قول ابن الجنان المذكور آنفاً رحمه الله
تعالى :

إلى أحمد المختار تُهدي تحية
إذا فاضت مغناه إراد تارجاً
أسير أشواق رسولاً بعرفها
وأرجو لديه الفضل فهو مثيله
عليه اعتماد حين لا لي حيلة
به وثقت نفسي الضعيفة بعدما
إليه صلاتي قد بعثت مشفعاً
تفاح روض الحزن بالله المزن
وإن لثمت يمناه قابله اليمن
لتسعدنا منه العوارف والمن
وما خاب لي فيه الرجاء ولا الظن
إليه استنادي حين ينو بي الركن
أضر بها من ضعف قوتها الوهن
سلاماً به الإحسان ينساق والحسن

وقوله رحمه الله تعالى :

أذهب يوم لم أكفر ذنوبه
ولم أقض في حق الصلاة فريضة
أرجيت لديه النفع في صدق حبه
وأهدي إلى مشواه مني تحية
بذكر شفيع في الذنوب مشفع
على ذي مقام في الحساب مرفع
ومن يربح المختار لا شك ينفع
إذا فصلت باب الرضى لم تُلغ

وقوله رحمه الله تعالى :

يا أرحم الخلق يوم الحشر والندم
إني توسلت بالمختار ملجأنا
إليك من سيئاتي إنها عظمت
عليه منه صلاة كلما طلعت
أرحم عيبك يا ذا الطول والنعيم
الطاهر المجتبى من خيرة الأمم
يا واحداً لم يزل فرداً ولم يتم
شمس وما خط في الأوراق بالقلم

فهو الشفيعُ الذي أرجو النجاةَ به من الجحيمِ إذ الكفارُ كالحمَمِ
وقوله أيضاً رحمه الله تعالى :

بجيبِ القلوبِ معتمدِ الخلا
قد تشفعتُ من ذنوبي إلى ذي الـ
فاشفعْ اشفعْ يا خاتمَ الرُّسلِ يومَ الـ
لظُكُومِ لنفسه قد تنامى
فإذا ما تذكرَ الذنبَ فاضتْ
لا تخيَّبْ رجاءه إنه منْ
وعليك الصلاةُ بدءاً وعوداً

وقوله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

يا ربَّ إنَّ شفيعي من ذنوبي في
محمد خاتمِ الرُّسلِ المبلغُ الـ
عليه مني صلاةٌ كلما سجع الـ
وبعد ذلك أعدادُ الجبالِ ورمه
كذلك أيضاً سلامي طيبٌ عطرٌ
لله وهو كثيبٌ خائفٌ وجيلٌ

وقول الشيخ الإمام أبي زيد النازاوي رحمه الله تعالى :

كملت بنعتِ محمدٍ خيرِ الورى
واختصَّ دونَ الأنبياءِ بدعوة
فاضتْ على الثَّقلينِ منه أشعةٌ
فالإنسُ تعلمُ أنه مقصودها

غرُرُ القصائدِ كلُّها وحجوها
وسع العبادَ عمومها وشموها
طلعتْ وما عقبَ الطلوعَ أفوها
والجنُّ توقنُ أنه مأموها

كَمْ آيَةٍ بِالصِّدْقِ كَانَ ظَهْوُهَا
لِحَمْدِهِ لَزِمَ الْعِبَادَ قَبُولُهَا
هَذَا النَّبِيُّ الْهَاشِمِيُّ رَسُولُهَا

كَمْ آيَةٍ بِالصِّدْقِ كَانَ ظَهْوُهَا
وَكَيْفَاكَ هَذَا الْوَحْيُ فَهُوَ شَهَادَةُ
جَمْعِ الْإِلَهِ الْمَكْرَمَاتِ لِأُمَّةٍ

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

سَدَفَ الْبَاطِلُ عَنَّا أَجْمَعِينَ
عَتَمَا أَكْمَلَ سَنَ الْأَرْبَعِينَ
عَجَزَتْ عَنْهُ دَوَاعِي الْمُدْعِينَ
وَهُوَ بِاللَّهِ تَعَالَى مُسْتَعِينَ
سَائَرَ الْخَلْقِ إِلَيْهَا مُهْطَعِينَ
أَنْفُسِ الْقَاتِلِ وَالْمُسْتَمْعِينَ
فَهُوَ غَجَّاجٌ مِنَ الْمَلَذِبِ الْمَعِينِ
فَهُوَ مِنْ شَيْعَةِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ

أَيُّ نَوْرِ كَشَفَ اللَّهُ بِهِ
خَمَ اللَّهُ بِهِ أَنْوَارَهُ
وَأَنَا بَدَلِيلُ بَيْنِ
فَهُوَ لِلنَّاسِ جَمِيعاً مُرْشِدُ
تَرَكْتُ دَعْوَتَهُ وَهُوَ الرِّضَى
فَاعِدُ أَنْبَاءِهِ فَهُوَ مَسْنَى
وَالَّذِي يَهْدِي إِلَى شَرْعَتِهِ
وَالَّذِي يَرْغُبُ عَنْ سُنَّتِهِ

وَقَوْلُهُ وَهُوَ كَمَا قَبْلَهُ لَزُومِي :

تَدُلُّ عَلَى التَّمَكُّينِ وَالشَّرَفِ الْأَسْرَى
بَنُورِ سَمَاءٍ يَنْقُلُوهُ عَنِ الْإِسْرَا
فَلَا قَيْصَرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَلَا كُفْرَى
نَظَلَ بِهِ الْأَوْهَامَ ظَالِمَةً حُمْرَى
وَمَنْ لَمْ يَقُلْ هَذَا فَقَوْلُهُ قَسْرَا
حَقِيقاً وَلَمْ يَبْعِرْ سَفِيناً وَلَا جِسْرَا
يَحْتَلُّهَا مَنْ لَا يُبَيِّنُ لَيْسَرَى
وَبُورُكُفِي السَّارِي وَبُورُكُفِي الْمَسْرَى
فَعَوْنُكَ تَجْمِيلًا وَلَا تَطْلُبُ الْفَسْرَا

أَصْحُ فَلْخَيْرِ الْعَسَالِينِ مَنَاقِبِ
أَيُّ وَالْوَرَى أَسْرَى فَكَانَ غِيَاثَهُمْ
وَعَقَى رُسُومِ الْكَافِرِينَ وَأَهْلَهَا
تَقْدَمَ كُلُّ الْعَالَمِينَ إِلَى مَدَى
وَحُصْرُ بَيْتَشْرِيفِ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ
تَرْقَى إِلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ تَرْقِيَاً
وَبِالْجِسْمِ أَسْرَى اللَّهُ وَهُوَ دَلَالَةُ
فَسُبْحَانَ مَنْ أَسْرَى إِلَيْهِ بَعْدَهُ
وَكَمْ عَجَبٌ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ بِهِ

وقوله رحمه الله تعالى :

هاك عن هذا النبي المصطفى	خبراً يتقبله من سمعته
سبحتهم الحصى في كفه	ثم في كف الهداة الأربعة
وإذا أبدى نبي حبرة	فهو لا ينكر فيمن تبعه
أي نطق قد روى إعجازه	عن سماع كل من كان معه
حجج الرسل التي قد سلفت	أصبحت في أحمد مجتمعة
فاعتقد صحتها وأعمل بها	فدعساوى ضدها منقطع
ممكّنات العقل لا يحدها	غير أهل الطبع والمبتدعة

وقوله رحمه الله تعالى :

إذا أمّلت من مولاك قرأ	فجدّد ذكر خير الأنبياء
وصل عليه أول كل قول	وأخّره بصبح والمساء
فلن محمداً أهل البرايا	علاً في السيادة والعلاء
لواء الحمد في يمين يديه	وكل الناس من دون القواء
فحدث عن دلالته فيها	شفاء للنهي من كل داء
ولست بناقل للعشر منها	وهل تفي الزواجر بالدلاء
فقل للسامعين قفوا فهذا	محال ليس يحصر بانتهاه
براهين البسطة ليس تحصى	فدونكم براهين السماء

وقوله رحمه الله تعالى :

أما يمين محمد	ويساره فهما سماء
كلتاها إن صرح الـ	مرعى لنا طعم وماء
وإذا أضرب بنا السقا	م وغيره فهما شفاء

فأعجب لكف في الوري
فأقطع بأنَّ محمدًا
فلذا أصبحت لآية
هذا الصباح الماشم
فالأرض قد فُتحت بـ
سبق القضاء بسبقه
فيها عن المزن اكتفاء
في الخلق ليس له كفاء
فالنور فيها والضياء
في بدا فليس به خفاء
معه وفتحت السماء
والله يفعل ما يشاء

وقوله رحمه الله تعالى :

بركاتُ رسل الله غير خفية
هذا النبي الماشمي هو الذي
كم آية لمحمد كم حجة
دعوته مسموعة مرفوعة
لا شيء أعجب من دليل واضح
أمسك بجمل محمد خير الوري
وإذا عجبت لغاية في رفعة
ومحمد خير البرية أبرك
هدي الأنام به وبان المسلك
عز الولي بها وذل الشرك
والحسن ليس يصح فيه تشكك
يحيا به بعض وبعض يهلك
تظفر بقصدك أيها المستمسك
فمحل أحمد غاية لا تدرك

وقوله رحمه الله تعالى :

قبح الإله الملعدين
والمعجزات تواترت
والله أعلى كعبه
كثر الطعام مع الشرا
وتكثفت عنايته
نادى البرية فالقلوب
فلنهم جحلوا الضرورة
عن أحمد في كل صورة
في خلقه وآتم نوره
ب يكفه عند الضرورة
من ربه أعلت أموره
ب إلى إجابته متصوره

وحى الشريعة بالدلي
قل للمشكك حين ي
يبي وينكم الكنا
ل فلع معاندها وزوره
لي في تشككه قصوره
ب فلونكم فأتوا بسوره

وقال رحمه الله تعالى :

إذا بهرت الهاشمي - دلالة
فكم مرة أتى الغنى كف سائل
له تحت أستار الغيوب شهادة
يحدث عما كان أو هو كائن
إذا الصديق لم يعوزك في غلواته
وحسبك في الأبناء بالغيب أنه
فكم حجج في طيها ودلائل
وكم مرة أعطى المتى فكر سائل
معدلة لم تثب قولاً نقائل
فقس آخراً من صلبه بالأوائل
فلا شك في تصديقه بالأصائل
ستمعها بالنقل من قول قائل

وقوله رحمه الله تعالى :

يا ذا المعنى بهذا الذكر تسمعه
هذا النبي ، ومن آيات أثره
قد انقضت معجزات الغيب وافية
وهاك نوعاً من الإعجاز متزهاً
لا نعلم النقل عن آثار سيدنا
تنقل الأنف في النوار ينشق
إن القلوب إذا اعتلت خراطرها
في المدح تأثره في سيد الناس
في الطيب والطول لا يحرمي بقياس
صحيحة باستفاضات وإحساس
عن نقد متبذل أو صفح قرطاس
فلنما نحن فيها بين أعراس
من يسمين إلى ورد إلى آس
فذكر أحمد فيها المبرى الآمن

وقوله رحمه الله تعالى :

تأدب إذا ذكر المصطفى
فإن التأدب عند السماع
بصمت اللسان وخفض البصر
يفهم في التطق أو في النظر

وردّد أحاديثها لأنها
وصلّ عليه ملئ ذكره
ولا تسترب في براهنه
فكم آية ظهرت للنبي
ومن شك في نور برهانه
فكبر على عقله أربعا
دليل على صلق غير البشر
فلنك أفضل ما يدخر
فصلك مسلك قوم آخر
وكم أثر عنده قد ظهر
على أن برهانه قد برز
وقل فوق طورك هذا الخبر

وقوله رحمه الله تعالى :

اعمل بآثار النب
واقبل نصيحتها فو
واشدد يمينك بالشراء
خير البرية أحمد
ذو قوة عند الإلا
زان النبيون الورى
هاد إلى طرق النجا
والهج بمدح الهاشم
ولئن فعلت فلن تفو
ي ظنّها النور المين
ها العز والشرف المكين
عة لأنها السبب المتين
والحق يصحبه اليقين
ه مقرب منه مكين
ومحمد لهم مزين
ة مؤيد فيها أمين
ي ظنّه الحصن الحصين
تلك بعد ذا دنيا ودين

وهذا تسليس جعلته للكتاب مسك الختام :

ولنأمن أعمالنا فخير وضده وما يحسن الأعمال غير الخواتم
والأفلامداح النبوية بحر لا ساحل له ، وفيها النثر والنظام ، زاده الله شرفاً
وجاه أفضل الصلاة وأزكى السلام .
وهذه القصيدة من نظم الفقيه الأجل أبي الحاج يوسف بن موسى
المتشاقري الأندلسي - نفعه الله تعالى بنيته ، وبلغه غاية أمنيه - وترتيبها على

حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروي فإنه على حرف الميم ،
وكذا آخر الشطر الذي قبله فإنه ميم أيضاً ، وهذا نصه بحروفه ما عدا حرف
الواو فلاني لم أجده وكملته على متواله :

حل في طيبة رسول كريم	فعلية الصلاة والتسليم
صفوة الخلق خاتم الأنبياء	مرشد الناس للطريق السواء
والعماد الملاذ في اللاواء	وشفيح المعصاة يوم الجزاء
يوم يبدو لديه جاء عظيم	فعلية الصلاة والتسليم
أذهب الغي نوره والضياع	فأضاءت مشارق ومغارب
وغدا الحق غالباً للأكاذب	وبدت منه للأنام عجائب
صديق أقواله بها معلوم	فعلية الصلاة والتسليم
لبراهين صدقه معجزات	حيثما حل حلت البركات
وسمت أربع به وجهات	فيه قد تعرفت عرفات
وبه تاه زمزم والحطيم	فعلية الصلاة والتسليم
لم يزل هادياً صدوق الحديث	ووفياً بالمعهد غير نكوث
وجيئاً لدعوة المستغيث	وكرماً نداه فوق الثيوث
ويده بالهود جود سجود	فعلية الصلاة والتسليم
بجح الحق أوضح الابتهاج	سيد نوره أضاء الدياجي
خصه الله ليلة المعراج	باصطفاه ورفعته ونتاج
وبتكليمه له التكريم	فعلية الصلاة والتسليم

مصطفى مجتبي كرم صفوح	لنيتين جاهه منوح
فلا كرامه أجمير النيح	ونجما آدم وخلص نوح
وكذلك الخليل إبراهيم	فعليه الصلاة والتسليم
كل دين بدنيه منوخ	فسوى ما فقى به مفسوخ
لهداه بكل قلب رسوخ	فالورى مادح له ومصبوخ
كلهم في هوى النبي يميم	فعليه الصلاة والتسليم
بمشه كان رحمة للعباد	دلهم بالهدى طريق الرشاد
وقضى كل باطل وعناد	ودعا للإله دعوة هادي
فلذا الحق واضح مستقيم	فعليه الصلاة والتسليم
أمة بالشكاة ظني أحميد	مستجيراً بحماه يستعيد
وبه كانت الوحوش تلوذ	وله خاطب الدراع الحنيد
لا تكلفني فلاني مسموم	فعليه الصلاة والتسليم
أشبع الجيش والطعام يسير	ودعا نخلة فجاءت تسمير
وهسى من يديه عذب نعيم	وله البدر شق وهو منير
معجزات تحار فيها الفهوم	فعليه الصلاة والتسليم
حجب النور في السموات جازا	فاحتوى الفضل والملاء وحازا
فيه في غدير نال المفازا	وكفى أمة الرسول اعترازا
أن تمنى يكون منها كلهم	فعليه الصلاة والتسليم

لَمْ يَحْزُرْ فِي الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ قَطُّ	إِنَّمَا الْحُكْمُ مِنْهُ عَدْلٌ وَقِسْطٌ
وَبِأَمْدَاحِهِ ذُنُوبِي تَحُطُّ	جَهْ فِي بُلُوغِ قَصْدِي شَرُطٌ
فَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ	وَيَزُولُ الْعَنَا وَتَجْلَى الْمَهْمُومُ
وَنَفَى رَوْعَنَا بِأَمْنٍ وَحِفْظِ	قَدْ جَمِيَ دِينُنَا بِرَعْيٍ وَنَحْظِ
هَادِيًا رَاحِمًا لَنَا غَيْرَ فَظٍّ	وَحَبَانَا بِمَا لَدَى الرَّبِّ يُحْظَى
فَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ	مِثْلُ مَا نَصَّهُ الْكِتَابُ الْكَرِيمُ
وَهَدَاهُ أَجَارَ مَنْ كُلِّ هَلَكٍ	نُورُ بَرْهَانِهِ جَلَا كُلِّ شَرِكٍ
فَلَكُمْ رَامَهُ الْعُدَاةُ بِشَكٍّ	أَخْيَرُ الْعَالَمِينَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ
فَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ	وَهُوَ فِي كُلِّ حَالَةٍ مَعْصُومٌ
لَأَنَّهُ مَجْتَبَى نَبِيِّ رَسُولٍ	مَا تَخِيرُ الْأَنَامُ مِنْهُمْ عَدِيلُ
وَبِأَمْدَاحِهِ أَتَى التَّنْزِيلُ	مَا عَصَى مَادِحَ الشُّفْعِ يَقُولُ
فَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ	وَتَنَاهَاهُ خِلَالُهُ مَرْسُومٌ
نُورُ بَرْهَانِهِ أَرَانَا يَقِينًا	نَحْنُ لَوْلَا اتِّبَاعُهُ لَشَقِينَا
وَكُفُّوسًا بِمَوْضِعِهِ قَدْ سَقِينَا	وَعَلَا مَا نَخَافُ مِنْهُ يَقِينَا
فَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ	مِنْ رَحِيقِ مَزَاجِهِ مُخْتَلَمٌ
جَاهُهُ كَامِلٌ بِبَيْرِ انْتِقَاصِ	أَحْمَدُ عِنْدَ رَبِّهِ ذُو اخْتِصَاصِ
وَشَفِيعٌ لِكُلِّ جَانٍ وَعَاصِي	عِلَّةُ الْمَسِيِّ يَوْمَ الْقِصَاصِ
فَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ	يَوْمَ يَخْفُو الْحَمِيمُ فِيهِ الْحَمِيمُ

يبيد حوائج الكل ^١ تُقضى	ويجازي الذي أجاز وأمضى
وينادي الحبيب أنت المرضى	سوف نمطيك ما تحب وترضى
فحكّم يضى لك التحكيم ^٢	فعليه الصلاة والتسليم ^٣
فاق بالمولد السعيد ربيع	إن فيه بدا الجلال الرفيع
من هو اللخر والعماد المنيع	فملاذ المدين شفيع
ورؤوف بالمؤمنين رحيم ^٤	فعليه الصلاة والتسليم ^٥
أفصح الناس في حديث وأبلغ	بين الوحي للأنام وبلغ
طيب الحل قد أباح وسوغ ^٦	ولكم ^٧ نعمة من الله سوغ ^٨
فإحصائه علينا عميم ^٩	فعليه الصلاة والتسليم ^{١٠}
كان بالحق ^{١١} والمهذب معروفا	أجود الناس بالندى موصوفا
شرف الله قدره تشريفا	هاديا مرشدا رسولا شريفا
مجده في العلاء مجد ^{١٢} صميم ^{١٣}	فعليه الصلاة والتسليم ^{١٤}
وجهه ^{١٥} بالبها أضاء وأشرق	مجده في صميمه الأصل أعرق ^{١٦}
مس ^{١٧} في كفه قضيا فأورق ^{١٨}	باصبح قد أشار للبدر فأنشق ^{١٩}
ثم ^{٢٠} قد عاد وهو بدر ^{٢١} سليم ^{٢٢}	فعليه الصلاة والتسليم ^{٢٣}
جاءه الوحي أنت خير الناس	بلغ الأمر لا تخف من باس
وخذ العفو للأنام وواس	واحمهم من مكائد الوسواس

١ هذا البيت واثنان بعده سقطت من ق .

فعلبك البلاغ والتعليم	فعلبه الصلاة والتسليم
كان في الله أثبت الناس جاشا	ليس من غيره يخاف ويخشى
فبكف من الحصى قل جيشا	وعيون العداة بالترب أعشى
فنج المصطفى وخاب الظلوم	فعلبه الصلاة والتسليم
قد سما قدره بغير تناهي	وعلا جاهه على كل جاه
أمر بالتقى عن الشر ناهي	من يطعمه ينل ثواب الإله
وله عنده النعيم المقيم	فعلبه الصلاة والتسليم
عمدة الخلق للمفاخر حاوي	بحماه يلوذ كل وياوي
مبلغ المعنى الذي هو ناوي	كيف يحصي ثناء أحمد راوي
وعليه أثنى الكتاب الحكيم	فعلبه الصلاة والتسليم
حسنه كالصباح بل هو أجل	وندى كفه من الشهد أحل
واعتلا قدره من السبع أعلى	مدحه في الكتاب ما زال يتلى
فله القدر والثناء العظيم	فعلبه الصلاة والتسليم
خصه الله من رسول نبي	في جميع الورى بقدر علي
وحباه منه بنور بهي	فهدي الخلق للصراط السوي
وصراط الهدى سوي قوم	فعلبه الصلاة والتسليم

[خاتمة الكتاب]

قال مؤلف هذا الكتاب العبد الفقير أحمد بن محمد المقرئ المالكي ، وفقه الله تعالى إلى حسن المتاب ، وحياه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعته المصطفى

الإصر والعتاب : هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل ، من هذا المقصد الجليل ، الذي يكون إلى ما وراه من الطَّرَف الأدبية خير دليل ، ووضعت القلب حليف شجن وغربة ، والفكر أليف حزن وكربة ، وأنا أسأل الله تعالى الذي لا يرجى سواه ، أن يجعل بناءه ثابتاً بحسن النية حيث البناء الذي فيه حظ النفس واه ، وأن يكون ما جلبته فيه من الهزل بالجلد المذكور فيه مكفراً ، وأن ينفع به من وجهه إليه وجهته ، فلاني قد جمعت فيه ما ينتثر جمعه في غيره وكل الصيد في جوف القرا .

يا مَنْ عليه اتكالي ومن إليه متاي
جَدُّ لي بعفوك عني إذا أعطتُ كتابي

واعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر ، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من البيان السحر ، وفيه من حكايات الأولياء والعلماء ، ما نظمت في لبة السطور منه السلوك . وفيه من الوعظ والاعتبار ، ما لم ينكره المنصف عند الاختيار ، وكفاه أنه لم يَر مثله في فنه فيما علمت ، ولا أقوله تزكية له ، ويعلم الله تعالى أنني تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت ، ولو لم يحز من الشرف إلاّ ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة ، ذات الظلال الوريقة ، لكان كافياً شافياً ، وها أنا أجعل آخره تنبيهاً لليب ، قول ابن حبيب :

يا خسيرَ مبعوثٍ له طلعةٌ نورُ الهدى منها أقرُّ الميون
جئتُ إلى نادبك أرجو القيرى من غيثِ كَفَيْكَ المغيثِ المَتون
كنْ لي شقيقاً فارتكأُ الهوى أوقعني بين الشجَا والشجون
صلّى عليكَ الله سبحانهُ ما هزّتِ الريحُ قُلوْدَ الفصون

وقول التواحي :

لقد أفرطتُ في حسنِ ابتداءٍ ورمتُ تخلّصي يومَ الزحامِ
فبالمختارِ أرجو عفوَ ربّي ليرشدني إلى حسنِ الختامِ

محتويات المجلد السابع

الباب الخامس

(تكملة)

موشحات لسان الدين ٩٦-٩٧

٥	[فصل في تاريخ الموشحات والأزجال من ابن خلدون]
١٧	[ترجمة ابن باجة من الثلاث]
٢٤	[ثناء الفصح على ابن باجة في مصدر آخر]
٢٦	[ترجمة محمد بن أحمد بن أليخاند الوادي آخي]
٢٧	[رجع إلى اختيار ابن باجة]
٢٩	[ترجمة الفصح بن علقان عن الإحاطة]
٢٢	[ترجمة الفصح بن علقان عن المغرب]
٢٦	[رسائل الفصح بن علقان]
٦٠-٢٨	[نماذج من تراجم المصنف]
٢٨	١ - أبو بكر الزبيدي
٤٠	٢ - عز النبوة ابن صمدح
٤٣	٣ - رفيع النبوة ابن صمدح
٤٥	٤ - أبو الوليد ابن حزم
٤٦	٥ - أبو بكر النساني
٤٦	٦ - أبو طاهر ابن عقاب
٤٨	٧ - أبو مروان الطنجي
٤٩	٨ - أبو نصر أحمد بن عبد ربه
٥٣	٩ - أبو القاسم المنشي

٥٥	١٠ - أبو الحسن البرقي
٥٧	١١ - أبو الحسن علي بن جودي
٦٠	نص خطبة «الطرح»
٦١	عود إلى الموشحات
٦١	[موشحة ابن سهل ومعارفان لها]
٦٥	رجع إلى موشحات ابن الخطيب
٦٩	[موشحة لأبي الفضل ابن عبد السقاء]
٧٠	[موشحة لبعض المراكشيون]
٧٢	[موشحة السلطان المنصور النحسي]
٧٢	[موشحة أخرى المنصور النحسي]
٧٤	[من مقطعات المنصور]
٨٧	رجع إلى التوشيح
٨٧	[موشحة لبعضهم في ملح القرني]
٨٩	رجع إلى موشحات لسان الدين
٨٩	[موشحة لابن نباتة]
٨٨	[موشحة الجلي]
٨٨	[موشحة لقرني عارضها البلي]
٨٩	[موشحات لشهاب النوازي]
٩٤	[موشحة لموسى]
٩٥	[موشحة لابن بقي]

الباب السادس

١٤٤ - ٩٧	في مصنفاته ومؤلفاته
٩٧	سرد أسماء مؤلفات لسان الدين في الإحاطة
٩٩	ما تأثر تاريخه عن الإحاطة
١٠٢	معلومات عن كتب الإحاطة

١٠٨	[ترجمة ابن الحاج النويري]
١٢١	[قصائد في ملح تلمسان وفاس]
١٢١	قصيدة لمحمد بن يوسف النفري في ملح تلمسان
١٢٣	« لالين آجروم في ملح فاس
١٢٥	« النفري في ملح تلمسان
١٢٥	« النفري في ملح تلمسان أيضاً
١٢٨	« المزديني في ملح فاس
١٢٩	« السان اللين في ملح تلمسان
١٢٩	« التلاتي في ملح تلمسان
١٣١	« لالين عيسى في ملح تلمسان
١٣٣	[تعريف بتلمسان]
١٣٦	[ترجمة أبي ملعين]

الباب السابع

١٤٥ - ٢٨٨ . . . في ذكر بعض تلامذته

١٤٥	١ - أبو عبد الله ابن زمرك - ترجمته عن الإحاطة
١٦٠	[تلميحات ابن لسان الدين على الترجمة]
١٦٢	[ترجمة ابن زمرك من كتاب البقية والمذكور لابن الأحمر]
١٧١	[فيه من نظمه منقول من الكتاب المذكور]
٢٤٠	[موشحات ابن زمرك]
٢٦٦	[ترجمة الولي أبي التماس السبي]
٢٧٩	رجع إلى ابن زمرك
٢٨١	٢ - ابن المهنا الطيب العالم
٢٨٢	٣ - أبو بكر ابن جزى
٢٨٢	٤ - أبو عبد الله الشريف
٢٨٢	٥ - أبو محمد عطية بن يحيى المحاربي

الباب الثامن

٢٨٩ - ٥١٩ في ذكر أولاده

٢٩٠	ترجمة عبد الله بن لسان الدين قلاّ من الإحاطة .
٢٩٩	أشعار لسان الدين في غزاية ابنه عبد الله
٣٠١	علي بن لسان الدين وتلقياته على الإحاطة .
٣٠٢	[فناج من تلقياته في ترجمة ابن جابر]
٣٠٣	[رجع لتكميل ترجمة ابن جابر عن الإحاطة]
٣٠٥	[استيراد بأشعار ابن جابر]
٣٢٢	[تصديقه في الثورية بسور القرآن]
٣٢٦	[معارفاته لتصديقه في السور]
٣٣٣	[خطبة مدحوية لنفاض يوري فيها بأسماء السور]
٣٣٥	[خطبة على حلالا للطنجالي]
٣٣٧	[عود إلى نظم ابن جابر]
٣٣٩	رجع إلى أولاد لسان الدين
٣٤٠	[خطبة للكفسي في تفسين أسماء السور]
٣٤١	[تصديقه مشايخ الكفسي]
٣٤٢	[ترجمة الكفسي]
٣٤٧	[رجع إلى نظم ابن جابر]
٣٤٧	[من شعر رفيق ابن جابر]
٣٤٩	[عود إلى شعر ابن جابر]
٣٧١	[من شعر رفيق ابن جابر]
٣٧٧	رجع إلى أولاد لسان الدين - رسائل لعلي
٣٩١	وصية لسان الدين لأولاده

٤٠٦	[وصية لابن الجنان على لسان ابن هود]
٤١٥	[ترجمة ابن الجنان]
٤٣٢	[مختصات من المفاتيح النبوية لابن الجنان وغيره]
٤٥٩	[ملائح أخرى مقولة من منتهى السؤل]
٤٧٠	[مسلسلات في مدح الرسول]
٤٨٨	[قصائد ومقطعات في مدح الرسول أيضا]
٥١٢	[سبعة المنتشأري في ملك الختام]
٥١٧	خاتمة الكتاب

Abu'l-'Abbās A. al-Maqqarī

NAFH AT-TĪB

VII

Edited and Annotated

by

Ihsan 'Abbās, Ph. D.

Dar SADER

P.O.B. 19

BEIRUT, Lebanon

